الباب الرابع والثلاثون

انتقال المعـــارف

١٠٠٠ – ١٣٠٠

الفصل الأول

نشأة اللغات القومية

حافظت الكنيسة إلى حد ما على وحدة أوربا الغربية التي حققتها الدولة الرومانية وحافظت كذلك شعائرها وعظاتها ومدارسها على تراث روماني لم يبق له وجود في هذه الأيام – هو لغة دولية يفهمها جميع السكان المتعلمين في إيطاليا ، وأسپانيا ، وفرنسا ، وإنجلترا ، واسكنديناوة ، والأراضي الوطيئة ، وألمانيا ، وپولندة ، وبلاد المجر ، وبلاد البلقان الغربية . لقد كان المتعلمون من أهل تلك البلاد يستخدمون اللغة اللاتينية في مراسلاتهم ، وفي سجلات أعمالهم التجارية والمالية ، والدپلوماسية ، وفي القانون والأعمال الحكومية ، وفي العلم والفلسفة ، وفي آدابهم كلها تقريباً قبل القرن الثالث عشر . وكانوا يتكلمون اللغة اللاتينية على أنها لغة حية ، تشتق في كل يوم كلمة أو عبارة جديدة للدلالة على الحقائق أو الأفكار الجديدة أو المتغيرة في حياتهم ؛ وكانوا يكتبون رسائل باللاتينية من أبسط خطابات الحب إلى الرسائل الفصحى الطويلة المتبادلة بين هلواز وأبلار(*) Héloïse and Abélard . ولم يكن الكتاب يؤلف لأمة بل لقارة ، ولم يكن في حاجة

(*) انظر هذه الرسائل وقصتها في كتابنا « أشهر الرسائل العالمية » . (المترجم)

إلى ترجمة بل كان ينتقل من قطر إلى قطر بسرعة وحرية غير معروفتين في هذه الأيام . كما كان الطلاب ينتقلون من جامعة إلى جامعة دون أن تصادفهم عقبات اللغة ، وكان في وسع العلماء أن يحاضروا باللغة نفسها في بولونيا ، وسلمنقة ، وباريس ، وأكسفورد ، وأپسالا Uppsals ، وكولوني . ولم يكونوا يترددون في استعارة كلمات جديدة وضمها إلى اللغة اللاتينية ، وإن كان ذلك يزعج في بعض الأحيان الآذان التي اعتادت سماع لغة پترارك وشيشرون . وهكذا يستخدم العهد الأعظم الإنجليزي Magna Carta لفظي dessaisiatus و imprisonatus حين يقول إنه لا يصح أن « يقبض » على رجل حر أو « يسجن » . وأمثال هاتين الكلمتين ثقيلة الوقع على آذاننا ، ولكنها قد أبقت اللغة اللاتينية حية ؛ وإن كثيراً من الألفاظ الإنجليزية الحديثة — مثل instance ، و substantive, و esssence و entity(*) — لتنحدر من الكلمات التي أضيفت إلى اللغة اللاتينية في العصور الوسطى .

غير أن انفصام الصلات الدولية الذي أدى إليه سقوط رومة ، وانتشار الفاقة في العصور المظلمة انتشاراً أدى إلى انطواء الناس على أنفسهم ، وفساد الطرق وكساد التجارة ، كل هذا أوجد في الكلام تلك الاختلافات التي ما لبثت أن اتسعت بسبب عزلة المتحدثين بها بعضهم عن بعض . بل إن اللغة اللاتينيه كانت تعاني في أوج عزها بعض التغيرات القومية الناشئة من اختلاف المناخ وأساليب المنطق المترتبة على تركيب أعضائه . وكانت قد تبدلت في موطنها الأصلي نفسه . وكان موت الأدب قد أفسح الميدان لمفردات الرجل العامي وتراكيب جمله ، وهي مفردات وتراكيب كانت تختلف دائماً عن أقوال الشعراء والخطباء . وجاء تدفق الألمان ، والغاليين ، واليونان ، والأسيويين على إيطاليا باختلافات كثيرة في النطق ، وتخلص اللسان والعقل الكسولان بفطرتهما مما في الحديث الفصيح

(*) ومعناها المِثْل ، والاسم (في النحو) ، والجوهر ، والكيان . (المترجم)

الدقيق من علامات التصريف والإعراب فأضحى حرف H لا ينطق به فى اللغة اللاتينية المتأخرة ، وبعد أن كان حرف V ينطق به فى اللغة الفصحى كما ينطق بحرف W فى اللغة الإنجليزية أصبح ينطق به كما ينطق بحرف V الإنجليزى . وامتنع النطق بحرف N قبل S فكلمة mensa (المائدة) أصبح ينطق بها nesa ، وتغير النطق بالحرفين المتصلين Æ و Œ وكان ينطق بهما فى اللغة الفصحى كما ينطق بحرف I ، OI فى ا للغة الإنجليزية فأصبح ينطق بهما كحرف A الإنجليزى الطويل أو حرف E الفرنسى . ولمـــا كانت الحروف الساكنة فى آخر الكلمات قد مضغت أو نسيت (portus, porto, porte ؛ rex, re,roi ؛ Coelum, cilo, ciel) فقـــد اقتضى ذلك أن تستبدل حروف الجر بعلامات الإعراب فى الأسماء ، وبعلامات التعريف فى أواخر الكلمات أفعال مساعدة . وتبدل أسماء الإشارة القديمان ille ، و illa فأصبحا هما أدوات التعريف il ، el ، lo ، le ، la ؛ واقتضب لفظ unus (واحد) اللاتينى ليكون أداة التنكير un . ولما انعدم تصريف الأسماء صار من الصعب أحيانا أن يعرف هل الاسم فاعل أو مفعول قبل الفعل أو بعده . وإذا ما تدبر الإنسان هذه العملية — عملية التبدل المستمر الممتد طوال عشرين قرنا من الزمان جاز له أن يقول إن اللغـــة اللاتينية لا تزال هى اللغة الحية الأدبية فى إيطاليا ، وفرنسا وأسبانيا ، لم تتغير عن لغة شيشرون إلا بقدر ما تغيرت لغته هو لغة رميولوس أو لغتنا نحن(*) عن لغة تشوسر .

وكانت أسپانيا قد بدأت تتكلم اللاتينية منذ عام ٢٠٠ ق . م لا بعد ، وما وافى عهد شيشرون حتى اتسعت الهوة بينها وبين لاتينية رومة اتساعا روع شيشرون لما بدا له من رطانة قرطبة البربرية . وكان اتصال هذه اللغة اللاتينية بلهجات أيبيريا سبباً فى ترقيق الحروف الساكنة اللاتينية فى أسپانيا : فرقت T إلى D ، P إلى B ، و K إلى G ؛ فـ Totum أصبحت todo ، و operan

(*) لغة الأمريكيين والإنجليز . (المترجم)

أصبحت obra ، و ecclesia أصبحت iglesia . كذلك رققت اللغة الفرنسية الحروف الساكنة اللاتينية ، وكثيراً ما أسقطتها فى النطق وإن ظلت محتفظة بها فى الكتابة : tout ، oeuvre ، église ، est . ونطق بالقسم الذى أقسمه لويس الألمانى Louis the German . وشارل الجسور بلغتين هما الألمانية والفرنسية(*) — الفرنسية التى كانت لا تزال لاتينية إلى حد سميت معه اللغة الرومانية lingua romana ، ثم انقسمت هذه اللغة الرومانية إلى ما سمته فرنسا لغتين : langue d'oc وهى لغة فرنسا الواقعة فى جنوب نهر اللوار و langue d'oïl وهى لغة فرنسا الشمالية(**) : فلقد كان من عادات العصور الوسطى التفريق بين اللهجات بالطريقة التى ينطقون بها اللفظ المقابل للفظ « نعم » العربى ؛ فأهل فرنسا الجنوبية كانوا يعبرون عنه بلفظ oc المشتق من اللفظ اللاتينى hoc ومعناه هذا ، أما أهل الشمال فكانوا يستعملون لفظ oïl وهو مزيج من اللفظين اللاتينيين hoc ille ، أى هذا — ذاك : وكان لفرنسا الجنوبية لهجة من لهجات اللانج دك تسمى البروڤنسال أضحت فيما بعد لغة أدبية مصقولة على أيدى الشعراء الغزلين ، ولكن الحروب الصليبية الألبجنسية كادت تقضى على هذه اللغة .

وكونت إيطاليا لغتها القومية ببطء أكثر مما تكونت به لغتا أسبانيا وإيطاليا . ذلك أن اللاتينية كانت لغتها الوطنية ، وأن رجال الدين ، وهم الذين كانوا يتكلمون اللغة اللاتينية ، كانوا كثيرى العدد فى إيطاليا ، وأن استمرار

(*) وتدل الثلاثة السطور الأولى من هذا القسم على البطء الذى نشأت به اللغتان الفرنسية والألمانية ، "Pro Deo amur et pro Christian poblo et notre Commun salvament dist di in avant, in qnant Deus savir et podir me punt". "In Gedes min a ind in these Christian folches unser bedhero gealnissi, fon thesemo dage frammordes, so frame so mir Got gewizci indi madh forgibit"

وترجمتها العربية هى : حبا فى الله ، ولخير الشعب المسيحى ، ولنجاتنا جميعا ، ومن هذا اليوم إلى ما بعده ، بقدر ما يهبنى الله من الحكمة والقوة » .

(**) معنى اللفظين oc و oïl كليهما « نعم أو هذا » وكل الفرق هو فى طريقة النطق باللفظ الذى يحمل هذا المعنى . (المترجم)

ثقافتها ومدارسها منع اللغة أن تتغير بنفس اليسر والتحرر اللذين تغيرت بهما فى بلاد ذات تقاليد متقطعة غير متصلة .

ولقد كان القديس أنطونيوس أحدُ رجال الدين فى پدوا فى ذلك العام المتأخر عام ١٢٣٠ يخطب العامة باللغة اللاتينية ؛ بيد أن عظة لاتينية ألقاها فى پدوا نفسها عام ١١٨٩ أسقف لاتينى زائر كان لا بد أن يترجمها إلى اللغة الدارجة أسقف من أساقفة تلك المدينة[٢] . ولم يكد يكون للغة الإيطالية وجود فى بداية القرن الثالث عشر ؛ وكل ما كان فى إيطاليا فى ذلك الوقت نحو أربع عشرة لهجة ، كانت هى استمراراً وتحريفاً متنوعاً للهجات السوقة لا تكاد إحداها يفهمها الباقون الذين لا ينطقون بها ، وتعتز كل منها بما بينها وبين غيرها من فروق اعتزازاً مبعثه العنصرية العارمة ؛ وكان لكل حى من الأحياء المختلفة فى المدينة الواحدة — كمدينة بولونيا — فى بعض الأحيان لهجة مختلفة . لهذا كان لزاماً على أسلاف دانتى أن يخلقوا لغة ، كما كان عليهم أن يخلقوا أدباً . ولقد حسب الشاعر فى أحد أخيلته الظريفة أن الشعراء الغزلين التسكانيين اختاروا أن يكتبوا شعرهم باللغة الإيطالية لأنهم كانوا يكتبون فى الحب ، ولأن السيدات اللائى كن يخاطبونهن قد لا يفهمن اللغة اللاتينية[٣] . غير أنه مع هذا تردد فى عام ١٣٠٠ بين اللغة اللاتينية واللهجة التسكانية أيهما يختار لكتابة **الملهاة الإلهية** . وكان الفارق البسيط بين اللغة التى اختارها والتى لم يخترها هو الذى أنجاه من النسيان .

وبينا كانت اللغة اللاتينية تنقسم وتتولد منها اللغات الرومنسية ، كانت اللغة الألمانية القديمة تتفتت هى الأخرى إلى اللغة الألمانية الوسطى ، واللغة الفريزية ، والهولندية ، والفلمنكية ، والإنجليزية ، والدنمرقية ، والسويدية ، والنرويجية والأيسلندية . وليست عبارة « الألمانية القديمة » إلا تعبيراً سهلا يشمل اللهجات الكثيرة التى كانت تفرض سيادتها القبلية أو الإقليمية فى ألمانيا قبل عام ١٠٥٠ :

وهى اللهجات الفلمنكية ، والهولندية ، والوستفالية (الغالية الغربية) والإبستقالية (الغالية الشرقية) والألمانية Allemanic ، والباقارية ، والفرنكونية ، والثورنجية ، والسكسونية ، والسيكيزية . . . . وتطورت اللغة الألمانية القديمة إلى الألمانية الوسطى (١٠٥٠ — ١٥٠٠) وكان من أسباب هذا التطور تدفق الكلمات الجديدة التى جاءت مع الدين المسيحى . ذلك أن الرهبان القادمين من أيرلندة ، وإنجلترا ، وفرنسا ، وإيطاليا جدوا فى وضع المصطلحات التى كانوا فى حاجة إليها لترجمة الألفاظ اللاتينية . فكانوا فى بعض الأحيان يدخلون كلمات لاتينية بنصها إلى اللغة الألمانية — مثل Kaiser (قيصر) و Prinz (أمير) و Legende (قصة) ؛ وتلك لصوصية مشروعة ؛ لكن كان من المآسى تأثير التركيب اللاتينى للجمل كتأخير الفعل إلى آخر الجملة — فقد أحل الوقفات الجامدة المقلوبة القاطعة للأنفاس التى نراها فى الأسلوب الألمانى المتأخر محل التراكيب السهلة التى كانت من خصائص لغة الشعوب الألمانية[٤] . ولعل أجمل اللغات الألمانية كانت هى اللغة الألمانية العليا الوسطى التى كتب بها الشعراء العظام فى القرن الثالث عشر — ولتر ڤن در ڤو جلويد Walter vsn der Vogelweide ، وهارتمـــان ڤن أوى Hartman von Aue ، وجتفرايد الاسترسبرجى Goufried of Strassbourg ، و ولفرام ڤن اسشنباخ Wolfram von Eschenbach ؛ ولم تعد اللغة الألمانية إلى مثل هذه البساطة والمرونة ، والوضوح ، والقصد مباشرة إلى المعنى المطلوب إلا على يد هين Heine وجيتة الشاب .

وانتقل اللسان التيوتونى إلى انجلترا فى القرن الخامس مع الإنجليز ، والسكسون والچوت ، وكان هو أساس اللغة الإنجليزية الحاضرة . فهو الذى حباها بكل ما تنطوى عليه تقريباً من كلمات قصيرة طلية . ثم طغت اللغة الفرنسية على البلاد حين أقبل عليها النورمان ، وسيطرت على البلاط ، والمحاكم ، والأشراف من عام ١٠٦٦ إلى ١٣٦٢ ، وإن ظلت اللاتينية اللغة السائدة فى

الدين والتعليم ، وبقيت (إلى عام ١٣٧١) واجبة الوثائق الرسمية ؛ ودخلت آلاف الكلمات الفرنسية فى اللغة الإنجليزية ، وبخاصة فى الثياب ، والطهو ، والقانون ؛ حتى أصبحت نصف المصطلحات فى القانون الإنجليزى فرنسية(٥) ؛ وظلت آداب فرنسا وإنجلترا مدى ثلاثة قرون آداباً واحدة ؛ كما ظلت الرسائل الإنجليزية فى روحها ولغتها حتى زمن تشوسر لا قبل (١٣٤٠ — ١٤٠٠) نصف فرنسية . ولما فقدت إنجلترا أملاكها فى فرنسا عادت إلى الانطواء على نفسها ، وانتصرت العناصر الأنجليسكسونية فى اللسان الإنجليزى ؛ ولما زالت السيطرة الفرنسية من البلاد ، كانت اللغة الإنجليزية قد اغتنت غناء لا حد له ؛ فقد استطاعت بما أضيف إلى أصلها الألمانى من ألفاظ فرنسية ولاتينية ، أن تعبر عن كل فكرة من آلاف الأفكار المختلفة بثلاثة تعبيرات مختلفة (kingly, royal بمعنى ملكى ؛ towfold, double, duplex بمعنى مزدوج ؛ daily, Journal, diurnal بمعنى يومى ؛ . . .) . وإلى هذا يرجع غناها بما فيها من مترادفات تميز بها الفروق المختلفة فى المعانى والاختلافات الدقيقة فى ألفاظ الحديث . ومن يعرف تاريخ الألفاظ يعرف التاريخ كله .

الفصل الثاني

عالم الكتب

وكيف كانت تكتب هذه اللغات المختلفة ؟ لقد استعمل البرابرة بعد أن سقطت رومة في أيديهم عام ٤٧٦ الحروف الهجائية اللاتينية ، وكتبوها كتابة « جارية » ، ربطوا فيها الحروف بعضها ببعض ، وخلعوا على معظمها شكلا دائريا بدل الحروف المعتدلة التي كانت سهلة الاستعمال في الكتابة على السطوح الصلبة كالحجارة أو الخشب . وكانت الكنيسة في تلك القرون تفضل الكتابة ذات الحروف « الكبيرة » لتسهل بذلك قراءة كتب القداس وكتب الصلوات . ولما عمل النساخون في عهد شارلمان على حفظ الآداب اللاتينية بنسخ عدة كتب من الآداب القديمة ، استخدموا في عملهم هذا كتابة ذات حروف « صغيرة » ، واتفقوا على صور معينة لهذه الحروف ، فأوجدوا بذلك « الحروف الصغيرة المقررة » التي ظلت أربعة قرون الطريقة العادية التي تكتب بها نسخ العصور الوسطى . وكأنما أريد أن تتمشى هذه الحروف مع الزخارف الخصيبة التي أخذت تنمو في العمارة القوطية فأضيفت إليها شرط تزينها ، وخطوط شَعْرية رفيعة ، وزوائد معقوفة ، فأصبحت هي الحروف « القوطية » التي ظلت منتشرة في أوربا إلى عهد النهضة ، وفي ألمانيا حتى يومنا هذا . ولم توضع علامات الترقيم إلا في عدد قليل جداً من مخطوطات العصور الوسطى ؛ لأن هذه الوسيلة التي ترشد القارئ إلى حيث يلتقط نَفَسه قد ضاقت في أثناء الغوص التي صحبت غارات البرابرة ، ثم عادت إلى الظهور في القرن الثالث عشر ولكنها لم يعم استعمالها حتى قررتها الطباعة في القرن الخامس عشر . وكانت الطباعة قد أعدت عدتها إلى حد ما في عام ١١٤٧ لا بعد وذلك باستعمال القطع الخشبية . وبدأ ذلك في أديرة

بلاد الرين لطبع الحروف الأولى أو الرسوم على المنسوجات[٦] . وكانت أشكال كثيرة من الاختزال تستخدم فى تلك الأيام ، وكلها أحط كثيراً من « العلامات التيرونية » التى توصل إليها أرقاء شيشرون .

وكانوا يكتبون على الجلد السميك ، وأوراق البردى ، والجلد الرقيق أو الورق ، بريش الطير ، أو بأقلام الغاب ، ويستخدمون لذلك مداداً أسود أو ملوّناً . واختفى البردى من الاستعمال العام فى أوربا بعد فتح العرب مصر . وكان الرق المتخذ من جلد الخراف الصغيرة غالى الثمن ، وكان لذلك يُدخر للمخطوطات المترفة ، أما الرق المتخذ من جلد الضأن السميك فكان هو المادة المعتادة للكتابة عليها فى العصور الوسطى . وظل الورق مادة غالية الثمن تستورد من بلاد الإسلام ، ولكن مصانع أقيمت لصناعته فى ألمانيا وفرنسا فى عام ١١٩٠ ، وشرعت أوربا فى القرن الثالث عشر تصنع ورقاً من الكتان .

وكانت كثير من الرقوق يُمحى ما عليها من مخطوطات قديمة ليكتب عليها كتاب جديد ، وكان يُطلق على هذه الرقوق اسم خاص هو palimsest ومعناه « الممحو مرة ثانية » . وقد فقدت كثير من الكتب القديمة بهذا المحو ، وبالوضع الخاطئ للمخطوطات ، وبالحرب والنهب ، والحريق والتلف . فقد نهب الهون مكاتب الأديرة فى باڤاريا ، ونهب أهل الشمال مكاتبها فى فرنسا ؛ وتلفت كثير من الكتب اليونانية حين نُهبت القسطنطينية فى عام ١٢٠٤ . وكانت الكنيسة فى بادئ الأمر تعارض فى قراءة الكتب الوثنية القديمة ؛ وقامت أصوات مرتاعة فى كل قرن تقريباً تندد بهذه الكتب ، منها أصوات جريجورى الأول ، وإزدور الأشبيلى ، وبطرس دميان . ودمر توفيلس كبير أساقفة الإسكندرية كل ما وجده من المخطوطات الوثنية ؛ كما أقنع القساوسة اليونان ، على حد قول دمتريوس كلكنديلاس Demetrius Chalcondylas[٧] ، أباطرة الروم بإحراق جميع مؤلفات الشعراء الغزلين ومنهم سافو وأنكريون . غير أنه

كان فى هذه القرون نفسها كثيرون من رجال الدين المولعين بالكتب الوثنية القديمة والحريصين على الاحتفاظ بهذه الكتب . وكانوا فى بعض الحالات يفلون سلاح النقد الموجه إليهم بتفسير معنى الشعر الوثنى تفسيراً يتضمن أعظم العواطف المسيحية ؛ واستطاعوا بطريق الاستعارات الظريفة أن يحولوا شعر أوفد الغرامى إلى شعر يحض على مكارم الأخلاق . وكذلك احتفظ النساخون فى الأديرة بقسم كبير من التراث الأدبى القديم[٨] ؛ وكان يقال للرهبان إذا تعبوا إن الله سيغفر لهم ذنباً من ذنوبهم نظير كل سطر ينسخونه ، ويحدثنا أردركس ڤيتالس Ordericus Vitalis أن أحد الرهبان نجا من الجحيم وكان على قيد شعرة منها بحرف واحد نسخه[٩] . ويلى الرهبان وحدهم فى نسخ المخطوطات القديمة الكتبة الخصوصيون أو المحترفون الذين يستخدمهم الأغنياء أو بائعو الكتب أو الأديرة نفسها . وكان عمل هؤلاء النساخين مجهداً مملا جعلهم يدوّنون على الصفحات الأخيرة من المخطوطات المنسوخة مطالب غريبة كقول أحدهم :

بهذا يتم جميع الكتاب

فبحق المسيح هات لى جرعة

وظن كاتب آخر أنه خليق بأكثر من هذا فكتب فى آخر مخطوطه تلك الخاتمة : « فليجز الكاتب على (عمل قلمه) بفتاة جميلة »[١٠] .

ولم تفرض كنيسة العصور الوسطى رقابة منظمة على نشر الكتب ؛ فإذا تبين أن كتاباً ما مناقض للدين ، وكان فى الوقت نفسه ذا تأثير قوى ككتاب أبيلار عن التثليث استنكره مجلس من مجالس الكنيسة ولكن عدد الكتب كان وقتئذ أقل من أن يكون شديد الخطر على الدين القويم ؛ وحتى الكتاب المقدس نفسه كان نادر الوجود فى خارج الأديرة ، فقد كان نسخُه يحتاج إلى عام كامل ، وشراؤه يحتاج إلى إيراد قس أبرشية ؛ ولهذا قل من رجال الدين من

كان يمتلك نسخة كاملة منه [١٢] . غير أن كتاب العهد الجديد وأسفاراً خاصة من العهد القديم كانت أوسع منه انتشاراً . وأخرجت فى القرن الثانى عشر نسخ من الكتاب المقدس ضخمة الحجم ، فخمة الزخرف ؛ ولم يكن يستطاع استعمال هذه الكتب إلا على مكتب ، وكان ذلك عادة فى مكتبة الدير ، وكانت فى بعض الأحيان تشد إلى المكتب بسلسلة للمحافظة عليها . وقد روعت الكنيسة حين وجدت الولدنسيين والألبيچنسيين ينشرون ويوزعون تراجمهم هم للكتب المقدسة ، ولهذا حرم مجلس من مجالس الكنيسة عقد فى نربونه (١٢٢٧) على غير رجال الدين أن يكون لديهم أى جزء من الكتب المقدسة ؛ ولقد تحدثنا عن هذا من قبل[١٣] . ولكن يمكن القول بوجه عام إن الكنيسة لم تكن قبل القرن الرابع عشر تعارض فى أن يقرأ الكتاب المقدس غير رجال الدين ؛ وإن لم تكن تشجع هذه القراءة لأنها لم تكن تثق بتفسير العامة لأسرار الكتب الدينية .

وكان حجم الكتاب وعدد صفحاته يحددهما ما يستطاع وجوده من الجلود ، وكان كل جلد منها يطبق لتتكون منه « ملزمة » ، ولم تكن الكتب بعد القرن الخامس تصدر فى صورة ملفات كما كانت تصدر فى العهود القديمة(*) ، بل كانت الجلود تقطع قطعاً مستطيلة لتكون ملازم من أربع أوراق ، أو ثمان ، أو اثنتى عشرة ورقة أو ست عشرة . وكانت ملازم مكونة من ست عشرة ورقة تضم مؤلفات طويلة فى كتب صغيرة الحجم توضع فى الجيب لتكون سهلة الاستعمال وكانت تغلف أحياناً بالرق السميك أو القماش ، أو الجلد المدبوغ ، أو الورق المقوى . وكان الغلاف المصنوع من الجلد يزخرف أحياناً بأن تطبع

(*) وظل كثير من السجلات الحكومية يكتب فى ملفات ؛ حتى أن « أنابيب الملفات » كانت تستعمل فى إنجلترا من عام ١١٣١ إلى عام ١٨٣٣ . وكان المكلف بالمحافظة على هذه السجلات يسمى صاحب الملفات » .

عليه رسوم غير ملونة بقوالب من المعدن المحمى . وجاء الفنانون المسلمون الذين استقروا فى البندقية إلى أوربا بفن ملء هذه الأجزاء المنخفضة من الغلاف بألوان ذهبية . أما الغلاف الخشبى فقد كان يزخرف أحياناً بالميناء أو العاج المحفور ، أو يطعم بالذهب أو الفضة أو الجواهر . وكان مما عابه القديس چيروم على الرومان قوله : « إن كتبكم مطعمة بالحجارة الثمينة ، مع أن المسيح مات عارياً ! »(١٤) وقل أن يوجد من الكتب الحديثة ما يضارع التجليد الفخم الذى حليت به كتب العصور الوسطى .

وكانت الكتب البسيطة نفسها من مواد الترف . فقد كان الكتاب العادى غير المزخرف يكلف مقتنيه ما بين ١٦٠ دولاراً ومائتى دولار من نقود الولايات المتحدة الأمريكية حسب قيمتها فى عام ١٩٤٩(١٥) . وحسبنا شاهداً على هذا أن أحد زعماء حركة إحياء الآداب القديمة فى القرن الثانى عشر وهو برنار من أهل شارتر قد خلف مكتبة لا تزيد مجلداتها على أربعة وعشرين مجلداً . وكانت إيطاليا أغنى بالكتب من فرنسا ، ولهذا جمع أكرسيوس Accursius الأكبر عالمها القانونى الشهير ثلاثة وستين كتاباً . ونسمع عن نسخة عظيمة من الكتاب المقدس بيعت بعشر وزنات — أى بما لا يقل عن ١٠,٠٠٠ دولار ، وعن كتاب للصلوات استبدلت به كرمة ؛ وعن مجلدين من مؤلفات برشيان Prescian أحد النحاة فى القرن الخامس بيعاً ببيت وأرض(١٦) . وعاق غلو الكتب قيام تجارة بائعيها حتى القرن الثانى عشر ؛ حين استأجرت مدن الجامعات رجالا من الوراقين وأصحاب المكتبات لينظموا جماعات من النساخين ينسخون الكتب للمدرسين والطلاب ، وكان هؤلاء الرجال يبيعون نسخاً منها لكل من يعنى بأداء أثمانها . ويبدو أنهم لم يدر قط بخلدهم أن يؤدوا شيئاً من المال لمؤلف حى . وإذا أصر رجل ما على أن يؤلف كتاباً جديداً ، كان عليه أن يؤدى نفقة كتابته ، أو يبحث عن ملك ، أو نبيل ، أو ثرى ينفحه بهبة من المال نظير إهدائه

الكتاب أو الثناء عليه فيه . ولم يكن فى وسعه أن يعلن عن كتابه إلا شفويا ، كما لم يكن فى وسعه أن ينشره — أى يذيعه على الجمهور — إلا بالعمل على أن يستخدم فى إحدى المدارس أو أن يتلى أمام من يستطيع جمعهم من المستمعين . وبهذه الطريقة قرأ چرالد من أهل ويلز حين عاد من أيرلندة فى عام ١٢٠٠ كتابه فى تخطيط هذا القطر Topgraphy على جمعية فى أكسفورد .

وأدى ارتفاع أثمان الكتب ، وقلة الأموال اللازمة لإنشاء المدارس إلى انتشار الأمية إلى حد لو أنه وجد فى بلاد اليونان أو الرومان الأقدمين لخجلهم العار . فقد كانت معرفة القراءة والكتابة قبل عام ١١٠٠ فى البلاد الواقعة شمال جبال الألب تكاد تكون مقصورة على « خدم الدين » — وهم رجال الدين ، والحسبة ، والكتبة ، وموظفو الحكومة ، وأصحاب المهن . وما من شك فى أن رجال الأعمال كانوا فى القرن الثانى عشر ممن يعرفون القراءة والكتابة ، لأنهم كانوا يحتفظون بحسابات دقيقة محكمة . وكان الكتاب فى المنزل تحفة ثمينة ؛ وكان فى العادة يقرأ بصوت عال إلى عدد من المستمعين ؛ وقد وضع الكثير من قواعد الترقيم والأسلوب فيما بعد لتيسير القراءة الشفوية ؛ وكان يعنى كل العناية بتبادل الكتب بين الأسر بعضها وبعض ، وبين مختلف الأديرة ، والأقطار .

وكانت دور الكتب كثيرة العدد وإن قل حجمها . وكان القديس قد قرر أن يكون لكل دير بندكتى مكتبة ؛ وكانت بيوت الكارثوزيين والسسترسيين تجد فى جمع الكتب رغم كراهية القديس برنار للعلم ، كذلك كان لكثير من الكتدرائيات — أمثال كتدرائيات طليطلة ، وبرشلونة ، وبامبرج Bamberg وهلدسهايم Hildesheim — مكتبات كبيرة ؛ فكان فى كنيسة كنتربرى مثلا ٥٠٠٠ كتاب فى عام ١٣٠٠ ، ولكن هذا مثل نادر لا يقاس عليه[١٧]، أما معظم المكتبات فكان فى الواحدة منها ما يقل عن مائة كتاب ؛ وكان فى مكتبة كلونى وهى من أحسن المكتبات ٥٧٠ مجلداً[١٨] . وكان عند مانفرد ملك

صقلية مجموعة قيمة انتقلت إلى البابوية وأضحت نواة مجموعة الفاتيكان اليونانية . وقد بدأت المكتبة البابوية فى عهد البابا دمسوس Damasus (٣٦٦ — ٣٨٤) ، ثم فقدت مخطوطاتها الثمينة ومحفوظاتها القيمة فى فوضى القرن الثالث عشر ، ولهذا يرجع تاريخ مكتبة الفاتيكان الحاضرة إلى القرن الخامس عشر . وشرعت الجامعات — أو على الأصح قاعات كلياتها — تنشئ لها مكتبات فى القرن الثانى عشر ، وأنشأ القديس لويس مكتبة سانت شابل Sainte Chapelle فى باريس ، وأغناها بالكتب التى أمر بنسخها من مائة دير ؛ وكانت كثير من المكتبات ، كمكتبات نتردام ، وسان جرمان ده پريه St. Germain des Prés والسربون مفتوحة للطلبة الموثوق بهم ، وكان من المستطاع استعارة الكتب فى الخارج بضمان واف : وإن طالب العلم اليوم ليصعب عليه أن يقدر قيمة الثروة الأدبية التى كانت المدينة والكلية تضعها بين يديه دون مقابل .

وكانت هناك مكتبات خاصة فى أماكن متفرقة ، وإنا لنجد فى ظلمات القرن العاشر نفسه جربرت Gerbert يجمع كتباً بحماسة محبى الكتب الحقة ؛ وكان لغيره من رجال الدين أمثال چون السلزبرى مجموعات خاصة بهم . كما كان لعدد قليل من النبلاء مكتبات صغيرة فى قصورهم ؛ وكان لفردريك بربروسا وفردريك الثانى مجموعات كبيرة ، وجمع هنرى الأرغونى مكتبة عظيمة حرقت علنا لاتهامه بالاتصال بالشيطان[١٩] . وجاء دانيل من أهل مورلى Morley إلى إنجلترا من أسپانيا فى عام ١٢٠٠ « بطائفة كبيرة قيمة من الكتب »[٢٠] . وكشفت أوربا فى القرن الثانى عشر ثروة أسپانيا العظيمة من الكتب فهرع العلماء إلى طليطلة ، وقرطبة ، وأشبيلية ، وعبرت جموع رجال العلم الجديد التى لا حصر لها جبال البرانس وأحدثت فى الحياة الذهنية فى بلاد الشمال التى كانت وقتئذ فى دور المراهقة انقلابا عظيم الأثر .

الفصل الثالث

المترجمون

كانت أوربا فى العصور الوسطى منقسمة نصفين أحدهما لاتينى والآخر يونانى وإن كانت تجمعها إلى حد ما لغة مشتركة . وكان النصفان متعادين ويجهل أحدهما الآخر . وقد نسى الشرق اليونانى التراث اللاتينى ما عدا القانون ، كذلك نُسى التراث اليونانى فى الغرب كله ما عدا الصقليتين ؛ لكن بعض هذا التراث اليونانى كان مختبئاً وراء أسوار المسيحية — فى بيت المقدس الإسلامية ، والإسكندرية ، والقاهرة ، وتونس ، وأسبانيا ؛ أما العالم الواسع الرقعة البعيد الشقة الذى يشمل الهند والصين واليابان ، والذى كان من عهد بعيد غنيا بالأدب والفلسفة والفن ، فلم يكد العالم المسيحى قبل القرن الثالث عشر يعرف عنه شيئاً .

واضطلع اليهود ببعض العمل الذى يهدف إلى ربط الثقافات المختلفة بعضها ببعض ، فقد كانوا ينتقلون بين هذه الثقافات تنقل مجارى الماء المخصبة تحت تربة الأرض . ولما كثر عدد اليهود المهاجرين من بلاد الإسلام إلى البلاد المسيحية ، ونسوا اللغة العربية ، رأى علماؤهم أنه يجدر بهم أن يترجموا المؤلفات العربية (التى ألف اليهود كثيراً منها) إلى اللغة التى لا يعرف علماء هذا الشعب المشتت غيرها وهى اللغة العبرية . ومن أجل هذا ترجم يوسف قمحى (١١٠٥ ؟ — ١١٩٠ ؟) فى نربونة كتاب « المرشد إلى واجبات القلب » تأليف الفيلسوف اليهودى بهيــة إلى تلك اللغة . وكان يوسف هذا والد أبناء من جلة العلماء ، ولكن أعلى منهم كعبا فى شؤون الترجمة أبناء يهوذا بن شاؤل بن طبون (١١٢٠ ؟ — ١١٩٠ ؟) ؛ وكان هو أيضاً قد هاجر من بلاد الأندلس الإسلامية إلى جنوبى فرنسا ؛ وهو وإن كان من أكثر أطباء عصره نجاحا فى مهنته كان له

من النشاط ما استطاع به ترجمة المؤلفات اليهودية العبرية لسعديه جاؤن ، وابن جبيرول ، ويهودا هليفى إلى اللغة العبرية . وأثار ابنه صمويل (١١٥٠ ؟ — ١٢٣٢) العالم اليهودى إلى ترجمة كتاب دلائل الحيران لابن ميمون إلى اللغة العبرية ، وترجم موسى بن طبون كتاب العناصر لإقليدس من اللغة العربية أيضا ، وترجم كتاب القانون الصغير لابن سينا ، وكتاب الترياق للرازى ، وثلاثة من مؤلفات ابن ميمون ، وشروح ابن رشد القصيرة لأرسطو . وتزعم يعقوب بن طبون حفيد صمويل حركة الكفاح من أجل ابن ميمون فى منبلييه ، واشتهر بنبوغه فى علم الفلك ، ولكنه مع هذا ترجم عدداً من الرسائل العربية إلى اللغة العبرية ، كما ترجم بعضها إلى اللغة اليونانية . وتزوجت ابنة صمويل عالما أوسع شهرة من أبيها هو يعقوب أناضولى . وقد ولد يعقوب هذا فى مرسيلية حوالى عام ١١٩٤ ودعاه فردريك الثانى لتدريس اللغة العبرية فى جامعة نابلى ، وفيها ترجم إلى اللغة العبرية شروح ابن رشد الكبرى . وكان لهذه الشروح أبلغ الأثر فى الفلسفة اليهودية . وكانت ترجمة كتاب المنصورى للرازى على يد الطبيب الفيلسوف شم طب (١٢٦٤) فى مرسيلية حافزاً قويا إلى النهضة الطبية عند العبرانيين .

وترجمت إلى اللغة اللاتينية كثير من التراجم العبرية للكتب العربية من ذلك أن كتاب التيسير لابن زهر ترجم إلى اللغة اللاتينية فى پدوا (١٢٨٠) ؛ وفى بداية القرن الثالث عشر ترجم أحد اليهود أسفار العهد القديم كلها ترجمة حرفية من اللغة العبرية إلى اليونانية مباشرة . وتمثل لنا ترجمة كتاب كليلة ودمنة لبيدبا الطرق الملتوية التى كانت تسير فيها الهجرة الثقافية : فقد ترجم هذا الكتاب إلى الإنجليزية من ترجمة أسبانية لترجمة لاتينية لترجمة عبرية ، لترجمة عربيـــة لترجمة فهلوية لترجمة للنسخة السنسكريتية المزعومة[٢١] .

أما التيار الرئيسى الذى صب به تيار الثروة الفكرية الإسلامية فى العالم الغربى فكان عن طريق ترجمة الكتب العربية إلى اللغة اللاتينية . فقد ترجم قسطنطين الأفريقى حوالى عام ١٠٦٠ إلى اللغة اللاتينية كتاب الاعتبار للرازى وكتب إسحق يوديوس فى الطب ، وترجمة حنين العربية لأمثال أبقراط وشرح جالينوس . وجمع ريمند (١١٣٠ ؟) المستنير المتسامح كبير أساقفة طليطلة بعد استردادها من المسلمين طائفة من المترجمين برياسة دمنيكو جنديسلقى وعهد إليهم ترجمة الكتب العربية فى العلوم الطبيعية والفلسفية . وكان معظم هؤلاء المترجمين من اليهود الذين يعرفون اللغات العربية ، والعبرية ، والأسبانية ، بالإضافة إلى اللاتينية فى بعض الأحيان . وكان أكثر هذه الفئة نشاطاً أحد اليهود المتنصرين يدعى حنا الأسبانى (أو « الأشبيلى ») وقد حور الفلاسفة المدرسيون كنيته العربية وهى ابن داود فسموه أفنديث Avendeath . وقد ترجم حنا هذا مكتبة حقة من مؤلفات ابن سينا ، والغزالى ، والفارابى ، . . . والخوارزمى عن أصولها العربية أو عن تراجمها اليهودية . وأدخل بترجمته لكتاب الخوارزمى الأرقام الهندية — العربية فى بلاد الغرب . ولا يقل هذا الكتاب أثراً عن ترجمته لكتاب مدسوس على أرسطو فى الفلسفة والأسرار الخفية يدعى Secretum Secretorum وهو كتاب يدل على سعة انتشاره بقاء مائتى نسخة مخطوطة منه . وكانت بعض الكتب تترجم من العربية إلى اللاتينية مباشرة ، وبعضها يترجم إلى اللغة القشتالية ثم يترجمها غنديسلوى إلى اللاتينية . وبهذه الطريقة حول العالمان كتاب حكور حاتم فأصبح Fon Vitae أو ينبوع الحياة وبه أصبح ابن جبيرول « Avicebron » من أشهر الفلاسفة فى محيط الفلسفة الكلامية .

وكانت هناك روافد أخرى تغذى هذا التيار اللاتينى العربى . من ذلك أن

عالما من باث Bath يدعى أبلار تعلم العربية فى أنطاكية ، وطرسوس ، وطليطلة ثم نقل كتاب إقليدس من العربية إلى اللاتينية (١١٢٠) فكانت هذه الترجمة أول ترجمة لاتينية لهذا الكتاب ؛ وهو الذى أدخل حساب المثلثات من بلاد المسلمين إلى الغرب بترجمته أزياج الخوارزمى (١١٢٦)[٢٣] .

وفى عام ١١٤١ قام بطرس الموقر رئيس دير كلونى هو وثلاثة من العلماء المسيحيين يساعدهم أحد علماء العرب بترجمة القرآن إلى اللغة اللاتينية . ودخل علم الكيمياء والكيمياء الكاذبة العالم اللاتينى بترجمة ربرت من أهل تشستر أحد الكتب العربية فى عام ١١٤٤ . وبعد عام من ذلك الوقت قام رجل إيطالى يدعى أفلاطون التيڤولى بترجمة رسالة هيورها مشيحه العظيمة الشأن لمؤلفها أبراهام بارحيا .

وكان أعظم المترجمين على بكرة أبيهم رجلا يدعى جرار من أهل كريمونا . ذلك أنه لما قدم هذا الرجل إلى طليطلة حوالى ١١٦٥ أعجبه بثروة العرب فى العلوم والفلسفة فصمم على أن يترجم خير ما فى هذه الثروة إلى اللغة اللاتينية ، وقضى فى هذا العمل التسع السنين الباقية من حياته ؛ فتعلم اللغة العربية واستعان كما يبـــدو بمسيحى من أهل المدينة وبآخر يهودى[٢٤] .

وليس من المعقول أن يكون هو الذى ترجم الكتب الواحد والسبعين من غير أن يعاونه فيها أحد . ومهما يكن من شىء فإن الغرب مدين له بالتراجم اللاتينية للتراجم العربيـــة لكتب أرسطو فى التحليلات ، وفى السموات والأرض ، والكون والفساد ، والمتيورولوجيا ؛ وبطائفة من الشروح لاسكندر الأفروديسى ، والعناصر والفروض لإقليدس ، وقياس الدائرة لأرخميدس ، والمخروطات لأپلونيوس البرجاوى ، وأحد عشر كتاباً معزوة إلى جالينوس ، وعدة مؤلفات فى الفلك يونانية الأصل ، وأربعة مجلدات يونانية — عربية فى الطبيعة ، وأحد عشر كتاباً فى الطب عند العرب ، من بينها أكبر كتب الرازى وابن سينا والفارابى

وثلاثة من كتب الكندى ، وكتابين لإسحاق إسرائيلى ، وأربعة عشر كتاباً فى الرياضة والهيئة عند العرب ، وثلاث مجموعات من الأزياج الفلكية ، وسبعة مؤلفات عربية فى الهندسة والفلك ؛ وقصارى القول أن ليس فى التاريخ كله رجل أغنى بمفرده ثقافة بأخرى كما فعل چرار هذا . ولا يضارع چرار فى عمله هذا إلا عمل حنين بن إسحق ، وعمل « بيت الحكمة » الذى أنشأه الميمون ، وهما اللذان صبا العلوم والفلسفة اليونانية فى القالب العربى .

ويلى أسپانيا فى مزج الثقافات على هذا النحو مملكة الصقليتين النورمانية . ذلك أن حكام النورمان لم يكادوا يفتحون الجزيرة (١٠٩١) حتى استخدموا مترجمين ليقوموا بترجمة المؤلفات العربية واليونانية فى الرياضة والهيئة المنتشرة فى پالرم إلى اللغة اللاتينية . وواصل فردريك الثانى هذا العمل فى فوجيا Foggia واستقدم إلى بلاطه للقيام به وبغيره من الأعمال عقلا من أعجب العقول وأكثرها نشاطا فى أوائل القرن الثالث عشر ونعنى بصاحب هذا العقل ميخائيل اسكت . وقد اشتق اسم هذا الرجل من موطنه الأصلى فى اسكتلندة ؛ وتراه فى طليطلة عام ١٢١٧ وفى بولونيا عام ١٢٢٠ ، وفى رومة من ١٢٢٤ إلى ١٢٢٧ ، ثم تراه بعدئذ فى فوجيا أو نابلى . وكان أول ما ترجمه كتاب الأجسام الكرية للبطروجى وهو نقد كتاب بطليموس ؛ وأعجب اسكت بما يمتاز به تفكير أرسطو من حرية واتساع فى الأفق فترجم إلى اللغة اللاتينية الترجمة العربية لكتاب تاريخ الحيوان لأرسطو بما فيه « أجزاء الحيوان » و « توالد الحيوان » ، وتعزو إليه رواية غير محققة تراجم كتب « ما وراء الطبيعة » ، و « الطبيعة » و « النفس » ، و « والسموات » ، ولعله ترجم كذلك كتاب « الأخلاق » . ووصلت تراجم ميخائيل لكتب أرسطو إلى ألبرتس مجنس وروچر بيكن ، وكان لها أثر كبير فى الحركة العلمية فى القرن الثالث عشر . وواصل شارل صاحب أنچو مناصرة الترجمة فى جنوبى إيطاليا ، وعمل له فى هذا العالم اليهودى موسى من أهل سلرنو ، وأكبر الظن أن

شارل هو الذى قدم المال اللازم لترجمة الموسوعة الطبية الضخمة (١٢٧٤) للرازى وهى المعروفة باسم «كتاب الحاوى» إلى اللغة اللاتينية على يد العالم اليهودى فرج بن سالم الجرجنتى .

وكانت جميع التراجم اللاتينية السالفة الذكر لعلوم اليونان وفلسفتهم منقولة عن التراجم العربية — وكان منها ما هو ترجمة عربية للترجمة السريانية للأصل الذى يكتنفه الغموض . ولم تكن هذه التراجم خالية من الدقة إلى الحد الذى اتهمها به روچر بيكن ؛ ولكن ما من شك فى أن الحاجة كانت منذ ذلك الوقت ماسة إلى تراجم من الأصل مباشرة . وكان من بين أقدم هذه التراجم الأصلية ترجمة كتب أرسطو على يد چيمس الذى لا نعرف عنه أكثر من أنه «كاتب من البندقية» قبل عام ١١٢٨ . وفى عام ١١٥٤ ترجم يوچين «أمير» پالرم كتاب بطليموس فى «البصريات» ، ثم اشترك فى عام ١١٦٠ فى ترجمة لاتينية لكتاب المجسطى من اللغة اليونانية مباشرة . وكان أرستيس من أهل قطانيا قد ترجم فى الوقت عينه (١١٥٦ ؟) كتاب حياة الفلاسفة لديوجنيز ليرتيوس وكتاب مينون وفيدون لأفلاطون . ولم يؤثر استيلاء الصليبيين على القسطنطينية فى الترجمة بالقـــدر الذى كان يحق لنا أن نتوقعه ؛ فنحن لم نسمع إلا عن ترجمة جزء من كتاب الميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة) لأرسطو (١٢٠٩) ؛ وأعقبت ذلك قوة مجددة شرع بعدها فى عام ١٢٦٠ وليم المورببيكى William of Moerbeke كبير أساقفة كورنث الفلمنكى يعاونه فى أغلب الظن عدد من المترجمين بترجمة طائفة من الكتب عن اللغة اليونانية مباشرة . وإن عدد هذه التراجم وأهميتها لتنزلانه بين أبطال نقل الثقافة منزلة لا تعلو عليها إلا منزلة چرارد الكريمونى . وكانت استجابته لطلب صديقه وزميله الراهب الدمنيكى تومس أكوناس من الأسباب التى حملته على ترجمة عدد كبير من مؤلفات أرسطو

تاريخ الحيوانات ، وتوالد الحيوانات ، والسياسة ، والبلاغة ، وعلى إتمام ترجمة بعض التراجم السابقة أو مراجعتها : الميتافيزيقا والميترولوجية (الأرصاد الجوية) وفى النفس . وترجم للقديس تومس عدة شروح على كتب أرسطو وأفلاطون ؛ وأضاف إلى هذه الأعمال الكثيرة تراجم لكتاب التشخيص لأبقراط وكتاب جالينوس فى الطعام وعدة مؤلفات فى علم الطبيعة لهيرون الإسكندرى وأرخميدس . ولعلنا مدينون له أيضاً بترجمة لكتاب الأخلاق لأرسطو كانت تعزى من قبل إلى ربرت جروستستى ، وكانت هذه التراجم جزءاً من المادة التى بنى عليها تومس كتابه العظيم الأثر فى اللاهوت . ولم يحـــل عام ١٢٨٠ حتى كانت كتب أرسطو كلها تقريباً فى متناول العقل الغربى .

وقد أحدثت هذه التراجم كلها فى أوربا اللاتينية ثورة عظيمة الخطر ، ذلك أن تدفق النصوص العلمية من بلاد الإسلام واليونان كان له أعمق الأثر فى استثارة العلماء الذين بدءوا يستيقظون من سباتهم ؛ وكان لا بد أن تحدث تطورات جديدة فى النحو وفقه اللغة ، ووسعت نطاق المناهج الدراسية ، وأسهمت بنصيب فى نشأة الجامعات ونمائها فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . وكان عجز المترجمين عن أن يجدوا مفردات لاتينية تؤدى المعانى التى يريدون نقلها إلى تلك اللغة هو الذى أدى إلى دخول كثير من الألفاظ العربية فى اللغات الأوربية ؛ ولم يكن هذا أكثر من حادث عارض فى أعمال الترجمة ، ولكن أهم من هذا أن الجبر ، وعلامة الصفر ، والنظام العشرى فى الحساب قد دخلت كلها فى بلاد الغرب المسيحية بفضل هذه التراجم ، وأن الطب من ناحيته النظرية والعملية تقدم تقدما عظيما بفضل ما قام به العلماء المترجمون اليونان ، واللاتين ، والعرب ، واليهود ، وأن ما كان لعلم الهيئة اليونانى والعربى من شأن خطير قد أحدث ، وكان لا بد أن يحدث ، توسعا فى علوم الدين ، وفى تعديل أفكار العلماء عن

الإله ، وكان ذلك إرهاصا بتغيير فى هذه الناحية أوسع مدى جاء بعد عهد كوپرنيق . وإن فى إشارات روجر بيكن المتكررة لابن رشد ، وابن سينا ، والفارابى لدليلا على ما كان لهؤلاء العلماء من تأثير وحافز جديد . وفى ذلك يقول روجر بيكن نفسه : « لقد جاءت إلينا الفلسفة من العرب »[٢٥] ، وسنرى أن الذى دعا تومس أكوناس لتأليف كتابه الجامع فى اللاهوت هو أن يحول دون تسرب التفاسير العربية لأرسطو إلى علوم الدين المسيحية . وهكذا رد الإسلام إلى أوربا ما أخذه عن اليونان بطريق بلاد الشام ؛ وكما أن هذه العلوم كانت بداية ذلك العصر العظيم عصر العلوم والفلسفة العربية ، كذلك أثارت هذه التراجم عقل أوربا وحفزته إلى البحث والتفكير ، وأرغمته على أن يشيد ذلك الصرح العقلى الخطير صرح الفلسفة المدرسية ، وأن ينقض ذلك الصرح الفخم حجراً بعد حجر ، فينهار بذلك نظام العصور الوسطى الفلسفى فى القرن الرابع عشر ، وتبدأ الفلسفة الحديثة فى غمرة التحمس العظيم أثناء عصر النهضة .

الفصل الرابع

المـــدارس

وكان الذى يقوم بنقل الحضارة من جيل إلى جيل الأسرة ، والكنيسة ، والمدرسة . وكان يعنى عناية خاصة بالتربية الخلقية فى العصور الوسطى ، على حساب الثقافة العقلية ، كما يعنى اليوم بالتربية العقلية ، على حساب التأديب الخلقى.. ولم يكن من غير المألوف فى إنجلترا بين الطبقات الوسطى والعليا أن يرسل الولد فى سن السابعة أو نحوها ليربى وقتاً ما فى بيت غير بيته ؛ وكان الغرض المقصود من هذا تمكين الروابط بين الأسر من جهة ، وإبعاد الولد عن اللين المنبعث من حنان الأبوين من جهة أخرى[٢٦] . وكان نظام المدارس الفخم الذى أنشأته الإمبراطورية الرومانية قد انهار فى خلال الفوضى الناشئة من الغارات ومن نقص سكان المدن ، ولما أن هدأت موجة الهجرة فى القرن السادس بقيت قلة من المدارس العلمانية فى إيطاليا ؛ وكان معظم الباقى مدارس لتعليم المعتنقين الجدد للدين المسيحى وقساوسة المستقبل . وظلت الكنيسة فترة من الزمن (٥٠٠ — ٨٠٠) تخص بعنايتها التدريب الأخلاقى ، ولم تكن ترى أن نقل العلوم الدنيوية من واجباتها ؛ ولكن الكتدرائيات ، والأديرة ، وكنائس الأبرشيات وأديرة النساء ، قد حفزها شارلمان إلى فتح أبوابها لتعليم البنين والبنات تعليما عاما .

وحملت مدارس الأديرة وحدها فى أول الأمر هذا العبء كله تقريباً . وكانت المدارس نوعين مدرسة داخلية تهيئ التعليم للمستجدين ومن ينذرهم آباؤهم للرهبنة أو الكنيسة ، ومدرسة خارجية تعلم الأولاد من غير أجر على

ما يظهر[٢٧] . ونجت مدارس الأديرة الألمانية من اضطرابات القرن التاسع ، وأسهمت بنصيب مثمر فى النهضة الأتونية Ottonian ؛ وكانت ألمانيا فى القرنين التاسع والعاشر تعلو على فرنسا فى كل ما يزين العقل ، ذلك أن انحلال البيت الكارولنجى فى فرنسا ، وغارات أهل الشمال ، كانا ضربتين قويتين وجهتا إلى مدارس الأديرة ، ولهذا لم تبق مدرسة القصر التى أنشأها شارلمان فى بلاط الفرنجة بعد أن مات شارل الأصلع (فى عام ٨٧٧) . وزادت الأسقفيات الفرنسية قوة كلما زاد الملوك ضعفا ، ولما أن وقفت غارات أهل الشمال كان الأساقفة ورجال الدين فى خارج الأديرة أغنى من رؤساء الأديرة ومن الأديرة نفسها ، ولهذا قامت مدارس الكتدرائيات فى القرن العاشر فى باريس ، وشارتر ، وأورليان ، وتور ، ولاؤن ، وريمس ، وليبج ، وكولونى ؛ على حين أن مدارس الأديرة ضعفت فى ذلك القرن ؛ ولما توفى فلبرت الصالح العظيم فى شارتر ، احتفظ الأسقف إيڤو Ivo بالمستوى الرفيع وبحسن السمعة اللذين نالتهما مدرسة كتدرائيتها فى الدراسات اليونانية والرومانية القديمة ، وجرى برنار أسقف شارتر الذى خلف إيڤو على تقاليد سلفه الطيبة ؛ وقد وصف حنا السلزبرى برنار هذا فى القرن الثانى عشر بقوله إنه « فى الوقت الحاضر أغزر منبع للآداب فى غالة وأعظم هذه المنابع روعة »[٢٨] . وفى إنجلترا ذاعت شهرة مدرسة يورك حتى قبل أن تعير ألكوين إلى شارلمان ؛ وكادت مدرسة كنتربرى تصبح جامعة ذات مكتبة كبيرة ، وكان أمينها هو الرجل العظيم حنا السلزبرى السالف الذكر ، وهو رجل من أعظم العلماء والفلاسفة عقلا فى العصور الوسطى . ويبدو أن الطلاب الذين يهيأون لأن يكونوا قساوسة كان ينفق عليهم من أموال الكتدرائية ؛ أما غيرهم من الطلاب فكانوا يؤدون أجوراً قليلة . وقد أصدر مجلس لاتران الثالث (١١٧٩) قراراً يقول : « لكى لا يحرم الأطفال الفقراء من فرصة القراءة والرقى . . . يجب أن يخصص مرتب كاف لمدرس يعلم بالمجان من يعدون لممارسة مهنة الكهانة

والفقراء من التلاميذ »[٢٩] وطالب مجلس لاتران الرابع (١٢١٥) بأن ينشأ كرسى للنحو فى كل كتدرائية من كتدرائيات العالم المسيحى ، وأمر كل كبير أساقفة بأن يكون لديه كرسيان للفلسفة والقانون الكنسى[٣٠] . وحض البابا جريجورى التاسع (١٢٢٧ — ١٢٤١) فى أوامره السامية كنائس الأبرشيات على أن تنشئ مدرسة للتعليم الأولى ، وتدل البحوث الحديثة على أن مدارس الأبرشيات هذه — المخصصة أولا للتعليم الدينى — كانت منتشرة فى جميع أنحاء العالم المسيحى[٣١] .

ترى ماذا كانت نسبة المراهقين من الأهلين الذين كانوا يؤمون هذه المدارس ؟ أما البنات فلم يكن يذهب إليها فيما يبدو إلا بنات الطبقة الموسرة ، وكانت معظم الأديرة تنشئ مدارس للبنات كالمدرسة التى فى أرجنتى Argenteuil ؛ وعلمت هلواز الآداب القديمة تعليما ممتازاً (حوالى عام ١١١٠) ، ولكن أغلب الظن أن هذه المدارس لم تدخلها إلا نسبة صغيرة من البنات . ومن مدارس الكتدرائيات ما كانت تقبل البنات ، فها هو ذا أبلار يحدثنا عن « النساء الشريفات المولد » اللائى كن يذهبن إلى مدرسة نتردام فى باريس عام ١١١٤[٣٢] . أما الأولاد فكانوا أحسن حظا من البنات ، ولكن يبدو أن ابن رقيق الأرض كان يصعب عليه أن ينال تعليما ما[٣٣] . وإن كنا نسمع أن بعض الأرقاء استطاعوا أن يلحقوا أبناءهم باكسفورد[٣٤] . وكان كثير من المواد التى تعلم الآن فى المدرسة يعلم وقتئذ فى المنزل أو بالتدرب فى الحوانيت ؛ ولا ريب فى أن انتشار الفنون فى العصور الوسطى والدرجة الرفيعة التى بلغتها يوحيان بأنه كان ثمة فرص واسعة للتدرب على الفنون والحرف . وتقدر إحدى الإحصاءات عدد الأولاد الملتحقين بالمدارس الأولية بإنجلترا فى عام ١٥٣٠ بستة وعشرين ألفاً من بين سكانها الذين يقدرون فى ذلك الوقت بخمسة ملايين ، أى بجزء من ثلاثين جزء من سكانها فى عام ١٩٣١[٣٥] ؛ ولكن دراسة حديثة لهذا

الموضوع تقول إن « القرن الثالث عشر كان أقرب إلى التعليم الشعبي والاجتماعي من القرن السادس عشر »(٣٦) .

وكان قس من قساوسة بيت الكتدرائية هو الذى يدير مدرسة الكتدرائية عادة ؛ وكان يسمى بأسماء مختلفة هى ارشكولا (كبير المدرسة) Archiscola أواسكلاريوس scolarius أواسكلاستكس Scolasticus (المدرس) . وكان التعليم كله باللغة اللاتينية ؛ وكان التأديب صارما ، فكان الضرب يعدّ من مستلزمات التعليم كما كانت الجحيم من مستلزمات الدين ، ومن أجل هذا كانت مدرسة ونشستر تحيى طلابها ببيت من الشعر سداسى الأوتاد صريح فى معناه وهو : «Aut disce, an discede manet sors tertia caedi» ومعناه « تعلّم أو ارحل والثالثة التى تختارها هى أن تضرب » . وكان المنهج يبـــدأ بالمجموعة الثلاثية — النحو والبلاغة ، والمنطق — ؛ ثم ينتقل الطالب بعدها إلى « المجموعة الرباعية » — الحساب ، والهندسة ، والموسيقى ، والفلك ؛ وكانت هذه هى « الفنون الحرة السبعة » . على أن هذه المصطلحات لم تكن لها فى ذلك الوقت نفس المعنى الذى لها فى الوقت الحاضر . فأما المجموعة الثلاثية Trivium فكان معناها بطبيعة الحال أنها مكونة من ثلاث طرق ، وأما الفنون الحرة فهى التى عرفها أرسطو قبل ذلك الوقت بأنها المواد الخليقة بالأحرار الذين لا يجرون وراء المهارات العملية (وكانت هذه تترك لصبيان الصناعات) ، بل يسعون وراء التفوق العقلى والخلقى(٢٨) . وكان ڤارو (١١٦ — ١٢٧ ق . م) قد كتب سبعة كتب فى التأديب ذكر فيها سبع دراسات وصفها بأنها تؤلف المنهج اليونانى الرومانى . وكتب مارتيانس كابلا Martianus Capella فى القرن الخامس الميلادى كتاباً فى مبادئ التربية نحا فيه منحى الاستعارة والتشبيه وكانت له شهرة واسعة وسماه « فى زواج الفلسفة وعطارد On the Marriage of Philosophy and Mercury » ، وأخرج الطب والعمارة من مناهج التعليم لأنهما دراستان

عمليتان أكثر مما يجب أن تكون الدراسات ، وبقيت بعد السبع الدراسات الشهيرة . ولم يكن « النحو » هو الدراسة المملة التى تضيع فيها روح اللغة بدراسة عظامها ، بل كان هو فن الكتابة (gramma, graphs) ؛ وقد عرفه كسيودورس بأنه هو دراسة العظيم من الشعر والخطابة دراسة تمكن الإنسان من أن يكتب كتابة صحيحة ظريفة . وكانت هذه الدراسة تبدأ فى مدارس العصور الوسطى بالمزامير ، ثم تنتقل إلى غيرها من أسفار الكتاب المقدس ، ثم إلى كتب آباء الكنيسة اللاتين ، ثم إلى الآداب اللاتينية القديمة — شيشرون ، وفرجيل ، وهوراس ، واستانيوس ، وأوفد . وظل معنى البيان هو فن الحديث ، ولكنه كان يشمل أيضاً دراسة واسعة فى الأدب . ويبدو أن المنطق كان من الموضوعات الراقية التى لا يمكن أن تشملها المجموعة الثلاثية . ولكن يبدو أنه كان من الخير للتلاميذ أن يتعلموا اتباع قواعد المنطق حين يبدءون يحبون الجدل .

وأدخلت الثورة الاقتصادية شيئاً من التغيير فى ميدان التعلم ، فقد أحست المدن التى تعيش بالعمل فى التجارة والصناعة بحاجتها إلى موظفين ذوى تدريب عملى ؛ ولهذا أنشأت ، رغم معارضة قوية من جانب الكنيسة ، مدارس زمنية يعلم فيها مدرسون علمانيون نظير أجور يتقاضونها من آباء التلاميذ . وكان الأجر السنوى فى المدرسة العامة التى فى مرتبة المدارس الثانوية بأكسفورد نحو أربعة بنسات أو خمسة (٤٫١ دولار أمريكى) ؛ وقد أحصى ڤلانى Villani فى عام ١٢٨٣ تسعة آلاف ولد وبنت فى مدارس الكنائس بفلورنس ، و١١٠٠ فى ست من مدارس « المعمرات » التى تهيؤهم للاشتغال بالأعمال التجارية والمالية ، و٥٧٥ تلميذاً فى المدارس الثانوية . ونشأت المدارس الزمنية فى فلاندرز فى القرن الثانى عشر ؛ ولم يحل النصف الثانى من القرن الثالث عشر حتى كانت هذه الحركة قد انتشرت فى لوبك Lübeck ومدن البحر البلطى . ونقرأ فى عام ١٢٩٢ عن معلمة تدبر مدرسة خاصة فى باريس ، وسرعان ما أضحت هذه واحدة من كثيرات مثالها(٣٩) ، فقد أخذ تحول التعليم إلى الناحية الدنيوية يجرى مجراه .

الفصل الخامس

جامعات الجنوب

وكانت المدارس غير الدينية كثيرة فى إيطاليا بنوع خاص ؛ وكان مدرسوها فى العادة من غير رجال الدين بخلاف ما كانت عليه الحال فيما وراء الألب ؛ كما كانت الروح والثقافة الإيطاليتان بوجه عام أقل فى نزعتهما الدينية مما كانت عليه الحال فى غير إيطاليا من البلاد . بل ذهب البعض إلى أكثر من هذا فحدث حوالى عام ٩٧٠ أن نظم رجل يدعى ڤلجاردس Vilgardus حركة فى راڤنا تهدف إلى إعادة الوثنية(٤٠) . وكان فى البلاد بطبيعة الحال كثير من مدارس الكتدرائيات ، وكانت مدارس كتدرائيات ميلان ، وباڤيا ، وأوستا Aosta ، وپارما ذات كفاية خاصة ، وفى وسعنا أن نحكم على مقدار هذه الكفاية إذا عرفنا أن من خريجيها لافرانك وأنسلم ، وكادت مدرسة مُنتى كازينو فى عهد دزدريوس تكون جامعة . ولقد تضافر بقاء الأنظمة البلدية ، ونجاح المدن اللمباردية فى مقاومة بربرسا (١١٧٦) ، والطلب المتزايد على المعلومات القانونية والتجارية ، تضافرت هذه العوامل كلها على أن تنيل إيطاليا شرف السبق فى مضمار إنشاء الجامعات فى العصور الوسطى .

ولقد احتفلت جامعة پدوا فى عام ١٩٤٥ بالعيد المتمم للمائة بعد الألف من إنشائها على يد لوثير الأول Lothair I . وأكبر الظن أنها كانت مدرسة حقوق لا جامعة ، ولم تتلق المرسوم الذى يجعلها مدرسة عامة إلا فى عام ١٣٦١ . وكان هذا هو الاسم الذى يطلق فى العصور الوسطى على الجامعة التى تضم عدداً من الكليات المختلفة ، وكانت إحدى المدارس الكثيرة التى شرعت من القرن

التاسع عشر وما بعده تحيى دراسة القانون الرومانى : مدارس رومة ، ورافنا ، وأورليان فى القرن التاسع ؛ ومدارس ميلان ، ونربونة ، وليون Lyons فى القرن العاشر ؛ ومدارس ڤرونا ، ومنتوا ، وأنجرس Ongers فى القرن الحادى عشر . ويبدو أن بولونيا هى أولى مدائن غربى أوربا التى وسعت مدرستها فجعلتها مدرسة عامة ، وفى ذلك يقول المؤرخ الإخبارى أودوفريدوس Odsfredus فى عام ١٠٧٦ : « شرع مدرس يدعى پيپو Pepo يحاضر القانون على مسئوليته الخاصة . . . فى بولونيا ، وكان من أعظم الرجال شهرة »[٤١] . ثم انضم إليه غيره من المدرسين ، حتى غدت مدرسة الحقوق فى بولونيا قبل أيام إرنريوس Irnerius بإجماع الآراء خير مدارس أوربا على الإطلاق ؛

وبدأ إرنريوس يدرس القانون فى بولونيا عام ١٠٨٨ ، وانحاز فى تدريسه من جانب الجلف إلى جانب الجبلين ، وفسر فقه القانون الذى عاد وقتئذ إلى الحياة تفسيراً يتفق ومصلحة المطالب الإمبراطورية . ولسنا نعلم أكان منشأ هذا العمل من جانبه أن دراسة القانون الرومانى أقنعته بقوة الحجج التاريخية والعملية التى تؤيد تفوق السلطة الإمبراطورية على السلطة الدينية ، أم أن المكافآت التى تتيحها له الخدمة الإمبراطورية قد أغرته بهذا الانحياز ؟ وسواء كان هذا أو ذاك فإن الأباطرة الذين قدروا له عمله أغدقوا المال على المدرسة ، وهرع عدد كبير من الطلاب الألمان إلى بولونيا . وألف إرنريوس مجلداً فى التأويلات أو الشروح على كتاب القوانين لجستنيان وطبق الطريقة العلمية على تنظيم القانون . ويعد كتاب قوانينه الذى جمعه هو أو جمع من محاضراته آية من آيات العرض الجيد والحجج القوية .

وبدأ بإرنريوس العصر الذهبى فى التشريع أثناء العصور الوسطى ، وأقبل الرجال على بولونيا من جميع بلاد أوربا اللاتينية ليتلقوا فيها علم القانون الذى عاد

وقتئذ إلى شبابه ، وطبق جراتيان تلميذ إرنريوس الأساليب الجديدة على التشريع الكنسى ، ونشر (١١٣٩) المجموعة الأولى من القانون الكنسى . وجاء بعد إرنريوس « العلماء الأربعة » — بلجارس Bulgarus ، ومرتينس Martinus ، وياقوبس Jacobus ، وهو جو Hugo — بسلسلة من التأويلات الذائعة الصيت بتطبيق دستور جستنيان على المشاكل التشريعية فى القرن الثانى عشر ، وأفلحوا فى إدخال القانون الرومانى إلى ميدان مطرد الاتساع . وجمع أكرسيوس Acoursius الأكبر (١١٨٥ ؟ — ١٢٦٠) ، أعظم « الشراح » فى بداية القرن الثالث عشر ، أعماله هو وأعمالهم فى شروح عامة أصبحت هى المرجع المعتمد الذى استعان به الملوك والعامة على تحطيم سلطان القانون الإقطاعى ، ومحاربة سلطان البابوات . وبذلت البابوية كل ما تستطيع من الجد لتعطل حركة بعث القانون الذى يجعل الدين عملا من أعمال الدولة وخادما لها ، ولكن الدراسة الجديدة غذت النزعة العقلية وحركة التحول إلى الناحية الدنيوية اللتين قامتا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، وكانت هى المعبرة عنهما ، وأوجدت طبقة من المحامين أخذت تتضاعف على مر الأيام وتجد فى تخفيض نصيب الكنيسة فى الحكم وتوسيع سلطان الدولة : ووصل الأمر إلى حد شكا معه القديس برنار من أن محاكم أوربا تدوى بشرائع جستنيان ، ولم تعد تسمع قوانين الله[٤٢] . وكان انتشار فقه القانون الجديد حافزاً إلى خلق روح الاحترام للقانون ، والشغف باتباع العقل لا يقل فى قوته عن تراجم الكتب العربية واليونانية ، وكان هذا الشغف هو الذى أوجد الفلسفة المدرسية الكلامية وقوض بعدئذ أركانها .

ولسنا نعلم متى قامت مدرسة للفنون — أى الفنون السبعة الحرة ، فى بولونيا ، كما لا نعلم أيضاً متى أنشئت مدرسة الطب الشهيرة بهذه المدينة . ومبلغ علمنا أن الصلة الوحيدة التى قامت بين المدارس الثلاث كانت تنحصر فى أن يتسلم خريجو كل واحدة منها درجاتها العلمية من وكيل الأسقف فى بولونيا . وقد نظم

الأساتذة أنفسهم فى نقابة كنقابات الحرف ، وحوالى عام ١٢١٥ نظم طلبة كل كلية أنفسهم فى اتحاد طلاب جنوب الألب أو اتحاد طلاب ما وراء الألب . وضمت هذه « الجامعات » من بداية القرن الثالث عشر طالبات وطلاباً ، وكان فى كليات بولونيا فى القرن الرابع عشر أستاذات[٤٣] .

وأنشئت نقابات الطلاب فى بداية الأمر لتقوم بواجب الحماية المتبادلة لهم وتمكينهم من حكم أنفسهم بأنفسهم ؛ ثم صار لها فى القرن الثالث سلطة عظيمة على هيئة التدريس ؛ فقد كان فى مقدور الطلبة أن يحولوا بين أى إنسان وبين الاستمرار فى حياة التدريس فى بولونيا بالمقاطعة المنظمة لمن لا يرضيهم من المدرسين . هذا إلى أن مرتبات الأساتذة كانت فى كثير من الأحيان تؤديها « جامعات الطلاب » ، وكان الأساتذة يرغمون على أن يقسموا أن يطيعوا « مديرى الجامعات » أى رؤساء نقابات الطلاب[٤٤] . وكان على المدرس الذى يرغب فى إجازة للتغيب عن العمل ، وإن لم تزد على يوم واحد ، أن يحصل على إذن بذلك من تلاميذه عن طريق رؤساء نقاباتهم . وكان يحرم عليه تحريماً صريحاً أن « يبتدع عطلات بمحض رغبته »[٤٥] . وكانت اللوائح التى تضعها نقابات الطلاب تحدد الدقيقة التى يبدأ فيها المدرس محاضرته ، والتى ينتهى فيها من هذه المحاضرة ، ونوع العقوبات التى تفرض عليه إذا خالف هذه القواعد . وكانت قوانين النقابات تأمر الطلاب أن يغادروا قاعة الدرس إذا أطال الأستاذ محاضرته عن الوقت المحدد لها . وكانت لوائح النقابات تفرض غرامة على المدرس إذا ترك فصلا أو مرسوماً فى شرحه القوانين ؛ كما كانت تحدد مقدار ما يخصص من المنهج لكل جزء من أجزاء الكتب المقررة . وكان يطلب إلى الأستاذ فى بداية كل سنة جامعية أن يودع أمانة قدرها عشرة جنيهات فى أحد مصارف بولونيا ، تخصم منها الغرامات التى يفرضها عليه رؤساء نقابات الطلاب ، ويرد إليه ما يبقى منها فى نهاية العام الدراسى بناء على أوامر أولئك الرؤساء . وكان لجان من الطلاب

تعين لمراقبة سلوك كل مدرس وتبلغ رؤساء النقابات كل ما تراه من شذوذ أو عيب فى هذا السلوك[٤٦] . وإذا ما بدت هذه القواعد لطالب هذه الأيام معقولة إلى درجة غير عادية . وجب عليه أن يذكر أن طلاب الحقوق فى جامعة بولونيا كانوا رجالا بين السابعة عشرة والأربعين من عمرهم ، وأنهم كانوا فى سن يستطيعون وهم فيها أن يؤدبوا أنفسهم ؛ وأنهم جاءوا للدرس لا للعب ، وأن الأستاذ لم يكن موظفاً عند أمناء الجامعة ، بل كان محاضراً حراً يؤجره الطلبة فى واقع الأمر لكى يعلمهم . وكان مرتب المدرس فى بولونيا يتكون من الأجور التى يؤديها طلابه ويحددها اتفاق يعقد معهم . ثم غير نظام الأداء حوالى آخر القرن الثالث عشر حين عرضت المدن الإيطالية ، حرصاً منها على أن يكون لها جامعات خاصة بها ، مرتبات تؤديها البلديات إلى بعض أساتذة بولونيا ؛ فما كان من مدينة بولونيا نفسها وقتئذ (١٢٨٩) إلا أن وعدت بأداء مرتب سنوى لاثنين من الأساتذة ؛ ولكن اختيار الأساتذة ظل متروكا للطلاب ، وزاد عدد هذه المرتبات السنوية التى تؤديها البلديات شيئاً فشيئاً ، حتى إذا كان القرن الرابع عشر انتقل اختيار الأساتذة وانتقلت مرتباتهم إلى المدينة نفسها . ولما أصبحت بولونيا جزءاً من الولايات البابوية فى عام ١٥٠٦ صار تعيين الأساتذة من اختصاص السلطات الكنسية .

بيد أن جامعة بولونيا انطبعت فى القرن الثالث عشر بروح علمانية تكاد تكون معادية للكنيسة ، وقلما نجدها فى غيرها من المراكز التعليمية الأوربية . وجرى غيرها من جامعات إيطاليا على هذا النسق وإن لم يبلغ فيه ما بلغته جامعة بولونيا . فبينا كانت كلية أصول الدين أهم الكليات فى هذه الجامعات الأخرى ، لم يكن فى بولونيا كلية دينية على الإطلاق قبل عام ١٣٦٤ ؛ بل حل القانون الكنسى فيها محل علم اللاهوت ؛ وحتى علم البيان نفسه قد اتخذ صورة القانون ، بل إن فن الكتابة نفسه أضحى — فى جامعات بولونيا ، وباريس ، وأورليان ،

ومنهلييه ، وتور ، ؛ ؛ : فن كتابة الوثائق القانونية ، أو التجارية والمالية ، أو الرسمية ، وكانت درجات جامعية خاصة تمنح فى هذا الفن(٤٧) .
وكان من الأقوال الشائعة أن أقرب ما يمكن الحصول عليه من تعليم إلى الأحوال الواقعية هو الذى يتلقاه الطلاب فى بولونيا ؛ وتروى إحدى القصص المتداولة أن أحد علماء التربية الباريسيين نقض فى بولونيا ما علمه فى باريس ، ثم عاد إلى باريس فنقض فيها ما علمه فى بولونيا(٤٨) : وتزعمت بولونيا فى القرن الثانى عشر الحركة العقلية فى أوربا ، فلما كان القرن الثالث عشر تركت تعليمها يجمد حتى أضحى فلسفة للقانون مدرسية كلامية آسنة ، وحتى أضحت الشروح الأكورسية نصاً مقدساً لايكاد يقبل التغيير ، ويعطل تكييف القانون تكييفاً تقدمياً يوائم سير الحياة ؛ ومن أجل هذا انتقلت روح البحث إلى ميادين أوسع حرية من ميدان القانون .

وانتشرت الجامعات فى جميع أنحاء إيطاليا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . ونشأت بعضها من جامعة بولونيا بهجرة الأساتذة والطلاب من هذه الجامعة ؛ ومن ذلك أن پليوس غادرها فى عام ١١٨٢ لينشئ مدرسة فى مودينا ؛ وأن يقوبس دى مندرا Jacobus de Mandra خرج منها إلى رجيو إميليا Reggio Emilia فى عام ١١٨٨ وأخذ معه تلاميذه ، ونشأ من هجرة أخرى حدثت فى أغلب الظن من بولونيا عام ١٢٠٤ مدرسة عامة أو اتحاد مؤلف من عدة كليات فى ڤيسنزا ؛ وفى عام ١٢١٥ غادر رفريدس Roffredus جامعة بولونيا ليفتتح مدرسة للحقوق فى أرزو Arezzo ؛ وفى عام ١٢٢٢ وسع عدد كبير من المدرسين والطلاب الذين غادروا بولونيا مدرسة قديمة كانت فى پدوا ، فأضيفت كليات للطب والآداب إلى مدرسة الحقوق التى كانت فى هذه المدينة ؛ وبعثت إليها مدينة البندقية بطلابها ، وأسهمت فيما كانت تؤديه المدينة من مرتبات للأساتذة ؛ وبذلك أصبحت پدوا فى القرن الرابع عشر من أنشط مراكز

التفكير الأوربى . وفى عام ١٢٢٤ أسس فردريك الثانى جامعة نابلى ليمنع طلاب إيطاليا الجنوبية من الهجرة جماعات إلى الشمال : ولعل هذا السبب عينه مضافاً إلى الدبلوماسية الكنسية هو الذى حمل إنوسنت الرابع على إنشاء جامعة بلاط رومة التى تبعت البلاط البابوى فى هجراته ومنها هجرته إلى أفنيون نفسها . وفى عام ١٣٠٣ أسس بنيفاس الثامن جامعة رومة التى بلغت مجدها فى أيام نقولاس الخامس وليو العاشر ، وأحرزت لقب سپنزا Sapienza (العاقلة) فى عهد بولس الثالث . وبدأت سينا جامعة بلديتها فى عام ١٢٤٦ ، وپياسنزا فى عام ١٢٤٨ ؛ وقبل أن يختتم القرن الثالث عشر وجدت مدارس القانون ، والآداب ، والطب أيضاً أحياناً ، فى كل مدينة كبرى بإيطاليا .

وكانت جامعات أسپانيا فذة فى نوعها ، فقد أنشأها الملوك وبسطوا حمايتهم عليها ، فكانت تخدمهم وتخضع لإشراف حكوماتهم . فأنشأت قشتالة جامعة ملكية فى بالنسية (Palencia) (١٢٠٨) ثم أنشأت جامعة أخرى فى بلد الوليد (١٣٠٤) ؛ وأنشأت ليون Leon جامعة فى سلمنقة (١٢٢٧) وأنشأت جزائر البليار جامعة فى بالما (١٢٨٠) ، وأنشأت قطلونية جامعة فى لريدا (١٣٠٠) . وكانت الجامعات الأسپانية تقبل إشراف الكنيسة عليها والمعونة المالية منها رغم صلتها بالملوك ؛ ومنها ما نشأ من مداس الكتدرائيات كجامعة بالنسية . وخص سان فرننلو وألفنسوا الحكيم جامعة سلمنقة بأموال كثيرة فى القرن الثالث عشر ، وسرعان ماساوت هذه الجامعة فى شهرتها ومركزها العلمى جامعتى بولونيا وباريس . وكانت معظم هذه الجامعات تعلم اللغة اللاتينية ، والعلوم الرياضية ، والفلك ، وعلوم الدين ، والقانون ؛ ومنها ما كان يعلم الطب ، واللغة العبرية ، أو اليونانية . وافتتح راهب دمنيكى فى عام ١٢٥٠ مدرسة للدراسات

الشرقية فى طليطلة لتدريس اللغتين العربية والعبرية . وما من شك فى أن هذه المدرسة قد أفادت خيراً كثيراً لأن أحد خريجيها ريمند مارتن Raymond Martin (حوالى عام ١٢٦٠) أظهر علماً واسعاً بجميع كبار الفلاسفة ورجال الدين المسلمين . وكذلك كان للدراسات العلمية مكان بارز فى جامعة أشبيلية التى أنشأها ألفنسو الحكيم فى عام ١٢٥٤ . وأنشأ الملك الشاعر دنيز Diniz فى لشبونة جامعة للبرتغال عام ١٢٩٠ .

الفصل السادس

جامعات فرنسا

كانت فرنسا بلا ريب الزعيمة العقلية لأوربا فى العصور الوسطى خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر ؛ فقد أصبحت لمدارس كتدرائياتها منذ بداية القرن الحادى عشر شهرة دولية عظيمة ؛ وإذا كانت هذه المدارس قد نمت وازدهرت حتى أضحت جامعة عظيمة فى باريس لا فى شارتر ، أو لاؤن ، أو ريمس ، فأكبر الظن أن سبب هذا هو أن تجارة السين والأعمال المالية التى توجد عادة فى العاصمة قد جاءت إلى تلك المدينة بالثراء الذى يغرى العقول وأنها كانت تقدم المال الذى يحتاجه العلم والفلسفة والفن .

وأول من عرف من المعلمين فى مدرسة كتدرائية نتردام هو وليم الشامپووى William of Champeaux (١٠٧٠ — ١١٢١) ، وكانت محاضراته التى تلقى فى أبهاء نتردام مثار الحركة العقلية التى نشأت منها جامعة باريس ؛ ولما خرج أبلار من بريطانى (حوالى عام ١١٠٣) ووجه إلى وليم قياساً منطقياً أفعمه وقضى على سمعته ، وبدأ أشهر المحاضرات فى التاريخ الفرنسى ، هرع الطلاب من كل صوب ليستمعوا إليه ، فازداد عدد طلاب باريس وتضاعف عدد المدرسين . وكان الأستاذ (magister) فى عالم التربية بباريس فى القرن الثانى عشر رجلا أجاز له رئيس كتدرائية نتردام أن يدرس . وكانت جامعة باريس فى ذلك الوقت قد خطت خطوات سريعة لا نستطيع تتبعها ، فارتقت من مدرسة كنيسة المدينة ونالت وحدتها الأولى من هذا المصدر الوحيد-مصدر الإجازة التعليمية . وكانت هذه الإجازة تعطى عادة بالمجان لكل من قضى وقتاً كافياً تلميذاً لأستاذ مرخص بشرط أن يوافق هذا

الأستاذ على طلبه ؛ وكان من التهم التي وجهت إلى أبلار أنه اشتغل بمهنة التدريس دون أن يقضي فترة التلمذة المعتمدة من أستاذ .

وكان إدراك فن التدريس على هذا النحو ، أي الأستاذ المعلّم والصبي المتعلم ، من الأصول التي قامت عليها الجامعة . ولما أن تضاعف عدد الأساتذة أنشأوا لهم بطبيعة الحال نقابة طائفية . وظل لفظ (جامعة Universitas) يطبق منذ قرون على كل هيئة من عدة أفراد بما فى ذلك النقابات الطائفية . وفى عام ١٢١٤ وصف ماثيو باريس « زمالة الصفوة المختارة من المدرسين » فى باريس بأنها منظمة قائمة من زمن بعيد . ولنا أن نفترض ، وإن كنا لا نستطيع أن نبرهن ، أن « الجامعة » اتخذت حوالى عام ١١٧٠ صورة نقابة طائفية للمدرسين لا اتحاداً لعدة كليات ، فلما كان عام ١٢١٠ أصدر البابا إنوسنت الثالث — وكان هو نفسه من خريجى جامعة باريس — مرسوما اعترف فيه بقوانين نقابة المدرسين المدونة واعتمدها ، ثم أصدر هذا البابا نفسه مرسوماً آخر خوّل فيه النقابة أن تختار مندوباً عنها يمثلها فى المحكمة البابوية .

وقبل أن ينتصف القرن الثالث عشر انقسم مدرسو(*) جامعة باريس إلى أربع « سلطات » أو كليات كما نسميها الآن (faculties)(**) : اللاهوت ؛ والقانون الكنسى ، والطب ، و « الفنون » . ولم يكن للقانون المدنى بعد عام ١٢١٩ مكان فى جامعة باريس بعكس ما كانت عليه الحال فى جامعة بولونيا . وكان المنهج يبدأ بالفنون السبعة ، ثم يرقى إلى الفلسفة وينتهى بعلوم الدين . وكان طلبة الفنون Arts (وكانوا يسمون Artistae أى فنانين) هم المقابلين عندنا « للطلاب » الذين لا يزالون فى الجامعة ؛ وإذ كانوا هم يؤلفون الجزء

(*) لا يفرق المؤلف فى هذا الفصل وفى الفصول السابقة بين مدرس وأستاذ .
(المترجم)

(**) الكلمة ذات صلة بكلمة facile الفرنسية ومعناها تيسير أو تخويل أو سلطة للعمل .
(المترجم)

الأكبر من المتعلمين فى باريس فقد انقسموا — لتبادل المعونة ولأغراض الألفة والاختلاط — إلى أربع أمم Nations حسب مسقط رأسهم natio أو أصلهم : « فرنسا » (أى المملكة الضيقة الخاضعة خضوعاً مباشراً للملك الفرنسى) وپكاردى Picardy ، ونورمندية ، وإنجلترا ؛ وضم طلاب جنوبى فرنسا وإيطاليا وأسپانيا إلى الطلبة الفرنساويى المولد ، وضم طلبة الأراضى الوطيئة إلى « پكاردى » وطلبة أوربا الوسطى الشرقية إلى « إنجلترا » ، وكان الطلاب الذين جاءوا من ألمانيا من الكثرة بحيث تأخرت تلك البلاد عن إنشاء جامعات بها حتى عام ١٣٤٧ . وكان يحكم كل جماعة « وكيل procurator » أو مدير ، وكل كلية عميد ؛ وكان لطلاب كلية الفنون — ومدرسيها فى أغلب الأحيان — مدير يرأسهم ، ثم اتسعت دائرة أعماله تدريجاً حتى أصبح قبل عام ١٢٥٥ مدير الجامعة كلها .

ولسنا نسمع عن وجود أبنية خاصة بالجامعات ، ويلوح أن المحاضرات كانت تلقى أثناء القرن الثانى عشر فى أروقة نتردام ، وسان چنڤييڤ ، وسان ڤكتور ، وغيرها من الأبنية الدينية ، ولكننا نجد فى القرن الثالث عشر مدرسين يستأجرون حجرات خاصة لفصولهم . وكان المدرسون — الذين أصبحوا يسمون أيضاً أساتذة professores ومعنى هذا اللفظ اللاتينى « المعلنون » — رجال دين مترهبين يفقدون مناصبهم إذا تزوجوا . وكانت طريق التعليم هى المحاضرات ، وأكبر السبب فى هذا أنه لم يكن فى مقدور كل تلميذ أن يبتاع الكتب التى تجب عليه دراستها ، أو يحصل على نسخ منها من دور الكتب . وكان الطلاب يجلسون على الطوار أو على الأرض ويدونون كثيراً من المذكرات . وكان العبء الملقى على ذاكرتهم شديداً اضطرهم إلى ابتكار عدة أساليب لمساعدة الذاكرة تتخذ فى العادة شكل أبيات شعرية مثقلة بالمعنى بغيضة الصورة . وكانت لوائح الجامعة تحرم على المدرس أن يقرأ محاضرته للطلاب ، بل كان يطلب

إليه أن يتكلم ارتجالا ، بل كان يحرم عليه أيضاً أن يُقطّع الكلام . وكان الطلاب يتبرعون بتحذير المستجدين من أن يؤدوا أجر أي منهج قبل أن يستمعوا إلى ثلاث محاضرات فيه . وقد شكا وليم الكنشيسى فى القرن الثانى عشر من أن المدرسين يلقون على الطلاب مناهج سهلة لكى يكسبوا بذلك الشهرة ، والطلبة ، والأجور ، وأن طريقة الاختيار التى تعطى للطالب مجالا واسعاً لاختيار الموضوعات والمدرسين أخذت تنزل بمستوى التعليم(٥٠) .

وكان التعليم ينتعش ويكتسب بعض الحيوية من حين إلى حين بمناقشات عامة تجرى بين المدرسين ، والطلبة المتقدمين ، والزائرين الممتازين ، وكان النقاش يجرى فى العادة على شكل مقرر محدد يسمى **النقاش المدرسى** : فيوضع السؤال ، ويجاب عنه جواباً سلبياً ، ويؤيد هذا الجواب بعبارات مقتبسة من الكتب المقدسة أو كتب آباء الكنيسة ، وبالاستنباط الذى يتخذ شكل الاعتراضات ؛ ويتلو ذلك جواب إيجابى يؤيد بمقتبسات من الكتاب المقدس ، ومن كتب آباء الكنيسة ، وبأجوبة منطقية على الاعتراضات ؛ والنقاش المدرسى هو الذى حدد الصورة النهائية للفلسفة المدرسية فى عهد تومس أكويناس . وكانت تُعقد بالإضافة إلى هذه المناقشات المدرسية الرسمية مناقشات غير رسميـــة يسمونها « **أى شىء تحب** quodiberta » — يستطيع المناقش بموجبها أن يتقدم بأى سؤال يناقش فى التو والساعة . وقد أوجدت هذه المناقشات غير المقيدة هى الأخرى صورة من الصور الأدبية نشاهد مثلا منها فى كتابات القديس تومس الصغرى ؛ وشحذت المناقشات الرسمية منها وغير الرسمية العقول فى العصور الوسطى ، وأفسحت المجال لحرية التفكير والقول ؛ غير أنها اتجهت عند بعض الناس إلى خلق نوع من المهـــارة يستطيعون به أن يثبتوا أى شىء يريدون إثباته ، أو الشعوذة اللفظية التى تكدس جبالا من الجدل حول أنفه النقط .

وكان معظم الطلاب يعيشون فى مضايف Hospicia تؤجرها جماعات منظمة من الطلاب . وكانت بعض المضايف تأوى فقراء الطلاب نظير أجر اسمى ؛ ومثال ذلك أن بيت الله Hôtel Dieu الملاصق لكتدرائية نتردام خصص حجرة « للطلبة الفقراء » . ثم اشترى جوسيوس اللندنى Jucius of London هذا المسكن فى عام ١١٨٠ واشترك من ذلك الوقت مع المستشفى فى تقديم المسكن والمأكل لثمانية عشر طالباً يقيمون فيه ، ولم يحل عام ١٢٣١ حتى كانت هذه الطائفة من الطلاب قد انتقلت إلى مسكن أوسع من مسكنها القديم ، ولكنها مع ذلك ظلت تسمى نفسها **جماعة الثمانية عشر** . ثم أنشأت طوائف الرهبان ، أو الكنائس ، أو أنشأ المحسنون الخيرون ، مضايف أو مساكن أخرى للطلاب ، وحبست عليها الحبوس ، أو خصصت بأقساط سنوية خفضت بعض نفقات العيش على الطلاب . وفى عام ١٢٥٧ وهب ربرت ده سربون Robert de Sorbon قس القديس لويس « بيت السربون » المال اللازم لإيواء ستة عشر طالباً من طلبة علوم الدين ، وأضيفت إلى ذلك هبات لغير هؤلاء من لويس وغيره من المحسنين حتى ارتفع عدد من تشملهم إلى ستة وثلاثين ؛ ومن هذا البيت نشأت كلية السربون(*) وأنشئت كليات — Collegia بمعناها القديم وهو الجماعات — بعد عام ١٣٠٠ ، وجاء المدرسون إليها ليسكنوا فيها ، وعملوا مدرسين خصوصيين للطلاب ، يستمعون إلى محفوظاتهم ، و « يقرأون » معهم النصوص ؛ وأخذ المدرسون القرن الخامس عشر يدرسون بعض المناهج فى أبهاء المساكن ، وازداد عدد المناهج التى تدرس بهذه الطريقة ، ونقص عدد ما يدرس منها فى خارجها ، حتى أضحت « الكلية » مكاناً للتعليم ومسكناً للطلاب فى وقت واحد .

(*) وأصبحت السربون فى القرن السادس عشر الكلية الدينية فى الجامعة ، ثم أغلقتها الثورة فى عام ١٧٩٢ ، وأعادها بعدئذ نابليون ؛ وهى الآن مركز لتدريس مناهج عامة فى العلوم والآداب فى جامعة باريس .

وحدث مثل هذا التطور فى الكلية من بيت الطلبة فى أكسفورد ، ومنپلبيه ، وطولوز . وهكذا بدأت الجامعة من جمعية للمدرسين حتى أضحت جمعية من المعاهد أو الكليات .

وكان من بين مساكن الطلاب فى باريس مسكنان مخصصان للطلاب المبتدئين الجدد فى طائفتى الرهبان الدمنيك أو الفرنسيس ، وكان الرهبان الدمنيك من بداية أمرهم يهتمون بالتعليم ويتخذونه وسيلة لمقاومة الإلحاد . وقد أنشأوا لهم مدارس على نظام خاص بهم أشهرها كلها المدرسة العامة Studium generale فى كولونى ، وكانت لهم معاهد أخرى من نوعها فى بولونيا ، وأكسفورد . وأصبح كثيرون من الإخوان أساتذة فى هذه المدارس ، يعلّمون فى الأروقة الخاصة بطائفتهم . وفى عام ١٢٣٢ . انضم ألكسندر الهاليسى Alexander of Hales وهو من أقدر المدرسين فى باريس إلى طائفة الرهبان الفرنسيس ، وواصل تدريس مناهجه للجمهور فى دير الكردلير Cordeliers ، وأخذ عدد الإخوان الذين يدرسون فى باريس يزداد عاما بعد عام ، كما أخذ عدد من يستمعون إليهم من غير الرهبان يتضاعف ، حتى شكا المدرسون من غير رجال الدين أنهم قد تركوا جالسين أمام مكاتبهم « كالطيور المنفردة فى أعلى البيوت » ، وأجاب الرهبان عن ذلك بأن المدرسين غير الرهبان يسرفون فى الطعام والشراب ، فأضحوا لذلك كسالى بلداء[٥١] . وحدث فى عام ١٢٥٣ أن قتل طالب فى شجار بأحد الشوارع ، فاعتقل ولاة الأمور فى المدينة عدداً من الطلاب ، وأعرضوا عن احتجاجهم وطلبهم أن يحاكموا أمام أساتذة الجامعة أو الأسقف ، وأمر المدرسون بوقف المحاضرات احتجاجاً على هذا التصرف ؛ ولكن اثنين من رهبان الدمنيك ، وواحداً من الرهبان الفرنسيس ، وهم من جمعية المدرسين ، لم يطيعوا أمر الامتناع عن إلقاء المحاضرات ، فقررت الجمعية وقف عضويتهم فيها ؛ غير أنهم لجأوا إلى الإسكندر الرابع فأمر أساتذة الجامعة (١٢٥٥) بإعادتهم إلى

عضوية الجمعية . وأراد المدرسون أن يتجنبوا إطاعة الأمر فتفرقوا ، وحرمهم البابا من الدين واعتدى الطلاب والغوغاء على الرهبان فى الشوارع ؛ ودام الجدل ست سنين تراضى الطرفان بعدها : فقبل الأساتذة بعد أن نظموا من جديد ، المدرسين الرهبان ، وأقسم هؤلاء أن يطيعوا من ذلك الوقت قوانين « الجامعة » . ولكن كلية الفنون حرمت جميع الرهبان حرمانا دائماً من عضويتها . وناصبت جامعة باريس البابوية العداء بعد أن كانت محل عطفهم ، وناصرت الملوك فى نزاعهم مع البابوات ، وأضحت فى مستقبل الأيام مركز حركة « غاليّة » تسعى لفصل الكنيسة الفرنسية عن رومة .

ولم يكن لأى معهد علمى منذ أيام أرسطو من النفوذ ما كان لجامعة باريس ، فقد ظلت ثلاثة قرون لا تجتذب إليها أكبر عدد من الطلاب فحسب ، بل تجتذب فوق ذلك أعظم مجموعة من الرجال ذوى العقلية الممتازة . فأبلار ، وحنا السلزبرى ، وألبرتس مجنس ، وسيجر البرابنتى ، وتومس أكويناس ، وبورڤنتونا Boroventura ، وروچر بيكن ، ودنزاسكوتس ، ووليم الأكامى William fs Occam — هؤلاء يكادون يكونون هم تاريخ الفلسفة من ١١٠٠ إلى ١٤٠٠ . وما من شك فى أنه كان فى باريس مدرسون أفذاذ هم الذين أخرجوا أولئك الرجال العظام ، ونشروا من المتعة العقلية ما لا يوجد إلا فى ذرى التاريخ البشرى . يضاف إلى هذا أن جامعة باريس كانت خلال هذه القرون ذات سلطان قوى فى الدين والدولة ، فقد كانت لساناً قوياً يعبر عن الرأى العام ، وكانت فى القرن الرابع عشر من أعظم مراكز التفكير الحر ، وفى القرن الخامس عشر حصناً منيعاً للدين القويم والمحافظة على القديم . ولا يمكن القول بأنها « لم تضطلع بدور حقير » فى الحكم على چان دارك .

وكان لغيرها من الجامعات نصيب فى رفع فرنسا إلى منزلة الزعامة الثقافية فى أوربا . فقد كان فى أورليان مدرسة للقانون منذ القرن التاسع لا بعد ، وكانت

فى القرن الثانى عشر مركزاً للدراسات القديمة والأدبية الحديثة تنافس شارتر ، ولم يكن يفوقها فى القرن الثالث عشر إلا بولونيا فى تدريس القانون المدنى والكنسى . ولا تكاد تقل عنها فى شهرتها مدرسة القانون فى أنجر **Angers** وهى المدرسة التى أضحت فى عام ١٢٣٢ من أكبر جامعات فرنسا . وكانت طولوز « طلوشة » مدينة بجامعتها إلى إلحادها فى الدين : ذلك أن جريجورى التاسع أرغم الكونت ريمند فى عام ١٢٢٩ على أن يتعهد بأداء مرتبات أربعة عشر أستاذاً — فى علوم الدين ، والقانون الكنسى ، والفنون — يرسلون من باريس إلى طولوز لمقاومة حركة الإلحاد الألبجنسية بفضل ما لهم من النفوذ على الشبان الأكتانيين .

وكانت أشهر الجامعات الفرنسية القائمة فى خارج باريس هى جامعة منپلييه . لقد كانت هذه المدينة ، بفضل وقوعها على شاطئ البحر المتوسط فى منتصف المسافة بين مرسيليا وأسبانيا ، تستمتع بمزيج وثاب من الدم الفرنسى ، واليونانى ، والأسبانى ، ومن ثقافة هذه الأجناس ؛ وكان من أهلها عدد من التجار الإيطاليين وبقية من الجالية الإسلامية المغربية التى كانت فى وقت ما تحكم المدينة وكانت تجارتها رائجة ناشطة . وأنشأت منبلييه فى وقت غير معروف مدرسة للطب ما لبثت أن فاقت مدرسة سلرنو ، ولسنا نعلم علم اليقين أكان إنشاؤها أثراً من آثار طب سلرنو ، أم طب العرب ، أم اليهود . وأضيفت إلى هذه المدرسة مدارس للقانون وعلوم الدين ، و « الفنون » ، واكتسبت منبلييه بفضل تقارب هذه الكليات وتعاونها شهرة علمية واسعة ، وإن كانت كل واحدة منها كلية مستقلة . واضمحل شأن الجامعة فى القرن الرابع عشر ، ولكن مدرسة الطب انتعشت فى عصر النهضة ، وقام فيها عام ١٥٣٧ أستاذ يدعى فرانسوا ربليه يلقى سلسلة من المحاضرات عن أبقراط باللغة اليونانية .

الفصل السابع

جامعات إنجلترا

نشأت أكسفورد ، كما نشأت بسپورس المماثلة لها فى اسمها ، لتكون معبراً للماشية ؛ ذلك بأن نهر التاميز يضيق عند هذه النقطة ويقل غوره . وبنى حصن عندها فى عام ٩١٢ ، ونشأت سوق ، وعقد الملكان كنوت Cnut وهرلد Harold جمعيات هناك قبل أن تنشأ الجامعة بزمن طويل . ويبدو أن مدارس نشأت فى اكسفورد فى أيام كنوت ، ولكننا لا نسمع بوجود مدرسة كتدرائية بها . ونسمع حوالى عام ١١٧ عن وجود « أستاذ فى أكسفورد » ، Oxenford . وفى عام ١١٣٣ جاء من باريس ربرت پلن Robert Pullen ، وهو رجل من رجال الدين ، وأخذ يحاضر فى اللاهوت فى أكسفورد[٥٢] . وخطت المدرسة خطوات لا يعرف التاريخ عنها شيئاً الآن ، أضحت بعدها مدرسة أكسفورد فى القرن الثانى عشر مدرسة عامة أى جامعة — « ولا يعرف أحد متى تم ذلك »[٥٣] وفى عام ١٢٠٩ ، كما يقدر ذلك أحد كتاب ذلك العصر ، كان فى أكسفورد ثلاثة آلاف طالب ومدرس[٥٤] . وكان فيها كما كان فى جامعة باريس أربع كليات : كلية الفنون ، وكلية اللاهوت ، وكلية الطب ، وكلية قانون الكنيسة . أما تدريس القانون المدنى فقد أغفلته الجامعات فى إنجلترا واستقر فى دور المحاكم فى لندن — وكانت دار لنكولن ، وجراى ، والمعبد الداخلى Inner Temple ، والمعبد الأوسط Middle Temple فى القرن الرابع عشر وليدة البيوت أو الحجرات التى كان القضاة وأساتذة القانون القرن الثانى عشر يستقبلون فيها الطلاب ليدربوهم .

وبدأت الكليات فى أكسفورد كما بدأت فى باريس وكمبردج أروقة محبوسة عليها الأموال لفقراء الطلاب ، وأصبحت فى زمن مبكر ، بالإضافة إلى غرضها الأول قاعات للمحاضرات ؛ فكان المدرسون يسكنون فيها مع الطلاب ، ولم ينقض القرن الثالث عشر حتى كانت القاعات هى الأقسام المادية والتعليمية التى تكونت منها الجامعة . وحوالى عام ١٢٦٠ أنشأ سير چون ده باليول Sir John de Balliol الاسكتلندى (والد الملك الذى حكم اسكتلندة فى عام ١٢٩٢) « بيت باليول » فى أكسفورد ؛ ليكفر به عن جرم غير معروف ، ليأوى بعض الطلاب الفقراء الذين سموا socii أى الزملاء ، وخص كلا منهم بثمانية بنسات (أى ما يعادل ٨ دولارات أمريكية) فى الأسبوع . وبعد ثلاث سنين من ذلك الوقت أنشأ ولترده مرتون Walter de Merton « بيت طلاب مرتون » فى مولدن Malden أولا ثم فى أكسفور بعد قليل ، وحبس عليه بعض المال ، ليعنى بطلاب بقدر ما تمكنه من ذلك موارده . وتضاعفت هذه الإيرادات أكثر من مرة على أثر ارتفاع قيمة الأرض ، وبلغ هذا الارتفاع حداً شكا معه كبير الأساقفة بكهام Peckham فى عام ١٢٨٤ من أن « الطلبة الفقراء » يتلقون منحاً إضافية « للمعيشة المترفة »[٥٥] . ويمكن القول بوجه عام إن الكليات الإنجليزية لم تغتن بفضـــل المنح الدراسية وغيرها من الهبات فحسب ، بل اغتنت فوق ذلك بفضل ارتفاع قيمة الضياع التى حبست عليها . وفى عام ١٢٨٠ أنشئت قاعة الجامعة — وهى الآن كلية الجامعة University College بهبة من وليم الدرهامى كبير أساقفة رون Rouen . ويتبين الإنسان كيف بدأت هـــذه الكليات الشهيرة بداية متواضعة إذا اطلع على شروط تأسيسها ، فقد كانت تنص على وجود أربعة أساتذة وعدد من الطلاب الذين يهمهم أن يسكنوا معهم . وكان الأساتذة يختارون واحداً من بينهم ليكون « الزميل الأكبر »

أو « الرئيس principal » وهو الاسم الذى يعرف به عمداء الكليات الإنجليزية فى هذه الأيام . وكانت جامعة أكسفورد فى القرن الثالث عشر هى هذه الكليات مجتمعة فى نقابة الأساتذة «University» ؛ وكان هؤلاء يحكمهم وكلاء عنهم ثم مدير يختارونه ويخضع إلى أسقف لنكولن وإلى الملك .

ولم يحل عام ١٣٠٠ حتى كانت أكسفورد مركزاً للنشاط الذهنى والنفوذ العام لا تفوقها فى ذلك إلا باريس . وكان أشهر خريجيها كلهم هو روجر بيكن . والتف حوله عدد آخر من الرهبان الفرنسيس من بينهم آدم مارش Adam Marsh ، وتومس اليوركى Thomas of York ، وجون بكهام John Peckham ، فتألفت منه ومنهم جماعة ممتازة من رجال العلم . وكان زعيمهم وملهمهم ربرت جروستستى Robert Grosseteste (١١٧٥ ؟ — ١٢٥٣) أظرف شخصية فى حياة أكسفورد فى القرن الثالث عشر : فقد درس فيها القانون والطب ، والعلوم الطبيعية ، وتخرج فى عام ١١٧٩ ، ونال درجته فى علوم الدين فى ١١٨٩ ، وسرعان ما اختير بعدئذ « أستاذ مدارس أكسفورد » — وتلك أقدام صووة من لقب مدير الجامعة .

وأصبح فى عام ١٢٣٥ ، وهو لا يزال مديراً لجامعة أكسفورد ، أسقف لنكولن ، وأشرف وهو فى منصبه هذا على إتمام الكتدرائية العظيمة . وأبدى نشاطا عظيما فى دراسة اللغة اليونانية وأرسطو ، وأسهم فى الجهود العقلية الجبارة التى بذلت فى القرن الثالث عشر للتوفيق بين فلسفة أرسطو والدين المسيحى ، وكتب شروحاً لكتاب الطبيعة لأرسطو ، والتحليلات ، ولخص علوم زمانه فى موسوعة علمية ، وعمل على إصلاح التقويم . وكان يفهم المبادئ التى يقوم عليها المجهر والمرقب ، وفتح أبواباً كثيرة لروجر بيكن فى الرياضيات والعلوم الطبيعية ؛ وأكبر الظن أنه هو الذى عرف بيكن بالخصائص المكبرة

للعدسات[٥٦] . ويبدو أن كثيراً من الآراء التى نعزوها إلى بيكن — فى فن المنظور ، وقوس قزح ، والمد والجزر ، والتقويم ، والاعتماد على التجارب العلمية — قد أشار بها عليه جروستستى ، ونخص منها بالذكر الفكرة القائلة إن العلوم كلها يجب أن تعتمد على الرياضيات ، لأن القوى كلها أثناء انتقالها فى الفضاء تتبع أشكالا وقواعد هندسية[٥٧] . وكتب شعراً فرنسياً ورسالة فى الزراعة ، وكان رجل قانون وطبيباً ، كما كان عالما فى الدين وفى العلوم الطبيعية . وقد شجع دراسة اللغة العبرية ، وكان يهدف بذلك إلى هداية اليهود إلى الدين المسيحى ، وكان فى هذه الأثناء يعاملهم معاملة المسيحى الكثير التسامح ، ويحميهم قدر ما يستطيع من حقد الجماهير واعتدائهم . وكان فوق هذا كله مصلحا اجتماعيا نشيطا ، يدين على الدوام بالولاء للكنيسة ، ولكنه جرؤ على أن يعرض على البابا إنوسنت الرابع (١٢٥٠) مذكرة مكتوبة يعزو فيها عيوب الكنيسة إلى محكمة الكرسى البابوى[٥٨] . وأنشأ فى أكسفورد أول « صندوق » يقرض الطلاب المال بغير فائدة[٥٩] ، وقصارى القول أنه هو أول واحد من ألف من ذوى العقول النابهة الذين أوجدوا بأعمالهم الجليلة هيبة أكسفورد العالية ومكانتها العظيمة فى عالم العلم والعقل .

وأكسفورد الآن جامعة ومركز صناعى معاً ، تصنع السيارات كما تصنع العظماء ، أما كيمبردج فلا تزال مدينة كليات جامعية ، وجوهرة من جواهر العصور الوسطى تزينها الثروة الحديثة وحسن الذوق الإنجليزى ، كل ما فيها ينتمى إلى كلياتها ، ولا يزال الهدوء العقلى الذى هو من خصائص العصور الوسطى باقيا فى هذه البلدة ، أجمل البلدان الجامعية على الإطلاق . ويبدو أن عظمتها الذهنية يجب أن ترجع إلى حادث اغتيال وقع فى أكسفورد فقد قتل أحد الطلاب فى عام ١٢٠٩ امرأة فى تلك البلدة الأخيرة ، فاعتدى أهلها على مسكن الطلاب وشنقوا طالبين أو ثلاثة منهم . وأضربت نقابة المدرسين عن

العمل احتجاجا على ما اقترفه أهل المدينة ؛ وغادر أكسفورد ٣٠٠٠ طالب ومعهم ، بطبيعة الحال ، كثيرون من المدرسين — إذا صدقنا ماثيو باريس وهو رجل لا يوثق بأقواله عادة . ويقال إن عدداً كبيراً منهم ذهبوا إلى كيمبردج وأقاموا فيها قاعات وكليات . ذلك أول ما ذكر عن وجود شيء أعلى درجة من مدرسة أولية . وحدثت هجرة ثانية — من الطلاب الباريسيين فى ١٢٢٨ — زاد بها عدد الطلاب زيادة كبيرة . وفى عام ١٢٨١ نظم أسقف إلى Ely أولى الكليات غير الدينية فى كيمبردج وهى كلية القديس بطرس التى تسمى الآن پيترهوس « بيت بطرس » . وشهدت القرون الثلاثة الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر إنشاء كليات أخرى وازدهارها ، منها ما هو آية من آيات العمارة فى العصور الوسطى . ويحتضنها كلها نهر كام Cam الهادئ المتثنى ، وتكون هى وملحقاتها طائفة من أروع ما قام به الإنسان من الأعمال .

الفصل الثامن

حياة الطلاب

لم تكن سن طالب العصور الوسطى محددة ؛ فقد يكون فى أى سن ؛ وقد يكون قساً أو راهباً ممتازاً ، أو رئيس دير ، أو تاجراً ، وقد يكون متزوجاً أو غلاماً فى الثالثة عشرة من عمره ؛ يثقله عبء الكرامة المفاجئة التى ألقيت عليه فى هذه السن . وكان هذا الطالب يذهب إلى بولونيا ؛ أو أورليان ؛ أو منپلييه ليصبح محامياً ، أو طبيباً ، أو يذهب إلى غير هذه الجامعات فى بعض الأحوال لكى يؤهل نفسه لخدمة الحكومة ؛ أو يجد لنفسه فى العادة مجالا فى الكنيسة . ولم يكن يؤدى امتحاناً للدخول فى الجامعة ، بل كل ما كان يطلب إليه أن يعرف اللغة اللاتينية ، وأن يكون قادراً على أداء أجر زهيد لكل مدرس يدرس منهجه عليه . فإذا كان فقيراً ، فإنه قد يستعين على ذلك بمنحة دراسية أو بمعونة تسديها إليه قريته أو كنيسته ، أو يسديها إليه أصدقاؤه أو أسقفه . وكانت هناك آلاف من هذه الحالات[٦٠] . فسامسون Samson رئيس الدير وبطل أخبار جوسلين Jocelyn's Chronicle والماضى والحاضر لكارليل Carlyle's Past and Present مدين بتعليمه إلى قس فقير كان يبيع الماء المقدس ليؤدى لسامسون أجر تعليمه[٦١] . وكان الطالب الذاهب إلى جامعة أو العائد منها ينتقل عادة بالمجان ، ويجد الطعام والمأوى فى الأديرة التى فى طريقه[٦٢] .

فإذا قدم إلى أكسفورد ، أو پاريس أو بولونيا ألفى نفسه عضواً فى جماعة كبيرة من الطلاب السعداء ؛ الحيارى ، المقبلين على العلم يجرفهم تيار دافق من الحماسة يجعل الفلسفة — المشوبة بنزعة إلى الإلحاد — مثيرة كالحرب ؛ كما

يجعل الجدل ممتعا فتانا كأنه ألعاب البرجاس . وإذا كان يعيش فى عام ١٣٠٠ فإنه يجد فى باريس ٧٠٠٠ طالب ، وفى بولونيا ٦٠٠٠ ، وفى أكسفورد ٣٠٠٠(*) . وكان عدد طلاب جامعات باريس ، وأكسفورد وبولونيا فى القرن الثالث عشر يزيد عادة على عددهم بعده ، وأكبر الظن أن سبب هذه الزيادة قلة الجامعات المنافسة لها ، وكان الطالب الحديث تستقبله « أسرته » وقد ترشده إلى مسكن يعيش فيه — ربما كان مع أسرة فقيرة . وإذا كان لها صلات قوية بالمسئولين فقد يعطى سريراً ويترك مع غيره من الطلاب فى حجرة فى « بيت الطلبة » ، فتقل بذلك نفقاته . وكان الطالب فى أكسفورد عام ١٣٧٤ يؤدى مائة شلن وأربعة شلنات (ألف دولار وأربعين دولاراً) فى العام نظير مسكنه وطعامه وعشرين شلناً (أن مائتى دولار) أجراً لتعليمه وأربعين شلناً ثمناً لملابسه[٦٥] .

ولم يكن تفرض عليه ملابس جامعية خاصة ، على أنه كان يطلب إليه أن يشد ثوبه الخارجى بالأزرار وألا يمشى حافى القدمين إلا إذا كان جلبابه يصل إلى عقبيه[٦٦] . وكان الأساتذة يمتازون بلبس القبة Cappa وهى « حرملة » حمراء أو أرجوانية ذات حاشية من جلد السنجاب ومقنَّعة ، وكانوا فى بعض الأحيان يغطون رءوسهم بقلنسوة مربعة فى أعلاها خصلة بدل « الشرابة » . وكان الطالب فى جامعة باريس فى منزلة رجل الدين ويتمتع بحصاناته . فكان

(*) هذه هى تقديرات راشدول Rashdall المتحفظ[٦٣] . أما أودوفردوس Odofredus العالم القانونى الذى كان يكتب فى عام ١٢٥٠ فقد قدر عدد طلاب بولونيا فى عام ١٢٠٠ بعشرة آلاف طالب ، وقدر رابانس جوما Rabanus Gaume وهو راهب نسطورى عدد طلاب جامعة بارس فى عام ١٢٨٧ بثلاثين ألفا ، وقال فتز رالف Fitzralph كبير أساقفة أرماغ Armagh حوالى عام ١٣٦٠ إنه كان فى جامعة أكسفورد فى وقت ما ثلاثون ألف طالب ؛ وقدرهم ويكلف Wyclif فى عام ١٣٨٠ بنصف هذا العدد ؛ وعاد الأسقف غاسقوين Gascoigne الذى كان رئيس شرف فى جامعة أكسفورد فقدرهم بثلاثين ألفا[٦٤] ؛ ولا يخفى أن هذه التقديرات كلها إنما تعتمد على الحدس والتخمين ، وأنها مبالغ فيها بلا ريب ولكننا لا نستطيع البرهنة على كذبها .

يعفى من الخدمة العسكرية ، ومن الضرائب التى تفرضها الدولة على غيره ، ومن المحاكمة أمام المحاكم غير الدينية . وكان ينتظر منه أن يدخل فى سلك رجال الدين ؛ على أنه لم يكن يرغم على ذلك فى كل الأحوال . وكان فى وسعه إذا تزوج أن يظل طالباً ، ولكنه فى هذه الحال يفقد امتيازات رجال الدين ، ولا يستطيع الحصول على درجة علمية . أما الاختلاط الجنسى المتزن فلم يكن يجازى عليه بمثل هذه العقوبات . وقد وصف الراهب جاك ده فترى Jaque de Vitry طلبة جامعة باريس فى عام ١٢٣٠ بأنهم : « فاسقون أكثر من سائر أبناء الشعب ؛ فهم لا يرون الفسق إثماً ؛ وكانت العاهرات يسحبن الطلاب إلى المواخير سحباً يكاد يكون قوة واقتداراً ، ويفعلن ذلك علناً فى شوارع المدينة ، فإذا امتنع الطلاب عن الدخول اتهمتهم باللواط . . . وكانت هذه الرذيلة البشعة (اللواط) تملأ المدينة إلى حد كان يعد معه من علامات النبل أن يكون للشخص غلام أو أكثر . وكان يوجد فى المنزل الواحد حجرات للدرس فى الطابق العلوى وماخور فى أسفل منه ؛ فكان الأساتذة يحاضرون فى الطبقة العليا ، والعاهرات يمارسن حرفتهن الدنيئة فى الطبقة السفلى ؛ وكانت مناقشات الفلاسفة تسمع فى البيت الواحد مختلطة بمشاحنات العاهرات والقوادين[٦٧] .

هذا وصف يحمل فى طياته المغالاة الواجبة ؛ وكل ما يحق لنا أن نستنتجه منه أن لفظى **طالب العلم والقسيس** لم يكونا مترادفين فى باريس(*) . ويواصل جاك وصفه فيقول إن كل « أمة » من الطلاب كانت لديها صفات محببة لها تصف بها « الأمم » الأخرى . فالإنجليز كانوا يوصفون بأنهم يكثرون من الشراب وأن لهم ذيولا ؛ والفرنسيون كانوا مزهوين مخنثين ؛ والألمان

(*) ولكن قارن هذا بقول راشدول : « وإن الأدلة الكثيرة على أن الصورة التى يصور بها ده فترى الحياة المدرسية ليست فى أساسها غير صادقة وإن كان فيها مبالغة[٦٨] »

كانوا صخابين ؛ « يبذيئين إذا شربوا » ؛ والفلمنكيون كانوا بدناً نهمين « ليِّنين كالزبد » ؛ وكانوا كلهم « كثيراً ما ينتقلون بهذا الاغتياب من الألفاظ إلى اللكمات »[٦٩] . وكان طلاب جامعة باريس يحشرون أولا فى الجزيرة التى تقوم عليها كتدرائية نُتردام ؛ وكانت هذه الجزيرة هى الحى اللاتينى الأصلى ، وكان سبب تسميتها بذلك الاسم أن الطلاب كان يراد منهم أن يتكلموا باللغة اللاتينيه — حتى فى حديثهم غير المدرسى — وهى قاعدة كثيراً ما كانت تخرق ، وحتى حين اتسعت رقعة الحى اللاتينى حتى شملت الطرف الغربى من الضاحية الممتدة فى جنوب نهر السين ، كان عدد الطلاب فيها من الكثرة بحيث لم يكن من المستطاع السيطرة عليهم ، فكانت المشاحنات كثيرة بين الطالب والطالب ، وبين الطالب والأستاذ ، وبين الطالب والشخص من أهل البلدة ، وبين الراهب وغير الراهب . هذا فى باريس ، وفى أكسفورد كان ناقوس سانت مارى يدعو الطلاب ، وناقوس سانت مارتن يدعو أهل البلدة ، إلى حرب متقطعة بين بلدة وبلدة . وقد حدث شغب فى أكسفورد (١٩٢٨) وقعت فيه على الممتلكات أضرار قيمتها ٣٠٠٠ جنيه (١٥٠٫٠٠٠ دولار)[٧٠] . وأصدر موظف فى باريس (١٢٦٩) إعلاناً ضد الطلاب الذين « يرتكبون بالنهار والليل فظائع تؤدى إلى إصابة الكثيرين بالجروح وإلى قتلهم ، ويخطفون النساء ، ويفسقون بالعذارى ، ويسطون على البيوت » ، ويرتكبون « مراراً وتكراراً حوادث السرقة وغيرها من الفظائع »[٧١] . ولربما كان طلاب أكسفورد أقل انهماكا فى الشهوات الجنسية من طلبة باريس ، ولكن حوادث القتل كانت كثيرة فيها ، وتنفيذ العقاب فى القاتل كان نادراً ؛ فقلما كان القاتل يطارد إذا غادر البلدة ، وكان الرجل فى أكسفورد يرى أن حسب القاتل عقاباً له على جرمه أن يضطر إلى الانتقال إلى كيمبردج[٧٢] .

وإذ كان شرب الماء غير مأمون العاقبة وقتئذ ، لأن أوربا لم تكن قد

عرفت الشاى ، أو القهوة ، أو الدخان ، فإن الطلاب كانوا يوفقون بين حاجتهم من جهة ، وبين مطالب أرسطو والحجرات غير المدفأة من جهة أخرى ، بالخمر والجعة . وكان من الأسباب الداعية إلى إنشاء « نقابات » الطلاب الاحتفال بالأعياد الدينية والجامعية بالشرب الكثير جهرة . وكانت كل خطوة فى السنة المدرسية « موسماً للطرب » يحيا بالشراب . وكان الطلاب فى كثير من الحالات يقدمون هذه المرطبات لممتحنيهم . وكانت « الأمم » فى العادة تنفق فى الحانات كل ما بقى لديها من المال فى آخر العام الدراسى . وكان لعب الكعوب تسلية أخرى للطلاب ، وقد فرضت عقوبة الحرمان الدينى على بعض الطلاب للعبهم بالكعوب على مذابح نتردام[٧٣] . أما فى الأوقات الأكثر نظاماً فقد كان الطلاب يسلون أنفسهم بالكلاب ، والصقور ، والموسيقى ، والرقص ، والشطرنج ، ورواية القصص ، والسخرية من الطلبة الجدد . وكان هؤلاء الجدد يسمون ذوى المناقير الصفر ، وكانوا يتخذون هدفاً للإساءة والسخرية ، ويرغمون على إقامة وليمة لسادتهم الذين سبقوهم إلى الجامعة بعام ؛ وكان الخروج على القوانين يعاقب بالغرامات أو بإرغام الخارج على تقديم عدة جالونات من الخمر يشربها الجماعة . ولم يرد ذكر للجَلْد فى تأديب طلاب الجامعات حتى القرن الخامس عشر وإن كان كثيراً ما يلجأ إليه فى المدارس العامة . وكان ولاة الأمور فى الجامعة يفرضون على الطلاب زيادة على هذا أن يقسموا يميناً مغلظة بإطاعة جميع اللوائح ، وكان من الأيمان المفروضة فى جامعة باريس يميناً يتعهد الطالب بمقتضاها ألا ينتقم من الممتحنين الذين يسقطونه فى الامتحان[٧٤] ، فكان التلاميذ يقسمون مسرعين وينقضون أيمانهم على مهل . لقد كان الحنث فى الأيمان كثيراً لأن الجحيم لم تكن ترهب رجال الدين المحدثين .

ومع هذا كله كان وقت الطلاب يتسع لسماع المحاضرات . وكان منهم الكسالى ، ومنهم من كان الفراغ أحب إليهم من الشهرة ؛ فكانوا لذلك

يفضلون مناهج القانون الكنسى الذى كانت دروسه تبدأ فى الساعة الثالثة وتمكنهم من أن يواصلوا نومهم(٧٥) . وإذ كانت الساعة الثالثة بحساب ذلك الوقت هى الساعة التاسعة صباحاً ، فإنه يظهر من هذا أن معظم الفصول كانت تبدأ الدراسة بعيد الفجر ؛ وأكبر الظن أن ذلك كان فى الساعة السابعة صباحاً . وكانت السنة الدراسية فى بداية القرن الثالث عشر تدوم أحد عشر شهراً ، وقبل أن ينصرم القرن الرابع عشر كانت « العطلة الطويلة » ، التى نشأت من الحاجة إلى أيدى الشباب فى زمن الحصاد ، تمتد من ٢٨ يونية إلى ٢٥ أغسطس أو ١٥ سبتمبر ، وفى جامعتى أكسفورد وباريس لم تكن عطلة عيد الميلاد وعيد الفصح تزيد على بضعة أيام قليلة ، أما فى جامعة بولونيا حيث كان الطلاب أكبر سناً وأكثر غنى ، ولعلهم كانوا أيضاً أبعد موطناً ، فقد كانت عطلة عيد الميلاد عشرة أيام وعطلة عيد الفصح أربعة عشر يوماً ، وكانوا يعطون واحداً وعشرين يوماً فى الحفلات التى تسبق الصوم الكبير .

ويبدو أنه لم تكن تعقد امتحانات فى أثناء دراسة المناهج ، ولكن كان هناك إلقاء ونقاش ، وكان يمكن إقصاء العاجزين فى خلال الدراسة . ثم نشأت حوالى منتصف القرن الثالث عشر عادة إلزام الطالب ، بعد أن يمضى خمس سنين مقيما فى الجامعة للدراسة ، أن يؤدى امتحاناً أولياً أمام لجنة من « أمته » . وكان هذا يتضمن أولا اختباراً خاصاً منفرداً — يشمل إجابات عن أسئلة ، ويتضمن ثانيا مناقشة علنية يدافع الطالب فيها عن موضوع أو موضوعين ، ويفند اعتراض المعترضين ، ثم يختتم النقاش بتلخيص للنتائج . وكان الذين يجتازون هذه الاختبارات الأولية بنجاح يسمون البكالارى Baccalarii أى الأتباع ؛ وكان يسمح لهم أن يخدموا أستاذاً بوصفهم مدرسين مساعدين أو محاضرين « عاجلين » . وكان فى وسع التابع أن يواصل دراساته وهو مقيم ثلاث سنين أخرى ، فإذا رأى أستاذه بعدئذ أنه خليق بالتقدم إلى الامتحان قدم إلى ممتحنين يعينهم رئيس الجامعة .

وكان ينتظر من الأساتذة ألا يقدموا طلاباً يتضح أنهم غير مستعدين للامتحان إلا إذا كان هؤلاء الطلاب من ذوى الثراء أو المكانة الممتازة ؛ وكان الامتحان فى هذه الحالة يعد لكى يناسب مقدرة الطالب ، أو كان يُستغنى عنه استغناء تاما[٧٦] . وكانت الصفات الخلقية من الموضوعات التى يشملها الامتحان ؛ لذلك فإن الجرائم الخلقية التى يرتكبها الطالب خلال السنين الأربع أو السبع التى يقضيها فى الجامعة قد تحول بينه وبين الحصول على الدرجة التى يريدها ، لأن الدرجة كانت شهادة بالرقى الأخلاقى والاستعداد العقلى فى وقت واحد . وحسبنا شاهداً على ذلك أن السبعة عشر الذين رسبوا من ثلاثة وأربعين تقدموا لامتحان جامعة ڤينا فى عام ١٤٤٩ رسبوا كلهم لنقص فى أخلاقهم ، ولم يرسب منهم واحد لعدم كفايته العقلية .

فإذا اجتاز الطالب هذا الامتحان العلنى والأخير أصبح أستاذاً أو « دكتوراً » وحصل من تلقاء نفسه على إجازة مصدق عليها من السلطة الدينية ليدرِّس فى أى مكان شاء فى العالم المسيحى . وكان وهو « تابع » يُدَرِّس مكشوف الرأس ، أما الآن وقد نال إجازته فقد كان يتوّج بقلنسوة ، ويقبِّله أستاذه ويباركه ، ثم يجلسونه فى كرسى الأستاذية ، فيلقى محاضرة افتتاحية ، أو يعقد نقاشا افتتاحيا ؛ وكان هذا هو بداية عمله أستاذاً . وكان من مستلزمات هذا التخرج أن يدعو جميع أساتذة الجامعة أو كثرتهم إلى وليمة ويقدم لهم الهدايا ، وبهذه الاحتفالات وغيرها ينضم إلى نقابة الأساتذة .

ومما يريح بالنا أن نقول إن التعليم فى العصور الوسطى كان فيه من العيوب المتعبة بقدر ما فى نظمنا التعليمية فى الوقت الحاضر . فلم يكن يواصل الدراسة فى الخمس السنين التى يتطلبها نيل البكالوريوس إلا قلة صغيرة من المقيدين فى

سجلات الجامعة . وكان افتراض ذوى الشأن أن جميع عقائد الكنيسة المقررة يلتزم بها المؤمنون بالدين مما يدعو عقول الطلاب للدعة لا للعمل . وكان البحث عن الحجج التى تثبت هذه العقائد ، وإيراد الشواهد من الكتاب المقدس أو من أقوال آباء الكنيسة لتأييدها ، وتفسير أقوال أرسطو بحيث تتفق معها ، كان هذا كله يدرّب العقول على التقسيم الشّعرى الدقيق أكثر مما يدرب الذهن على توخى الحقيقة والإذعان لما يمليه الضمير الحى . وفى وسعنا أن نسارع إلى العفو عن هذه الأخطاء إذا ذكرنا أن أى أسلوب من أساليب الحياة ينمى مثل هذا التعسف فى الإيمان بالفروض التى يقوم عليها هذا الأسلوب . وها نحن أولاء فى هذه الأيام نترك الناس أحراراً يشكّون فى عقائد آبائهم الدينية ، ولا نتركهم أحراراً يشكون فى عقائدهم السياسية ؛ وهاهو ذا الإلحاد السياسى يعاقب عليه بالحرمان الاجتماعى كما كان الإلحاد فى الدين يعاقب عليه بالحرمان الدينى فى عصر الإيمان . والآن ورجل الشرطة يعمل جاهداً لكى يحل محل الله ، فقد أصبح الارتياب فى الدولة أشد خطورة من الارتياب فى الكنيسة ، ذلك أنه ما من نظام يغض النظر عن تحدى المبادئ الأساسية التى يقوم عليها .

وما من شك فى أن انتقـــال المعارف والتدرب على معرفة القيم أكثر انتشاراً وأعظم قدراً فيما يبدو لنا مما كانا فى العصور الوسطى ، ولكننا لا يصح لنا أن نقول هذا القول نفسه عن التربية الخلقية . ولم تكن المقدرة العملية مما تعوز خريج الجامعة فى العصور الوسطى ، فقد كانت تخرج فى كل عام عدداً كبيراً من رجال الإدارة القادرين ، ورجال القانون الذين أوجدوا الملكية الفرنسية ، والفلاسفة الذين قادوا سفينة المسيحية فى بحار العقل الصاخبة ، والبابوات الذين أوتوا من الجرأة ما جعلهم يفكرون تفكير أوربا الموحدة . ولقد شحذت المسيحية ذكاء

الرجل الغربى ، وخلقت لغة الفلسفة ، ورفعت مكانة التعليم وهيبته ، وقضت على فترة المراهقة الذهنية عند البرابرة الظافرين .

لقد انهارت كثير من أعمال العصور الوسطى أمام عجلة الزمن التى تدمر كل شئ فى سبيلها ، أما الجامعات التى خلفها لنا عصر الإيمان بكل ما فيها من عناصر التنظيم ، فها هى ذى تكيف نفسها حسب التطورات التى لا مفر منها ، وتخلع عن نفسها إهابها القديم لتحيا حياة جديدة ، وتنتظر منا أن نعقد لواءها بلواء الحكومة .

الباب الخامس والثلاثون

أبـــلار

١٠٧٩ – ١١٤٢

الفصل الأول

الفلسفة القدسية

ليسمح لنا القارئ بأن نخص أبلار بباب كامل ، وليس حديثنا عنه فى هذا الباب مقصوراً عليه بوصفه فيلسوفاً أو من أصحاب الفضل فى إنشاء جامعة باريس أو شعلة ألهبت عقل أوروبا اللاتينية فى القرن الثانى عشر ، بل سنتحدث عنه بوصفه هو وهلواز ممثلين لأخلاق عصرهما وآدابه ، وأرقى وأعظم ما يخلب اللب ويبهر العقل فى ذلك العصر . كان مولد أبلار فى قرية له باليه Pallet القريبة من نانت Nantes إحدى مدن بريطانيا . وكان أبوه المعروف لنا باسم بيرنجر Bérenger ولا شىء غير هذا ، صاحب ضيعة متواضعة ، وكان فى مقدوره أن يهيئ لأولاده الثلاثة ولابنته تعليما حراً . وكان بيير Pierre (ولسنا نعرف أصل لقبه أبلار) أكبر أولئك الأبناء وكان فى مقدوره أن يطالب بحق الابن الأكبر فى ميراث أبيه ؛ ولكنه كان مولعاً بالدرس والتفكير إلى حد جعله بعد أن كبر ينزل لأخويه عن حقه ، وعن نصيبه فى أملاك الأسرة ، وشرع يطلب الفلسفة ، ويلقى بنفسه فى معركتها أينما حمى وطيسها ، أو أينما وجد معلماً ذائع الصيت يُدرّسها . وكان من أعظم ما أثر فى حياته المستقبلة أن كان من أول

أساتذته چان روسلان Jean Roscelin (حوالى ١٠٥٠ — حوالى ١١٢٠) ، وهو رجل متمرد انصب عليه كما انصب على أبلار من بعده سخط الكنيسة وحرمانه من الدين .

وكان منشأ الجدل الذى أثاره روسلان مسألة من مسائل المنطق الجاف الموغل فى الجفاف ، والتى تبدو أبعد المسائل كلها عن الأذى ، وهى الوجود الموضوعى « للكليات » . وكان « الكلى » فى الفلسفة اليونانية وفلسفة العصور الوسطى هو الفكرة العامة التى تدل على صنف من الأشياء (كالكتاب ، والحجر ، والكوكب ، والرجل ، والنوع الإنسانى ، والشعب الفرنسى ، والكنيسة الكاثوليكية) ؛ أو الأعمال (كالقسوة ، والعدالة) ؛ أو الصفات (كالجمال والصدق) . وكان أفلاطون ، وهو العليم بسرعة زوال الكائنات والأشياء الفردية ، قد قال بأن الكلى أكثر بقاء ، وأنه لذلك أكثر حقيقة ، من أى فرد من الصنف الذى يصفه : فالجمال أكثر حقيقة من فرينى Phryne ، والعدالة أكثر حقيقة من أرستيديز ، والرجل أكثر حقيقة من سقراط ؛ وهذا هو الذى كانت العصور الوسطى تعبر عنه « بالواقعية » . وخالف أرسطو هذا الرأى وقال إن « الكلى » ليس إلا فكرة يكونها العقل لتمثل صنفاً من الأشياء المتماثلة ؛ فهو يرى أن الصنف نفسه لا يوجد إلا فى صورة أعضائه التى يتركب هو منها . والناس فى وقتنا هذا يتجادلون : هل يوجد « عقل جماعة » منفصلا عن رغبات الأفراد الذين تتكون منهم هذه الجماعة وأفكارهم ومشاعرهم ؟ فأما هيوم فقد قال إن « العقل » الفردى نفسه ليس إلا اسماً مجرداً لسلسلة الأحاسيس والأفكار ، والإرادات التى فى كائن حى ولمجموعها . ولم يكن اليونان يهتمون اهتماماً كبيراً بهذه المسألة ، واكتفى فيلسوف من آخر الفلاسفة الوثنيين — هو برفيرى Porphyry (حوالى ٢٣٢ — حوالى ٣٠٤) الذى أقام فى الشام وفى رومة — بصياغتها دون أن يعرض حلا لها . لكن العصور الوسطى كانت تراها

مسألة حيوية . فقد كانت الكنيسة تزعم أنها موجود روحى بالإضافة إلى مجموع الأفراد المنضمين إليها ؛ وكانت تشعر بأن « للكل » صفات وقوى غير صفات أجزائه وقواها ؛ ولم يكن فى مقدورها أن تعترف بأنها فكرة مجردة ، وأن الأفكار والعلاقات التى لا نهاية لها والتى يُوحى بها لفظ « الكنيسة » ليست إلا أفكاراً ومشاعر فى أعضائها المكونين لها ، بل إنها هى « عروس المسيح » الحية . وشر من هذا قولها : إذا كان الأشخاص ، والأشياء ، والأعمال ، والأفكار المفردة ، هى وحدها الموجودة ، فماذا يكون مصير الثالوث ؟ هل تكون وحدة الأقانيم الثلاثة فكرة مجردة لا أكثر ، أو هل هى ثلاثة آلهة منفصلة بعضها عن بعض ؟ إن علينا أن نضع أنفسنا فى الجو اللاهوتى المحيط بروسلان إذا شئنا أن نفهم ما حل به .

ولسنا نعرف آراءه إلا من أقوال معارضيه ، فهم يقولون إنه يرى أن الكليات أو الأفكار العامة ليست إلا ألفاظا (voces) ، أى هواء الصوت (flatus vocis) ؛ فأما الأشياء المفردة فموجودة ، والأفراد المفرودون موجودون ، وأما كل ما عدا هذا فهو أسماء (noméina) . وليس للأجناس ، والأنواع ، والصفات ، وجود مستقل ؛ فالإنسان لا وجود له ، بل الذين يوجدون هم الرجال ، ولا وجود للون إلا فى الأشياء الملونة . وما من شك فى أن الكنيسة كانت تترك روسلان وشأنه لو لم يطبق هذه « الاسمية » على الثالوث . فقد نُقل عنه أنه قال إن الله لفظ أطلق على أقانيم الثالوث الثلاثة ، كما أطلق لفظ الإنسان على كثيرين من الرجال ولكن كل ما له وجود حق هو الأقانيم الثلاثة — أى ثلاثة آلهة فى واقع الأمر . وفى هذا اعتراف بالشرك الذى يتهم به الإسلام المسيحية اتهاماً ضمنيا خمس مرات فى اليوم من فوق ألف مأذنة(*) . ولم تكن الكنيسة ترضى

(*) يقصد حين يقول المؤذن « لا إله إلا الله » ولكننا لا نرى فى هذا اتهاماً للمسيحة بل تقريرا لركن من أركان الإسلام . (المترجم)

بصدور هذه التعاليم من شخص هو قس من قساوسة كنيسة كمبينى Compiègne . ودعى روسلان للمثول بين يدى مجمع دينى مقدس فى سواسون (١٠٩٢) وخيير بين الرجوع عن أقواله والحرمان ، فاختار الرجوع ، وفر إلى إنجلترا وهاجم فيها عادة التسرى عند رجال الدين ؛ ثم عاد إلى فرنسا ودرس فى تور ولوش Loche . ويبدو أن هذه البلدة هى التى جلس فيها أبلار عند قدميه وهو نافد الصبر متململ[٢] . ورفض أبلار فكرة « الاسمية » ولكنه حرم من الدين مرتين لشكه فى الثالوث . وخليق بالملاحظة أيضا أن القرن الثانى عشر كان يسمى الواقعية « العقيدة القديمة » وأنه كان يسمى معارضيها الحديثين moderni[٣]

ودافع أنسلم (١٠٣٣ — ١١٠٩) عن الكنيسة دفاعاً مجيداً فى عدة مؤلفات يبدو أنها حركت عواطف أبلار ، وكان لها فيه أثر عميق ، وإن لم يكن هذا الأثر إلا المعارضة . وكان أنسلم من أبناء أسرة من أشراف إيطاليا ؛ وعين رئيساً لدير بك Bec فى نورمندية عام ١٠٧٨ . وأضحى دير بك فى أثناء حكمه ، كما أضحى فى أيام لافران La Faanc مدرسة من أكبر المدارس التعليمية فى الغرب . ولعل أنسلم كان ، كما وصفه زميله الراهب إيدمر Eadmer فى ترجمة له تنم عن تعلقه به ، زاهداً ظريفاً لا يرغب فى شىء سوى التفكير والصلاة ، خرج من صومعته كارهاً ليحكم الدير ومدرسته . وكان الشك أبعد الأشياء عن رجل مثله ، بل كان الإيمان عنده هو الحياة ، و « يجب أن يسبق الإيمان ؛ وكيف يستطيع عقل محدود أن يأتى عليه يوم يفهم فيه الله ؟ » وفى هذا يقول كما يقول أوغسطين : « لست أسعى للفهم لكى آعتقد ، بل إنى أعتقد لكى أفهم » ، ولكن تلاميذه طلبوا إليه حججاً يجادلون بها الكفار ؛ وكان هو نفسه يرى أن « من الإهمال ، وقد تثبتنا فى ديننا ، ألا نعمل لفهم ما اعتقدنا »[٤] ؛ وكان

شعاره هو **الإيمان يطلب الفهم** ؛ وألف سلسلة من الكتب العظيمة الأثر بدأ بها الفلسفة المدرسية حين حاول أن يدافع عن الدين المسيحى دفاعاً قائماً على العقل .

ودافع فى رسالة صغيرة تدعى « **حديث للنفس** » عن الوجود الموضوعى للكليات فقال : « إن آراءنا فى الخير ، والعدالة والحق ، نسبية ، ولا معنى لها إلا إذا قورنت بخير مطلق أو عدالة مطلقة ، أو حق مطلق ؛ وإذا لم يوجد هذا الحق المطلق فلن يكون لنا مقياس أكيد للحكم ، وبذلك تصبح علومنا وأخلاقنا على السواء جوفاء عديمة الأساس . والله — وهو الخير المطلق ، والعدل المطلق ، والحق المطلق — هو هذا المطلق المنقذ ، وهو الغرض الذى لا بد منه فى حياتنا . وكأنما أراد أنسلم أن يذهب بهذه الواقعية إلى أبعد مدى فانتقل فى كتابه Proslogion (حوالى ١٠٧٤) إلى برهانه الشهير المستمد من فن ما وراء المادة الذى أراد أن يثبت به وجود الله فقال : الله أكمل كائن يستطيع العقل أن يتصوره ؛ ولكنه إذا لم يكن إلا فكرة فى رءوسنا ، فإن ذلك ينقصه عنصراً من عناصر الكمال — وهو الوجود ؛ وإذن فالله ، وهو أكمل الكائنات ، موجود . وكتب راهب متواضع ، يدعى جونيلوGaunilso ، ويرمز لاسمه بلفظ **الأبله** Insipio — إلى أنسلم احتجاجاً يقول فيه إننا لا نستطيع أن ننتقل هذا الانتقال السحرى من الإدراك إلى الوجود ، وإن حجة لا تقل عن الحجة السابقة فى قوتها يمكن أن تثبت وجود جزيرة تبلغ درجة الكمال ، وإن تومس أكويناس يتفق فى الرأى مع جونيلوه . ثم حاول أنسلم فى مقالة رائعة ولكنها غير مقنعة أسماها « ابن الله الإنسان » أن يجد أساساً معقولا للعقيدة المسيحية الأساسية القائلة بأن الله أصبح إنساناً ، ويسأل لم كان هذا التجسد ضرورياً ؟ لقد كانت هناك فكرة يؤيدها أمبروز ، والبابا ليو الأول وطائفة من آباء الكنيسة(٦) ، تقول إن آدم وحواء حين

أكلا الفاكهة المحرمة قد باعا نفسهما وباعا كل نسلهما إلى الشيطان ، وأن لا شيء يستطيع افتداء البشرية من الشيطان والجحيم إلا موت الله الذى أصبح إنساناً . وعرض أنسلم حجة أدق من هذه وأبلغ فقال : إن عصيان أبوينا الأولين كان ذنباً غير محدود لأنه ذنب فى حق كائن غير محدود ، وإنه قلب النظام الخلقى للعالم كله ؛ ولا شيء يمكن أن يوازن ويمحو ذلك الذنب غير المحدود إلا التكفير عنه تكفيراً غير محدود ؛ ولا يستطيع تقديم هذه الكفارة الغير المحدودة إلا كائن غير محدود ؛ ومن أجل هذا صار الإله إنسانا لكى يعيد إلى العالم توازنه الأخلاقى .

ونمت واقعية أنسلم وتطورت على يد تلميذ من تلاميذ روسلان يدعى وليم الشابوكسى William of Chapeaux (١٠٧٠ ؟ — ١١٢١) . فقد بدأ وليم فى عام ١١٠٣ يعلم الجدل فى مدرسة كتدرائية نتردام بباريس . وإذا جاز لنا أن نصدق أبلار — الذى كانت براعته الحربية تحول دون براعته التاريخية — قلنا إن وليم ذهب إلى أبعد مما ذهب إليه أفلاطون ، فكان أفلاطونيا أكثر من أفلاطون نفسه حين قال إن الكليات ليست حقائق موضوعية فحسب ، بل إن الفرد تحوير عارضى للحقيقة الجنسية ، ولا وجود له إلا باشتراكه فى الكلى ؛ وعلى هذا فالإنسانية هى الكائن الحقيقى ، الذى يدخل فى سقراط ، ويكسبه وجوده . وينقلون عن وليم أنه قال فضلا عن هذا إن الكلى بأجمعه حاضر فى كل فرد من صنفه ، فالإنسانية كلها حاضرة فى سقراط وفى الإسكندر .

وألقى أبلار عصا التسيار فى مدرسة وليم بعد كثير من التجوال العلمى (١١٠٣) ، وكان وقتئذ فى الرابعة والعشرين أو الخامسة والعشرين من عمره . وكان وسيم الخلق حسن القوام ، بهى الطلعة[٧] ، ذا جبهة عريضة تبعث فى النفس الروعة ؛ وكانت روحه المرحة تكسب طباعه وحديثه فتنة وحيوية . وكان يستطيع تأليف الأغانى وإنشادها ، وكانت فكاهته القوية تزلزل الضعاف فى قاعات الجدل . وكان شابا مرحاً طروباً ، عرف فى الوقت نفسه باريس والفلسفة .

وكانت عيوبه هى العيوب التى تستلزمها صفاته : فقد كان مغروراً ، مزهواً بنفسه ، وقحاً ، منطوياً على نفسه ، دفعه ابتهاجه بمواهبه التى كان يعرفها حق المعرفة إلى أن يطرح بتهور الشباب العقائد التعسفية والعواطف الرقيقة التى كانت سائدة فى عصره وبين أساتذته . وقد أسكرته « بهجة » الفلسفة « المحببة » إليه ؛ فهذا العاشق الذائع الصيت يحب الجدل أكثر مما يحب هلواز :

وقد سخر من واقعية أستاذه المسرفة ، وتحداه علناً أمام فرقته : يا عجباً الإنسانية كلها حاضرة فى سقراط ؟ إذن فحين تكون الإنسانية كلها حاضرة فى الإسكندر لا بد أن يكون سقراط (الذى تشمله الإنسانية كلها) حاضراً فى الإسكندر . ويخيل إلينا أن ما كان يقصده وليم هو أن جميع العناصر الجوهرية التى فى الإنسانية حاضرة فى كل كائن بشرى . على أننا لم تصل إلينا حجج وليم فى هذا النقاش ؛ ومهما كانت هذه الحجج فإن أبلار لم يأخذ بشىء منها . فقد عارض واقعية وليم واسمية روسلان بالفلسفة التى سميت فيما بعد بالفلسفة الإدراكية ؛ وهى تقول إن الصنف (الإنسان والحجر) ليس له وجود جسمى إلا فى أفراده التى يتكون منها (الرجال ، والحجارة) ؛ وإن الصفات (كالبياض ، والطيبة ، والحقيقة) لا وجود لها إلا فى الأجسام ، أو الأفعال ، أو الأفكار التى تصفها . ولكن الصنف والصفة ليسا مجرد اسمين ، بل هما مدركان تكونهما عقولنا من العناصر أو المظاهر التى نلاحظ وجودها مشتركة بين طائفـــة من الأفراد ، أو الأجسام ، أو الآراء . وهذه العناصر المشتركة حقيقية ، وإن لم تظهر إلا فى الصور الفردية . وليست المدركات التى نفكر بها فى هذه العناصر المشتركة — الأفكار الجنسية أو الكلية التى نفكر بها فى الأصناف المكونة من أجسام متماثلة — ليست هذه المدركات « رياح الصوت » ، بل هى أكثر أدوات التفكير نفعا وأكثرها ضرورة ، وبغيرها لا يمكن أن يكون للعلم ولا للفلسفة وجود .

ويقولون إن أبلار بقى مع وليم « بعض الوقت » . ثم شرع هو نفسه يدرس فى ميلون Melun أولا ثم فى كوربى Corbeil بعدئذ ، وتبعد أولى البلدتين أربعين ميلا عن باريس أما الثانية فتبعد عنها خمسة وعشرين . وقد أخذ عليه بعضهم أنه أنشأ « حانوته » بعد تدريب جد قصير ، ولكن عدداً كبيراً من الطلاب هرع إليه ، لإعجابهم بسرعة بديهته وزلاقة لسانه . وكان وليم فى هذه الأثناء قد أصبح راهباً فى دير القديس ڤكتور حيث « طلب إليه » أن يستمر فى إلقاء محاضراته ؛ وعاد إليه أبلار تلميذاً بعد « مرض شديد » . ويبدو أنه كان على عظام فلسفة وليم لحم أكثر مما توحى به القراءة العاجلة لسيرة أبلار الموجزة التى كتبها بنفسه . ولكن سرعان ما تجددت مناقشاتهم القديمة ، وأرغم أبلار (كما يقول أبلار نفسه) وليم على أن يعدل فلسفته الواقعية ، وبدأت مكانة وليم فى الهبوط . وعرض الأستاذ الذى خلفه والذى عينه بنفسه فى نتردام أن يخلى مكانه لأبلار (١١٠٩ ؟) ، ولكن وليم لم يوافق على هذا العرض . وواصل أبلار محاضراته فى مليون ، ثم فوق جبل سانت چنڤييڤ المجاور لپاريس . ونشبت بينه وبين وليم ، وبين طلابهما ، حرب كلامية دامت عدة سنين ، وأصبح أبلار زعيم المحدثين أى الشبان المتمردين المتحمسين أصحاب المدرسة « الحديثة » . وبينما هو يخوض غمار هذه الحرب ترهّب والداه . ولعلهما فعلا ذلك استعداداً للموت ، واضطر أبلار أن يعود إلى له باليه Le Pallet ليكون فى وداعهما ، وربما كان من أسباب عودته تسوية بعض المشاكل الخاصة بأملاك الأسرة . ثم رجع أبلار إلى باريس فى عام ١١١٥ ، بعد أن قضى بعض الوقت يدرس علوم الدين فى لاءون ، وأقام مدرسته ، أو بدأ منهج محاضراته ، فى قاعات نتردام التى كان يجلس فيها وهو طالب قبل ذلك الوقت باثنتى عشرة سنة أو نحوها . ويبدو أنه لم يلق فى ذلك معارضة ما . وكان وقتئذ من موظفى الكتدرائية وإن لم يصبح من قساوستها(٨) . وكان فى مقدوره أن يتطلع إلى

المناصب الكهنوتية العليا إذا لزم الصمت ، ولكن هذا الشرط كان ثقيلا عليه ، لأنه درس الأدب كما درس الفلسفة ، وكان أستاذاً فى عرض الآراء عرضاً واضحاً لطيفاً ؛ وكان كغيره من الفرنسيين يرى أن الوضوح فى التعبير واجب تحتمه المبادئ الخلقية ، ولم يكن يخشى أن يخفف من عبء حديثه بقليل من الفكاهة . وأقبل الطلاب من كثير من البلاد ليستمعوا إليه ، وكانت الفصول التى يدرس لها كبيرة كبراً أغناه بالمال وأذاع شهرته بين الأمم(٩) ، تشهد بذلك رسالة بعث بها إليه فولك Foulques رئيس أحد الأديرة يقول فيها :

بعثت إليك رومة أبناءها تعلّمهم . . . ولم تمنع المسافة الشاسعة ، أو الجبال أو الوديان أو الطرق الموبوءة باللصوص ، الشبان من الإقبال عليك . وازدحمت فصولك بالشبان الإنجليز الذين عبروا البحر المفعم بالأخطار ، وأقبل عليك التلاميذ من جميع أنحاء أسپانيا وفلاندرز وألمانيا ، ولم يملّوا من الثناء على قوة عقلك . ولست أذكر شيئاً عن سكان باريس ، وأقاصى فرنسا التى كانت هى الأخرى ظمأى لتعليمك ، كأنه لا يوجد علم من العلوم لا يستطاع أخذه عنك(١٠) .

وما دام قد بلغ هذه الذروة من المجد والنجاح وبُعد الصيت ، فلِمَ لا يرقى إلى كرسى الأسقفية (كما ارتقى إليه وليم) ، ثم إلى كرسى رئيس الأساقفة ، ولِمَ لا يرقى إلى كرسى البابوية ؟

الفصل الثانى

هلــواز

ويؤكد أبلار أنه ظل حتى ذلك الوقت « مستعففاً إلى أقصى حدود الاستعفاف » ، وأنه كان « حريصاً على الامتناع عن جميـع ضروب الإفراط »(١١) . ولكن هلواز ابنة أخى فلبير Fulbert قس الكتدرائية كان لها من جمال الخلق والهيام بالعلم ما أثار كل ما كان كامنا فى أبلار من حساسية مرهفة برجولته وإعجاب بعقليته . وفى خلال تلك السنين المحمومة التى كانت الحرب ناشبة فيها بين أبلار ووليم عن الكلى وغير الكلى شبت هلواز من الطفولة إلى الأنوثة المكتملة ، يتيمة لم يبق لأبويها أثر . وبعث بها عمها إلى دير فى أرجنتى Argentuil لتقضى فيه عدداً كبيراً من السنين . فلما ذهبت إليه هامت بما فى مكتبته الصغيرة من الكتب هياما أصبحت معه أنبه راهبة فى الدير . ولما عرف فلبير أنها تستطيع التحدث باللاتينية بنفس الطلاقة التى تتكلم بها الفرنسية ، وأنها لم تكتف بهذا بل أخذت تتعلم العبرية(١٢) ، لما عرف هذا أعجب بها ، وجاء بها لتعيش معه فى بيته القريب من الكتدرائية .

وكانت فى سن السادسة عشرة حين اتصلت حياتها بحياة أبلار (١١١٧) ؛ وفى ظننا أنها سمعت به قبل ذلك الوقت بزمن طويل ، وما من شك فى أنها كانت قد أبصرت مئات الطلاب تغص بهم الأبهاء وقاعات المحاضرات ، وقد جاءوا ليستمعوا إليه ؛ ولعلها وهى ذات الحماسة الذهنية القوية قد ذهبت خفية أو علناً لترى وتسمع معبود علماء باريس ومثلهم الأعلى . وفى وسعنا أن نتصور حياءها وارتياعها حين أخبرها فلبير أن أبلار سيسكن معهما ويصبح معلمها

الخاص . وها هو ذا الفيلسوف نفسه يفسر لنا أصرح تفسير كيف حدث هذا :

« وكانت هذه الفتاة الصغيرة هى التى . . . اعتزمت أن أرتبط بها برباط الحب . والحق أن هذا العمل من أسهل الأمور . فهاهو ذا اسمى على كل لسان ، ولى من مزايا الشباب والجمال ما لا أخشى معه أن ترفضنى امرأة ، أيا كان شأنها ، أتعطف عليها بحبى . . . وهكذا شرعت ، وقلبى ملتهب بحب هذه الفتاة ، أبحث عن الوسائل التى تمكننى من أن أتحدث إليها فى كل يوم حديث المودة الخالية من الكلفة ، حتى يسهل علىّ بذلك أن أحظى بموافقتها . ومن أجل هذا أقنعت عم الفتاة . . . أن يأوينى فى بيته . . . نظير أجر قليل أؤديه له . . . وكان هو رجلا بخيلا حريصا على المال و . . . اعتقد أن ابنة أخيه ستفيد كثيراً من تعليمى . . . ولقد ذهلت من سذاجة الرجل ، ولو أنه عهد بحَمَل وديع إلى عناية ذئب مفترس لما كنت أشد من ذلك دهشة وذهولا . . .

« ولِمَ أطيل القول ؟ واجتمعنا أولا فى المسكن الذى أظل حبنا ، ثم فى القلبين اللذين كانا يتحرقان بين جنبينا . وقضينا الساعات الطوال ننعم بسعادة الحب متسترين بستار الدرس . . . وكانت قُبلاتنا يزيد عديدها على كلماتنا المنطقية ، وكانت أيدينا أقل بحثاً عن الكتاب منها عن صدرينا ، وكان الحب يجذب عينىّ كل منا إلى الآخر[١٣] » .

وهكذا أحالت رقة هلواز العاطفة التى بدأت رغبة جسمية بسيطة « حناناً أذكى من عرف الطيب » . وكانت هذه تجربة جديدة فى حياته لهته عن الفلسفة ، فقد استعار من محاضراته وجداً وهياما لحبه ، فأضحت هذه المحاضرات مملة على خلاف عادتها . وأسف طلابه لما أصاب الجدلى المنطيق ، ولكنهم رحبوا بالعاشق ، وسرهم أن يعرفوا أن سقراط نفسه يمكن أن يأثم ، وعزوا أنفسهم عما فقدوه من الحجج الدامغة بترديد أغانى الحب التى بدأ يؤلفها ؛ وكانت هلواز

تسمع من نافذة بيتها أغانى افتتانه بها تتردد أصداؤها الصاخبة على ألسنة تلاميذه[١٤] .

ولم يمض إلا قليل من الوقت حتى أبلغته أنها حامل فما كان منه إلا أن اختطفها سراً من بيت عمها وأرسلها إلى بيت أخته فى بريطانى[١٥] . ودفعه الخوف من جهة والرحمة من جهة أخرى فعرض على عمها الغاضب الحانق أن يتزوجها بشرط أن يسمح له فلبير بأن يظل أمر الزواج سراً . ووافق القس على هذا ، وسافر أبلار إلى بريطانى فى أثناء العطلة ليحضر عروسه الرقيقة القلب غير الراضية بالزواج . وكان عمر ابنهما أسطرلاب Astorlabe ثلاثة أيام حين أقبل هو على والدته . وظلت هلواز زمناً طويلا ترفض الزواج به . ذلك أن إصلاحات ليو التاسع وجريجورى السابع كانت منذ جيل من الزمان قد حرمت مناصب القسيسين على المتزوجين إلا إذا ترهبت الزوجة ، ولم تكن هلواز مستعدة لأن تفارق رفيقها وابنها على هذا النحو ، وعرضت عليه أن تبقى عشيقته بحجة أن هذه العلاقة ، إذا ظلت سراً يخفى عن الناس بحكمة ، لن تحول بينه وبين الرقى فى مناصب الكنيسة كما يحول الزواج[١٦] . وقد أورد أبلار فى كتابه *تاريخ مصائبى* (الفصل السابع) فقرة طويلة يعزو فيها إلى هلواز فى هذا الظرف ثبتاً طويلا من المراجع والأمثلة المعارضة لزواج الفلاسفة ، وحججاً فصيحة قوية فى الاعتراض على « حرمان الكنيسة من ضوئه البراق » : « تذكر أن سقراط قد تزوج ، وكيف طهرت الفلسفة من هذا العار الذى دنسها تطهيراً خسيسا حتى يكون الناس بعدئذ أكثر حكمة وأحكم تدبيراً » ، ثم ينقل عنها قولها : « إنها أحلى لها كثيراً أن تسمى عشيقتى من أن يعرف الناس أنها زوجتى ، بل إن هذا يكون أيضا أشرف لى »[١٧] . ولكنه أقنعها بأن وعدها ألا يعرف الزواج إلا عدد قليل من أوثق الناس صلة بهما .

وتركا أسطرلاب مع أخت أبلار وعادا إلى باريس وتزوجا بحضور فلبير . وأراد أبلار أن يحتفظ بسرية الزواج فعاد إلى حيث كان يسكن وهو أعزب ، وعادت هلواز إلى السكنى مع عمها ، ولم يكن كلا الحبيبين يرى الآخر إلا نادراً وخلسة . ولكن فلبير ، فى حرصه على أن يسترد مكانته ، أخلف الوعد الذى قطعه لأبلار وأذاع السر ؛ وأنكرته هلواز ، « وأنزل بها فلبير العقاب بعد العقاب » . فما كان من أبلار إلا أن فر بها مرة أخرى ، وبعث بها هذه المرة ، على كره منها شديد ، إلى دير أرجنتى ، وأمرها أن ترتدى ثياب الراهبات ، وألاّ تقسم اليمين أو تلبس النقاب . ويقول أبلار إنه لما سمع فلبير وأقاربه بهذا « أيقنوا أننى قد غدرت بهم أشد الغدر ، وتخلصت إلى أبد الدهر من هلواز إذ أرغمتها على أن تترهب . فاستشاطوا من هذا غضباً ودبروا مؤامرة على ؛ وبينا كنت نائماً ذات ليلة . . . فى حجرة سرية بمسكنى ، إذ اقتحموها علىّ بمعونة خادم من خدمى قدموا له رشوة ، وانتقموا منى انتقاما شنيعا يجللهم العار . . . لأنهم بتروا أعضاء جسمى التى فعلت بها ما كان سبباً فى حزنهم . ولاذوا بالفرار بعد أن فعلوا فعلتهم ، ولكن اثنين منهم قُبض عليهما وفقدا أعينهما وأعضاء تناسلهما »[١٨] .

ولم يكن فى وسع أعدائه أن يختاروا له عقاباً أدل على مكرهم من هذا العقاب . نعم إنه لم يحط من منزلته لساعته ، فإن باريس كلها بمن فيها من رجال الدين عطفت عليه[١٩] ، وأقبل عليه طلابه يواسونه ، وانكمش فلبير واختفى وجرّ عليه النسيان ذيوله ، وصادر الأسقف أملاكه . ولكن أبلار أدرك أن قد قضى عليه ، وأن « قصة هذا الاعتداء الشنيع ستنتشر حتى تبلغ أطراف الأرض » . ولم يعد يستطيع التفكير فى الرقى فى مناصب الكنيسة ، وأحس أن سمعته الطيبة قد

« محيت من الوجود محواً تاما » ، وأنه سيكون مضغة فى أفواه الأجيال المقبلة . وشعر بأن فى سقوطه هذا قسطا من العدالة الطبيعية غير الشعرية . ، فقد اجتث من لحمه ذلك الجزء الذى أذنب ، وغدر به نفس الرجل الذى غدر هو به من قبل . وأمر هلواز أن تلبس النقاب وتترهب ، وذهب هو إلى دير القديس دنيس وأقسم يمين الرهبنة(*) .

(*) اقرأ قصة هلواز وأبلار مفصلة فى الجزاء الأول من كتابنا : « أشهر الرسائل العالمية » . (المترجم)

الفصل الثالث

صاحب النزعة العقلية

وعاد إلى محاضراته بعد عام من ذلك الوقت (١١٢٠) مستجيبا لإلحاح طلابه ورئيس ديره ، وأخذ يلقيها في « صومعة » في شعبة دير ميزنسل Maisoncelle . ونظن أننا نجد في كتبه أهم ما كان يحتويه منهج محاضراته . على أن هذه المحاضرات قد ألفها وهو قلق مضطرب على دفعات متقطعة ، لا نستطيع أن نحدد تواريخها . وقد راجعها في سنيه الأخيرة حين تحطمت روحه ، ولسنا ندرى مقدار ما تحطم من حرارة الشباب بفعل الزمن . ولأبلار أربعة كتب صغرى في المنطق تدور كلها حول مسألة الكليات . ولا حاجة بنا إلى أن نوقظها من رقادها ، لكن كتابه الجدل رسالة تقع في ٣٧٥ صفحة في المنطق بمعناه عند أرسطو : فهى تحليل عقلى لأجزاء الكلام ، وأدوات التفكير (المادة ، والكم ، والمكان ، والوضع ، والزمن ، والعلاقة ، والصفة ، والملكية والعقل ، « والعاطفة ») وأشكال القضايا المنطقية ، وقواعد الاستدلال . وكان من واجب عقل أوربا الغربية بعد أن استيقظ من سباته أن يوضح لنفسه هذه الأفكار الأساسية كما يفعل الطفل حين يتعلم القراءة . وكان الجدل أهم ما تعنى به الفلسفة في أيام أبلار ، ويرجع بعض السبب في هذا إلى أن الفلسفة الجديدة قد تفرعت من أرسطو عن طريق بوئثيوس Boethius وبرفيرى . ولم يكن الجيل الأول من أصحاب الفلسفة المدرسية يعرف إلا رسائل أرسطو المنطقية (وحتى هذه الرسائل لم تكن كلها معروفة له) . ولهذا لم يكن كتاب أبلار في الجدل كتاباً ممتعاً خلاباً . ولكننا نسمع في صفحاته التي تعنى بالشكل قبل كل شيء إلى طلقة أو طلقتين من تلك المناوشات الأولى في الحرب التي قامت بين الدين والعقل ودامت مائتى عام .

وكيف تستطيع ونحن فى عصر أخذ يشك فى العقل نفسه ، أن ندرك لألاء ذلك العهد الذى بدأ فى التو يكشف « سر المعرفة العظيم ؟ »(٢٠)
ويقول أبلار إن الحق لا يمكن أن يناقض الحق ، وإن حقائق الكتاب المقدس يجب أن تتفق مع مكتشفات العقل ، وإلا لكان الله الذى وهبنا هذه وتلك يخدعنا بإحداهما(٢١)

ولعله قد كتب فى عهده الباكر — قبل مأساته — كتابه **حوار بين فيلسوف ويهودى ومسيحى** . وفيه يقول : « إن ثلاثة رجال أقبلوا عليه فى رؤى أثناء الليل » وسألوه بوصفه أستاذاً ذائع الصيت ، أن يفصل فى نزاع قائم بينهم . وقالوا إنهم كلهم يؤمنون بالله ، وإن اثنين منهم يقبلان ما جاء بالكتب العبرية المقدسة ، أما الفيلسوف فيرفضها ، ويقترح أن يقيم حياته ومبادئه الأخلاقية على أساس العقل والقانون الطبيعى . ويرد عليهم الفيلسوف بقوله إن من أسخف السخف أن نستمسك بعقائد الطفولة . وأن نشارك الغوغاء فى أباطيلهم ، وأن نزج فى الجحيم من لا يقبلون هذه السخافات التى لا تفترق فى شىء عن عبث الأطفال ! » . ويختتم قوله اختتاما غير فلسفى فيرمى اليهود بالبلاهة والمسيحيين بالجنون . ويرد عليه اليهودى بقوله إن الناس لا يستطيعون الحياة بغير القوانين ؛ وإن الله قد فعل ما يفعله الملك الصالح فأنزل على الناس دستوراً للأخلاق الفاضلة ، وإن تعاليم التوراة هى التى أبقت على شجاعة اليهود وأخلاقهم خلال ما أصابهم من التشتت والمآسى التى دامت قروناً طوالا . فيسأله الفيلسوف : وكيف إذن عاش آباؤكم هذه المعيشة النبيلة قبل أن يرسل موسى وشرائعه بزمن طويل ؟ — وكيف تؤمنون بوحى يعدكم بالنعيم فى الدنيا ، ومع هذا فقد تركتكم تقاسون آلام الفاقة والبؤس ؟ ويقبل المسيحى كثيراً مما قاله الفيلسوف واليهودى ، ولكنه يقول إن المسيحية قد نمت وأكملت شريعة الفيلسوف الطبيعية وشريعة اليهودى الموسوية ؛ وإنها قد سمت بمثل الإنسانية العليا إلى درجة لم تسم إليها قط من قبل ؛ فلا

الفلسفة ولا اليهودية ، كما جاءت في الكتب المقدسة ، قد وهبت الإنسان سعادة سرمدية ؛ أما المسيحية فتهب الإنسان القلق المعذّب ، هذا الأمل في السعادة ، وهي لهذا عظيمة القيمة إلى أبعد حد . الا إن هذا الحوار الذى لم ينته إلى غاية لهو ثمرة رائعة من نتاج قس فى كتدرائية بباريس عام ١١٢٠ .

وقد وَجَدت حرية فى النقاش شبيهة بهذه الحرية نفسها منفذاً لها فى كتاب آخر لأبلار يعد أشهر كتبه على الإطلاق ، وهو كتاب نعم ولا sic et non (١١٢٠) . ونجد أول ذكر لهذا الكتاب فى رسالة كتبها رجل من سانت تييرى St. Tierry يدعى William إلى القديس برنار (١١٤٠) يصف فيها ذلك الكتاب بأنه كتاب مريب يوزع سراً بين تلاميذ أبلار والمتشيعين له[٢٣] . ثم اختفى هذا الكتاب بعدئذ من التاريخ حتى عام ١٨٣٦ حين كشف فكتور كوزن Victor Cousin المخطوط بمكتبة فى أفرانش Avranche . وما من شك فى أن شكل الكتاب نفسه قد أحزن هذا الأسقف ؛ ذلك أنه يبدأ بمقدمة تنم عن التقى والصلاح ، ثم ينقسم إلى ١٥٧ سؤالا تشمل أهم العقائد الأساسية للدين ؛ وقد وضعت فى عمودين متقابلين تحت كل سؤال طائفتان من الأقوال إحداهما تؤيد الرد الإيجابى والأخرى تؤيد الرد السلبى ، وكلتاهما مقتبسة من الكتاب المقدس ، أو من كتب آباء الكنيسة ، أو من الآداب اليونانية الرومانية القديمة ، بل إن بعضها مقتبس من فن الحب لأوفد . وقد يكون القصد من تأليف هذا الكتاب هو أن يكون مراجع يُلجأ إليهـا فى النقاش المدرسى ، ولكن مقدمته تنتقص من قيمة الاعتماد على آباء الكنيسة — سواء أراد الكاتب ذلك أو لم يرده — لأنها تظهر ما بينهم من التناقض ، بل إنها لتظهر تناقض كل منهم لنفسه . ولم يشك أبلار فى قيمة الكتاب المقدس بوصفه مرجعاً دينياً ، ولكنه يقول إن لغته قد كتبت لغير المتعلمين ، وإنها يجب تفسيرها

بالرجوع إلى العقل والمنطق . غير أن النص المقدس قد فسد فى بعض الأحيان لما أضيف إليه زوراً ، أو لعدم العناية بالنسخ ؛ ولهذا فإذا ناقضت نصوص الكتاب المقدس أو كتب آباء الكنيسة بعضها بعضاً ، وجب أن نحاول التوفيق بين النصوص المتناقضة بالاعتماد على العقل . وكتب فى نفس كلمة الافتتاح عبارة استبق بها شكوك ديكارت بأربعمائة عام فقال ؛ « إن أول مفاتيح الحكمة هو المثابرة على الأسئلة وتكرارها . . . لأن الشك يؤدى بنا إلى البحث ، والبحث يوصلنا إلى النتيجة »(٢٤) . ويقول إن عيسى نفسه حين واجه العلماء فى المعبد أمطرهم وابلا من الأسئلة . ويكاد الحوار الأول فى الكتاب يكون إعلاناً لاستقلال الفلسفة : « يجب أن يكون أساس الإيمان فى عقل الإنسان وفى القضايا المتناقضة » . وهو ينقل أقوالا عن أمبروز ، وأوغسطين ، وجريجورى الأول ، تؤيد الإيمان ، ويستشهد بأقوال من هيلارى Hilary ، وچيروم ، وأوغسطين ، على أن من الخير أن يستطيع الإنسان أن يثبت دينه بالاعتماد على العقل . ويكرر أبلار استمساكه بأصول الدين ، ولكنه يعرض للجدل مسائل مثل : الإرادة الإلهية ، والإرادة الحرة ، ووجود الخطيئة والشر فى عالم خلقه إله خيِّر قادر على كل شىء ، واحتمال أن يكون الله غير قادر على كل شىء . وما من شك فى أن استدلاله الحر فى هذه المسائل قد زلزل إيمان الطلاب الشبان المولعين بالجدل . على أن هذه الطريقة — طريقة التعليم بالبحث الحر إلى أقصى حدود الحرية — أضحت هى الخطة المألوفة المتبعة فى الجامعات الفرنسية وفى الكتابات الفلسفية والدينية ؛ وأكبر الظن أنها قد سلكت هذه السبيل بفضل المثل الذى ضربه لها أبلار(٢٥) . وسنرى القديس تومس يتبعها دون أن يخشى شيئا ودون أن يوجه إليه لوم ؛ وهكذا وجدت النزعة العقلية مكاناً لها فى مستهل عهد الفلسفة المدرسية .

وإذا كان كتابه **نعم ولا** لم يغضب إلا عدداً قليلاً من الناس لأنه لم يوزع منه إلا عدد قليل من النسخ ، فإن ما حاوله أبلار من تحكيم العقل فى

موضوع التثليث — وهو الموضوع الشديد الغموض — لم يكن له ذلك الأثر الضيق الذى كان لهذا الكتاب ، ولم يكن ارتياع الناس له محصوراً فى القليل منهم ؛ وذلك لأنه كان موضوع محاضراته التى ألقاها فى عام ١١٢٠ ، وموضوع كتابه **فى وحدة الإله والتثليث** . وقد كتب هذا الكتاب ، كما يقول هو نفسه : « لطلابى لأنهم كانوا على الدوام يبحثون عن المعقول وعن الشروح الفلسفية ، ويسألون عما يستطيعون فهمه من الأسباب لا عن الألفاظ دون غيرها ، ويقولون إن من العبث أن ننطق بألفاظ لا يستطيع العقل تتبعها ، وإنه لا شىء يمكن تصديقه إلا إذا أمكن فهمه أولا ، وإن من أسخف الأشياء أن يعظ إنسان غيره بشىء لا يستطيع هو نفسه أن يفهمه ولا يستطيع من يسعى لتعليمهم أن يفهموه[٢٦] » .

وهو يقول إن هذا الكتاب « انتشر انتشاراً واسعا جداً » وإن الناس أعجبوا بما فيه من دقة . وقد أشار فيه إلى أن وحدة الله هى النقطة الوحيدة التى يتفق فيها أعظم الأديان وأعظم الفلاسفة . ففى الله الواحد الأحد تشهد قدرته بوصفه الأقنوم الأول ، وحكمته بوصفه الأقنوم الثانى ، ونعمته ، وإحسانه ، وحبه بوصفها الأقنوم الثالث . وهذه كلها نواح أو أعراض من الجوهر القدسى ؛ ولكن جميع أفعال الله تتضمن وتجمع فى الوقت عينه قدرته ، وحكمته ، وحبه[٢٧] . وقد شعر كثيرون من رجال الدين بأن هذا التشبيه مما يمكن التجاوز عنه والسماح به ؛ ورفض أسقف باريس ما طلبه إليه روسلان — وكان قد أصبح وقتئذ شيخاً طاعناً فى السن مستمسكا بالدين — أن يتهم أبلار بالكفر ؛ ودافع چيفروى Geoffroy أسقف شارتر عن أبلار طوال فترة السخط الذى حل بهذا الفيلسوف المستهتر . ولكن ألبريك Alberic ولوتاف ، وهما مدرسان فى ريمس كانا قد تنازعا مع أبلار فى لاءون عام ١١١٣ ، حرّضا كبير الأساقفة على أن يأمره بالمجىء إلى سواسون ومعه كتابه عن التثليث ، وأن يدفع عن نفسه تهمة الإلحاد . فلما قدم أبلار إلى سواسون (١١٢١) وجد أن الغوغاء قد أثيروا عليه ، وأنهم

« يوشكون أن يرجموني بالحجارة . . . لاعتقادهم أنى قلت بوجود آلهة ثلاثة »(٢٨) . وطاب أسقف شارتر أن يستمع المجلس إلى دفاع أبلار عن نفسه ، ولكن ألبريك وغيره رفضوا طلبه بحجة أن أحداً لا يستطيع أن يدحض حجج أبلار ولا يسعه إلا أن يقتنع بأقواله . وأدانه المجلس من غير أن يستمع إليه ، وأرغمه على أن يلقى كتابه فى النار ، وأمر رئيس دير القديس ميدار Medard أن يحجزه فى الدير سنة كاملة ، ولكن مرسوماً بابوياً أفرج عنه بعد وقت قصير ، وأعاده إلى دير القديس دنيس .

وقضى أبلار فى الدير سنة فى شجار دائم مع رهبانه المشاكسين ، ثم حصل بعد ذلك من رئيس الدير الجديد سوجر Suger العظيم على إذن بأن يبنى لنفسه صومعة فى بقعة منعزلة فى منتصف المسافة بين فونتينبلو Fontainebleau وترواى (١١٢٢) ، وهناك أقام بمعونة رفيق فى الدرجات الدنيا من الرهبنة مصلى صغيرة من القش والغاب سماها « الثالوث المقدس » . ولما سمع الطلاب أنه قد أجيز له مرة أخرى أن يُدرِّس أقبلوا عليه ، وجعلوا من أنفسهم مدرسة عاجلة مرتجلة ، وبنوا أكواخاً بجوار المصلى ، وناموا على القش والبوص ، وطعموا « الخبز الخشن وأعشاب الحقول »(٢٩) . وظهر فى هذا المكان تعطش للعلم ما لبث أن أوجد الجامعات وملأها بالطلاب . والحق أن العصور المظلمة أضحت فى هذا المكان وكأنها كابوس أوشك أن يدرج فى طيات النسيان . وأخذ الطلاب ، فى نظير ما يلقيه من المحاضرات ، يحرثون الأرض ، ويقيمون الأبنية ، وأنشأوا له مصلى جديدة من الخشب والحجارة سماها الروح القدس ، كأنه يريد أن يقول إن حب مريديه قد نزل عليه نزول الروح القدس فى اللحظة التى فر فيها من المجتمع إلى العزلة واليأس .

ولم تكن الثلاث السنين التى قضاها فى ذلك المكان أقل سعادة من أية سنين عرفها من قبل . وأكبر الظن أن المحاضرات التى ألقاها على هؤلاء

الطلاب المشوقين قد احتُفظ بها وأعيدت صياغتها فى كتابين يسمى أحدهما **الدين المسيحى** Theologia Christiana ويسمى الثانى **الدين** Theologia لا غير . وكانت العقائد الواردة فى الكتابين مطابقة للدين القويم ، ولكن العصر الذى كان حتى ذلك الوقت غريباً عن معظم آراء الفلسفة اليونانية قد راعه بعض الشىء أن يجد فى الكتابين إشارات إلى المفكرين الوثنيين مصحوبة بالثناء عليهم ، كما وجد فيها ما يشير إلى أن أفلاطون أيضاً قد استمتع إلى حد ما بالإلهام الإلهى[٣٠] . ولم يكن فى وسع أبلار أن يعتقد أن جميع هذه العقول العظيمة الفذة السابقة للمسيح قد فاتتها أسباب النجاة[٣١] ، وأصر على أن الله يفيض حبه على جميع الناس ، وفيهم اليهود والكفار[٣٢] ؛ وعاد أبلار فى غير ندم يدافع عن تحكيم العقل فى أمور الدين ، وقال إن الملحدين يجب أن يردوا عن إلحادهم بالعقل والمنطق لا بالعنف[٣٣] ، وإن الذين يوصون بالإيمان بلا فهم إنما يسعون فى كثير من الأحيان لستر عجزهم عن أن يعلِّموا الدين تعليماً يدركه العقل[٣٤] ، وتلك شوكة نفذت من غير شك فى جلود بعض الناس ! فقد يبدو أن أبلار حين يحاول تفسير الدين المسيحى تفسيراً ينطبق على العقل والمنطق ، لم يجرؤ على أكثر مما حاوله الإسكندر الهاليسى Alexander of Hales ، وألبرتس مجنس ، وتومس أكوناس من بعده ؛ ولكن أبلار حاول أن يدخل أكثر عقائد الكنيسة خفاء وأعمقها غوراً فى قبضة العقل ، على حين أن تومس رغم شجاعته وجرأته ترك مسألة التثليث ، وخلق العالم فى زمن محدد ، لإيمان بعيد عن متناول العقل ، وفوق إدراكه .

وخلقت له جرأته على هذا التفكير وحدة ذهنه المتجددة أعداء جدداً . فقد كتب يشير فى أغلب الظن إلى برنار الكليرفوكسى Bernard of Clairvaux ونوربرت Norbert مؤسس طائفة البريمنستراتنسيين يقول :

يهرول بعض الرسل الجدد ، الذين يثق العالم فيهم أعظم الثقة ، هنا وهناك ...

ينهشون عرضى دون حياء . ولا يتركون لذلك سبيلا إلا سلكوها . حتى أفلحوا على مر الزمن فى أن يجعلونى هدفاً لسخرية الكثيرين من ذوى السلطان . . . ويشهد الله أننى كلما علمت بأن اجتماعاً جديداً لرجال الدين قد دعى إلى الانعقاد ، اعتقدت أنهم لم يدعوا إلا لغرض واحد صريح هو إدانتى [٣٥] .

ولعله أراد أن يكسب أولئك الناقدين . فترك التدريس وقبل دعوة وجهت إليه بأن يكون رئيس دير القديس جلداس فى بريطانى (١١٢٥ ؟) . ولكن أرجح من هذا أن سوجر هو الذى نظم بدهائه وحكمته هذه النقلة مؤملا بهذا أن تسكن العاصفة . وكان فى هذا الانتقال ترقية لأبلار وسجن له فى وقت واحد ، فقد ألفى الفيلسوف نفسه وسط سكان من « البرابرة » الذين « لا يفهمون » ، وبين رهبان « أدنياء لا يُرَوَّضون » يعيشون جهرة مع حظياتهم [٣٦] . ونفر أولئك الرهبان من إصلاحاته فدسوا له السم فى الكأس التى كان يشرب منها وقت العشاء الربانى ؛ فلما خاب تدبيرهم هذا رشوا خادمه بأن يدس له السم فى الطعام ؛ ولكن راهباً غيره تناول الطعام « وخر صريعاً من فوره » [٣٧] ؛ غير أن مرجعنا الوحيد فى هذه الأقوال هو أبلار وحده . واستبسل أبلار فى النضال فى هذه المعركة لأنه بقى فى هذا المكان المنعزل إحدى عشرة سنة تتخللها بعض فترات كان فى أثنائها بعيداً عنه .

الفصل الرابع

رسائل هلواز

ومرت به فترة من السعادة المعتدلة حين قرر سوجر أن يستخدم البيت الذى فى إرچنتى لأغراض أخرى غير الدير . وكانت هلواز مذ افترقت عن أبلار قد عكفت فى هذا البيت على أداء الواجبات التى تفرضها عليها حياة الرهبنة حتى عينت رئيسة الدير و « علت مكانتها عند الجميع . . . فأحبها الأساقفة حب الآباء للأبناء ، وأحبها رؤساء الأديرة حب الإخوة للأخوات ، وأحبها غير رجال الدين كما يحب الأبناء الأمهات » . ولما علم أبلار أن هلواز ومن معها من الراهبات يبحثن عن مكان لهن جديد ، عرض عليهن مصلى « الروح القدس » ومبانيها ، وذهب بنفسه ليساعدهن على تنظيم إقامتهن فى مقرهن الجديد . وكثيراً ما كان يزورهن ليعظهن ويعظ القرويين الذين أقاموا بالقرب منهن . وهمس النمامون « أننى لا زالت تسيطر على مباهج الحب الأرضى ، وأنا الذى لم أكن أطيق فى الأيام الخالية أن أفارق من امتلأ قلبى بحبها »[٣٨] .

وكانت هذه الفترة المضطربة التى قضاها رئيساً لدير القديس جلداس هى التى كتب فيها سيرته « تاريخ مصائبى » (١١٣٢) . ولسنا نعرف الباعث له على كتابة هذه السيرة ، فهى تتخذ شكل مقالة يواسى بها صديقاً يشكو بؤسه ، « حتى إذا وازنت أحزانك بأحزانى ، رأيت أن أولاهما ليست إلى جانب الثانية بالتى تستحق الذكر » ؛ ولكن يبدو أن هذه السيرة كان يقصد بها أن يطلع عليها العالم ، وأن تكون اعترافاً أخلاقياً ، ودفاعاً دينياً . وتقول رواية قديمة ، ولكنها مما لا يمكن تحقيقه ، إن نسخة من الكتاب وصلت إلى يد هلواز ، وإنها ردت عليه هذا الرد العجيب :

« إلى سيدها ، بل أبيها ، إلى زوجها ، بل أخيها : من خادمته ، بل ابنته ، من زوجته ، بل أخته : إلى أبلار ، من هلواز :

« لقد جيء إلىّ مصادفة منذ زمن قريب بخطابك الذى كتبته يا حبيبى تعزية إلى صديق ... وقد حوى أشياء لايستطيع أحد أن يطلع عليها دون أن تفيض عيناه بالدمع لأنها تجدد أحزانى كاملة ...فباسم الله الذى لايزال يرعاك .. باسم المسيح ، ونحن خادماته وخادماتك ، نستحلفك أن تتفضل فتخبرنا فى رسائل منك متتابعة عن المصائب التى لازالت تتقاذفك حتى نشاركك على الأقل فى أحزانك ومسراتك ، نحن الذين بقينا على الدوام أوفياء لك ...

« إنك لتعرف يا أعز الناس علىّ — وإن الناس كلهم ليعرفون — ماذا خسرتُ بفقدك ... لقد بدلت ثيابى وقلبى طوعاً لأمرك ، كى أظهر لك أنك مالك جسمى وعقلى ... ولم أكن أتطلع إلى عهد الزواج ، أو إلى مهر تمهرنى به ... وإذا كان اسم الزوجة يبدو أكثر قداسة وأقوى رابطة ، فإنّ أحب إلىّ ، اسم الصديقة منه وأعذب على الدوام ؛ أو ، إذا لم يكن فى هذا ما تستحى منه ، اسم العشيقة أو العاهرة ... وإنى لأشهد الله لو أن أغسطس الذى حكم العالم كله رأى أنى خليقة بأن يكون لى شرف الزواج به ، وأن يملّكنى العالم بأسره أحكمه حكما يدوم أبد الدهر ، لكان قولهم إنى مومسك أحب إلىّ من قولهم إنى إمبراطورته ...

« وهل بين الملوك أو الفلاسفة من يضارعك فى شهرتك ؟ وأية مملكة أو مدينة أو قرية لم تتحرق شوقاً لرؤيتك ؟ ومَن من الناس لم يستحث الخطى لينظر إليك ، حين تبدو أمام الجماهير ؟ ... وأية زوجة ، وأية عذراء ، لم تتلهف عليك وأنت غائب ، أو تتحرق شوقاً إليك وأنت حاضر ؟ وأية ملكة أو سيدة ذات سلطان لم تحسدنى على مباهجى وفراشى ؟

« هلا حدثتنى عن شيء واحد إن استطعت : لم أهملتنى ونسيتنى ، بعد أن سلكتُ سبيل الحياة الدينية التى كنت أنت دون غيرك الآمر بها ، فلم أحظ بعدئذ

بكلمة منك أو نظرة إليك تبتهج بها نفسى ، أو رسالة منك غيبتك يرتاح لها قلبى ؟ ألا فحدثنى عن شىء واحد لا أكثر إن استطعت ، أو دعنى أفض إليك بما أحس به ، بل ما يظنه الناس جميعاً : إن الشهوة الجنسية لا الحب هى التى وثقت الصلة بينى وبينك ... فلما أن نلت ما تبغيه ، زال من فوره كل ما كنت تتظاهر به ... ليس هذا يا أحب الناس إلىّ ، ما أظنه أنا وحدى ، بل ما يظنه الناس جميعاً ... وكم كنت أتمنى أن يكون هذا ظنى دون غيرى ، وأن يجد حبك من يبرره غيرى فتخفّ بذلك بعض الشىء لواعج أحزانى .

« أتوسل إليك أن تستمع لما أطلبه إليك ... فى الوقت الذى أخادع نفسى فيه بوجودك معى فى ألفاظك المكتوبة على الأقل — وهى ألفاظ لديك منها الشىء الكثير — أهد إلىّ صورتك الحلوة ... فأنا أستحق منك أكثر منها ... بعد أن فعلت من أجلك كل ما يمكن فعله ... أنا التى غويت حياة الدير الخشنة فى سن الشباب ... لا عن تقى وحب للدين بل إطاعة لأمرك لا لشىء سواه .. ولست أنتظر ثواباً من الله على هذا العمل ، لأنى لم أعمل شيئاً لوجه الله كما تعرف ذلك حق المعرفة ... ولذلك أستحلفك باسم الذى وهبت له نفسك ، وأتوسل إليك أمام الله أن تعيد إلىّ وجودك بأية سبيل فى استطاعتك ، ولو بكلمة منك تخفف عنى آلامى ... وداعاً يا كل من أحب »[٣٩] .

لكن أبلار كان عاجزاً عجزاً جسمياً عن أن يستجيب إلى هذه العواطف الجياشة بعواطف من نوعها ، ولهذا كانت الرسالة التى تعزوها إليه الرواية المتواترة تذكيراً لها بالنذر الدينى الذى نذر له نفسه : « إلى هلواز أخته العزيزة فى المسيح ، من أبلار أخيها فى المسيح نفسه » ؛ وهو يوصيها بأن تقبل ما حل بهما من مصائب خاضعة لها ، راضية بها ، على أنها تطهير وعقاب للنجاة من عند الله . ويطلب إليها أن تدعو له ، ويأمرها أن تخفف من أحزانها بأملها فى أن يجتمعا معاً فى السماء ، ويرجوها أن تواريه الثرى حين يموت فى أراضى « الروح

القدس » . وتعيد فى رسالتها الثانية عبارات الهيام وعدم التقى فتقول : « لقد كنت على الدوام أخشى أن أغضبك ، لا أن أغضب الله ، وأعمل على رضائك أكثر مما أعمل على رضائه ... فانظر أية حياة تعسة لابد أن أحياها إذا كنت أقاسى كل هذا عبثاً ، لا أمل لى فى أن أثاب عليه فى المستقبل . لقد ظللت ، كما ظل الكثيرون غيرك زمناً طويلا مغروراً بخداعى وتمويهى فحسبت النفاق ديناً »[٤٠] . فيجيبها بأن المسيح ، لا هو ، قد أحبها بحق : لقد كان هيامى شهوة جنسية لا حباً . ولقد أشبعت شهوتى الدنيئة فيك ، وكان هذا كل ما أحببت... فاذرفى الدمع من أجل منقذك لا من أجل من أغواك ، من أجل منجيك لا من أجل مدنسك[٤١] . ثم يؤلف دعاء مؤثراً يطلب إليها أن تتلوه من أجله . وتبدو فى رسالتها الثالثة وقد استسلمت لموت حبه الدنيوى ؛ ولا تطلب إليه وقتئذ إلا قاعدة جديدة تستطيع هى ومن معها من الراهبات أن يحيين بها حياة دينية حقة . ويستجيب هو إلى رغبتها ويضع لهن دستوراً رحيما معتدلا ، ويكتب مواعظ يقوى بها إيمانهن . ويبعث بهذه كلها إلى هلواز موقعة بتوقيع دقيق : « وداعاً فى الرب إلى خادمته ، من كانت فى وقت ما عزيزة علىّ فى هذا العالم ، وأضحت الآن أعز الناس فى المسيح » . لقد كان فى ثنايا قلبه المحطم لا يزال يهيم بحبها .

وبعد ، فهل هذه الرسائل الشهيرة حقيقية ؟ إن هذه المشكلة تواجهنا قوية مستعصية . يقال إن أولى رسائل هلواز قد كتبت على أثر ظهور كتابه تاريخ مصائبى وهو يذكر فيه عدة زيارات قام بها أبلار لهلواز فى الروح القدس ؛ ومع هذا فهى تشكو أنه أغفلها . ولكن لعل تاريخه قد ظهر أجزاء منقطعة ، وأن الأجزاء الأولى منه وحدها هى السابقة على الرسالة . ثم إن النزعة الشهوانية الجريئة الظاهرة فى بعض فقراتها تبدو غير معقولة لصدورها من امرأة أكسبها تقاها وتفانيها فى أمور الدين مدى أربعة عشر عاما ذلك الإجلال السامى عند جميع الناس . وهو الإجلال الذى يشهد به بطرس المبجل Peter the Venerable

كما يشهد به أبلار . يضاف إلى هذا ما فى الرسائل من تنميق بلاغى ومقتبسات من كتب الأدب القديم ، ومن كتب الآباء ، دالة على التحذلق والتكلف لا يمكن وجودها فى عقل يحس إحساسا صادقا بالحب أو التقى أو الندم . وفوق هذا كله فإن أقدم مخطوطات هذه الرسائل يرجع تاريخها إلى القرن الثالث عشر . ويبدو أن چان ده مونج قد ترجمها من اللغة اللاتينية إلى الفرنسية فى عام ١٢٨٥ [٤٢] ؛ وإلى أن نجد أدلة أكثر مما لدينا قوة فإن لنا أن نختتم هذا الفصل بقولنا إنها من أبدع الوثائق المزورة فى التاريخ ، وإن حوادثها غير موثوق بصحتها ، ولكنها قسم خالد لا يفنى من أدب فرنسا الغرامى [٤٣] .

الفصل الخامس

المـــدين

لسنا نعرف متى فر أبلار من منصبه العالى فى رياسة الدير ومما كان يعانيه من آلام أو كيف أتيح له هذا الفرار . فهاهو يوحنا السلزبرى يقول إنه استمع إلى محاضرات أبلار على جبل سانت چنڤييڤ فى عام ١١٣٦ ، كذلك لانعرف أى رخصة أجازت له أن يعود إلى التعليم ، ولعله لم يطلب ترخيصا ما ، ولعله قد استهزأ فى وقت ما بآداب الكنيسة فثار عليه رجالها وسلكوا ضده سبلا ملتوية أدت إلى سقوطه الأخير .

وإذا كان إخصاؤه قد أزال رجولته ، فإنا لانرى أثراً لهذا فى الكتب التى نقلت إلينا أسس تعاليمه . وإن من الصعب علينا أن نجد فيها خروجا صريحا على الدين ، وإن كان من اليسير أن نجد فيها فقرات أثارت بلا ريب غضب رجال الدين . من ذلك أنه يقول فى كتاب له عن فلسفة الأخلاق عنوانه **اعرف نفسك** Scito te ipsum إن الخطيئة ليست فى العمل نفسه بل فى نية العامل ، وإن العمل أيا كان — حتى القتل نفسه — ليس خطيئة فى ذاته . مثال ذلك أن أماً لم تجد لديها من الثياب ما يكفى لتدفئة طفلها فضمته إلى صدرها وأماتته خنقاً على علم منها ، لقد قتلت هذه الأم طفلها الحبيب إليها فعاقبها القانون العقاب الذى تستحقه كى يصبح غيرها من النساء أكثر منها عناية ، ولكن هذه الأم بريئة من الذنب عند الله . وفوق هذا فلكى تكون هناك خطيئه ، يجب أن يكون مرتكبها قد خالف ضميره الأخلاقى لا ضمير غيره من الناس وحدهم ، وعلى هذا فإن قتل الشهداء المسيحيين لا يعد إثما ارتكبه الرومان الذين كانوا يشعرون بأن

اضطهاد هؤلاء المسيحيين واجب للإبقاء على دولتهم أو دينهم الذى خالوه صحيحاً . وأكثر من هذا « أن الذين اضطهدوا المسيح أنفسهم أو اضطهدوا أتباعه ، وهم يرون من واجبهم أن يضطهدوهم ، قد ارتكبوا إثما من حيث عملهم ، ولكن لو أنهم امتنعوا عن اضطهادهم مخالفين بذلك ما تمليه عليهم ضمائرهم لارتكبوا بذلك إثما أكبر »(٤٤) . قد يكون هذا كله منطقا سليما ومثيراً معا ، ولكن إذا أخذ بهذه النظرية فإن عقيدة الخطيئة من أولها إلى آخرها من حيث مخالفتها لأوامر الله معرضة لأن تتبخر فى تيار الجدل القائم حول النيات فلا يبقى لها وجود قط ؛ فأى الناس ، إذا استثنينا القديس بولس وعدداً قليلا ممن هم على شاكلته ، يعترف بأنه عمل ما يخالف ضميره ؟ وكانت ست فقرات من الفقرات الست عشرة التى أدين أبلار من أجلها فى عام ١١٤١ مأخوذة من هذا الكتاب .

وكان الذى أزعج الكنيسة أكثر من أى إلحاد معين تبينته عند أبلار هو افتراضه أن لا أسرار فى الدين ، وأن العقائد كلها يجب أن تكون قابلة للتفسير القائم على العقل ، ولم يكن ثمة غرابة فى صدور هذا القول منه . ألم يكن ثملاً بنشوة المنطق الذى جرؤ على أن يربطه بكلمة لله ويكاد يجعله من العلوم القدسية ؟(٤٥). ولنا أن نتساءل كم من العقول القاصرة غير الناضجة التى تأثرت بجرثومة ذلك التحليل المنطقى قد ضلت طريقها بحججه الطلية المؤيدة والمعارضة إذا سلمنا بأن هذا الأستاذ الذى افتتن به الناس وأغواهم قد وصل بأساليب غير مستقيمة إلى نتائج صحيحة سليمة ؟ ولو أنه لم يكن له أمثلة من نوعه لترك وشأنه دون أن يناله أذى ، رجاء ألا يطول أجله . لكنه كان له أتباع متحمسون ، وكان ثمة معلمون غيره — وليم الكنشسى William of Conches ، وجلبرت ده لاپريه Gibert de la Porrée ، وبرنجر الثورى Berenger of Tours — وكانوا كلهم يضعون الدين على مشرحة العقل . فإذا ظل هذا التيار يجرى فى مجراه ، فإلى متى تستطيع الكنيسة أن تحتفظ بوحدة العقيدة الدينية وقوة الإيمان

اللتين يقوم عليهما — فيما يبدو لها — نظام أوربا الأخلاقى والاجتماعى ؟ ألم يشرع آرنلد البرشيانى Arnold of Brescia أحد تلاميذ أبلار يشعل فعلا نار الثورة فى إيطاليا ؟

وأكبر الظن أن هذه الاعتبارات أو نحوها هى التى أوقفت القديس برنار موقف العداء جهرة أمام أبلار . ذلك بأن حارس الدين الحريص على سلامته قد اشتم رائحة الخطر الذى يتهدد معتنقيه ، فقاد المؤمنين إلى النضال . وكان من وقت بعيد ينظر بعين الارتياب إلى هجمات العقل الجرىء المتربص بالدين ؛ ويبدو له أن طلب العلم إذا لم يقصد به خدمة الدين هو الوثنية بعينها ؛ أما أن يحاول إنسان تفسير الأسرار المقدسة بقواعد العقل والمنطق فهو المعصية والحماقة ؛ والعقل الذى يبدأ بتفسير هذه الأسرار الخفية سينتهى آخر الأمر إلى تدنيسها . ولم يكن القديس بالرجل الشرس المتربص للشر ؛ ذلك أنه لما آن لفت وليم التيبرىّ أحد رهبان ريمس نظره فى عام ١١٣٩ إلى ما فى تعاليم أبلار من خطر ، وطلب إليه أن يتهم الفيلسوف ، صرف الراهب من عنده ولم يفعل شيئاً . ولكن أبلار نفسه استعجل الأمور بأن كتب إلى كبير أساقفة سان Sens أن تتاح له أثناء انعقاد مجلس الكنيسة المقبل فى تلك المدينة ، فرصة يدفع فيها عن نفسه تهمة الإلحاد التى يذيعها بعضهم عنه : ووافق كبير الأساقفة على هذا الطلب ، لأنه لم يكن يرى بأساً فى أن يكون كرسيه قبلة العالم المسيحى ؛ وأراد أن يكون الكفاح قويا فدعا برنار إلى الحضور ، ولكنه أبى وقال إنه سيكون فى حلبة الجدل « طفلا لا أكثر » أمام أبلار الذى تدرب على المنطق أربعين عاما : غير أنه كتب إلى عدد من الأساقفة يحثهم على الحضور للدفاع عن الدين :

« يحاول بطرس أبلار أن يقوّض فضائل الدين المسيحى حين يدعى لنفسه القدرة على فهم الله فهما كاملا بالاعتماد على العقل البشرى . فهو يرقى إلى السموات العلا ، وينزل إلى الأغوار السحيقة ؛ ولا يستطيع شىء أن يختفى

عنه ! . . . وهو لا يكتفى بأن ينظر إلى الأشياء من خلال المنظار نظرة غير واضحة ، بل يرى أن لا بد له من النظر إلى الأشياء وجها لوجه . . . إن فيه لشبهاً بأريوس حين يتحدث عن التثليث ، وبيلاچيوس Pelagius حين يتحدث عن البركة ، ونسطوريوس حين يتحدث عن شخص المسيح . . . إن دين المتقين هو الإيمان والتصديق ، لا المجادلة ؛ أما هذا الرجل فليس له عقل يصدق به ما لم يسبق له أن ناقشه بمنقطه(٤٦) .

وتغلب أتباع برنار عليه ، وأظهروا له ضعفهم ، فاضطروه إلى الحضور ؛ فلما أقبل أبلار على سان (يونية سنة ١١٤٠) وجد الجماهير ، كما وجدها فى سواسون قبل ذلك الوقت بتسعة عشر عاما ، ثائرة عليه لمجرد وجود برنار فى المدينة ، ولعدائه الشديد له ، حتى لم يكن يجرؤ على الظهور فى شوارعها . أما كبير الأساقفة فقد حقق حلمه ، لأن سان بدت أسبوعا كاملا وكأنها مركز العالم كله . لقد جاء إليها ملك فرنسا تحف به حاشيته الفخمة ، وأقبل عليها عشرات من كبار رجال الكنيسة ، وكان برنار الذى أقعدته الرثية وعلت وجهه صرامة القداسة يبعث الرعب فى قلوبهم جميعاً ؛ وكان بعض أولئك الأحبار قد أحسوا فرادى أو مجتمعين بوخز الطعنات التى وجهها أبلار لمعائب رجال الدين ، ولفساد أخلاق القساوسة والرهبان ، وبيع صكوك الغفران ، واختراع المعجزات الزائفة . وأيقن أبلار أن المجلس سيدينه ، فحضر جلسته الأولى وأعلن أنه لن يرضى بأن يحكم عليه غير البابا نفسه ؛ ثم غادر الاجتماع وخرج من المدينة . ولم يكن المجلس واثقاً ، بعد أن طلب إليه التنحى عن الحكم ، أن من حقه قانوناً أن يحاكم أبلار ؛ ولكن برنار أكد له أن هذا من حقه ، فأخذ المجلس يطعن فى ست عشرة مسألة منتزعة من كتب أبلار ، ومن بينها تعريفه للذنب ، ونظريته فى التثليث التى يقول فيها إنه هو القدرة ، والحكمة ، والحب من صفات الإله الواحد .

وسافر أبلار إلى رومة ليعرض قضيته على البابا وهو لا يكاد يملك شروى نقير ،

واعترضه فى السفر شيخوخته وضعفه فتأخر كثيراً فى الطريق . ولما وصل إلى دير كلونى فى برغندية استقبله بطرس المبجل بالشفقة والحنان ، فاستراح فى الدير بضعة أيام قليلة . وفى هذه الأثناء أصدر إنوسنت الثانى قراراً بالتصديق على حكم المجلس ، وفرض الصمت الدائم على أبلار ، والأمر بحجزه فى أحد الأديرة . ورغب أبلار بالرغم من صدور هذا القرار أن يواصل حجه ، ولكن بطرس أقنعه بألا يفعل ، وقال له إن البابا لا يمكن أن يصدر قرراً يخالف ما يراه برنار . وخضع أبلار لهذا الرأى لما عاناه من الإعياء الجسمى والروحى ، فصار راهبا فى دير كلونى واختفى فى ظلام أسواره وطقوسه ، وقوى روح زملائه الرهبان بتقواه ، وصمته ، وصلواته . وكتب إلى هلواز — التى لم يرها قط بعد ذلك الوقت — يعترف اعترافا مؤثراً بإيمانه بتعاليم المسيح ، وألف لها فى أغلب الظن ترانيم من أجمل ما يحتويه أدب العصور الوسطى . وتعزى إليه « مرثية » فى صورة رثاء من داود إلى يوناثان ، ولكن فى وسع أى قاوئ أن يلمح فيها أنيناً رقيقاً :

لو قُدّر لى أن أرقد معك فى قبر واحد
لرأيت السعادة فى أن أموت ،
فلست أعرف من النعم التى يمكن أن يهبها الحب فى هذه الدنيا ما هو
أعظم من هذه النعمة .
ولو أننى عشت بعد أن تموتين ويبرد جسمك
لكان ذلك هو الموت الأبدى ،
ولن يكون فى شبحى نصف روح
يمسك على حياتى أو نصف نفسى .

* * *

هأنذا ، ألقى قيثارتى ،
ألا ليتنى أستطيع
أن أمسك كذلك دموعى وأنينى !
لقد آلم العزف يدى
وبحّ صوتى
من فرط الحزن ، وحل بروحى الإعياء .

وأصابه المرض بعد هذا الوقت بقليل ، وأرسله رئيس الدير الرحيم إلى دير القديس مارسل St. Marcel بالقرب من شالون ليبدل فيه الهواء ، وهنالك وفى اليوم الحادى والعشرين من إبريل عام ١١٤٢ وافته المنية وهو فى السادسة والثلاثين من عمره . ودفن فى كنيسة الدير ؛ ولكن هلواز ذكّرت بطرس المبجل بأن أبلار قد طلب فى حياته أن يدفن فى « الروح القدس » . وجاء إليها الرئيس الرحيم نفسه بالجثة ، وحاول أن يواسيها بالتحدث عن حبيبها الميت بأنه سقراط زمانه وأفلاطونه وأرسطوطاليسه ؛ وترك معها رسالة تفيض بالحنان المسيحى :

وهكذا يا أختى العزيزة المعظمة فى الله ، إن الرجل الذى اجتمعت وإياه ، بعد رابطتكما الجسمية ، برابطة خير منها وأقوى هى رابطة الحب المقدس ، والذى خدمت . . . الله معه ، هذا الرجل يأخذه الله بدلا منك ، فهو صورة أخرى منك ، وينفث فيه دفء صدره ؛ ويحتفظ به حين يدوى صوت الملاك الأكبر ، وينفخ فى الصور من السموات العلى ، ليرده إليه نعمة منه ورحمة(٤٨) .

ولحقت بحبيبها فى عام ١١٦٤ بعد أن بلغت من السن ما بلغه هو ، وكادت تنال من الشهرة مثل ما ناله . ودفنت بجواره فى حديقة « الروح القدس » .

ودمرت هذه الحديقة فى أثناء الثورة الفرنسية ، وعبثت الأيدى بالقبور ، ولعلها اختلط بعضها ببعض . ثم نقل ما يظن أنه رفات أبلار وهلواز إلى مقبرة الأب لاشيز Père Lachaise بباريس عام ١٨١٧ . وهناك ترى الرجال والنساء إلى يومنا هذا يأتون فى أيام الأحد من فصل الصيف يحملون الأزهار ليزينوا بها القبر(*) .

(*) لقد أوردنا قصة أبلار وهلواز ورسائلهما فى كتابنا « أشهر الرسائل العالمية » فليقرأها من أراد الاطلاع على هذه السيرة العجيبة . (المترجم)

الباب السادس والثلاثون

مغامرات العقل

١١٢٠ — ١٣٠٨

الفصل الأول

مدرسة شارتر

ترى كيف تفسر تلك السورة الفلسفية العجيبة التي بدأت بأنسلم ، وروسلان ، وأبلار ، وبلغت ذروتها في ألبرتس مجنس والقديس تومس أكوناس ؟ لقد كان لهذه السورة ، كما هي العادة ، كثير من الأسباب : منها أن الشرق اليوناني لم يكن قد تخلى قط عن تراثه الثقافي القديم ، بل كانت كتب الفلاسفة الأقدمين تدرس في كل قرن في القسطنطينية ، وأنطاكية ، والإسكندرية ؛ وكان رجال أمثال ميخائيل بسلس Miehael Psellus ، ونقفورس بلميدس Nicephorus Blemydes (١١٩٧؟ — ١٢٧٢) ، وجورج بشميرس George Pachymeres (١٢٤٢ ؟ — ١٣١٠) ، وبارهبريوس Bar Hebareus السوري (١٢٢٦ ؟ — ١٢٨٢ كان رجال من أمثال هؤلاء مطلعين على مؤلفات أفلاطون وأرسطو بلغتها الأصلية ؛ وأخذ المعلمون اليونان يدخلون بلاد الغرب كما أخذت المخطوطات اليونانية تدخلها تدريجاً . وحتى في تلك البلاد نفسها كان قليل من التراث اليوناني قد بقي بعد العاصفة البربرية ؛ فقد بقي الجزء الأكبر من **أرغنون** أرسطو في المنطق ، ومن كتابي **مينون وتيماوس** لأفلاطون ، وكانت

الصورة التي رسمها هذا الفيلسوف لإر Er هي التي لونت خيال المسيحيين عن الجحيم . وقد جاءت الموجات المتتابعة من الكتب العربية واليونانية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر بما تحتويه الفلسفتان اليونانية والإسلامية من أفكار جديدة تتحدى الأفكار المسيحية وتختلف عنها اختلافاً يهدد باكتساح لاهوت العالم المسيحي كله إذا لم تنشئ المسيحية لها فلسفة مناهضة لها . على أن هذه المؤثرات لم تكن تستطيع أن تنشئ تلك الفلسفة المسيحية إذا كان الغرب قد ظل فقيراً كما كان ؛ أما الذي جعل لهذه العوامل أثراً فعالا فهو نمو الثروة حين أخذت الزراعة تغزو القارة الأوربية ، واتسع نطاق التجارة والصناعة ، وتكاثرت الأموال وما تؤديه من خدمات . وتعاونت هذه النهضة الاقتصادية مع تحرر المدن ذات الحكم الذاتي ، وقيام الجامعات ، وإحياء الآداب اللاتينية .والقانون الروماني ، وتقنين الشريعة الكنسية ، ومجد الفن القوطي ، وازدهار الأدب الخيالي ، و « علم » الشعراء الغزلين « المرح » ، واستيقاظ العلوم ، وبعث الفلسفة ، تعاونت هذه كلها على إيجاد « نهضة القرن الثاني عشر » .

وجاء في أعقاب الثروة الفراغ ، والدرس ، والمدارس ، وكانت كلمة Scholê تعني في أول الأمر الفراغ . وكان الأسكلاستكوس scholasticus هو المدرس أو الأستاذ ، كما كانت عبارة « الفلسفة المدرسية » تعني الفلسفة التي تدرس في مدارس العصور الوسطى الثانوية أو في الجامعات التي نشأت كثرتها الغالبة من هذه المدارس الثانوية . كذلك كانت « الطريقة المدرسية » هي أسلوب الجدل الفلسفي والعرض الفلسفي اللذين يستخدمان في هذه المدارس . وإذا ما استثنينا فصول أبلار التي كانت في باريس أو قريبة منها ، فقد كانت مدرسة شارتر أكثر هذه المدارس نشاطاً وأعظمها شهرة ؛ ففيها امتزجت الفلسفة بالأدب ، وكان في وسع من يتخرج فيها أن يكتب في المسائل الخفية العويصة بالوضوح والظرف اللذين أصبحا من التقاليد المشرّفة في فرنسا . وكان أفلاطون ، الذي جعل هو

أيضاً الفلسفة مفهومة مستساغة ، من الفلاسفة المحببين هناك ؛ وفيها سوّى النزاع القائم بين الواقعيين والقائلين بأن الكليات إن هى إلا ألفاظ وليس لها وجود حقيقى فى العقل أو خارجه ، سوّى هذا النزاع بقولهم إن الكليات « الحقيقية » هى بعينها الأفكار الأفلاطونية ، أو النماذج الأولى الخلاّقة التى فى عقل الله . وبلغت مدرسة شارتر ذروة نفوذها فى عهد برنار أحد مواطنيها (حوالى ١١١٧) وأخيه ثيودريك (حوالى ١١٤٠) ؛ وكان ثلاثة من خريجيها يسيطرون على ميدان الفلسفة بأوربا الغربية فى النصف القرن التالى لحياة أبلار وهم : وليم الكوشى ، وجلبرت ده لابُرّيه ، ويوحنا السلزبرى .

ويتبين الإنسان اتساع مجال الفلسفة المدرسية بوضوح عجيب فى سيرة وليم الكوشى (١٠٨٠ ؟ — ١١٥٤) . فقد كان رجلا ملماً بكتب أبقراط ، ولكريشيوش ، وحنين بن إسحق ، وقسطنطين الأفريقى ، بل وحتى دمقريطس نفسه[١] . وقد افتتن بالنظرية الذرية ، واستنتج أن جميع أعمال الطبيعة تبدأ فى الأصل باجتماع الذرات ، ويصدق هذا على أرق عمليات الجسم البشرى وأعظمها خطراً[٢] . والنفس عنده هى اتحاد العناصر الجوهرية فى الفرد مع النفس الكونية أو العنصر الجوهرى فى العالم[٣] . ونهج وليم نهج أبلار فى إحدى المسائل الخفية الشديدة الخطورة فكتب يقول : « فى الألوهية قدرة ، وحكمة ، وإرادة ، وهى التى يسميها القديسيون أقانيم ثلاثة[٤] » . وهو يفهم القصة القائلة إن حواء خلقت من ضلع آدم فهماً يعتمد على المجاز الواسع . وهو يرد بعنف على شخص ما يدعى كرنفيوس Cornifius وغيره من « الكرنفيوسيين » الذين يقاومون العلم والفلسفة بحجة أن فى الإيمان الساذج ما يكفيهم . « فهم لا يطيقون أن يبحث غيرهم شيئاً ما ، ويريدون منا أن نؤمن كما يؤمن السذج والهمج من غير أن نسأل عن السبب ، كى يكون لهم رفاق فى الجهالة . . . ولكننا نقول : إن من واجبنا أن نبحث لكل شىء عن علة ، فإذا عجزنا عن معرفة تلك العلة

وكلنا الأمر إلى ... إلى الروح القدس وإلى الإيمان[٥] ... (ويقولون) : لسنا نعرف كيف يكون هذا ، ولكننا نعرف أن فى قدرة الله أن يفعله . ألا أيها البلهاء المساكين ! إن فى قدرة الله أن يخلق غراباً من شجرة ، ولكن هل فعل الله هذا فى يوم من الأيام ؟ فعليكم إذن أن تدلوا بعلة لوجود شيء ما بالصورة التى هو عليها ، وإلا فامتنعوا عن الاعتقاد بأنه على هذه الصورة...[٦] إننا لا تسرنا الكثرة ، وإنما تسرنا القلة المختبرة ، ونحن نشكر فى البحث عن الحقيقة وحدها .

لقد كان هذا القول أكثر مما يطيقه وليم التيرى ، ولهذا بادر الراهب المتحمس ، الذى أغرى القديس برنار بمهاجمة أبلار ، بالطعن على هذا الثائر الجديد صاحب النزعة العقلية والتنديد به عند رئيس دير كليرفو اليقظ المترقب . ورجع وليم الكوشى عن إلحاده ، ووافق على أن حواء خلقت من ضلع آدم[٨] ، وهجر الفلسفة لأنها مغامرة لا يتناسب فيها الكسب مع ما يتعرض له صاحبها من أخطار ، واشتغل مربياً لهنرى بلانتجنت Henry Plantagenet الإنجليزى واختفى اسمه من التاريخ .

وكان جلبرت ده لا پريه Gilbert de la Porrée (١٠٧٠ — ١١٥٤) أكثر من وليم توفيقاً فى هذا العمل المفعم بالأخطار . فقد تعلم ودرس فى شارتر وفى باريس ، وصار أسقفاً لپتيير Potiers ووضع كتاباً ذا ستة مبادئ Liber sex prencepiorium ظل ستة قرون النص الذى يرجع إليه فى علم المنطق ؛ ولكن التعليق على بؤئيوس قد فهم منه أن طبيعة الله بعيدة عن إدراك العقل البشرى بعداً يتحتم معه أن يؤخذ كل قول عنها على أنه تشبيه أو مجاز لا أكثر ، ثم إنه أكد وحدة الله تأكيداً يجعل التثليث يبدو وكأنه مجاز لا غير[٩] . وفى عام ١١٤٨ اتهمه القديس برنار بالإلحاد ، وإن كان وقتئذ سن الثانية والسبعين ، وحوكم على هذه التهمة فى أوكسير Auxerre ، وحير

معارضيه بما أورده من فروق دقيقة ، وعاد إلى موطنه غير مدين . وحوكم مرة أخرى بعد سنة من ذلك الوقت ، ورضى أن تحرق بعض فقرات انتزعت من كتبه ، ولكنه عاد حراً إلى أبرشيته ؛ ولما طلب إليه أن يناقش آراءه مع برنار رفض الاقتراح وقال : إن هذا القديس يعوزه التبحر فى اللاهوت إلى حد لا يستطع معه فهم آرائه[١٠] ، ويقول عنه يوحنا السلزبرى : إن جلبرت « ناضج فى الثقافة الحرة نضوجاً لا يفوقه فيه أحد من الناس[١١] » .

وكان فى مقدور يوحنا أن يقول هذا القول عن نفسه ، لأنه كان من بين الفلاسفة المدرسيين أوسعهم ثقافة وأكثرهم تهذيباً ، وأبلغهم قلماً . وكان مولده فى سلزبرى حوالى عام ١١١٧ . وتتلمذ على أبلار فى جبل القديس چيفيف ، وعلى وليم الكوشى فى شارتر ، وعلى جلبرت ده لاپريه فى باريس ، ثم عاد إلى انجلترا فى عام ١١٤٩ ، وعمل أميناً لاثنين من رؤساء أساقفة كنتربرى هما : ثيوبولد وتومس أبكت ، وقام لهما بعدة مهام دبلوماسية ، زار فيها إيطاليا ست مرات ، وأقام فى البلاط البابوى ثمانى سنين ، وشارك بكت فى فرنسا ، وشاهد مقتله فى كتدرائيته ، وعين أسقفاً لشارتر فى عام ١١٧٨ ، وتوفى فى عام ١١٨٠ . وكانت حياته مليئة بالجد ، متعددة النواحى ، عمل فيها هذا الرجل على وضع المنطق تحت مخبار تجارب الحياة ودراسة الفلسفة بتواضع منقطع النظير . ولما تقدمت به السن ورجع إلى آراء المدارس الفلسفية المختلفة أدهشه أن يراها لا تزال تجادل فى الفرق بين الاسمية والواقعية : « ليس فى مقدور الإنسان أن يتجنب هذه المسألة ، ولقد هرم العالمَ وهو يبحثها ، واستغرق بحثها من الوقت أكثر مما استغرقه القياصرة فى فتح العالمَ وحكمه ... وأيا كانت النقطة التى يبدأ منها النقاش ، فإنه يعود على الدوام ويرتبط بتلك المسألة ، فهى أشبه بجنون روفس Rofus بنيڤيا Naevia « إنه لا يفكر فى شىء آخر ، ولا يتحدث عن شىء آخر ، ولو أن نيڤيا لم يوجد لظل رفس أبكم لا يبين »[١٢] .

وحسم يوحنا نفسه الأمر من أيسر السبل حين قال : إن الكلى مدرك عقلى ييسر ربط الصفات المشتركة للكائنات المفردة ؛ وكان چون لا أبلار هو الذى اقترح النظرية القائلة إن الكليات توجد فى العقل مستقلة عن أفرادها المجسمة المادية .

وألف فى تاريخ الفلسفة اليونانية والرومانية كتاباً بلغة لاتينية هى أحسن ما كتب منذ ظهرت رسائل ألكوين — ويعدّ هذا الكتاب شاهداً عجيباً على اتساع الأفق العقلى فى العصور الوسطى اتساعا مطرداً ؛ وظهر بعده كتاب المتالوچيكون Metalogicon الذى خفف فيه علم المنطق بما أضافه من ترجمة لنفسه ، ثم كتاب پوليكراتكس Polycraticus (١١٥٩) الذى وضع له عنواناً ثانويا غريبا « فى حماقات رجال الحاشية وآثار الفلاسفة » De nugis Curialium et vistigüo philosophorum . وكان هذا الكتاب أول مقال فى أدب العالم المسيحى عن الفلسفة السياسية . وهو يكشف عن أخطاء الحكومات القائمة فى أيامه ورذائلها ، ويرسم صورة للدولة المثالية ، ويذكر صفات الرجل المثالى ، ثم يواسينا بقوله : « كل شىء يشترى علناً ، إلا إذا كان تواضع البائع هو الذى يمنع هذا الشراء ، إن نار الجشع الدنسة تهدد مذابح الكنائس نفسها ... وإن أحبار الكرسى الرسولى نفسه لايضنون بأيديهم عن أن تدنسها العطايا ، بل إنهم فى بعض الأوقات يجوسون خلال الأقاليم فى عربدة جنونية »[١٣] . وإذا جاز لنا أن نصدق روايته التى نقلنا منها فقرات من قبل فإنه أبلغ البابا هدريان الرابع أن للكنيسة نصيبا موفوراً فيما يسود تلك الأيام من فساد ، وأن البابا أجابه بما معناه أن الآدميين سيظلون آدميين مهما كانت أثوابهم ؛ ويضيف يوحنا إلى ذلك تلك العبارة الحكيمة : « فى منصب من مناصب بيت الله (الكنيسة) إذا كان بعض رجالها يتكاســلون ، فإن غيرهم يضاعفون إليهم ليؤدوا

عملهم . ولقد شاهدت من بين الشمامسة ، ورؤساء الشمامسة ، والأساقفة ، والأحبار من يقومون بما يوجبه عليهم الله بجد وإخلاص يستبين الإنسان معهما أنهم أوتوا من مزايا الإيمان وفضائله أن من عهدوا إليه بحرث أبينا قد أحسنوا كل الإحسان »[١٤] . وهو يرى أن الحكومة المدنية أكثر فساداً من رجال الدين ، وأن من الخير لحماية الخلق أن يكون للكنيسة سلطان أخلاقى على جميع العالم ودوله[١٥] .

وأوسع الفقرات شهرة فى كتاب پوليكراتكس هى التى تشير إلى قتل الطغاة .

« إذا حاد الأمراء شيئاً فشيئاً عن الطريق الحق ، فليس من الخير فى شىء أن يطاح بهم كلية على الفور ، بل يكفى لومهم على ظلمهم بتعذيرهم والصبر عليهم ، حتى يتبين أخيراً أنهم معاندون مصرون على فعل الشر ... أما إذا تعارض سلطان الحاكم مع الأوامر الإلهية وأراد أن يحملنى على أن أشاركه فى حربه على الله ، فإنى لا أتردد قط فى أن أرد عايه بقولى إن الله يجب أن يفضل على كل إنسان على ظهر الأرض أيا كان قدره ... وليس قتل المستبد مشروعا فحسب ، بلى هو حق وعدل »[١٦] .

كانت هذه سورة من چون مهيجة مثيرة ، أضاف إليها فقرة أخرى فى موضع بعدها من الكتاب نفسه « بشرط ألا يكون القاتل مرتبطا بالولاء للمستبد »[١٧] . وهى جملة فيها نجاة للمستبدين لأن كل حاكم يلزم رعاياه بأن يقسموا يمين الولاء له . وفى القرن الخامس عشر دافع جان بتى (Jean Petie) عن اغتيال لويس صاحب أورليان بعبارات نقلها عن الپوليكراتكس ، ولكن مجلس كنستانس تغلب على بتى بحجة أن الملك نفسه لايحق له أن يدين متهما دون أن يدعوه للمثول أمامه ويحاكمه .

ونحن « المحدثين » لانستطيع أن نتفق على الدوام مع « المحدثين » فى القرن الثانى عشر الذين كان يوحنا واحداً منهم ؛ وهو يقول من آن إلى آن كلاما

يبدو لنا أنه هراء ، ولكن هراءه نفسه مصوغ فى أسلوب من التسامح والظرف لا نكاد نعثر على ما يماثله بعدئذ قبل إرزمس Erasmus . وكان يوحنا أيضاً من الإنسانيين ، يحب الحياة أكثر مما يحب الخلود ، ويعشق الجمال والرحمة أكثر مما يعشق العقائد التحكمية فى أى دين ، ويقتبس من الآداب اليونانية — الرومانية القديمة وهو منشرح مغتبط أكثر منه حين يقتبس من صحف الكتاب المقدس . وهو يضع ثبتاً « بالأشياء التى يصح للرجل الحكيم أن يشك فيها dubitabilia ، ومنها طبيعة النفس ومنشؤها ، وخلق العالم ، والعلاقة بين علم الله السابق وحرية الإرادة . ولكنه كان أحصف من أن يندفع إلى الإلحاد ، بل كان يسير وسط الجدل القائم فى أيامه بحصافة دبلوماسية وسحر خلاب . ولم يكن يرى أن الفلسفة صورة من صور الحرب ، بل كان يراها بلسما للسلام ، ويقول إن الفلسفة قوة ملطفة معدلة فى الأشياء جميعها ، وإن من وصل بطريق الفلسفة إلى الإحسان والمحبة فقد بلغ هدفها الحق »[١٨] .

الفصل الثانى

أرسطو فى باريس

نشر بطرس لمبارد أحد تلاميذ أبلار فى عام ١١٥٠ كتابا جمع فيه آراء أبلار مطهرة من الإلحاد ، وكان فى الوقت عينه بداية للفلسفة المدرسية الرسمية ؛ وكان بطرس هذا ، كما كان أنسلم ، وآرنلدا البريشيانى ، وبنوفنتورا ، وتومس أكويناس ، إيطاليًّا جاء إلى فرنسا ليواصل العمل الراقى فى اللاهوت والفلسفة . وكان يحب أبلار ويسمى كتابه **نعم ولا** كتاب صلواته ، ولكنه إلى هذا كان يريد أن يكون أسقفاً ، وقد طبق فى كتابه المسمى *أربعة كتب فى الآراء* Sententearum libr IV طرائق نعم ولا بعد أن طهرها : وذلك بأن وضع تحت كل سؤال من أسئلة اللاهوت طائفة من العبارات المقتبسة من الكتاب المقدس ومن كتب آباء الكنيسة بعضها يؤيده وبعضها يعارضه ؛ ولكن بطرس هذا جد مخلصا لكى يحيل كل الآراء المعارضة إلى نتائج تتفق مع الدين القويم . وقد عين أسقفاً لباريس وظل كتابه مدى أربعة قرون النص المحبب فى برامج التعليم الدينى إلى حد دعا روچر بيكن أن يأخذ عليه أنه حل محل الكتاب المقدس نفسه ؛ ويقال إن أربعة من علماء اللاهوت ومنهم ألبرت وتومس كتبوا شروحا على هذا الكتاب .

وإذا كان كتاب لمبارد قد أيد سلطان الكتب المقدسة والكنيسة على مطالب العقل الفردى ، فقد حال مدى نصف قرن دون تقدم النزعة العقلية ؛ ولكن حادثة عجيبة وقعت فى تلك الخمسين عاما بدلت علم اللاهوت ؛ ذلك أن دخول أفكار أرسطو فى ثوبها اللاتينى إلى أوربا بعد عامى ١١٥٠ و ١٢٥٠ دفع علماء الدين الكاثوليك إلى أن يحاولوا التوفيق بين علم ما وراء الطبيعة اليونا-

وعلم اللاهوت المسيحى ، كما أن ترجمة مؤلفات أرسطو العلمية وفيما وراء الطبيعة إلى اللغة العربية دفعت المفكرين المسلمين إلى أن يحاولوا التوفيق بين العقائد الإسلامية والفلسفة اليونانية . وكما أن اصطدام آراء أرسطو بعقول العبرانيين فى أسبانيا قد أخذ يدفع ابن داود وابن ميمون فى القرن الثانى عشر لأن يحاولا التوفيق بين اليهودية والتفكير الهلينى ، وإن كان أرسطو قد بدا فوق متناول سلطان الكتب المقدسة ، فقد اضطر علماء الدين المسيحى إلى استخدام لغة العقل والمنطق وأسلحتهما . ولو أن الفليسوف اليونانى كان حيا فى هذه الأثناء لتبسم وهو يشهد كم من الأديان التى زلزلت العالم تجل آراء .

ولكن ليس من حقنا أن نغالى فى تقدير أثر المفكرين اليونان فى ازدهار الفلسفة أثناء تلك الفترة من الزمن . ذلك أن انتشار التعليم ، وما كان للجدل والحياة الذهنية من قوة حيوية فى المدارس والجامعات خلال القرن الثانى عشر ، والحافز القوى الذى كان لرجال من أمثال روسلان ، ووليم الشمبوكسى ، وأبلار ، ووليم الكنشيسى ، ويوحنا السلزبرى ، واتساع آفاق الفكر بتأثير الحروب الصليبية ، وازدياد علم الأوربيين بالحياة الإسلامية والتفكير الإسلامى فى الشرق والغرب — كل هذا كان من شأنه أن يخلق رجالا على شاكلة أكوناس ولو ظل أرسطو مجهولا ؛ والحق أن منشأ الجد الذى اتصف به أكوناس لم يكن حب أرسطو بل خشية ابن رشد . ذلك أن الفلاسفة العرب واليهود أخذوا منذ القرن الثانى عشر يؤثرون فى التفكير المسيحى فى أسبانيا ، فقد دخل الكندى ، والفارابى ، والغزالى ، وابن سينا ، وابن جبيرول ، وابن رشد ، وابن ميمون أوربا اللاتينية من نفس الأبواب التى دخلها منها أفلاطون ، وأرسطو ، وأبقراط ، وجالينوس ، وإقليدس ، وبطليموس .

وكان غزو التفكير الأجنبى على هذا النحو من أقوى الصدمات الذهنية للعقل الغربى الذى لم ينضج بعد ، فلا عجب والحالة هذه إذا قوبل فى بادئ الأمر

بالعمل على قمعه أو تأخيره ، بل إن علينا أن نعجب من قوة التكييف المدهشة التي مكنت الدين الجديد من امتصاص المعارف القديمة — الجديدة . وكان الأثر الأول لكتابي الطبيعة وما وراء الطبيعة لأرسطو ، ولشروح ابن رشد ، وهي الكتب التي وصلت إلى باريس في العشر السنين الأولى من القرن الثالث عشر ، أن زلزلت عقائد كثيرين من الطلاب ، وأن قام من العلماء أمثال أملريك البيني Amalric of Bène وداود الدينتي David of Dinant يهاجمون بعض العقائد المسيحية الجوهرية كعقيدة خلق العالم ، والإيمان بالمعجزات ، والخلود الفردي . وظنت الكنيسة أن تسرب الأفكار العربية — اليونانية إلى جنوبي فرنسا أدّى إلى تحلل الطبقات المتعلمة من الاستمساك بالدين القويم ، وأضعف من عزمها على مقاومة إلحاد الألبيجنسيين . ولهذا اجتمع مجلس كنسي في باريس عام ١٢١٠ وأدان أملريك وداود وحرّم قراءة كتب أرسطو فيما « بعد الطبيعة والفلسفة الطبيعية » كما حرم قراءة « شروحها » . وإذ كان هذا التحريم قد كرره مندوب من قبَل البابا في عام ١٢١٥ فإن لنا أن نفترض أن مرسوم عام ١٢١٠ قد أغرى الناس بقراءة هذه المؤلفات التي لولا هذا التحريم لكانت عندهم ممقوتة . وأجاز مجلس لاتران الرابع قراءة كتابي أرسطو في المنطق والأخلاق ولكنه حرم غيرهما من كتبه . وفي عام ١٢٣١ عفا جريجوري التاسع عن الأساتذة والعلماء الذين عصوا هذه المراسيم ، ولكنه جدّد المراسيم « إلى أجل موقت حتى تبحث هذه الكتب وتطهر مما فيها » . ويبدو أن الثلاثة الأساتذة الباريسيين الذين عينوا للقيام بمهمة تطهير كتب أرسطو قد تركوا هذا العمل . ولم تنفذ مراسيم التحريم زمناً طويلا ، لأن كتابي الطبيعة وما وراء الطبيعة (الفيزيقا والميتافيزيقا) وغيرهما من كتب أرسطو كانا يقرآن في جامعة باريس عام ١٢٥٥ (١٩) . وأعاد إربان الرابع أمر التحريم في عام ١٢٦٣ ؛ ولكن يبدو أن تومس أكويناس أكد له أن كتب أرسطو يمكن أن تطهر ،

ولم يعمل إربان على تنفيذ تحريمه . وانتهى الأمر فى عام ١٢٦٦ إلى أن كان مبعوثو إربان الخامس فى باريس يطلبون إلى جميع الطلاب المتقدمين لنيل درجة فى الآداب دراسة جميع مؤلفات أرسطو دراسة وافية شاملة[٢٠] .

وأحدثت المشكلة التى واجهت العالم المسيحى اللاتينى فى الربع الأول من القرن الثالث عشر أزمة كبرى فى تاريخ الدين المسيحى . ذلك أن التعطش إلى الفلسفة الجديدة كان وقتئذ حمى ذهنية لا يمكن السيطرة عليها ؛ ولهذا لم تواصل الكنيسة جهودها لفرض هذه السيطرة ، بل إنها بدلا من هذا وجهت قواها لحصار الغزاة وامتصاصهم فيها ، فأخذ رهبانها الأوفياء يدرسون هذا اليونانى المدهش الذى قلب ثلاثة أديان رأساً على عقب ؛ حتى أن الرهبان الفرنسيس وهم الذين يفضلون أوغسطين على أرسطو ، رحبوا بالإسكندر الهاليسى الذى بذل أول الجهود للتوفيق بين « الفيلسوف » والمسيحية . وبذل الرهبان الدمنيكيون كل تشجيع مستطاع لألبرتس وتومس أكوناس فى هذا المشروع عينه ؛ ولما أن أتم هؤلاء الرجال الثلاثة عملهم بدا أن أرسطو لم يعد خطراً على المسيحية .

الفصل الثالث

الزنادقـــة

إذا شئنا ألا نفهم الفلسفة المدرسية على أنها تكديس لا طائل من ورائه للتجريدات المملة ، وجب علينا ألا ننظر إلى القرن الثالث على أنه الميدان الذى يصول فيه الفلاسفة المدرسيون ويجولون غير منازعين ، بل أن ننظر إليه على أنه ميدان اصطرع فيه مدى سبعين عاما المتشككة ، والماديون ، والأحديون القائلون بوحدة الوجود ، والجاحدون بالله ، اصطرع فيه هؤلاء مع علماء اللاهوت المسيحيين للاستحواذ على العقل الأوربى .

ولقد لاحظنا من قبل وجود نزعة عدم الإيمان بين أقلية ضئيلة من سكان أوربا ، وزادت هذه الأقلية فى القرن الثالث عشر على أثر اتصال الأوربيين بالمسلمين عن طريق الحروب الصليبية وتراجم الكتب العربية . ولما تبين الأوربيون وجود دين آخر عظيم ، أخرج رجالا عظاما أمثال صلاح الدين والكندى ، وفلاسفة مثل ابن سينا وابن رشد ، كان ذلك فى حد ذاته كشفاً اضطربت له نفوسهم ؛ ذلك أن مقارنة الأديان لا تنفع الدين أى نفع . ومن الشواهد على هذا ما نقله ألفنسو الحكيم Alfonso the Wise (١٢٥٢ — ١٢٨٤) عن انتشار عدم الاعتقاد بالخلود بين مسيحيي أسبانيا[٢١] ؛ وليس ببعيد أن تكون آراء ابن رشد قد تسربت إلى الشعب نفسه . وكان فى جنوبى فرنسا فى القرن الثالث عشر جماعة من أصحاب النزعة العقلية القائلين بأن الله بعد أن خلق العالم تركه تسيِّره القوانين الطبيعية ، وكانوا يعتقدون أن المعجزات مستحيلة ، وأن الصلاة لا تستطيع تغيير مسلك العناصر ، وأن الأنواع الجديدة لم تخلق خلقاً خاصاً وإنما وجدت بالتطور الطبيعى[٢٢] . وكان بعض أصحاب التفكير الحر

— وبعض القساوسة أنفسهم — ينكرون تحول العشاء الربانى إلى جسم المسيح[٢٣] . وأخذ أحد المدرسين فى أكسفورد يشكو قائلا « إنه ليس ثمة ما هو أشبه بالوثنية من القربان عند المذبح »[٢٤] . ويقول ألان الليلى Alain of Lille (١١١٤ — ١٢٠٣) إن كثيرين من المسيحيين الزائفين فى وقتنا هذا ينكرون البعث لأن الروح تفنى مع الجسم » ؛ وهم يؤيدون اعتقادهم بأقوال أبيقور ولكريشيوس . ويعتنقون مذهب الجوهر الفرد ، ويخرجون من هذا إلى أن خير ما يفعله الإنسان هو أن يستمتع بالحياة على ظهر الأرض[٢٥] .

ويبدو أن انتشار الصناعة فى حواضر فلاندرز قد عمل على نشر الإلحاد . وشاهد ذلك أننا نجد داود الدينتى فى بداية القرن الثالث عشر وسيجر البرابنتى قرب اختتامه يتزعمان حركة تشكك قوية . وكان داود (حوالى ١٢٠٠) يدرس الفلسفة فى باريس ، ويمتع إنوسنت الثالث بجدله الدقيق[٢٦] ، ويعبث بضرب مادى من عقيدة الأحدية مضمونه أن الله ، والعقل ، والمادة الخالصة (المادة قبل أن تتشكل) أصبحت كلها وحدة فى ثالوث جديد[٢٧] وحرم كتابه الكواترنولى Quaternuli ، الذى لا وجود له الآن ، وأحرق بأمر مجلس باريس المقدس الذى عقد فى عام ١٢١٠ . وندد هذا المجلس نفسه بأحدية قال بها أستاذ آخر من جامعة باريس هو أملريك البينى ، ومضمونها أن الله والخليقة شىء واحد . وأرغم أملريك على أن يرجع عن قوله ومات ، كما يقول ، من حسرة الخيبة (١٢٠٧)[٢٨] . وأمر المجلس بأن تنبش عظامه وتحرق فى ميدان باريس إرهاباً لأتباعه الكثيرين . غير أنهم ظلوا مستمسكين بآرائهم على الرغم من هذا ، ووسعوا نطاق آرائه فأنكروا وجود الجنة والنار ، وقوة القربان المقدس . وحرق عشرة من أتباع أملريك هذا أحياء (١٢١٠)[٢٩] .

وازدهر التفكير الدينى الحر فى جنوبى إيطاليا الذى كان يحكمه فردريك الثانى ، حيث شب القديس تومس ، وحيث أعلن الكردنال أبلدينى صديق

فردريك جهرة اعتناقه المذهب المادى[٣٠] . أما فى إيطاليا الشمالية فإن عمال الصناعة ، ورجال التجارة والمال ، والمحامين ، وأساتذة الجامعات اندفعوا إلى حد ما فى تيار المتشككين . واشتهرت جامعة بولونيا بعدم مبالاتها بالدين ، فكانت المدارس الطبية فيها وفى غيرها من المدن مراكز للشك ، وفيها نشأ القول المأثور « حيث يجتمع ثلاثة أطباء يكون اثنان منهم كافرين ubi tres medici duo athei »[٣١] ، وكادت آراء ابن رشد حوالى عام ١٢٤٠ تصبح الطراز العصرى بين الطبقات المتعلمة من غير رجال الدين فى إيطاليا . وكان آلاف منهم يقبلون عقائد ابن رشد القائلة بأن القانون الطبيعى يحكم العالم دون تدخل من قِبل الله ؛ وإن العالم مخلد كالله ؛ وإنه لا يوجد إلا نفس واحدة خالدة هى « عقل » الكون « الفعال » ، وإن النفس الفردية ليست إلا مظهراً أو صورة عابرة زائلة من هذا العقل ، وإن الجنة والنار قصص اخترعت لتغرى العامة أو ترهبهم فيحسن سلوكهم[٣٢] . وأراد بعض المعتنقين لآراء ابن رشد أن يسترضوا محاكم التفتيش فتقدموا بعقيدة الحقيقة المزدوجة : فقالوا إن القضية قد تبدو صحيحة من ناحية الفلسفة أو حسب التعليل الطبيعى ، ولكنها مع ذلك قد تكون خاطئة حسب الكتب المقدسة أو الدين المسيحى ؛ وأقروا فى الوقت نفسه أنهم يؤمنون بمقتضى الدين بما يشكون فيه حسب قواعد العقل والمنطق . وهذه النظرية تنكر الفرض الأساسى من فروض الفلسفة المدرسية — وهو إمكان التوفيق بين العقل والدين .

وكانت جامعة بدوا فى أواخر القرن الثالث عشر ، وطوال القرنين الرابع عشر والخامس عشر مركزاً مضطرباً لفلسفة ابن رشد . ونذكر من الشواهد الدالة على هذا الاضطراب أن بطرس الأبانوى Peter of abano (حوالى ١٢٥٠ — ١٣١٦) أستاذ الطب فى جامعة باريس ثم أستاذ الفلسفة فى جامعة بدوا ، ألّف كتاباً يراد به التوفيق بين النظريات الطبية والفلسفية . وقد اكتسب مكانة

ملحوظة فى تاريخ العلوم الطبيعية لأنه قال فى دروسه إن المخ هو مصدر الأعصاب وإن القلب مصدر الأوعية الدموية ، ولأنه قدّر طول السنة تقديراً مدهشاً فى وقته وهو ٣٦٥ يوما ، وست ساعات وأربع دقائق[٣٤] . وكان لثقته بالفلسفة يُرجع العلل كلها تقريبا لقوة النجوم وحركاتها ، وكاد يبعد الله عن حكم العالم[٣٥] . واتهمه رجال محاكم التفتيش بالإلحاد ؛ غير أن المركيز أزو دست Azzo d'Este والبابا هونوريوس الرابع كانا من بين مرضاه فبسطا حمايتهما عليه . ثم اتهم مرة أخرى فى عام ١٣١٥ ، ونجا هذه المرة من المحاكمة بأن مات ميتة طبيعية . وحكم قضاة محكمة التفتيش بأن تحرق جثته فى ميدان الحريق ، ولكن أصدقاءه أخفوا رفاته إخفاء محكما اضطرت المحكمة معه أن تنفذ حكمها بحرق صورة له[٣٦] .

ووجد تومس أكوناس بعد انتقاله من إيطاليا إلى باريس أن فلسفة ابن رشد قد استحوذت من زمن بعيد على جزء كبير من الجامعة ، ويؤيد هذا ما لاحظه وليم الأوفرنى فى عام ١٢٤٠ من أن فى الجامعة « كثيرين من الرجال يلتهمون هذه النتائج (من فلسفة ابن رشد) من غير تمحيص » ؛ وأن تومس نفسه وجد فلسفة ابن رشد منتشرة بين شباب الجامعة[٣٧] . ولعل ما نقله تومس عن هؤلاء الطلاب قد روع البابا اسكندر الرابع (١٢٥٦) فكلف ألبرتس مجنس أن يكتب رسالة **فى وحدة العقل ضد فلسفة ابن رشد** . ولما جاء تومس ليدرس فى باريس (١٢٥٢ — ١٢٦١ ، ١٢٥٩ — ١٢٧٢) كانت حركة الفلسفة الرشدية قد بلغت ذروتها ؛ وقد درس زعيمها فى سيجر البرابنتى Siger of Brabant فى هذه الجامعة من ١٢٦٦ إلى ١٢٧٦ . وظلت فلسفة ابن رشد والكثلكة تتخذان من جامعة باريس ميداناً لاقتتالها جيلا من الزمان .

وكان سيجر (د ١٢٣٥؟—١٢٨١) وهو قس من غير رجال الأديرة متجراً فى العلم ؛ وحتى الأجزاء القليلة الباقية من مؤلفاته تنقل عن الكندى ، والفارابى ، والغزالى ، وابن سينا ، وابن باجة ، وابن جبيرول ، وابن ميمون . ويقول سيجر فى سلسلة

من الشروح والتعليقات على أرسطو ، وفى مقالة جدلية **ضد رجلى الفلسفة الذائعى الصيت ، ألبرت وتوماس** ، يقول سيجر فى هذه وتلك إن ألبرت وتوماس يفسران الفلسفة تفسيراً خاطئاً وإن ابن رشد يفسرها تفسيراً صحيحاً(٣٩) . وهو يستخلص ما يستخلصه ابن رشد من أن العالم أزلى ، وأن القانون الطبيعى لا يتبدل ، وأن نفس النوع وحدها هى التى تبقى بعد موت الفرد . ويقول سيجر إن الله هو العلة النهائية ، لا العلة الفعالة ، للأشياء — وهو هدف الخليقة لا علتها . وقد افتتن بالمنطق فقاده هذا الافتتان كما قاد ڤيكو Vico ونتشة إلى الإيمان بعقيدة تسلسل الحادثات تسلسلا لا نهائياً فقال : بما أن جميع الحادثات الأرضية تحددها فى نهاية الأمر تجمعات النجوم ، وبما أن عدد التجمعات الممكن حدوثها محدود ، فإن كل تجمع لا بد أن يتكرر بصورته نفسها المرة بعد المرة فى زمن لا نهائى ، تكراراً تعقبه حتما نفس النتائج التى أعقبته من قبل ؛ وبذلك تعود « نفس الأنواع ، ونفس الآراء ، والقوانين ، والأديان »(٤٠) . وقد حرص سيجر على أن يضيف إلى هذا « ونحن نقول هذا أخذاً برأى الفيلسوف ، دون أن نقطع بصحته »(٤١) . وكان يضيف مثل هذا الاحتياط إلى كل رأى من آرائه الملحدة . ولم يكن يجهر بعقيدة الحقيقتين ؛ وكان يُعلّم تلاميذه أن بعض النتائج تستتبعها آراء أرسطو ويستتبعها العقل ؛ فإذا كانت هذه النتائج تناقض العقائد المسيحية ، فإنه يؤكد إيمانه بعقائد الدين ، ويسمها هى وحدها ، دون الفلسفة ، بميسم الحق(٤٢) .

ويدل تقدم سيجر إلى المطالبة بأن يكون مديراً للجامعة على أنه كان له فيها أتباع كثيرون ، وإن لم يوفق فى طلبه هذا (١٢٧١) . وليس أدل على تمكن فلسفة ابن رشد فى جامعة باريس من تنديد إتين تمپييه Étienne Tempier أسقف باريس بهذه الحركة المرة بعد المرة . ففى عام ١٢٦٩ حكم بأن ثلاث عشرة

قضية من القضايا التى يعلمها فى الجامعة بعض الفلاسفة مبادئ إلحادية لاتتفق مع الدين ، وهذه القضايا هى :

أنه لا يوجد فى الناس كلهم إلا عقل واحد . . . وأن العالم أزلى . . . وأنه لم يوجد قط رجل أول . . . وأن النفس تفسد بفساد الجسم . . . وأن إرادة الإنسان تريد وتختار بحكم الضرورة ... وأن الله لا علم له بالحوادث الفردية . . . وأن أعمال الإنسان لا تسيطر عليها العناية الإلهية(٤٣) .

ويبدو أن مدرسة ابن رشد الفلسفية ظلت تعلم كما كانت تعلم من قبل ، وشاهد ذلك أن الأسقف أصدر فى عام ١٢٧٧ ثبتاً بتسع عشرة ومائتى مسألة قرر رسميا أنها تسم القائلين بها بالإلحاد . وهذه المسائل ، على حد قول الأسقف ، كان يعلمها سيجر أو بوئيثوس الداشياوى Boethius of Dacia أو غيرهما من أساتذة جامعة باريس ومنهم القديس تومس نفسه . وكانت هذه المسائل التسع عشرة والمائتين تشمل التى حكم عليها فى عام ١٢٦٩ وغيرها من المسائل الشبيهة بالأقوال الآتية :

أن عملية الخلق مستحيلة . . . أن الجسم إذا فسد (بالموت) لا يمكن أن يقوم بعدئذ بوصف كونه الجسم نفسه . . . أن من واجب الفيلسوف ألا يؤمن ببعث فى المستقبل ، لأن هذا لا يمكن أن يمحصه العقل . . . أن أقوال علماء الدين قائمة على الخرافات . . . أن علوم الدين لا تضيف شيئاً ما إلى معلوماتنا . . . أن الدين المسيحى يقف فى سبيل العلم . . . أن الإنسان يحصل على السعادة فى هذه الحياة لا فى غيرها . . . أن العقلاء فى هذه الأرض هم الفلاسفة وحدهم . . . أنه ليس ثمة حالة أفضل من أن يجد الإنسان فراغاً لدراسة الفلسفة(٤٤) .

وأدانت محكمة التفتيش سيجر فى شهر أكتوبر من عام ١٢٧٧ ؛ وقضى سنيه الأخيرة فى إيطاليا سجيناً بأمر المحكمة الرومانية حتى اغتاله مغتال نصف مجنون فى أرڤيتو Orvieto .

الفصل الرابع

تطور الفلسفة المدرسية

لم يكن الحكم على هذه القضايا الإلحادية يكفى لصد هذا الهجوم الشديد على الدين المسيحى . ذلك أن الشباب ثمل بخمر الفلسفة القوى . فهل كان كسب المعركة بالالتجاء إلى العقل ؟ لقد أقبل علماء الدين من الرهبان الفرنسيس والدمنيكيين ، والأحبار من غير الرهبان أمثال وليم الأوفر وهنرى الغنتى Henry of Ghent ؛ للدفاع عن المسيحية وعن الكنيسة ، كما كان المتكلمون من قبلهم يدافعون عن الإسلام ضد المعتزلة .

وقسم الدفاع نفسه إلى معسكرين رئيسيين : المعسكر الصوفى ــ الأفلاطونى ومعظم رجاله من الرهبان الفرنسيس ؛ والمعسكر العقلى — الأرسطوطاليسى ومعظم رجاله من الرهبان الدمنيكيين . أما البندكتيون أمثال هيو Hugh ورتشرد السانت فكتورى فقد كانوا يحسون أن خير دفاع عن الدين هو إدراك الإنسان المباشر وجود حقيقة روحية أعمق من كل تعمق ذهنى . وكان « المتزمتون » أمثال بطرس رجل بلوا Blois ، واستيفن رجل تورناى يقولون إن الفلسفة يجب ألا تبحث فى مسائل اللاهوت ، فإذا فعلت فعليها أن تتحدث وتسلك بوصفها خادمة للاهوت[٤٦] . ومن واجبنا أن نذكر أن هذا الرأى لم يكن يقول به إلا قسم من الجبهة المدرسية[٤٧] .

وعالج عدد قليل من الرهبان الفرنسيس أمثال اسكندر الهاليسى (١١٧٠ ؟ ــ ١٢٤٥) المسألة عن طريق العقل ، وحاولوا أن يدافعوا عن المسيحية باستخدام المصطلحات الفلسفية والأرسطوطاليسية ، ولكن معظم الرهبان الفرنسيس

لم يكونوا يثقون بالفلسفة ؛ وكانوا يحسون أن مغامرات العقل مهما تأت للكنيسة بالقوة والمجد إلى حين ، قد تفلت من السيطرة عليها فيما بعد ، وتبعد الناس عن الدين بعد أن تترك المسيحية ضعيفة لا نصير لها فى عالم جاحد فاسد الأخلاق . فكانوا لهذا يفضلون أفلاطون عن أرسطو ، وبرنار عن أبلار ، وأوغسطين عن أكوناس . وكانوا يعرفون النفس كما عرفها أفلاطون بأنها روح مستقلة تسكن الجسم وتسجن فيه ، وهالهم أن يروا تومس يأخذ بتعريف أرسطو للنفس بأنها « الصورة المادية » للجسم . وقد وجدوا فى أفلاطون نظرية للخلود غير الشخصى لا فائدة منها قط فى قمع غرائز الناس الحيوانية . واتبعوا رأى أوغسطين فوضعوا الإرادة فوق العقل فى الله وفى الإنسان على حد سواء ، وكان الهدف الذى يبتغونه هو الخير لا الحقيقة . وكانوا فى ترتيبهم للقيم يجعلون الصوفى أقرب من الفيلسوف لجوهر الحياة الخفى ومعناها .

وسيطر القسم الأفلاطونى — الأوغسطينى من جيش المدرسين على العلوم الدينية التقليدية فى النصف الأول من القرن الثانى عشر . وكان أعظم الناطقين بلسان هذا القسم هو بونا ڤنتورا التقى — وهو رجل طيب القلب طارد الإلحاد ، وصوفى يكتب فى الفلسفة ، وعالم يستهجن العلم ، وصديق مدى الحياة ومعارض لتومس أكوناس ، ومدافع عن الفقر الذى يدعو إليه الإنجيل ومضرب المثل لهذا الفقر ، جمعت طائفة الرهبان الفرنسيس بإشرافه ورعايته قدراً كبيراً من الثروة الجماعية . وقد ولد چيوڤنى دى فدانزا Giovanni di Fidanza فى تسكانيا عام ١٢٢١ ثم أصبح اسمه لسبب لا نعرفه بوناڤنتورا — الحظ الحسن . وكاد يموت وهو صغير من أحد أمراض الأطفال ، وأخذت أمه تصلّى إلى القديس فرانسس ليمن عليه بالشفاء ؛ وأحس چيوڤنى بعدئذ بأنه مدين بحياته إلى هذا القديس . ولهذا انضم إلى أتباعه وأرسل إلى باريس ليدرس على الإسكندر الهاليسى ، ثم شرع فى عام ١٢٤٨ يعلّم اللاهوت فى الجامعة ، واختير فى عام ١٢٥٧ ،

وهو لا يزال شابا فى السادسة والثلاثين من عمره ، راعيا عاما لطائفة الرهبان الفرنسيس ، فلم يدخر وسعا فى إصلاح ما دبّ فى الطائفة من تراخ ، ولكن دماثة أخلاقه لم تمكنه من النجاح ، وإن كان هو نفسه يحيا حياة الزاهد البسيطة ؛ ولما جاءه الرسل يبلغونه أنه اختير كردنالا وجدوه يغسل الصحاف ؛ ومات بعد عام واحد (١٢٧٤) من فرط الإجهاد .

وكانت كتبه جيدة الأسلوب ، واضحة موجزة . وكان يتظاهر بأنه جامع لها لا أكثر ، ولكنه بعث فى كل موضوع مسه بقلمه روح النظام ، والحماسة ، والتواضع الذى يستل السخائم . وكان كتابه **القول الموجز** خلاصة للاهوت المسيحى تثير الإعجاب ، كما كان **الحديث المفرد** ، و **رحلة العقل إلى الله** درّتين فى تاج التقى الصوفى . ومن أهم مبادئه أن المعرفة الحقة لا تأتى عن طريق إدراك الحواس للعالم المادى بل تأتى بإدراك النفس للعالم الروحى عن طريق اللقانة . وكان بونا فنتورا يحب القديس تومس ، ولكنه كان يعارض فى قراءة الفلسفة ، وينتقد فى صراحة بعض ما استخلصه أكوناس من النتائج . وكان يذكر الرهبان الدمنيكيين بأن أرسطو كان كافراً ، وأنه يجب ألاّ توضع أقواله فى منزلة أقوال آباء الكنيسة ، وتساءل هل فى مقدور فلسفة أرسطو أن تفسر حركات نجم من النجوم لحظة واحدة ؟(٤٨) . وهو يقول إن الله ليس نتيجة يصل إليها العقل عن طريق الفلسفة بل هو وجود حى ، الإحساس به خير من تحديده ، وإن الخير أسمى من الحقيقة ، والفضائل الساذجة تعلو على كل العلوم . ويقولون إن الأخ إجيديو Egidio هاله فى يوم من الأيام تبحر بونافنتورا فى العلم فقال له : « واحسرتاه ! ماذا نفعل نحن الجهلاء السذج كى نكون خليقين بحب الله ؟ » فأجابه بونا فنتورا بقوله : « أخى ، إنك لتعلم حق العلم أنه يكفيك حب الله » فرد عليه إجيديو بقوله : « فهل تؤمن إذن بأن فى مقدور امرأة ساذجة أن تسُرّه كما يسُرّه أستاذ فى اللاهوت ؟ » . فلما أجابه بنعَم اندفع إجيديو إلى الطريق وصاح

فى امرأة متسولة : « ابتهجى ، لأنك إذا أحببت الله ، فقد يكون لك مكان فى ملكوت السموات أعلى من مكان الأخ بونا فنتورا ! »(٤٩) .

وجلى أن من الخطأ أن نظن أن « الفلسفة » المدرسية المعروفة بهذا الاسم إنما هى آراء وأساليب فى البحث مجدبة متفق عليها بالإجماع . لقد كانت هناك فى واقع الأمر مائة من الفلسفات المدرسية ؛ فقد كانت الكلية الواحدة من كليات الجامعة تضم أحد أشياع تومس الذى يمجد العقل ، وأحد أنصار بونا فنتورا الذى يستهجنه ويزدريه ، وأحد أتباع وليم الأوفرنى (١١٨٠ — ١٢٤٠) الذى يقول مع ابن جبيرول بحرية الإرادة ، وأحد أتباع سيجر يعلم فلسفة ابن رشد . وكاد الاختلاف والنزاع بين أنصار الدين القويم يبلغان من الشدة ما بلغاه بين الدين واللادين . فكان يوحنا بكهام الأسقف الفرنسيسى يندد بأكويناس تنديداً لا يقل صرامة عن تنديد تومس بسيجر وابن رشد ؛ وكتب ألبرتس مجنس فى ساعة فارقه فيها صلاحه يقول : « هناك أناس جاهلون لا يتورعون عن محاربة استخدام الفلسفة بكل سلاح ، وأخص بالذكر من هؤلاء الرهبان الفرنسيس — أولئك الوحوش الكاسرة الذين يسبون ما لا يعرفون »(٥٠) .

وكان ألبرت يحب العلم ويعجب بأرسطو إلا حين يتطرق إلى الإلحاد فى الدين ، وكان أول من درس من الفلاسفة المدرسيين جميع مؤلفات الفيلسوف الكبرى ، وأخذ على نفسه أن يفسرها تفسيراً يوافق الدين المسيحى . وكان مولده فى لاننجن Laningen بسوابيا Swabia حوالى عام ١٢٠١ ووالده هو الكونت بلستادت Bollstädt الثرى ، ثم درس فى پدوا وانضم إلى الرهبان الدمنيكيين واشتغل بالتدريس فى مدارس الدمنيك فى هلدسهايم Hildesheim ، وفرايبرج Freiburg ، وراتسبون Ratisbon ، واسترسبورج ، وكولونى (١٢٢٨ — ١٢٤٥) وباريس (١٢٤٥ — ١٢٤٨) . ثم عين بعدئذ مندوباً إقليميا

لطائفته فى ألمانيا ثم أسقفاً لراتسبون (١٢٦٠) على الرغم من تفضيله حياة التدريس . وتقول الرواية المأثورة إنه كان يمشى حافى القدمين فى جميع أسفاره[٥١] . وفى عام ١٢٦٢ سمح له أن يعتزل العمل ويأوى إلى دير فى كولونى ، ثم ترك ما كان فيه من هدوء وهو فى السادسة والسبعين من عمره (١٢٧٧) ليدافع عن عقيدة تلميذه المتوفى تومس أكوناس وعن ذكراه فى جامعة باريس . وأفلح فيما ندب إليه ، فعاد إلى ديره ، وتوفى فى التاسعة والسبعين من عمره . وإن حياته العامرة بالوفاء والإخلاص لدينه ، وتواضعه الخلقى ، وتعدد نواحى نشاطه العقلى ، لتظهر فيها حياة الأديرة فى خير مظاهرها .

وليس ثمة ما يفسر لنا كيف يستطيع رجل قضى ما قضى من الوقت فى التدريس والأعمال الإدارية أن يكتب مقالات فى كل فرع من فروع العلم تقريباً ، ورسائل قيمة فى كل فرع من فروع الفلسفة وعلوم الدين ، نقول ليس ثمة شيء يفسر لنا هذا إلا هدوء حياة الأديرة الرتيبة والصبر الفائق الذى يمتاز به العلماء الألمان[*] . وقلما يوجد فى التاريخ من كتب هذا القدر من الكتب والرسائل والمقالات ، أو أخذ من غيره مثل ما أخذ ، أو اعترف بمثل صراحته

(*) وإلى القارئ كتب ألبرت الكبرى فى الفلسفة واللاهوت بأسمائها الأصلية :

(١) فى المنطق Philosophia Rationalis Perihermenias; de praedicaabilibus; de sex principüs; de praedicamentis Analytica priora, (De iuterpretatione i.e.); libri elenchorum; Tropica; Analytica posteriora.

(٢) وفيما وراء الطبيعة De unitae intellictus contra Averroistas; metaphysica ; de fato

(٣) وفى علم النفس De anima; De sensu et sensato, De memoria et reminiscentia, De intellectua et ietelligibili, De potentüs animae

(٤) وفى علم الأخلاق Ethica (٥) وفى السياسة Politica

(٦) وفى اللاهوت Summa de creaturis ; Summa theologiae Commentarium in sententias Petri Lombardi ; commentarium de divinis naminibus

وتتكون الرسائل الخمس الواردة فى هذا الثبت من واحد وعشرين مجلدا من مؤلفات ألبرت التى لم تنشر كلها بعد .

بدينه لمن أخذ عنهم . ويتخذ ألبرت مؤلفات أرسطو أسساً لكتبه وتكاد عناوينها كلها تكون هى بعينها عناوين مؤلفات الفيلسوف القديم ؛ وهو يستعين بشروح ابن رشد على تفسير مؤلفات ذلك الفيلسوف ، ولكنه يفسر المؤلفات الأصيلة والشروح تفسيراً جريئاً إذا ما ناقضت الدين المسيحى . وهو يرجع إلى آراء المفكرين المسلمين بدرجة جعلت مؤلفاته مصدراً هاماً لما نعرفه عن الفلسفة الإسلامية . ولا تخلو صفحتان من كتبه من أقوال يقتبسها من ابن رشد ، ويرجع أحياناً إلى كتاب دلالة الحائرين لابن ميمون ، ويعترف بأن أرسطو أعظم مرجع فى العلوم والفلسفة ، وأوغسطين أعظم مرجع فى علوم الدين ، والكتاب المقدس أعظم المراجع فى كل شىء . ومقالاته المكدسة التى يخطئها الحصر سيئة الترتيب ولا يمكن أن يستخلص منها نظام متسق للتفكير ، وهو يدافع عن عقيدة ما فى موضع ، ثم يهاجمها فى موضع آخر أو فى الموضع نفسه أحياناً ؛ ولم يتسع وقته لتصفية متناقضاته . وكان إفراطه فى الطيبة والتقى يحول بينه وبين التفكير الموضوعى ؛ وكان فى وسعه أن يتبع تعليقاً على أرسطو برسالة طويلة مؤلفة من اثنى عشر « كتاباً » فى الثناء على مريم العذراء المباركة يقول فيها إن مريم كانت ملمة إلماما كاملا بالنحو ، والبيان ، والمنطق ، والحساب ، والهندسة ، والموسيقى ، والفلك .

فما هى إذن أهم أعماله ؟ إن أهم هذه الأعمال هى أنه كان له نصيب موفور فى البحث العلمى فى ذلك الوقت وفى نظرياته ؛ وأنه فى ميدان الفلسفة « قدم أرسطو للاتين » ، وهو كل ما كان يهدف إليه ؛ وكان له الفضل فى استخدام مؤلفات أرسطو فى تعليم الفلسفة ، وجميع كنوز التفكير والجدل الوثنية والعربية واليهودية والمسيحية التى استخدمها تلميذه الذائع الصيت فى فلسفته التركيبية التى تفوق فلسفة أستاذه وضوحا وتنظيما . ولسنا نجافى الحقيقة إذا قلنا إنه لولا ألبرت لما وجد تومس .

الفصل الخامس

تومس أكوناس (أو تومس الأكوينى)

كان تومس ، كما كان ألبرت ، من أسرة شريفة ، ولكنه تخلى عن الثراء لينال جنة الخلد ؛ فقد كان والده الكونت لاندلف الأكوينى Count La of Apuino من النبلاء الألمان ، وابن عم بربرسا ، ومن أبرز الشخصيات فى البلاط الأكوينى لفردريك الثانى الزنديق . كذلك كانت أمه من سلالة أمراء صقلية النورمان . ومع أن تومس إيطالى المولد فقد كان من ناحيتى أبيه وأمه ينتمى إلى أصل شمالى أهم ما يجرى فى عروقه هو الدم التيوتونى ؛ ولم يكن فيه شىء من ظرف الطليان وخبثهم ، بل شب على ضخامة الجسم الألمانية ، فكان كبير الرأس ، عريض الوجه ، أشقر الشعر ، هادئا راضيا بجده الذهنى ، وكان أصدقاؤه يلقبونه « ثور صقلية الأبكم العظيم »(٥٢) .

وقد ولد فى عام ١٢٢٥ بقصر أبيه فى ركاسكا Roccosecca ، على بُعد ثلاثة أميال من أكوينو وفى منتصف الطريق بين نابلى وروما . وكان دير جبل كسينو قريباً من مسقط رأسه ، وفيه تلقى تومس تعليمه المبكر ، ولما بلغ الرابعة عشرة من عمره بدأ دراسته فى جامعة نابلى واستمرت هذه الدراسة خمس سنين ، وكان فى هذه الجامعة ميخائيل اسكت يترجم مؤلفات ابن رشد إلى اللغة اللاتينية ؛ ويعقوب الأناضولى يترجم مؤلفات هذا الفيلسوف إلى اللغة العبرية ؛ وبطرس الأيرلندى أحد أساتذة تومس الشديد التحمس لأرسطو . وكانت هذه الجامعة تموج بالمؤثرات اليونانية ، والعربية ، والعبرية ، تصطدم فيها بالأفكار المسيحية . واتجه إخوة تومس نحو الشعر ؛ ودخل أحدهم رينلدو Rainaldo

فى بلاط فردريك وصار فيه من الصائدين بالبزاة ، وطلب إلى تومس أن ينضم إليه ، وأيده فى هذه الدعوة پيرو دل ڤنى Piero delle Vigne وفردريك نفسه ، ولكن تومس ، بدلا من أن يقبل الدعوة ، انضم إلى الرهبان الدمنيكيين (١٢٤٤) ؛ وأرسل بعد قليل من ذلك الوقت الى باريس ليدرس اللاهوت ؛ غير أن اثنين من إخوته اختطفاه فى بداية رحلته بتحريض أمهما ؛ وجىء به إلى قصر ركاسكا حيث وضع تحت الرقابة مدة عام(٥٣) ، اتخذت معه فى خلاله كل وسيلة لمنعه من الاتجاه إلى هذه الناحية ، وتروى إحدى القصص ، وأكبر الظن أنها موضوعه ، أن فتاة حسناء أدخلت إلى حجرته رجاء أن تغريه بالعودة إلى هذه الحياة الدنيا ، ولكنه اختطف من المدفأة شعلة ملتهبة أخرجها بها من الحجرة ، وحرق علامة الصليب التى كانت بالباب(٥٤) . وما لبثت شدة تقواه أن ضمت أمه إلى جانبه ، فساعدته على الفرار ، ثم أصبحت أخته ماركتا Marcotta ، بعد أحاديث كثيرة معه ، راهبة بندكتية .

وكان ألبرت الأكبر أحد معلميه فى جامعة باريس (١٢٥٤) ، فلما نُقل ألبرت إلى جامعة كولونى تبعه تومس إليها ، وظل يدرس معه فيها حتى عام ١٢٥٢ . وكان تومس يبدو غبياً فى بعض الأحيان ، ولكن ألبرت كان يدافع عنه ويتنبأ بعظمته(٥٥) . ثم عاد بعدئذ إلى باريس وأخذ يدرس فيها بعد أن نال درجة البكالوريوس فى علوم الدين ، وحذا فى هذا الوقت حذو أستاذه فبدأ سلسلة من المؤلفات يعرض فيها فلسفة أرسطو فى ثياب مسيحية . وغادر باريس فى عام ١٢٥٩ ليدرس فى المعهد الذى أقامه الديوان البابوى تارة فى أنانى وتارة فى آرڤيتو ، وطوراً فى ڤيتربو . والتقى فى الديوان البابوى بوليم موربيك William Moerbeke وطلب إليه أن يصدر ترجمة لاتينية لمؤلفات أرسطو من اللغة اليونانية مباشرة .

وكان سيجر برابانت وقتئذ يتزعم فى جامعة باريس ثورة تدعو إلى فلسفة ابن رشد ، فأرسل تومس ليقاوم هذه الدعوة ؛ ولما وصل إلى باريس نقل مركز

المعركة إلى معسكر العدو برسالته **فى وحدة العقل ضد فلسفة ابن رشد** (١٢٧٠) واختتمها بهذه الفقرة النارية التى لا عهد للناس بها :

انظروا كيف فندنا هذه الأخطاء ؛ إنا لم نَبْن هذا التفنيد على أسس من وثائق مستندة إلى الإيمان بالدين ، بل بيناه على علل وأقوال منقولة عن الفلاسفة أنفسهم . فإذا وُجد إنسان يفخر مزهواً بحكمته المزعومة ، ويرغب فى نقض ما كتبناه ، فعليه ألا يفعل هذا فى ركن من الأركان ، أو أمام أطفال لا قدرة لهم على البت فى مثل هذه المسائل الشائكة . عليه أن يجيب علناً إذا كان له من الشجاعة ما يمكنه من هذا العمل ، وسيجدنى مستعداً لمواجهته ، ولن يجد شخصى العاجز وحده ، بل سيجد كثيرين غيرى ممن جعلوا الحقيقة موضوع دراستهم ؛ سنحارب أخطاءه ونداوى جهله[٥٦] .

ولم تكن الحرب فى ميدان واحد ، لأن تومس لم يكن مضطراً فى هذه الفترة الثانية من اشتغاله بالتدريس أن يقاوم فلسفة ابن رشد وحدها ، بل كان عليه فوق ذلك أن يصد هجمات زملائه الرهبان ، الذين لم يكونوا يثقون بالعقل ، ويرفضون قول تومس إنه يمكن التوفيق بين أرسطو والمسيحية . ووجه جون بكهام الذى خلف بونا ڤنتورا فى كرسى الرهبان الفرنسيس للفلسفة بجامعة باريس أشد اللوم إلى تومس لربطه اللاهوت المسيحى بفلسفة إنسان وثنى . ويقول بكهام فيما بعد إن تومس لم يتحول عن موقفه ورد عليه « برفق وتواضع عظيمين »[٥٧] . وربما كانت هذه السنوات الثلاث التى احتدم فيها الجدل هى التى أنهكت قواه .

ودعى فى عام ١٢٧٢ إلى العودة إلى إيطاليا بدعوة من شارل دوق أنجو ليعيد تنظيم جامعة نابلى ؛ ثم امتنع عن الكتابة فى سنيه الأخيرة ؛ ولسنا نعرف أكان سبب هذا ما اعتراه من ملل أم أنه قد خاب ظنه فى فائدة النقاش والجدل . ولما أن ألح عليه صديق له بأن يتم كتابه **الموجز فى علوم الدين** أجابه

بقوله : « لا أستطيع ؛ لقد تكشفت لى أشياء يبدو لى معها أن ما كتبته ليس إلا هباء »[٥٨]. ودعاه جريجورى العاشر فى عام ١٢٧٤ لحضور مجلس ليون ؛ فبدأ سفره الطويل على ظهر بغل مخترقا إيطاليا ، ولكنه اعتراه الضعف فى الطريق بين نابلى ورمة ، فآوى إلى الفراش فى دير السسترسيين فى فسانوفا Fossanuova بكمبانيا ، وتوفى فيه عام ١٢٧٤ غير متجاوز التاسعة والأربعين من عمره .

ولما ضم بعد وفاته إلى مجمع القديسين شهد الشهود بأنه كان حلو اللسان ، سهل الحديث ، بشوش الوجه وديعاً ... كريم الأخلاق ، صبوراً إلى أقصى حد ، يتلألأ وجهه بالبشاشة والتقوى الممزوجة بالرقة ، شديد العطف على الفقراء[٥٩] . وكان منهمكا فى التقى والدرس انهماكاً يشغل كل تفكيره وكل لحظة يقضيها فى يومه . يحضر جميع الصلوات المقررة فى مواعيدها ، يتلو قداسا أو يستمع لقداسين فى كل صباح ، ويقرأ ويكتب ، ويعظ ويعلم ، ويصلى . وكان من عادته قبل أن يلقى عظة أو محاضرة ، وقبل أن يجلس للدرس أو التأليف ، أن يصلى ؛ وكان زملاؤه الرهبان يظنون أنه « مدين بعلمه إلى صلواته أكثر مما هو مدين به إلى جهود عقله »[٦٠] . وإنا لنجد من حين إلى حين على هامش مخطوطاته دعوات صالحات مثل « السلام عليك يامريم ! Ave Maria »[٦١] . وقد انهمك فى الحياة الدينية والعقلية انهماكاً قلما كان يلاحظ معه ما يحدث حوله ؛ فكانت صحفته ترفع وتغير فى غرفة الطعام دون أن يدرى ما بها فى بعض الأحيان ؛ ولكن يبدو أن شهيته للطعام كانت جيدة . دعى مرة للعشاء مع جماعة من رجال الدين على مائدة لويس التاسع ، فترك العنان للتفكير وهو جالس إلى المائدة حتى نسى نفسه ، ثم ضرب المائدة فجاءة بقبضته وصاح قائلا : « هذه هى الحجة الدامغة ضد المانونين ! » . وأنبه رئيس ديره على عمله هذا وقال له : إنك جالس إلى مائدة ملك فرنسا ، ولكن لويس أظهر من الرقة والمجاملة ما هو خليق بملك مثله ، فأمر أحد أتباعه بأن يأتى للراهب المنتصر بأدوات

كتابية[٦٢] . ومع هذا كله كان فى مقدور الراهب المنهمك فى أمور الدين أن يكتب فى كثير من شئون الحياة العملية كتابة جيدة المعنى . وكان الناس يلاحظون كيف يستطيع أن يكيف مواعظه لتوائم عقول زملائه الرهبان المجدين فى الدرس ، أو عقول العامة السذج . وكان بعيداً عن التكلف ، عديم مطالب الحياة ، لا يسعى إلى ألقاب التعظيم ، ويرفض الرقى إلى مناصب الكنيسة ، وقد انتشرت كتاباته فى جميع العالم ، ولكنها لا تحتوى على كلمة واحدة نابية ؛ وهو يواجه بها كل حجة مقاومة لدينه ، ويقرعها بالحسنى وفى هدوء .

وجرى على عادة زمانه وزاد عليها ، فكان يعترف صراحة بما يأخذه عن غيره ، فهو يقتبس من ابن سينا ، والغزالى ، وابن رشد ، وإسحق إسرائيلى ، وابن جبيرول ، وابن ميمون ؛ وما من شك فى أن أى طالب لا يستطيع فهم فلسفة القرن الثالث عشر المدرسية من غير أن يدرس ما سبقها من فلسفات المسلمين واليهود . ولا يشارك تومس وليم الأوفرنى فى تقديره لابن جبيرول ، ولكنه عظيم الإجلال « للرابى ميسيز Rabbi Moyses » كما يسمى موسى بن ميمون ، ويقول بما قال به هذا الفيلسوف من أنه يمكن التوفيق بين العقل والدين ، ولكنه يوافقه أيضاً على أن بعض أسرار الدين بعيدة عن متناول العقل ؛ وينقل الحجج المؤيدة لهذا البعد من كتاب دلالة الحائرين[٦٣] . وهو يتفق مع ابن ميمون فى أن فى مقدور العقل البشرى أن يثبت وجود الله ، ولكنه ليس فى مقدوره أن يسمو لمعرفة صفاته ، وهو يتتبع خطى ابن ميمون خطوة خطوة فى بحث أزلية العالم(*) . ويسترشد فى المنطق وما بعد الطبيعة بأرسطو ويكاد ينقل عنه فى كل

(*) ويقول العالم جلسن Gilson : « لو أن ابن ميمون لم يتأثر بابن رشد فيعتنق فكرة خاصة عن الخلود ، لكان فى وسعنا أن نقول إن ابن ميمون وتومس يتفقان فى جميع النقط الهامة »[٦٥] وفى هـذا القول شىء من المبالغة إلا إذا قلنا إن التثليث وتجسد الأقنوم الثانى ، والكفاوة من العناصر غير ذات الشأن فى الدين المسيحى

صفحة من كتبه ، ولكنه لا يتردد فى أن يخالفه حينما يحيد الفيلسوف عن العقائد المسيحية ؛ وبعد أن يعترف بأن التثليث ، والتجسد ، والافتداء ويوم الحساب لا يمكن إثباتها عن طريق العقل ، يتقبل حكم العقل فى جميع المسائل الأخرى قبولا كاملا لا تردد فيه ، ارتاع له أتباع أوغسطين . وكان ينزع إلى مبادىء الصوفية فى اعترافه بأن بعض العقائد المسيحية فوق متناول العقل البشرى ، ويشاركهم فى الشوق إلى الاتحاد مع الله ؛ ولكنه كان من جماعة « العقليين » لأنه يفضل العقل على « القلب » بوصفه أداة توصل إلى الحقيقة . وقد تنبأ بأن أوربا مقبلة على « عصر العقل » ، وكان يرى أن من واجب الفيلسوف المسيحى أن يستعد لملاقاة هذه النزعة الجديدة فى ميدانها . وكان يبدأ حججه المنطقية بأقوال يقتبسها من الكتاب المقدس وآباء الكنيسة ، ولكنه يقول بصراحة محكمة قوية : « إن الحجة التى تستند إلى أقوال الغير أوهن الحجج »(٦٦) . ومن أقواله فى هذا المعنى : « إن دراسة الفلسفة لا تهدف إلى الكشف عما فكر فيه الآخرون بل تريد أن تصل إلى حقيقة الأمور »(٦٧) . وإن كتاباته لتضارع كتابات أرسطو فيما يسرى فيها كلها من منطق .

وقلما نجـــد فى التاريخ كله عقلا واحداً أخضع مثله ميداناً من ميادين التفكير بمثل هذه السعة لحسن التنظيم وللوضوح . ولن نجد فى أسلوب تومس ما يبهرنا أو يخلب لبنا ، فهو أسلوب سهل يصل إلى الهدف من أقرب السبل ، موجز ، دقيق ، خال من الحشو والزخرف ؛ ولكننا لا نجد فيه مثل ما نجد فى أسلوب أوغسطين من قوة ، وسعة الخيال ، وانفعال ونزعة شعرية . وكان تومس يرى أن لا محل فى الفلسفة للبلاغة ، وكان يستطيع إذا شاء أن ينازل الشعراء فى ميدانهم ؛ ذلك أن أقرب ما كتبه إلى الكمال هو الترانيم والأوراد التى وضعها لعيد القربان المقدس ، ومن بينها ترنيمة **Lauda Sion salvatorem** التى تقول بوجود جسم المسيح ودمه وجوداً حقيقياً فى العشاء الربانى ، وصاغها فى شعر فخم

طنان رنان . وفى التسابيح ترنيمة تبـــدأ بعبارة من أقوال أمبروز : Verqum supernum prodiens ، وتختتم بمقطوعتين Osalularis Bostia تنشدان أثناء البركة التى يمنحها الكاهن وقت العشاء الربانى . وفى صلاة المساء ترنيمة هى أعظم ما وجد من التراتيم فى جميع العصور ، وهى مزيج من الشعر واللاهوت :

تغنَّ ، يا لسان ، بسر الجسم المجيد ؛
وبالدم الذى لا يقدر بمال ، والذى أراقه
ملك الخلائق جميعاً ، وثمرة أكرم الأرحام ،
فداء للعالمين .
أهدته إلينا وولدته عذراء لم يمسسها بشر ،
وأقام على هذا الكوكب ينشر بذور الكلمة التى استحالت لحما ،
أقام بيننا فى تواضع ، ثم اختتم مقامه اختتاماً عجيباً .
وفى ليلة العشاء الأخير والرسل لا يزالون مضطجعين ،
مراعين كل ما تقضى به الشريعة القديمة فى شأن الطعام الذى
وضعته الشريعة ،
الطعام الذى يطعمه الاثنا عشر مجتمعين يقدمه لنفسه بيديه ،
إن الكلمة التى تجسدت تحيل الخبز بكلمة إلى لحمه ؛
والنبيذ يصبح دم المسيح ، وإذا عجزت الحواس أن ترى ،
فليقو الطهر فى القلب بالإيمان وحده .
ومن أجل هذا نجلّ هذا العشاء الربانى العظيم ونحن سجّد ؛
ألا فلتخل الطقوس القديمة مكانها لهذه الشعيرة الجديدة :
وليُنتج إيماننا عجز حواسنا المظلمة .
سبّحوا بحمد الوالد والمولود وغنوا له أبهج الأغانى :

سلام ، وتكريم ، وسلطان ، وبركات كثيرة
وليرفع له تسبيحنا غير منتقص
صادر عن حواسنا وقلوبنا(*) .

وتكاد كتابات تومس تساوى فى كثرتها كتابات ألبرت ، وإن كانت حياة أولهما لا تزيد إلا قليلا على حياة الأخير . وقد كتب شروحاً على أحكام بطرس لمبارد ، وعلى أناجيل إشعيا ، وأيوب ، وبولس ؛ وعلى كتاب تيماوس لأفلاطون ، وعلى مؤلفات بوئيثيوس والمؤلفات المدسوسة على ديونيسيوس ، وعلى كتب أرغنون ، وفى السماء والأرض ، والكون والفساد ، والأفلاك ، والطبيعة ، وما وراء الطبيعة ، وفى النفس ، والسياسة ، والأخلاق ، وفى الحقيقة ، وفى السلطان ، وفى الشر ، وفى العقل ، وفى الفضيلة ، وغيرها من كتب أرسطو ؛ وكتب يبحث نقطاً تثار عارضة فى جلسات الجامعة . وله رسائل فى قوانين الطبيعة ، والكائن ، والجوهر ، وحكم الأمراء ، وعمليات الطبيعة الخفية ، وكتاب فى أربعـــة مجلدات يسمى : **خلاصة المذهب الكاثوليكى ضد الوثنيين** Summa de veritate catholica de contra Gentiles (١٢٦٧ — ١٢٧٣) **وخلاصة اللاهوت** Compendium theologiae (١٢٧١ — ١٢٧٣) . ويملأ ما نشر من مؤلفات تومس ٠٠٠ر١٠ صفحة من القطع الكبير ذى العمودين فى كل صفحة .

وكان إعداد خلاصة الدين الكاثوليكى ضد الوثنيين بطلب من ريمند البنيافورتى Raymond of Penafort زعيم طائفة الرهبان الدمنيكيين ، ليستعين به على ضم المسلمين واليهود فى أسبانيا إلى الدين المسيحى . ولهذا فإن تومس يكاد

(*) والمقطوعتان الأخيرتان تنشدان أثناء البركة التى يمنحها الكاهن وقت العشاء الربانى وتتلى الترنيمة كلها فى موكب يوم خميس الصعود .

يستند فى كل ما يورده من حجج فى هذا الكتاب إلى العقل والمنطق ، وإن كان يقول فى أسف إن « هذا لا يكفى فى الأمور المتعلقة بالله »[٦٨] . وهو يتخلى فيه عن الطريقة المدرسية فى النقاش ، ويعرض مادته أسلوب يكاد يكون هو الأسلوب الحديث بعينه ، ويعرضها أحياناً بمرارة لا تليق بهذا العالم الوديع الشبيه بالملاك . وهو يقول إن المسيحية دين إلهى بلا ريب ؛ لأنها غلبت رومة وأوربا على الرغم من دعوتها ضد ملاذ الدنيا وملاذ الجسد ، وهى الدعوة التى لا يرحب بها الناس[٦٩] ؛ وهو يعترف صراحة فى الجزء الرابع من الكتاب بأن العقائد الأساسية فى الدين المسيحى لا يمكن إثباتها بالاستناد إلى العقل والمنطق ، وإنها تتطلب الإيمان بالوحى الإلهى كما جاء فى الكتب المقدسة عند اليهود والمسيحيين .

ويوجه تومس أوسع كتبه كلها وهو **خلاصة اللاهوت** إلى المسيحيين أنفسهم ؛ وهو محاولة لشرح مجموعة العقائد الكاثوليكية فى الفلسفة واللاهوت والدفاع عنها بالاستناد إلى الكتب المقدسة وكتب آباء الكنيسة وإلى العقل(*) . ومما جاء فى مقدمة الكتاب : « سنحاول أن نتتبع الأمور المتعلقة بالعقائد المقدسة بإيجاز ووضوح بقدر ما تسمح به مادة هذا الموضوع » . وقد يكون من حقنا أن نبتسم لهذا الإيجاز الذى يحتويه واحد وعشرون مجلداً ، ولكن هذا ما يقوله المؤلف . والحق أن هذه **الخلاصة** ضخمة الحجم ولكنها بعيدة عن الحشو واللغو ؛ وليست ضخامة حجمها إلا نتيجة سعة مجال بحثها ؛ ذلك أن فى هذه الرسالة عن اللاهوت رسائل كاملة فيما بعد الطبيعة ، وفى علم النفس ، والأخلاق ، والقانون ؛ وفيها ثمان وثلاثون رسالة ، و٦٣١ سؤالا أو موضوعا ، وعشرة آلاف اعتراض أو رد . وترتيب الحجج الخاصة بكل سؤال مما يدعو إلى الإعجاب .

(*) هذا الكتاب من أوله إلى السؤال التسعين من الجزء الثالث بما فيه هذا من تأليف تومس ؛ أما بقية الكتاب فقد يكون من تأليف ريجنلد الپيرنوى رفيقه وناشر كتبه .

أما تركيب الكتاب فقد نال من الثناء أكثر مما يستحق ، فهو لا يضارع التنظيم المنطقى لكتاب الأخلاق لاسپنوزا أو التتابع المسلسل لكتاب الفلسفة التركيبية لاسپنسر . ورسالته فى علم النفس (الجزء الأول المشتمل على الأبواب من ٧٥ إلى ٩٤) موضوعة بين بحثه فى الستة الأيام التى تم فيها الخلق وبين دراسة الإنسان وهو فى عهد البراءة الأولى . وشكل الكتاب أكثر طرافة من تركيبه ؛ وهو فى جوهره يواصل طريقة أبلار من الحد الذى بلغته على يد بطرس لمبارد ويبلغ بها درجة الكمال : يبدأ بالسؤال ، تتلوه الحجج النافية ، والاعتراضات على الحجج الموجبة ، ثم الحجج الموجبة المأخوذة من الكتاب المقدس ، ومن كتب الآباء ، والمستندة إلى العقل ، ثم الردود على الاعتراضات . وهذه الطريقة تضيع الو أحياناً لأنها تورد حججاً واهية ثم تدحضها ، ولكن النقاش أحياناً نقاش جوهرى وحق ، ومن خصائص تومس أنه يورد الرأى المخالف لرأيه بصراحة مدهشة وقوة عظيمة ؛ وبهذه الطريقة كان الكتاب خلاصة للإلحاد كما هو حصن حصين للعقائد المسيحية ، ويمكن اتخاذه كتاباً جامعاً للشكوك . وقد لا نقنع على الدوام بردوده ، ولكننا لا نستطيع أن نشكو قط من أن الشيطان لم يجد له مدافعا قديراً .

الفصل السادس

فلســفة تومس

١ – المنطــق

ما هى المعرفة ؟ هل هى نور إلهى بعثه الله فى الإنسان ، وبغير هذا لا يمكن أن تكون ؟ يخالف تومس منذ البداية أوغطسين ، والمتصوفة ، والقائلين بمذهب اللقانة(*) ؛ فالمعرفة فى رأيه نتاج طبيعى ، يحصل عليها الإنسان من حواس الجسم الخارجية ، ومن الحاسة الداخلية المعروفة بالشعور بالذات . وهى معرفة محدودة غاية فى القصور فما من عالم قد عرف حتى وقتنا هذا حقيقة الذبابة[٧٠] . ولكن المعرفة فى داخل حدودها خليقة بأن يوثق بها ، ولا حاجة بنا لأن يتولانا الغضب من أن العالم الخارجى قد يكون كله خداعا فى خداع . ويقبل تومس تعريف المدرسيين للحقيقة بأنها مطابقة الفكرة للشىء adequatio rei et intellectus [٧١] . وإذ كان العقل يستمد كل معلوماته الطبيعية من الحواس[٧٢] فإن معرفته المباشرة للأشياء الخارجية عنه مقصورة على الأجسام — أى على عالم الحس أو المحسوس ، وليس فى مقدوره أن يعرف من طريق مباشر العالم الذى فوق المحسوس ، عالم ما وراء الطبيعة ، العقول التى فى داخل الأجسام أو الله فى خلقه ؛ ولكن فى وسعه عن طريق المقارنة والقياس أن يستمد من تجارب الحس معرفة غير مباشرة بالعقول الأخرى ، وأن يحصل بمثل هذه الطريقة على معرفة غير مباشرة بالله[٧٣] . أما العالم الثالث عالم ما فوق الطبيعة — حيث يوجد الله — فليس فى مقدور عقل الإنسان أن يعرف عنه شيئا إلا من طريق الوحى.

(*) Intuitionists

الإلهى . وفى وسعنا أن نعرف بطريق الفهم الطبيعى أن الله موجود ، وأنه واحد ، لأن وجوده ووحدانيته تتلألآن فى عجائب العالم وحسن تنظيمه ؛ ولكننا لا نستطيع بعقلنا وحده أن نعرف جوهره أو حقيقة التثليث ، وحتى علم الملائكة أنفسهم قاصر ومحدود وإلا كانوا آلهة .

وقصور علمنا فى حد ذاته دليل على وجود عالم فوق الطبيعى . ويكشف الله لنا عن هذا العالم فى كتبه المقدسة ، وكما أن من الحمق أن يقول الفلاح إن نظريات الفلسفة كاذبة لأنه يعجز عن فهمها ، كذلك يكون من الحمق أن يرفض الإنسان الإيمان بالوحى الإلهى بحجة أنه يبدو له فى بعض النقط مناقضاً لمعلومات الإنسان الطبيعية . وعلينا أن نثق بأنه لو كانت معلوماتنا كاملة ، لما كان ثمة تناقض بين الوحى والفلسفة ، ومن الخطأ أن نقول إن قضية ما يمكن أن تكون خاطئة فى الفلسفة وصحيحة فى الدين ، ذلك بأن الحقائق كلها تأتى من عند الله وهى واحدة . غير أنه يحسن بنا أن نفرق بين ما نفهمه عن طريق العقل وما نعتقده عن طريق الإيمان(٧٤) ، لأن ميدانى الفلسفة والتصور ميدانان منفصلان ، ويجوز للعلماء أن يبحثوا فيما بينهم ما يعترض به على الدين ، ولكن « لا يحسن بالسذج من الناس أن يستمعوا إلى ما يقوله غير المؤمنين ضد الدين » لأن العقول الساذجة ليس لها من الاستعداد ما تستطيع أن ترد به على المعترضين(٧٥) . ويجب على العلماء والفلاسفة ، كما يجب على الفلاحين أن ينحنوا أمام قرارات الكنيسة ؛ ومن واجبنا أن نهتدى بهديها فى كل شىء(٧٦) ؛ لأنها هى المكان الذى أودع فيه الله الحكمة الإلهية ؛ وقد أعطى البابا « الحق فى أن يصدر أحكاما نهائية فى شؤون الدين حتى يأخذها الناس جميعا بإيمان لا يتزعزع(٧٧) » . وبغير هذا لا مفر من الفوضى العقلية ، والأخلاقية ، والاجتماعية .

٢ — ما وراء الطبيعة

(الميتافيزيقا)

ميتافيزيقية تومس تعريفات معقدة عويصة وفروق دقيقة يقوم عليها كلها لاهوته .

١ — الجوهر والوجود فى الأشياء المخلوقة مختلفتان ، فالجوهر هو ما لا بد منه لإدراك الشيء ، والوجود هو عملية الكينونة . فجوهر المثلث — أى أنه ثلاثة خطوط مستقيمة تضم بينها فراغاً — واحد لا يتغير سواء وجد المثلث أو كان مجرد إدراك ذهنى . أما فى حالة الله فالجوهر والوجود شيء واحد ؛ لأن جوهره هو أنه العلة الأولى ، والقوة التى تقوم عليها كل الأشياء (أو التى تقف تحت الأشياء) كما يقول اسپنوزا . وتعريفه يحتم وجوده لكى يوجد كل ما عداه من الأشياء .

٢ — والله موجود بالحقيقة ، وهو الكائن المكون لجميع الكائنات ؛ وعلتها التى تستند إليها . وكل الكائنات الأخرى موجودة بالتصور لا غير ، وبالاشتراك المحدد فى حقيقة الله .

٣ — وكل الكائنات المخلوقة فاعلة ومنفعلة معاً — أى أنها تفعل وتنفعل . وهى أيضاً مزيج من الكينونة والصيرورة : فلها صفات معينة قد تفقد بعضها وتكسب غيرها — فالماء مثلا قد يدفأ . ويعبر تومس عن هذا التأثر بالعمل الخارجى أو التبدل الداخلى بلفظ الإمكانية potentia . والله وحده هو المنزه عن هذه الإمكانية ، فهو لا ينفعل ولا يتبدل ، وهو نشاط خالص ، وحقيقة خالصة ؛ وهو من بادئ الأمر كل شيء يمكن أن يكونه . ويمكن ترتيب الموجودات التى دون الله ترتيباً تنازلياً يقوم على عظم إمكانيتها فى التأثر بما هو

خارج عنها والتحدد به . وعلى هذا يكون الرجل أرقى من المرأة لأن « الأب هو المبدأ الفعال ، على حين أن الأم هى المبدأ المنفعل أو المادى ؛ فهى تقدم مادة الجسم التى لا صورة لها ، والتى تتلقى صورتها عن طريق القوة المكونة التى فى منى الأب »[٢٨] ؛

٤ — كل الكائنات ذات الأجسام تتكون من مادة وصورة ، ولكن الصورة هنا (كما هى عند أرسطو) ليس معناها الشكل بل العنصر الفطرى المنشط المميز . وحين تكوّن الصورة أو العنصر الحيوى جوهر كائن ما فهى تكون صورة أساسية جوهرية ، وبهذا تكون النفس العاقلة — أى القوة التى تهب الحياة والقادرة على التفكير — هى صورة الجسم الأساسية ، والله هو صورة الكون الأساسية .

٥ — والحقائق كلها إما جوهر أو عرض : إما أن تكون موجودات منفصلة كالحجر والإنسان ، أو أنها لا توجد إلا على هيئة صفات فى شىء آخر كالبياض والكثافة . أما الله فهو جوهر محض ، لأنه هو الحقيقة الكاملة الموجودة بذاتها .

٦ — والجواهر كلها فردية ، ولا شىء غير الأفراد موجود إلا فى الفكر ، والفكرة القائلة بأن الفردية خداع هى نفسها خداع .

٧ — وفى الكائنات المكونة من مادة وصورة يكون العنصر الأساسى أو مبدأ الانفراد — أى تضاعف عدد الأفراد فى النوع أو الصنف — هو المادة . أما الصورة أو المبدأ الحيوى فى النوع بأكمله فهى فى جوهرها واحدة . وهذا المبدأ يستخدم فى كل فرد ، مقداراً معيناً وشكلا من المادة . ويستحوذ عليه ، ويعطيه شكلا ؛ وهذه المادة التى تعينت بكميتها هى مبدأ الانفرادية — وليست الانفرادية هى الفردية بل الذاتية المنفصلة .

٣ — اللاهوت

المحور الذى تدور حوله فلسفة تومس وموضوع بحثها هو الله لا الإنسان ، وقد كتب فى ذلك يقول : « إن أرقى ما نستطيع تحصيله من معرفة عنه فى هذه الحياة أن نعرف أنه فوق كل ما يمكن أن يدور بخلدنا عنه »[٧٩] . وهو يرفض حجج أنسلم الكونية ، ولكنه يقترب منها حين يقول إن وجوده وجوهره شىء واحد ، فالله عنده هو الوجود نفسه : « أنا من أنا » .

ويقول تومس إنه يمكن البرهنة على وجود الله بعلل طبيعية : (١) فالحركات كلها تنشأ من حركات سابقة ، وهذه تنشأ من أخرى قبلها ، وهذه إما أن تنتهى إلى محرك أول أو أن تستمر فى الرجوع إلى حركات أسبق منها رجوعا لا نهاية له وهذا مستحيل ، (٢) كذلك يتطلب تسلسل العلل علة أولى ، (٣) والعرضى ، وهو ما قد يكون ولكن لا يتحتم أن يكون ، يعتمد على الضرورى الذى لا بد أن يكون ؛ ويعتمد الممكن على الواقع ، وهذا التسلسل يرجع بنا إلى كائن ضرورى هو الحقيقة الخالصة ، (٤) والأشياء طيبة ، وحقة ، وسامية ، بدرجات مختلفة ، ولا بد أن يكون هناك أصل أو مصدر لهذه الفضائل الناقصة يبلغ حد الكمال فى الطيبة والحقيقة والسمو ، (٥) فى العالم آلاف من الشواهد الدالة على ما فيه من نظام ، وحتى الجمادات نفسها تتحرك بطريقة منظمة ، وكيف يمكن وجود هذا إلا إذا كانت هناك قوة عاقلة هى التى خلقت هذه الأشياء ؟(*)[٨١] .

وإذا ما استثنينا مسألة وجود الله قلنا إن تومس يكاد يكون لا أدريا فى اللاهوت الطبيعى « لا نستطيع أن نعرف ما هو الله ، بل نعرف فقط ما لا يمكن أن يكونه »[٨٢] — إنه لا يتحرك ، ولا يتعدد ، ولا يتحول ، ولا يحيط به زمان . ولِمَ تريد العقول المتناهية فى الصغر أن تزيد علمها بما لا نهاية له؟ ويقول تومس

(*) ١ ، ٢ ، ٥ منقولة عن ألبرت عن أرسطو (٣) عن ابن ميمون (٤) عن أنسلم

إن من الصعب علينا أن نتصور الروح غير المادية (وهو يسبق برجسون فى قوله هذا) لأن العقل يعتمد على الحواس . ولأن تجاربنا الخارجية كلها مقصورة على الأشياء المادية ؛ وعلى هذا « فإنا لا نعرف الأشياء المجردة من الأجسام ، والتى لا صور لها ، إلا بمقارنتها بالأجسام المحسوسة التى لها صور »[٨٣] . وليس فى مقدورنا أن نعرف الله (كما يقول ابن ميمون) إلا عن طريق المجاز والتشبيه ، فنستدل عليه من أنفسنا ومن تجاربنا ؛ وعلى هذا فإذا كان فى الناس خير ، وحب ، وحق ، وعقل ، وقدرة ، وحرية ، أو أية ميزة أخرى ، فلابد أن تكون هذه أيضاً فى خالق الإنسان ، وأن تكون فيه بدرجة أعلى تتفق مع النسبة الموجودة بين اللانهائية وبيننا نحن . وإذا ما استعملنا ضمائر المذكر حين نتحدث عن الله فليس ذلك إلا من قبيل التيسير ، أما الحقيقة فليس ثمة ذكر وأنثى فى الله ولا فى الملائكة . والله واحد لأنه حسب تعريفه هو الوجود ذاته ؛ وإن سير العالم الموحد ليكشف عن عقل واحد وقانون واحد . وإن القول بوجود ثلاثة أقانيم فى هذه الوحدة الإلهية لهو سر غامض لا يدركه العقل ، ولابد أن نعتقده بإيمان الواثقين .

وليس فى مقدورنا كذلك أن نعرف هل خلق العالم فى وقت بعينه ، وبذلك يكون قد خلق من لا شىء ، أو هل هو أزلى كما يظن أرسطو وابن رشد ؟ ومن رأيه أن الحجج التى يدلى بها رجال الدين ليثبتوا بها خلق العالم فى زمن بعينه حجج واهية يجب رفضها « حتى لا تبدو العقيدة السمحة بأنها قائمة على أسانيد منطقية جوفاء »[٨٤] . ويستنتج تومس من هذا أن علينا أن نعتقد بالاستناد إلى إيماننا وحده بخلق العالم فى وقت معين ؛ ولكنه يضيف إلى هـذا أن ذلك أمر لا معنى له لأن الوقت لم يكن له وجود قبل الخلق ، إذ ليس ثمة وقت بلا تغير ، ولا مادة تتحرك . وهو يحاول بأقصى جهده أن يشرح كيف ينتقل الله من لا خلق إلى خلق دون أن يعتريه تغير . وعملية الخلق فى رأيه أزلية ، ولكنها

تشمل فى إرادة القيام بها تحديد الوقت الذى يتطلبه ظهور نتائجها[٨٥] — وتلك طريقة ظريفة يروغ بها هذا الرجل العنيد من المشكلة التى يواجهها .

والملائكة فى رأيه هم أرقى طبقات الخلق ، وهم عقول بلا أجسام ، غير قابلين للفساد ، مخلدون . وهم رسل الله فى حكم العالم ، بهم تتحرك الأجرام السماوية وبهم تهتدى[٨٦] ، ولكل إنسان ملك يحرسه ، وكبار الملائكة يعنون بجماعات كبيرة من الناس . وإذ كان الملائكة عقولا بلا مادة ، فإن فى مقدورهم أن ينتقلوا من أحد أطراف العالم إلى الطرف الآخر من غير أن يجتازوا ما بينهما من فضاء . ويملأ تومس ثلاثاً وتسعين صفحة فى طبقات الملائكة ، وحركاتهم ، وحبهم ، وعلمهم ، وإرادتهم ، وكلامهم ، وعاداتهم — وهذا هو أكثر أجزاء الخلاصة الطويلة تكلفاً وأكثرها استعصاء على التفنيد .

وكما أن هناك ملائكة فكذلك يوجد عفاريت ، وهم أبالسة صغار يأتمرون بأمر الشيطان ؛ وليس هؤلاء مجرد خيالات تخلقها عقول العوام ، بل هم كائنات حقيقية يسببون ما لا حصر له من الأذى ؛ وفى وسعهم أن يجعلوا الرجل عاجزاً عن القيام بالوظيفة الجنسية بأن يثيروا فيه كره المرأة[٨٧] ، ويقومون بضروب مختلفة من السحر ؛ فقد يرقد العفريت تحت الرجل ، ويتلقى منيّه ، ويحمله مسرعا فى الفضاء ، ويجامع امرأة ، فتحمل من منىّ رجل غائب[٨٨] . وفى وسع العفاريت أن يمكنوا السحرة من أن يتنبئوا بالحوادث التى لا تعتمد على إرادة الإنسان الحرة . وفى وسعهم أن يبلغوا الناس معلومات بأن يطبعوها فى خيالهم ، أو بأن يظهروا أمام عيونهم ، أو يتحدثوا لهم بصوت مسموع ؛ وقد يتعاونون مع الساحرات ، ويساعدونهن على إيذاء الأطفال ، عن طريق الحسد[٨٩] .

وكان تومس يعتقد بصدق التنجيم فى كثير من الأمور ، شأنه فى ذلك شأن كثيرين من معاصريه ، وكثيرين من معاصرينا نحن :

يجب أن نربط بين حركات الأجسام . . . على هذه الأرض وحركات

الأجرام السماوية وهى علتها . . . وثمة طريقتان يستطاع بهما تفسير قدرة المنجمين فى كثير من الأحيان على التنبؤ بالحقائق برصد النجوم : أولاهما أن عدداً كبيراً من الناس يسيرون وراء انفعالاتهم الجسمية ، وبذلك تتجه أعمالهم فى معظم الأحيان حسب ميل الأجرام السماوية ، على حين أن هناك قلة منهم — وهم العقلاء وحدهم — يهدئون ميولهم بعقولهم . . . وثانيتهما ناشئة من تدخل العفاريت(٩٠) .

بيد أن « أعمال البشر لا تخضع لفعل الأجرام السماوية إلا خضوعاً عارضا وبطريق غير مباشر »(٩١) ؛ وفيها مجال كبير لحرية الآدميين .

٤ — علم النفس

يعنى تومس ببحث المشاكل الفلسفية التى يتضمنها علم النفس ، والصفحات التى يخصصها لهذا الموضوع من أحسن ما فى كتابه من تحليل . وهو يبدأ بفكرة أن الكائن الحى عضوى معارضا فى ذلك فكرة أنه آلى : فالآلة تتكون من أجزاء تضم بعضها إلى بعض من الخارج ، أما الكائن الحى فيكوّن أجزاءه بنفسه ويحرك نفسه بما فيه من قوة داخلية(٩٢) . وهذه القوة الداخلية المكوّنة هى النفس ، ويعبر تومس عن هذه الفكرة بمصطلحات من كتب أرسطو : فالنفس عنده « صورة هيولية » للجسم — أى أنها هى المبدأ الحيوى والطاقة التى تعطى الكائن الحى وجوداً وشكلا : « النفس هى المبدأ الأول لغذائنا ، وإحساسنا ، وحركتنا ، وفهمنا »(٩٣) . والنفس ثلاث درجات : النفس النابتة — أى القدرة على النماء ، والنفس الحاسة — أى القدرة على الشعور ، والنفس العاقلة — أى القدرة على التعقل والاستدلال . والأولى موجودة فى كل ما هو حى ، أما الثانية فلا توجد إلا فى الحيوانات والآدميين ، وأما الثالثة فلا توجد إلا فى بنى الإنسان . غير أن الكائنات الحية العليا تمر فى نمائها الجسمى والفردى بالمراحل التى تبقى فيها

الكائنات السفلى ؛ و « كلما علت الصورة فى سلم المخلوقات . . . زاد عدد الأشكال الوسطى التى تمر بها قبل أن تصل إلى صورتها الكاملة »[٩٤] — ويشبه هذا القول نظرية « الإعادة » التى ظهرت فى القرن التاسع عشر والتى تقول إن جنين الإنسان يمر بالمراحل التى مر فيها النوع أثناء نموه .

وبينما كان أفلاطون ، وأوغسطين ، والرهبان الفرنسيس يظنون أن النفس سجينة فى الجسم ، ويقولون إن الإنسان هو النفس لا غير ، كان تومس جريئاً فى قبول فكرة أرسطو ، وهو يعرف الإنسان — بل يعرف الشخصية نفسها — بأنه مزيج من الجسم والنفس ومن المادة والصورة[٩٥]. فالنفس وهى الطاقة الداخلية التى تبعث الحياة ، وتخلق الصورة ، توجد فى كل جزء من أجزاء الجسم كاملة غير قابلة للانقسام[٩٦] وهى ترتبط بالجسم بألف طريقة . فهى بوصفها نفساً نباتية تعتمد على الطعام ، وبوصفها نفساً حاسة تعتمد على الإحساس ، وبوصفها نفساً عاقلة تحتاج إلى الصور التى تنتج أو تتركب من الإحساسات . وحتى المقدرة العقلية والمدركات الأخلاقية تعتمد على وجود جسم سليم إلى حد معقول . فالجلد السميك يدل على النفس العديمة الإحساس[٩٧] ؛ وللأحلام ، والانفعالات ، والأمراض العقلية ، والأمزجة أسس فى وظائف الأعضاء[٩٨] . ويتحدث تومس فى بعض الأحيان كما لو كان الجسم والنفس حقيقة واحدة موحدة ، أى الطاقة الداخلية والصورة الخارجية لكل لا يتجزأ . ومع هذا فقد كان يبدو له واضحاً كل الوضوح أن النفس العاقلة — المجردة ، المعممة ، والمستدلة ، المصورة للكون ، — حقيقة غير جسمية ؛ وأننا مهما حاولنا ، وعلى الرغم من ميلنا إلى التفكير فى جميع الأشياء بمصطلحات مادية ، لانستطيع أن نجد شيئاً مادياً فى الإدراك ؛ فهو حقيقة تختلف كل الاختلاف عن جميع الأشياء المادية أو المكانية ؛ ويجب أن نصف هذه النفس العاقلة بأنها روحية ، شىء يبعثه فينا الله وهو القوة النفسية القائمة وراء كل الظواهر المادية . والقوة غير المادية وحدها هى التى تستطيع

أن تكون فكرة كلية ، أو تقفز إلى الأمام وإلى الخلف فى الزمان ، أو تدرك الكبير والصغير بدرجة واحدة من السهولة[٩٩] . وفى مقدور العقل أن يدرك نفسه ، ولكن من المستحيل أن يتصور كائناً ماديا يدرك نفسه .

ولهذا فلا حرج علينا إذا اعتقدنا أن هذه القوة الروحية الموجودة فينا تبقى بعد موت الجسم ؛ ولكن النفس التى تفارق الجسم على هذا النحو ليست ذات شخصية ، فهى لا تقدر أن تحس أو تريد ، أو تفكر ، بل هى طيف لا قوة له ولا يستطيع أن يقوم بعمل بغير الجسم[١٠٠] ، ولا تكوّن مع الجسم شخصية منفردة لا يجوز عليها الموت إلا إذا عادت إلى الاتحاد مع الجسم ، أى مع الإطار الجسدى الذى كانت هى حياته الداخلية . ولقد كان السبب الذى دفع ابن رشد وأتباعه إلى النظرية القائلة بأن « لا خلود إلا للعقل الفاعل » وحده ، أو نفس الكون ، أو نفس النوع ، هو عدم إيمانهم ببعث الجسم . أما تومس فيسخر كل ما وهب من قوة الجدل ليدحض هذه النظرية ، وعنده أن اختلافه عن ابن رشد فى مسألة الخلود هو أهم المشاكل القائمة فى القرن الذى يعيش فيه ، وأن ما ينشأ عن الوقائع الحربية من تبديل فى الحدود وتغيير فى الألقاب يبدو إلى جانبها عبثا وجنونا لا أكثر .

ويقول تومس إن للنفس خمس صور أو قوى : النفس النباتية وبها نطعم ، وتنمو ونتكاثر ؛ والنفس الحاسة وبها نستقبل التنبيهات من العالم الخارجى ؛ والنفس المشتهية ، وبها نرغب ونريد ؛ والنفس المحركة وبها تحدث الحركة ؛ والنفس العاقلة وبها نفكر[١٠١] . والمعلومات كلها تبدأ بالحواس ، ولكن التنبيهات لا تسقط على سطح فارغ أملس ، بل يتلقاها بناء معقد هو مركز الإحساس المشترك ، الذى يصوغ هذه التنبيهات أو الأحاسيس فيؤلف منها أفكاراً . ويتفق تومس مع أرسطو ولُك Locke فى أنه « لا شىء فى العقل لم يكن له من قبل وجود فى الحواس » ، ولكنه يضيف إلى ذلك كما يضيف كانت وليبنتز قوله :

« إلا العقل نفسه » — وهو قوة منظمة تستطيع تنظيم التنبيهات إلى أفكار ، وأخيراً إلى تلك الكليات والأفكار المجردة التى هى أدوات الاستدلال ، والميزة التى اختص بها الإنسان على هذه الأرض .

والإرادة أو الرغبة هى الموهبة التى تستطيع بها النفس أو القوة الحيوية أن تتحرك نحو ما يرى العقل أنه خير . ويعرف تومس الخير كما يعرفه أرسطو بأنه « هو الشيء المرغوب فيه »[١٠٢] . والجمال شكل من أشكال الخير ، لأنه هو الذى تسر رؤيته . ولم كانت رؤيته سارة ؟ إنها تسر لما بين أجزائها من تناسب وتناسق يجعل منها كلا منظما . والعقل خاضع للإرادة لأن الرغبة تستطيع أن تحدد اتجاه الفكر ، ولكن الإرادة نفسها خاضعة للعقل لأن رغباتنا تحددها الطريقة التى تدرك بها الأشياء ، والآراء التى تكونها عنها (مقلدين فى ذلك غيرنا عادة) . وليست الحرية مستقرة حقيقة فى الإرادة التى « يحركها بالضرورة » فهمنا للمادة كما يعرضها علينا العقل[١٠٣] ، بل هى مستقرة فى التمييز (arbitirium) : ولهذا تتناسب الحرية تناسباً مطرداً مع درجات المعرفة ، والقدرة على الاستدلال ، والحكمة ، وعلى قدرة العقل أن يعرض صورة صحيحة للحالة القائمة على الإرادة ، ومن ذلك يرى أن الحكماء وحدهم هم الأحرار حقاً[١٠٤] . وليس الذكاء خير مواهب النفس وأسماها فحسب بل هو أيضاً أعظمها قوة : « وطلب الحكمة هو من بين مطالب الإنسان كلها أكملها ، وأسماها ، وأعظمها نفعاً ، وأجلبها للسرور »[١٠٥] : « وعمل الإنسان الخليق به هو أن يفهم »[١٠٦] .

٥ — علم الأخلاق

وإذن فغاية الإنسان الحقة هى أن يصل إلى الحقيقة فى الحياة الدنيا ، وأن يشهد هذه الحقيقة فى الله فى الحياة الآخرة ؛ ذلك أننا إذا سلمنا مع أرسطو بأن ما يسعى إليه الإنسان هو السعادة ، فأين يجد أحسنها ؟ إنه لا يجدها فى الملاذ

الجسمية ، ولا فى الشرف ، ولا فى الثروة ، ولا فى السلطان . بل إنه لايجدها فى الأعمال الصادرة عن الفضيلة الخلقية ، وإن حصل من هذه كلها على البهجة . ولنسلم كذلك بأن « النظام الكامل للجسم ضرورى . . . للسعادة الكاملة »(١٠٧) . ولكن ليس فى هذه الطيبات كلها ما يضارع السعادة الهادئة الشاملة المتصلة الناشئة من الفهم . ولعل تومس كان يذكر وتنشد قول فرچيل : « ما أسعد من استطاع أن يعرف علل الأشياء ! » فاعتقد أن أسمى عمل تقوم به النفس وأعظم ما تغتبط به — أى الذروة الطبيعية لعقليتها الخاصة — هى « أن ينقش عليها النظام الكامل للكون وأسبابه »(١٠٨) . وإن السلام الذى يعلو على الفهم لينشأ من الفهم .

ولكن هذه السعادة الدنيوية العليا نفسها لاتترك الإنسان راضياً كل الرضا قانعاً كل القناعة ، فهو يعرف معرفة غامضة أن « السعادة الكاملة الحقة لايمكن أن تنال فى هذه الحياة » . وأن فى داخله صوتاً لايمكن إسكاته يجعله يتوق على الدوام لسعادة وفهم لايتأثران بما يتعرض له الآدميون الفانون من تغيرات ومن صروف الزمان . وقد تجد غير هذه الشهوات ما يشبعها فى الطيبات الوسطى ، أما عقل الإنسان الكامل فلن يستريح إلا إذا وصل إلى ذروة الحق وجماعه وهو الله(١٠٩) . فى الله وحده الخير الأسمى لأنه مصدر كل الطيبات الأخرى ، ولأنه علة سائر العلل ، وحقيقة كل الحقائق ، والهدف الأخير للإنسان هو نور النعيم الباهر — الرؤى التى تهب السعادة(*) .

وعلى هذا يكون علم الأخلاق هو الفن والعلم اللذين يعدان الإنسان لبلوغ هذه السعادة النهائية السرمدية ؛ ويمكن تعريف الطيبة الخلقية أو الفضيلة بأنها السلوك المؤدى إلى غاية الإنسان الحقة وهى أن يرى الله والإنسان بطبعه ميال إلى الخير — المرغوب فيه : ولكن ما يراه هو خيراً ليس فى كل الأحوال خيراً

(*) وهو النور الذى يراه الملائكة والأبرار عند دخولهم الجنة . (المترجم)

من الناحية الأخلاقية ؛ وقد عصى الإنسان الله بسبب خطأ حواء فى الحكم على ما هو خير ، وهو يحمل الآن فى كل جيل وزر هذه الخطيئة الأولى(*) . وإذا ما سأل إنسان عند هذه النقطة لم خلق الله ، الذى يعرف كل شىء قبل حدوثه ، رجلا وامرأة قدر عليهما أن يكونا مشغوفين بالمعرفة ، وخلق جيلا قدر عليه أن يكون ملوثاً بهذا الإثم الموروث ، أجابه تومس أن من المستحيل على أى مخلوق بمقتضى قوانين ما وراء الطبيعة أن يكون كاملا . وأن حرية الإنسان فى أن يأثم هى الثمن الذى يجب عليه أن يؤديه نظير حريته فى الاختيار . وإذا سلب الإنسان حرية الإرادة أصبح مجرد آلة ذات حركة ذاتية لاتسمو على الخير والشر بل تنحط دونها ، ولا تكون لها كرامة أكثر من أنها آلة .

وإذ كان تومس قد انغمس فى عقيدة الخطيئة الأولى ، وانغمس فى مبادئ أرسطو ، وفى الخوف من النساء واعتزلهن اعتزالا ناشئا من حياة الأديرة ، فقد كان لابد أن يكون سيئ الظن بالنساء ، وأن يتحدث عنهن حديث الرجال ، وليس عليه فى هذا لوم . وهو يحذو حذو أرسطو فى أنانيته البالغة الخطورة حين يظن أن الطبيعة كبطارقة العصور الوسطى ترغب على الدوام فى أن تخرج ذكوراً ، وأن المرأة مخلوق عاجز عارض ، أو أنها ذكر أخطأه التوفيق (mas occasisnatum) . وأكبر الظن — على حد قوله — أنها نتيجة لضعف قوة التلقيح عند الأب ، أو لعامل آخر خارجى مثل ريح جنوبية رطبة[١١١] . وكان يظن بالاعتماد على آراء أرسطو وبعض معاصريه فى علم الأحياء أن المرأة ليس لها إلا المادة المنفعلة فى الذرية ، أما الرجل فهو الذى يعطى الصورة الفاعلة ؛ وأن المرأة هى انتصار المادة على الصورة ؛ وهى من ثم أضعف الأوعية فى الجسم ، والعقل ، والإرادة . وشأنها

(*) لم يكن تومس يعرف أن الكنيسة ستقر نظرية الحمل بلا دنس الخاصة بالعذراء — أى تحررها من التلوث بالخطيئة الأولى — ولهذا ظن أن مريم أيضاً قد « حملت فى إثم » وقد أضاف إلى ذلك فى شهامة لم تمح ما قرره بقبل « أنها قد طهرت قبل أن تلد من الرحم »[١١٩] .

مع الإنسان شأن الحواس مع العقل . وفيها تسود الشهوة الجنسية ؛ أما الإنسان فهو المعبر عن العنصر الأكثر ثباتاً . والرجل والمرأة كلاهما صُوِّرا فى صورة الله ، ولكن الرجل أشبه به من المرأة . والرجل هو مبدأ المرأة وغايتها ، كما أن الله هو مبدأ الكون وغايته ، وهى تحتاج إلى الرجل فى كل شىء ، أما هو فلا يحتاجها إلا للتناسل ؛ والرجل قادر على أن يؤدى جميع الواجبات أحسن من أداء المرأة ــ لا يستثنى من هذا العناية بالبيت(١١٢) ، فهى لا تصلح لأن تشغل أى منصب هام فى الكنيسة أو الدولة ؛ وهى جزء من الرجل وإن شئت الدقة الحرفية فهى ضلع من ضلوعه(١١٣) ؛ وعليها أن تنظر إلى الرجل نظرتها إلى سيدها الطبيعى ، وأن تقبل إرشاده ، وتخضع لتقويمه وتأديبه ، وبهذه الطريقة تؤدى رسالتها وتحظى بسعادتها .

هذا هو ما يقوله تومس عن المرأة ؛ أما الشر فيبذل غاية جهده ليثبت أنه فى نظر علم ما وراء الطبيعة لا وجود له ؛ ويقول إن الشر ليس موجوداً إيجابيا ، لأن كل حقيقة بوصفها حقيقة خير(١١٤) ؛ وليس الشر إلا غياب صفة أو مقدرة يجب أن تكون موجودة فى الكائن بطبيعته ، أو هى الحرمان من هذه الصفة أو المقدرة . فليس شراً فى الرجل ألا يكون له جناحان ، لكن شراً ألا تكون له يدان ، مع أنه ليس من الشر فى الطائر ألا تكون له يدان . وكل شىء طيب كما خلقه الله ، ولكن الله نفسه لا يستطيع أن ينقل كماله اللانهائى إلى مخلوقاته . والله يجيز بعض الشرور بقصد الوصول إلى بعض الغايات الخيِّرة أو لمنع شرور أشد منها كما « تجيز بعض الحكومات ... بحق بعض الشرور – كالعهر مثلا – خشية ... أن يؤدى منعها إلى أضرار أشد منها »(١١٥) .

والخطيئة عمل من أعمال الإرادة الحرة حين تخرق نظام العقل الذى هو أيضاً نظام الكون . ونظام العقل هو التوفيق الصحيح بين الوسائل والغايات ، وهو فيما يختص بالإنسان تكييف السلوك بحيث يؤدى إلى السعادة السرمدية . والله يهبنا

حرية ارتكاب الخطأ ، ولكنه يهبنا أيضاً ، بوحيه الإلهي ، الشعور بالصواب والخطأ . وهذا الضمير الغريزي ذو سلطان مطلق يجب أن يطاع مهما تكن النتيجة ؛ فإذا أمرت الكنيسة إنساناً بشيء يخالف ضميره وجب عليه أن يعصى أمرها ، وإذا حدثه ضميره بأن الإيمان بالمسيح شر ، وجب عليه أن ينفر من ذلك الدين[١١٦] .

والضمير في الأحوال العادية لا يميل بنا إلى الفضائل الطبيعية وحدها كالعدالة ، والفطنة ، والجلد ، بل يميل بنا أيضاً إلى الفضائل التي يأمرنا بها الدين كالإيمان ، والأمل ، والصدقات . وهذه الثلاث الصفات الأخيرة هي الصفات الخلقية التي يمتاز بها الدين المسيحي ، وهي أيضاً سبب مجده . والإيمان واجب أخلاقي على الإنسان لأن العقل البشري قاصر محدود ؛ فعلى الإنسان أن يصدق تصديقا قائماً على الإيمان عقائد الكنيسة التي تعلو على إدراك العقل وعقائدها التي يستطيع أن يعرفها بطريق العقل . وإذا كان الخطأ في شئون الدين قد يؤدي بالإنسان إلى الجحيم ، فإن من الواجب ألا يتسامح في عدم الإيمان إلا إذا قصد بذلك تجنب شر أكبر ؛ « فالكنيسة قد أجازت في بعض الأحيان شعائر الملحدين والوثنيين أنفسهم ، حين كان غير المؤمنين كثيري العدد »[١١٧]. ويجب ألا يسمح لغير المؤمنين بأن يكون لهم السيطرة أو السلطان على المؤمنين[١١٨] ؛ ويمكن التسامح بوجه خاص مع اليهود لأن شعائرهم ترمز إلى شعائر الدين المسيحي قبل ظهوره ، فتشهد بذلك على صحة هذا الدين[١١٩] . ويجب ألا يُرغم اليهود غير المعمدين على اعتناق الدين المسيحي[١٢٠] ، ولكن الملحدين – وهم الذين تخلوا عن إيمانهم بعقائد الكنيسة – يجوز إرغامهم دون أن يكون في ذلك حرج على من يرغمهم[١٢١] . ويجب ألا يعد أي إنسان ملحداً إلا إذا أصر على خطئه بعد أن تبينه له سلطة كهنوتية ؛ والذين يرجعون عن إلحادهم يمكن أن يسمح لهم بالتكفير عن ذنبهم ، بل يمكن فوق ذلك أن تعاد لهم كرامتهم الأولى ؛ فإذا عادوا

إلى الخادم « جاز أن يسمح لهم بالتكفير عن ذنبهم ، ولكنهم لا ينجون من آلام الموت »(١٢٢) .

٦ – علم السياسة

كتب توماس فى الفلسفة السياسية ثلاث مرات : فى شرحه لكتاب **السياسة** لأرسطو ، وفى **الخلاصة فى اللاهوت** ، وفى رسالة قصيرة تسمى : **فى حكم الأمراء** De regimine principum(*). ويبدو لأول وهلة أن توماس إنما يُعيد أقوال أرسطو ، ولكننا إذا واصلنا القراءة أدهشتنا كثرة ما فى كتاباته من أفكار أصيلة قاطعة .

فهو يقول إن التنظيم الاجتماعى أداة أوجدها الإنسان بدلا من أعضاء الجسم للحصول على مطالبه والدفاع عن نفسه ، وإن المجتمع والدولة قد وجدا للفرد ، ولم يوجد الفرد للمجتمع والدولة ، وإن السيادة تأتى من عند الله وهى حق للشعب ؛ ولكن الشعب كثير العدد ، مشتت ، متقلب ، جاهل ، وهو لذلك عاجز عن أن يمارس حقوق السيادة بنفسه وبحكمة ؛ ولهذا فإنه يكل هذه السيادة إلى أمير أو زعيم آخر . وتوكيل الشعب من ينوب عنه على هذا النحو يستطاع إلغاؤه على الدوام ، و « لا يحتفظ الأمير بسلطة التشريع إلا من حيث هو ممثل لإرادة الشعب »(١٢٣) .

ويمكن أن ينيب الشعب عنه ممارسة سيادته عدداً كبيراً من الناس أو عدداً قليلا منهم أو فرداً واحداً . وتصلح الدمقراطية ، والأرستقراطية ، والملكية إذا صلحت القوانين وحسن تنفيذها . ويمكن القول بوجه عام إن خير

(*) لم يكتب توماس من هذه الرسالة إلا الكتاب الأول والفصول ١ – ٤ من الكتاب الثانى . أما بقية الرسالة فقد كتبها بطليموس اللوقى Ptolemy of Lucca .

أنواع الحكومات هو الحكومة الملكية الدستورية ، لأنها تمكن للوحدة ، والاستمرار ، والاستقرار . « وحكم الجماهير » كما يقول هوميروس « على يد الفرد خير من حكمهم على أيدى الكثيرين »[١٢٤] . غير أن الأمير أو الملك يجب أن يختاره الشعب من أية طبقة حرة من السكان[١٢٥] ، وإذ استبد الملك وجب خلعه بعمل منظم يقوم به الشعب[١٢٦] ، ويجب أن يظل على الدوام خادم القانون لا سيده .

والقانون ثلاثة أنواع : قانون طبيعى مثل « القوانين الطبيعية للكون » ، وإلهى كالقوانين الواردة فى الكتاب المقدس ، وبشرى أو وضعى كالقوانين التى تسنها الدولة . وقد أصبح النوع الثالث منها ضرورياً بسبب ما فى طباع الناس من انفعالات ، وبسبب قيام الدولة . ومن أجل هذا كان آباء الكنيسة يعتقدون أن الملكية الفردية تتعارض مع الشريعتين الطبيعية والإلهية ، وأنها نتيجة لنزعة الإنسان فى ارتكاب الآثام . ولكن تومس لا يعترف بأن الملكية تتعارض مع القوانين الطبيعية ؛ فهو يبحث فى حجج الشيوعيين أيامه ويرد عليهم كما يرد أرسطو بأن إذا كان كل واحد من الناس يملك كل شىء فإن أحداً من الناس لا يعنى بأى شىء[١٢٧] . غير أن الملكية الفردية — فى رأيه — وديعة عامة ، « فالإنسان يجب ألا يمتلك الأشياء الخارجية على أنها ملكه الخاص بل على أنها ملك عام ، وبذلك يكون على استعداد لأن ينقلها إلى غيره من الناس إذا ما احتاجوا إليها »[١٢٨] . وإذا ما اشتهى الإنسان الكثير الزائد من الثروة ، أو سعى إلى أكثر مما يحتاجه منها لحفظ مركزه فى الحياة ، كان طامعا أثيما[١٢٩] . « وكل ما يمتلكه بعض الناس أكثر من حاجتهم إنما يقصد به حسب القانون الطبيعى مساعدة الفقراء » و« إذا لم يوجد علاج آخر فإن من حق الإنسان أن يسد حاجته من ملك غيره ، بالاستيلاء عليه سراً أو جهراً »[١٣٠] .

ولم يكن تومس الرجل الذى يجعل الاقتصاد علماً مملا غير شيق بفصله عن

الأخلاق . فكان يؤمن بحق الجماعة فى تنظيم أعمال الزراعة ، والصناعة ، والتجارة ، والإشراف على الربا ، وبلغ منه أن طالب بتحديد « ثمن عادل » للخدمات والسلع . وكان ينظر بعين الريبة إلى عملية الشراء بثمن منخفض والبيع بثمن مرتفع . ويندد أشد التنديد بجميع أنواع المضاربة فى التجارة ، وبكل المحاولات التى تبذل للحصول على الكسب بالمهارة فى الاستفادة من تقلبات السوق[١٣١] . وكان يعارض فى الإقراض بفائدة ، ولكنه لا يرى إثما فى الاقتراض « لغرض طيب » من مقرض محترف[١٣٢]

ولم يكن أرقى من أهل زمانه فى نظرته إلى الاسترقاق ، فقد كان الفقهاء السوفسطائيون ، والرواقيون ، والرومان ، يعلمون أن الناس « بطبيعتهم » أحرار ؛ وكان آباء الكنيسة يوافقون على الرق ويفسرونه كما يفسرون الملك بأنه ناشئ من نزعة الإنسان الآثمة التى كسبها نتيجة لسقوط آدم . وبرّر أرسطو صديق الأقوياء الرق بزعمه أنه نتيجة لعدم المساواة الطبيعية فى الإنسان . وحاول تومس أن يوفق بين هذه الآراء المتعارضة : فقال إنه لم يكن ثمة رق فى حالة البراءة ، أما بعد سقوط آدم فقد وجد أن من الخير إخضاع السذج للعقلاء ، لأن من لهم أجسام قوية وعقول ضعيفة قد أريد لهم بحكم الطبيعة أن يكونوا أرقاء[١٣٣] . لكن العبد ليس ملكا لسيده إلا بجسمه لا بروحه ؛ وليس العبد مرغما على قبول الاتصال الجنسى بالسيد ، ويجب أن تتبع قواعد الأخلاق المسيحية بأجمعها فى معاملة العبد .

٧ – الدين

ويبدأ لتومس أنه ما دامت المسائل الاقتصادية والسياسية فى آخر الأمر مسائل أخلاقية ، فإن من العدل أن يوضع الدين فى مرتبة أعلى من مرتبة السياسة والصناعة ، وأن تخضع الدولة فى مسائل الأخلاق لرقابة الكنيسة وإرشادها

وكلما سمت أغراض السلطة ازداد نبلها ؛ ويجب أن يخضع ملوك الأرض ، الذين يهدون الناس إلى السعادة الدنيوية ، لسلطان البابا الذى يهدى الناس إلى السعادة الأبدية . على أنه يجب أن تبقى الدولة صاحبة السلطان فى الشئون الدنيوية ، غير أن من حق البابا فى هذه الشئون نفسها أن يتدخل إذا خالف الحكام قواعد الأخلاق الصالحة أو تسببوا فى الإضرار بشعوبهم إضرراً كان يستطاع تجنبه . ولهذا فمن حق البابا أن يعاقب الملك المسىء أو يعفى رعاياه من يمين الولاء له ؛ وفوق هذا فإن من واجب الدولة أن تحمى الدين ، وتؤيد الكنيسة ، وتنفذ قراراتها[١٣٤] .

والمهمة العليا للكنيسة أن تهدى الناس إلى سبيل النجاة ؛ وليس الإنسان مواطناً فى هذه الدولة الأرضية وحدها ، بل هو فوق ذلك مواطن فى مملكة روحية أعظم إلى أبعد حد من أية دولة أخرى . وحقائق التاريخ الكبرى تنبئ أن الإنسان قد ارتكب جرماً لا حد له بعصيان الله ، فاستحق بهذا العصيان عقاباً لا حد له ، وأن الله الابن قد أصبح إنساناً وقاسى العار والموت ، وأنه قد خلق رصيداً من البركة المنجية يستطيع الإنسان أن ينجو به رغم خطيئته الأولى ؛ والله يهب من يشاء من هذه البركة ما يشاء ؛ وليس فى مقدورنا أن تتبين أسباب اختياره ، ولكن « ما من أحد من الناس قد بلغ من الجنون حداً يقول معه إن الجدارة هى سبب الاختيار الإلهى »[١٣٥] . وتتردد عقيدة بولس وأوغسطين الرهيبة فى أقوال تومس الرفيق الظريف :

« من الخير أن يسيّر الله الإنسان بقضائه وقدَره ، لأن الأشياء جميعاً خاضعة لمشيئته ... وإذ كان الناس قد هيئوا للحياة السرمدية بمشيئة الله ، فإن من مشيئة الله أيضاً أن يسمح لبعضهم أن يعجزوا عن بلوغ هذه الغاية ، وهذا هو ما يسمى « الشقاء » . . . وإذ كان قضاء الله وقدَره يشمل إرادته فى أن يهب البركة والمجد ، فإن الشقاء أيضاً يشمل إرادته فى أن يسمح لشخص ما أن يقع فى الخطيئة ؛

وأن يعاقب على تلك الخطيئة بعذاب الجحيم . . . « اختارتنا فيه قبل تأسيس العالم »[١٣٦] .

ويبذل توماس ما وسعه من جهد ليوفق بين قضاء الله وقدَره وبين حرية البشر ، وبين لِمَ يجب على الإنسان الذى قُدِّر له مصيره أن يعمل لكسب الفضيلة ، وكيف تستطيع الصلوات أن تؤثر فى الله الذى لا يتغير ولا يتحول ، وماذا يكون عمل الكنيسة فى مجتمع قسّم أفراده من قبل إلى ناجين ومعذَّبين ؟ وهو يجيب عن هذا بأن كل ما هنالك أن الله قد عرف من قبل ما سوف يختاره كل إنسان بحريته ؛ وهو يفترض أن الوثنيين جميعهم من المعذبين مع جواز استثناء عدد قليل منهم بعث الله إليهم بوحى شخصى خاص[*][١٣٧] .

وأعظم ما يناله الناجون من السعادة هو فى رأيه رؤية الله ؛ وليس معنى هذا أنهم سيفهمونه ؛ إذ لا يفهم اللانهائىَّ غيرُ اللانهائى ؛ بيد أن المنعمين بما ينفخ فيهم من النعمة الإلهية سوف يشهدون جوهر الله[١٣٩] . وبما أن الخليقة كلها قد نشأت من الله فإنها ستعود إلى الله ، والنفس البشرية التى هى منحة من كرمه لا تستريح حتى تعود فتنضم إلى مصدرها . وهكذا تتم الدورة المقدسة دورة الخلق والعودة ، وتختتم فلسفة توماس كما بدأت بالله .

٨ — كيف استقبلت فلسفة توماس ؟

لقد رأت الكثرة الغالبة من معاصريه أنها تكديس فظيع للاستدلالات الوثنية شديدة الخطر على الدين المسيحى ؛ وصدمت مشاعرَ الرهبان الفرنسيس الذين كانوا يسلكون لمعرفة الله طريق الحب الصوفى للذى يقول به أوغسطين

(*) إن الفقرة التى تقول إن كثيراً من المنعمين فى الجنة يزيد نعيمهم بمشاهدة عذاب المعذبين توجد فى ملحق كتاب الخلاصة (٩٧ : ٧) وليست هذه الفقرة المخزية من أقوال توماس بل هى من أقوال ريچنلد الپيرنوى[١٣٨] .

« نزعةُ » تومس « العقلية » ، ورفعَه العقل فوق الإرادة ، والفهم فوق الحب . وعجب الكثيرون كيف يمكن الدعاء والصلاة لإله فاتر ، سلبي ، يُعبد كالإله الموصوف فى كتاب **الخلاصة** ؟ وكيف يمكن أن يكون عيسى جزءاً من هذا المعنى المجرد ؟ وماذا كان يقول القديس فرانسس عن الله أو بأى شيء كان يتحدث إليه ؟ وبدا لهم قوله إن الجسم والنفس يكونان وحدة سيقضى على عقيدة خلود النفس وعدم فسادها ، وقوله إن المادة والصورة وحدة سيؤدى ، رغم إنكار تومس المتكرر ، إلى الانحدار إلى نظرية ابن رشد القائلة بأن العالم أزلى ، وإن المادة ، لا الصورة ، هى مبدأ الانفرادية سيحول دون التفرقة بين نفس ونفس ، وينحدر بنا إلى نظرية ابن رشد القائلة بوحدة النفس وخلودها اللاشخصى . وشر من هذا كله أن غلبة أرسطو على أوغسطين فى فلسفة تومس قد بدت للرهبان الفرنسيس كأنها انتصار للوثنية على المسيحية . ألا يوجد من الآن فى جامعة باريس معلمون وطلاب يرفعون كتب أرسطو فوق الأناجيل ؟

ودافعت المسيحية « السنية » عن نفسها فى الربع الثالث من القرن الثانى عشر عن فلسفة تومس الأرسطوطيلية ، كما قاوم أهل السنة المسلمون ابن رشد لاعتناقه فلسفة أرسطو ونفوه ، وكما حرق اليهود السنيون فى بداية القرن الثالث عشر كتب ابن ميمون لنزعته الأرسطوطيلية . فقد حدث فى عام ١٢٧٧ أن أصدر أسقف باريس بإيعاز البابا يوحنا الحادى والعشرين مرسوما باعتبار ٢١٩ قضية من قضايا تومس خروجا على الدين . وكان من بين هذه القضايا ثلاث « بنوع خاص » اتهم بها الأخ تومس ، وهى قوله إن الملائكة لا أجسام لها ، وإن كل واحد منهم يكون بمفرده نوعا منفصلا عن غيره ؛ وإن المادة أساس الانفرادية ؛ وإن الله لا يستطيع مضاعفة الأفراد فى نوع ما من غير المادة . وقال

الأسقف إن كل من يعتنق هذه العقائد يُعدّ بهذا العمل وحده محروما من الدين . وبعد أيام قلائل من صدور هذا المرسوم أقنع ربرت كلواردبى Robert Kilwardby أحد كبار الرهبان الدمنيك أساتذة جامعة أكسفورد بأن ينددوا ببعض عقائد تومس ومنها وحدة النفس والجسد فى الإنسان .

وكان قد مضى على وفاة تومس فى ذلك الوقت ثلاث سنين ، ولم يكن فى وسعه أن يدافع عن نفسه ، ولكن ألبرت أستاذه القديم ، اندفع من كولونى إلى باريس وأقنع رهبان فرنسا الدمنيك بأن يشدوا أزر زميلهم وأخيهم ؛ ودخل راهب فرنسيسى يدعى وليم ده لا مار William de la Mare فى المعركة برسالة سماها : Correctorium fratris Thomae يقول فيها إن تومس على حق فى ١١٨ نقطة ، فقام راهب فرنسيسى آخر يدعى يوحنا بكهام ، كبير أساقفة كنتربرى يندد رسميا بفلسفة تومس وينادى بالعودة إلى بونا فنتورا والقديس فرنسس . وانضم دانتى إلى المتنازعين فصاغ من فلسفة تومس فلسفة معدلة كانت الإطار العام الذى وضع فيه **الملهاة المقدسة** ، واختار تومس ليقوده على السلم الموصل إلى أعلى سماء . ودامت الحرب مائة عام أقنع بعدها الرهبان الدمنيك البابا يوحنا الثانى والعشرين أن تومس من القديسين ، وكان تقديسه (١٣٢٣) انتصاراً لفلسفته . ووجد المتصوفة من ذلك الوقت فى كتاب **الخلاصة**(١٤٠) أعمق وأوضح عرض للحياة الصوفية الفكرية . ولما عقد مجلس ترنت (١٥٤٥ — ١٥٦٣) وضع كتاب **الخلاصة** على المذبح إلى جانب الكتاب المقــدس وكتاب القوانين الكنسية(١٤١) . وفرض إجناتيوس ليولا Ignatius Loyola على اليسوعيين أن يعلّموا فلسفة تومس ، وقرر البابا ليو الثالث عشر فى عام ١٨٧٩ ،

والبابا بندكت الخامس عشر فى عام ١٩٢١ أن تكون مؤلفات تومس الفلسفة الرسمية للكنيسة الكاثوليكية ، وإن لم يعلنا أن هذه المؤلفات سليمة من الأخطاء ؛ وهذه الفلسفة تدرس الآن فى جميع كليات الروم الكاثوليك ؛ ولقد كسبت لها أنصاراً جدداً فى وقتنا الحاضر ، وإن كان لها نقاد من بين علماء الدين الكاثوليك ، وهى الآن من أقوى أنظمة التفكير الفلسفى تأثيراً وأبقاها على الزمن ، لا تقل فى ذلك عن الأفلاطونية والأرسطوطيلية .

وبعد فإن من السهل على من يقف الآن على كتفى السبعمائة العام الأخيرة أن يشير فى مؤلفات أكونوس إلى بعض العناصر التى لم تثبت الأيام صحتها . وإن مما يعيبه ويشرفه معاً أنه كان كثير الاعتماد على أرسطو ، وبقدر هذا الاعتماد كان يعوزه الابتكار ويظهر من الشجاعة ما أنار السبل للعقول فى العصور الوسطى . وعنى تومس بالحصول على تراجم دقيقة لأرسطو منقولة عن اللغة اليونانية مباشرة ، فكان لهذا يجيد معرفة مؤلفاته الفلسفية (لا العلمية) أكثر مما يجيد معرفتها أى مفكر آخر فى العصور الوسطى عدا ابن رشد . ولم يكن يستنكف أن يأخذ العلم عن المسلمين واليهود ، ويعامل فلاسفتهم باحترام صادر عن وثوقه بنفسه . وإنا لنجد فى نظامه الفلسفى قدراً كبيراً من السخف والأباطيل التى نجد مثلها فى جميع الفلسفات التى لا تتفق مع فلسفتنا ؛ وإن من أعجب الأشياء أن يكتب هذا الرجل المتواضع بمثل ماكتب من الطول عن الطريقة التى يعرف بها الملائكة ما يعرفون ، وعما كان عليه الإنسان قبل سقوطه ، وعما كان يؤول إليه أمر الجنس البشرى لولا رغبة حواء فى المعرفة . ولعلنا نخطئ إذ نفكر فيه على أنه فيلسوف : فقد كان هو نفسه أميناً إذ سمى مؤلَّفه كتاباً فى علم الدين ، ولم يدع أنه يسير وراء العقل إلى حيث يقوده ، ويعترف أنه يبدأ بنتائجه ، وهو عمل يسمه معظم الفلاسفة بأنه خيانة للفلسفة وإن كانت كثرتهم تفعله . وقد كان

مجال بحثه أوسع مما جرؤ عليه مفكر بعده عدا اسپنسر ، وكان فى كل ميدان واضحاً هادئ المزاج بعيداً عن المغالاة يبحث عن الطريقة الوسطى المعتدلة ، ومن أقواله فى هذا المعنى « أن الرجل العاقل يخلق النظام »[١٤٢] . ولم يفلح فى التوفيق بين أرسطو والمسيحية ، ولكنه وهو يحاول هذا التوفيق كسب للعقل نصراً مؤزراً سيدوم على مدى الأيام ، فقد قاد العقل أسيراً إلى قاعة الدين ؛ ولكنه قضى بانتصاره على عصر الإيمان .

الفصل السابع

خلفاء تومس

يسرف المؤرخ على الدوام فى التبسيط ، ويتعجل فيعمد إلى حشد كبير من الأنفس والحوادث لا يستطيع قط أن يلم بها كل الإلمام أو يفهمها كل الفهم ، ويختار من بينها عدداً قليلا من الحقائق والوجوه يراها أطوع لقلمه من غيرها . وليس من حقنا أن نظن أن الفلسفة المدرسية معانى مجردة أزيلت منها آلاف الحقائق الغريبة ؛ بل علينا أن ننظر إليها على أنها اسم غامض غير دقيق يطابق على مئات الفلسفات المتناقضة والنظريات اللاهوتية التى كانت تعلّم فى مدارس العصور الوسطى من أيام أنسلم فى القرن الحادى عشر إلى أيام أكام Occam فى القرن الرابع عشر . والمؤرخ يخضع أشد الخضوع وأثقله على نفسه لقصر الوقت ونفاد الصبر الذى هو من طبيعة بنى الإنسان ؛ ويخط سطراً واحداً يحط به من قدر رجال خلّدوا أسماءهم فى أحد الأيام ولكنهم اختفوا الآن فى طيات التاريخ .

وكان من أعجب الشخصيات فى القرن الثالث عشر الملىء بذوى المواهب المتعددة من الرجال رامون لَلْ Ramon Lull أو ريمند لَلّى Raymond Lully (١٢٣٢ ؟ – ١٣١٥) . وقد وُلد فى پالما لأسرة قطالية Catalan وشق طريقه إلى بلاط جيمس الثانى فى برشلونة ، واستمتع بشباب صاخب ، ثم أخذ يضيّق نطاق عشقه حتى اكتفى بزوج واحدة . ولما بلغ سن الثلاثين نبذ على حين غفلة ملاذ العالم ، والجسم ، والشيطان ، ووهب نشاطه المتعدد النواحى للتصوف والمعارف الخفية ، وحب الإنسانية ، والتبشير بالدين ، والسعى للاستشهاد . ثم درس اللغة العربية ، وأنشأ كلية للدراسات العربية فى ميورقة ، وطلب إلى مجلس

همينا أن ينشئ مدارس للغات والآداب الشرقية تعد الناس للتبشير بين المسلمين واليهود . واستجاب المجلس لرغبته وأنشأ خمس مدارس من هذا النوع — فى رومة ، وبولونيا ، وباريس ، وأكسفورد ، وسلمنقة — كان فيها كراسى للغات العبرية والكلدانية ، والعربية . ولعل للى نفسه تعلم اللغة العبرية لأنه أصبح عالما متبحراً فى القبالة .

ويستحيل علينا أن نقسم مؤلفاته البالغ عددها ١٥٠ أصنافا . وحسبنا أن نسجلها هنا فنقول إنه فى شبابه أنشأ الأدب القطالى بان كتب عدة مجلدات من الشعر الغزلى ؛ ثم ألف باللغة العربية كتاباً ترجمه فيما بعد إلى اللغة القطالية «كتاب التفكير فى الله» . وليس هذا الكتاب مجرد حلم صوفى بل هو موسوعة فى علوم الدين من ألف ألف كلمة (١٢٧٢) . وبعد عامين من ذلك الوقت ، وكأنما بدل نفسه ، ألف كتاباً فى حرب الفروسية ، وألف فى الوقت عينه تقريباً كتاباً فى التربية سماه « كتاب فى عقائد الشباب » ، ثم جرّب حظه فى الحوار الفلسفى ونشر فيه ثلاثة كتب يعرض فيها وجهات النظر الإسلامية ، واليهودية ، والمسيحية اليونانية ، والمسيحية الرومانية ، والتتارية ، بتسامح ونزاهة ، ورفق ، تثير الدهشة . وألف حوالى عام ١٢٨٣ رواية دينية طويلة سماها **بلانكيرنا** Blanquerna حكم الخبراء الذين أوتوا الصبر على قراءتها بأنها « من روائع آداب العصور المسيحية »[١٤٣] . ثم أصـــدر فى رومة عام ١٢٩٥ موســـوعة أخرى سماها **شجرة العلم** Arbre de sciencis حوت أربعة آلاف سؤال فى ستة عشر علماً مع أجوبة عنها موثوق بها . وحارب أثناء مقامه فى باريس (١٣٠٩ — ١٣١١) فلسفة ابن رشد التى كانت آثارها لا تزال باقية فيها ، وذلك فى عدة مؤلفات دينية صغرى وقعها بإمضاء دقيق دقة لم يعتدها وهو Phantasticus « الواهم » وظل خلال حياته الطويلة يصدر مجلدات فى العلوم والفلسفة بلغت من الكثرة حداً يصعب معه حصرها .

وافتتن فى أثناء هذه المشاغل كلها بفكرة استهوت عقول العباقرة فى هذه الأيام — وهى أن جميع قوانين المنطق وعملياته يمكن ردها إلى صور رياضية أو رمزية . فيقول ريمند إن « الفن العظيم » — فن المنطق — هو كتابة المدركات الأساسية للفكر البشرى على مربعات متحركة ، ثم جمع هذه المربعات فى أوضاع مختلفة ليس القصد منها رد جميع الأفكار الفلسفية إلى معادلات وأشكال فحسب ، بل يقصد بها كذلك أن تثبت بالمتساويات الرياضية حقائق الدين المسيحى . وكان ريمند يتصف بما يتصف به بعض مرضى العقول من دعة ولطف ، فيأمل أن يرد المسلمين عن دينهم إلى الدين المسيحى بتأثير فنه المقنع . ورحبت الكنيسة بهذه الثقة ، ولكنها لم ترض عما اقترحه من رد جميع أصول الدين إلى العقل ووضع التثليث والتجسد على مشرحة منطقه(١٤٤) .

واعتزم فى عام ١٢٩٢ أن يستعيض عن استيلاء المسلمين على فلسطين بتحويل أفريقية الشمالية إلى بلاد مسيحية ، فعبَر البحر إلى تونس ، ونظم فيها سراً جالية مسيحية صغيرة ، ثم قبض عليه فى عام ١٣٠٧ أثناء رحلة تبشيرية إلى تلك البلاد وجىء به أمام قاضى القضاة . وعقد القاضى مناقشة علنية بين ريمند وبعض علماء الدين المسلمين . ويقول صاحب سيرة ريمند إنه انتصر فيما دار من نقاش وإنه ألقى فى السجن ، ولكن بعض التجار المسيحيين أفلحوا فى إنقاذه وإعادته إلى أوربا . ويلوح أنه كان يتوق إلى الاستشهاد فعبر البحر مرة أخرى إلى بوجى فى عام ١٣١٤ ، وأخذ يدعو للمسيحية علناً فرجمه الغوغاء المسلمون بالحجارة حتى مات (١٣١٥) .

وإذا انتقلنا من ريمند للى إلى چون دنز اسكوتس John Duns Scotus كنا كمن ينتقل من فارسو إلى كالافيكورد الصافية المزاج (*) . واشتق

(*) تمثيليتان غنائيتان أولاهما لبيزيه والثانية لباخ . (المترجم)

اسما چون الثانى والثالث من مسقط رأسه فى دنز Duns من أعمال بروكشير Bérwick-shire (؟) ولما بلغ الحادية عشرة من عمره أرسل إلى ديرللرهبان الفرنسيس فى دنفريز Dunfries ، وانضم إلى طائفة الرهبان رسمياً بعد أربع سنين من دخول الدير . وتلقى العلم فى جامعتى أكسفورد وباريس ثم علّم أكسفورد ، وباريس ، وكولونى ، ومات وهو كهل فى الثانية والأربعين من عمره (١٣٠٨) ، بعد أن خلف وراءه عدداً جماً من المؤلفات معظمها فيما وراء الطبيعة تمتاز كلها بالغموض والخفاء بدرجة يندر أن تظهر مرة أخرى فى الفلسفة إلا إذا ظهر اسكوتس جديد . والحق أن عمل دنزاسكوتس ليشبه إلى حد كبير عمل كانت الذى جاء بعده بخمسة قرون — فهو يقول إن العقائد الدينية يجب أن يدافع عنها بأنها لا غنى عنها من الوجهة الأخلاقية العملية لا بتماسكها المنطقى . ورضى الرهبان الفرنسيس أن يفدوا الفلسفة لينقذوا أوغسطين من تومس الدمنيكى فاتخذوا دكتورهم الشاب بطلا لهم ونصيراً ، وانضووا تحت لوائه ، فى حياته وبعد مماته ، طوال عدة أجيال من الحرب الفلسفية .

وكان دنز هذا ذا عقل من أشد العقول توقداً وذكاء فى تاريخ العصور الوسطى . فقد درس الرياضة وغيرها من العلوم ، وتأثر فى أكسفورد بجروستستى وروجر بيكين ، فتكونت لديه فكرة صارمة عما يجب أن يكون البرهان الصحيح ، وطبق هذا الاختبار على فلسفة تومس فقضى بذلك على تهوره فى اقتران الدين والفلسفة ، ولما يكد هذا الاقتران يتم شهر العسل . وكان دنز يفهم الطريقة الاستقرائية فى المنطق ولكنه كان يقول عكس ما يقوله فرانسس بيكن بالضبط ، وهو أن كل استقراء ، أى برهان — من النتيجة إلى العلة — برهان غير موثوق به ، وإن البرهان الحقيقى الوحيد هو البرهان الاستنتاجى أى إظهار أن نتائج معينة لا بد أن تحدث من طبيعة العلة ذاتها . مثال هذا أننا إذا أردنا أن نثبت وجود الله فإن علينا أن ندرس أولا علم ما وراء الطبيعة — أى أن

تدرس « الكائن بوصفه كائناً » ، ثم نصل عن طريق المنطق الدقيق إلى الصفات الجوهرية للعالم . وفى عالم الجواهر لا بد أن يكون هناك جوهر هو مصدر كل ما عداه منها وهو **الكائن الأول** ؛ وهذا الكائن الأول هو الله .

ويتفق دنز مع تومس فى أن الله هو **الحقيقة الخالصة** ولكنه لا يفهم تلك العبارة على أنها الواقعية الخالصة بل يفهم منها أنها الفاعلية الخالصة . فالله هو أولا إرادة لا عقل ، وهو علة العلل جميعها ، وهو أزلى ، ولكن هذا هو كل ما نستطيع أن نعرفه عنه بطريق العقل . أما أنه إله الرحمة ، وأنه ثلاثة فى واحد ، وأنه خلق العالم فى وقت ، وأنه يسيطر على جميع الأشياء بقدرته — هذه وجميع عقائد الدين المسيحى كلها تقريباً يجب أن نؤمن بها أى أن نصدقها اعتماداً على الكتب المقدسة والكنيسة ولكنا لا نستطيع إثباتها بالفعل . والحق أننا فى الساعة التى نبدأ فيها باستخدام العقل فى إثبات وجود الله نقع فى متناقضات تحيرنا (وهى التى يسميها كانْت « متناقضات العقل الخالص ») . وإذ كان الله قادراً على كل شيء ، فهو علة كل النقائص ، ومنها كل الشرور ؛ وإذن تكون العلل الثانوية ومنها الإرادة البشرية ، وهماً لا حقيقة ولكى نتلافى هذه النتائج الهدامة ، ولما كانت العقيدة الدينية لازمة للحياة الأخلاقية (وهو ما يسميه كانت « العقل العملى ») فإن من الحكمة ألا نلجأ إلى فلسفة تومس التى تحاول أن تثبت الدِّين بالفلسفة ، وأن نقبل عقائد الدين بالرجوع إلى الكتاب المقدس وإلى الكنيسة[١٤٥] . وليس فى مقدورنا أن نعرف الله ولكننا قادرون على أن نحبه ، وهذا الحب خير من المعرفة[١٤٦] .

ودنز فى علم النفس « واقعى » من الطراز الدقيق الخاص به : فالكليات عنده حقيقة موضوعية بمعنى أن تلك المظاهر الموحدة التى يجردها العقل من الأجسام المتماثلة ليكون منها فكرة عامة ، لابد أن تكون موجودة فى الأجسام ، وإلا لما استطعنا أن ندركها ونجردها . وهو يتفق مع تومس فى أن جميع المعرفة

الطبيعية مستمدة من الحواس ، أما فيما عدا هذا فإنه يخالفه فى جميع آرائه الفلسفية . فهو يقول إن أساس الانفرادية ليس هو المادة بل الصورة ، والصورة بمعناها الضيق الدقيق الذى نستطيع أن نقول عنها « هـذه » haecceitas — أى الصفات الخاصة والعلامات المميزة للشخص أو الشيء الفردى . وليست مواهب النفس مُميَّزة بعضها عن بعض ، وليست من النفس ذاتها . وليست موهبة النفس الأساسية هى الفهم بل هى الإرادة ، فالإرادة هى التى تعين الإحساس أو القصد الذى يجب أن يتجه إليه العقل ، والإرادة voluntas وحدها لا قوة الحكم (arbitrium) هى الحرة ؛ ومن رأيه أن قول تومس إن تعطشنا للاستمرار وللسعادة الكاملة يثبت خلود النفس قول مبالغ فيه لأنه يمكن تطبيقه على كل حيوان فى الحقول ، وليس فى مقدورنا أن نثبت الخلود الشخصى ، بل علينا أن نؤمن به لا أكثر .

وكان فى وسع الرهبان الدمنيك أن يروا فى دنز انتصار الفلسفة الغربية على الفلسفة الإسلامية ، كما كان الرهبان الفرنسيس يدعون أنهم يرون فى تومس انتصار أرسطو على الأناجيل ، ففلسفة ما وراء الطبيعة عنده هى فلسفة ابن رشد ، وفلسفة شرائع الكون هى فلسفة ابن جبيرول ، ولكن الحقيقة الأساسية الداعية إلى الأسى فى اسكوتس هى تخليه عن محاولته إثبات العقائد المسيحية الأساسية بالالتجاء إلى العقل . واشتط أتباعه فذهبوا فى هذه المسألة إلى أبعد من هذا ؛ وأخرجوا عقائد الدين واحدة بعد واحدة من ميدان العقل ، وضاعفوا بذلك ما وضعه من الفروق والمميزات الدقيقة إلى حد جعل لفظ « الدنزى » فى إنجلترا يعنى الأبله المولع بالتقسيم الشَّعرى ، والسوفسطائى : البليد والغبى(*) . وأبى الذين يحبون الفلسفة أن يخضعوا لعلماء اللاهوت الذين نبذوا الفلسفة وتنازعت الدراستان وافترقتا ؛ وأدى رفض الدين للعقل إلى رفض العقل للدين ، وانتهت بذلك المغامرة الجريئة الكبرى التى قامت فى عصر الإيمان .

(*) dunce واللفظ مشتق من اسمه duns . (المترجم)

وبعد فقد كانت الفلسفة المدرسية مأساة يونانية تكمن فى جوهرها الأسباب التى قضت عليها . ذلك أن فى محاولتها إثبات الدين عن طريق العقل اعترافا ضمنيا بسلطان العقل ، وأن اعتراف دنز اسكوتس وغيره بأن الدين لا يمكن إثباته بالعقل قد حطم الفلسفة المدرسية ، وأضعف الدين فى القرن الرابع عشر إضعافا أدى إلى نشوب الثورة على طول جبهة العقائد الكنسية . لقد كانت فلسفة أرسطو هدية يونانية للمسيحية اللاتينية ، وكانت أشبه بجواد طروادة يخفى فى باطنه ألف عنصر من العناصر المعادية لهذا الدين . ولم تكن هذه البذور التى نبتت منها النهضة والاستنارة « هى انتقام الوثنية » من المسيحية فحسب ، بل كانت فوق ذلك انتقاما للإسلام على غير علم منه . فقد غزت المسيحية بلاد فلسطين ، وأخرجت المسلمين من أسپانيا كلها تقريبا فنقلوا علومهم وفلسفتهم إلى أوربا الغربية ، وكانت هذه العلوم والفلسفة قوة من القوى العاملة على تفكك المسيحية وتفرقها ، وكان ابن سينا وابن رشد ، كما كان أرسطو ، هما اللذين بثّا جراثيم النزعة العقلية فى أوربا المسيحية .

ولكن مهما يكن من عيوب المغامرة المدرسية فإن شيئا منها لا يمكن أن يغشى لألاءها الساطع . لقد كانت مغامرة جريئة مشهورة جرأة الشباب وتهوره ؛ وكان لها ما للشباب من إفراط فى الثقة وإسراف فى الجدل ؛ وكانت صوت أوربا الجديدة الناقهة التى كشفت من جديد قوة العقل المثيرة . ولقد استمتعت الفلسفة المدرسية فى خلال القرنين اللذين سمت فيهما إلى عليائها بحرية فى البحث ، والتفكير ، والتعليم ، لا نكاد نجد ما يفوقها فى جامعات أوربا فى هذه الأيام ؛ وذلك على الرغم من المجالس التى كانت تطارد الإلحاد وبالرغم من محاكم التفتيش ؛ واستطاعت بمعونة فقهاء القانون فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر أن تشحذ عقول الغربيين بما صاغته من أدوات المنطق ومصطلحاته ، وبالاستدلال الدقيق.

المتقن الذى لا يفوقه فى الفلسفة الوثنية شىء . وما من شك فى أن هذه السهولة فى الجدل قد أسرف فيها إسرافا كبيراً ، وأنها ولدت الجدل المفعم بالحشو ولغو الكلام « والتفتيت المدرسى » الذى لم يثر عليه روجر بيكن وفرانسس بيكن وحدهما ، بل ثارت عليه أيضاً العصور الوسطى نفسها(*) . ومع هذا فإن كفة الخير فى هذا التراث ترجح كفة الشر . ذلك أن « المنطق ، وعلم الأخلاق ، وما وراء الطبيعة » على حد قول كندورسيه Condorcet « مدينة للفلسفة المدرسية بما فيها من دقة لا يعرفها الأقدمون أنفسهم » ، كما يقول سير وليم همنتن إن « اللغات العامية مدينة للفلسفة المدرسية بما فيها من إحكام ودقة تحليلية »[١٤٩] ، وإن أكثر ما فى العقل الفرنسى من صفات خاصة ينفرد بها عما عداه — وهى حبه المنطق ، ووضوحه . ودقته — قد كوّنه المنطق أيام مجده فى مدارس فرنسا أثناء العصور الوسطى .

وكانت الفلسفة المدرسية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر تقدما ثوريا فى التفكير البشرى أو فى إعادته إلى سابق عهده . ذلك أن التفكير « الحديث » يبدأ بنزعة أبلار العقلية ، ويسمو إلى ذروته الأولى فى وضوح تومس أكوناس ومغامرته ، ويصاب بهزيمة مؤقتة على يد دنز اسكوتس ، يفيق منها على يد أكّام ، ويستحوذ على البابوية حين يخضع ليو العاشر لسلطانه ، وعلى المسيحية حين يقبض على إرزمس Erasmus ، ويضحك بأعلى صوته فى ربليه ، ويبتسم فى منتانى ، ويصخب فى ڤلتير ، وينتصر متهكما فى هيوم ، ويحزن على ما فاته من نصر فى أناطول فرانس . ولقد كان الاندفاع وراء العقل فى العصور الوسطى هو الذى أقام هذه الطائفة من الفلاسفة المشهورين ذوى الأسماء اللامعة والعقول الباهرة .

(*) يحدثنا جرالدس كمبرنسس Giraldus Cambrensis عن شاب قضى خمس سنين يدرس الفلسفة فى باريس على نفقة أبيه الذى لم يكن موفور المال ، فلما عاد أثبت لأبيه بمنطقه القاسى الصارم أن ست بيضات موضوعة على المائدة كانت اثنتى عشرة بيضة ، فما كان من الأب إلا أن أكل البيضات الست التى كان فى وسعه أن يراها وترك الأخرى لولده[١٤٨] .

الباب السابع والثلاثون

العلوم المسيحية

١٠٩٥ — ١٣٠٠

الفصل الأول

البيئة السحرية

كان الرومان فى أوج مجدهم الإمبراطورى يقدرون العلوم التطبيقية ، ولكنهم كادوا ينسون علوم اليونان البحتة . وإنا لنجد منذ العهد القديم فى كتاب التاريخ الطبيعى تأليف پلنى الأكبر خرافات يظنها الناس من اختراع العصور الوسطى ، ولا تكاد تخلو منها صحيفتان من ذلك الكتاب . ولقد تآزرت قلة عناية الرومان والمسيحيين بالعلوم حتى كادت تجدب البلاد منها قبل أن يغزوها البرابرة بزمن طويل وينثرون حطام المجتمع المدمر فى سبيل انتقال الثقافة . ودفن ما بقى فى أوربا من علوم اليونان فى مكتبات القسطنطينية ، وحتى هذا القليل الباقى امتدت إليه يد التدمير حين نهبت المدينة فى عام ١٢٠٤ . وهاجرت علوم اليونان فى القرن التاسع إلى بلاد المسلمين عن طريق الشام ، ونبهت أفكارهم فقامت فى بلادهم نهضة ثقافية من أعظم النهضات وأكثرها إثارة للدهشة فى التاريخ كله ، وذلك فى الوقت الذى كانت فيه أوربا المسيحية تجاهد للخروج من ظلمات الخرافات والهمجية .

وكان لا بد للعلوم والفلسفة فى العصور الوسطى أن ينمو غرسهما فى جو من

الأساطير ، والخرافات ، والمعجزات ، والفأل ، والطيرة ، والعفاريت ، والهولات ، والسحر ، والتنجيم ، والتنبؤ بالغيب ، وهى العقائد التى لا تنتشر إلا فى عصور الفوضى والخوف . كل هذه كانت توجد فى العالم الوثنى ، ولا تزال توجد فى هذه الأيام ، ولكنها يخفف من حدتها فكاهة المدنية والعقول المستنيرة . وكانت ذات سلطان قوى عند الأقوام الساميين ، وأضحت لها الغلبة بعد أيام ابن رشد وابن ميمون ، وحطمت فيما بين القرن السادس والقرن الحادى عشر أسوار الثقافة فى غربى أوربا ، وغمرت عقول الناس فى العصور الوسطى فى بحر زاخر من الآراء الغامضة الخفية والسذاجة التى تصدق كل ما يقال مهما كان بعيداً عن المعقول . وحسبنا أن نذكر مثلا لذلك أن أوغسطين كان يعتقد أن آلهة الوثنيين لا تزال موجودة فى صورة عفاريت ، وأن جن الحراج وجنياتها حقيقة[1] . كما كان أبلاريظن أن الشياطين تستطيع أن تقوم بأعمال السحر لمعرفتها الوثيقة بأسرار الطبيعة[2] . وكان ألفنسو الحكيم يؤمن بالسحر ويقبل النبوءات عن طريق النجوم[3] ؛ وإذ كان هذا هو اعتقاد أولئك الرجال فكيف يشك فيه من هم أقل منهم شأناً ؟

وتسربت طائفة كبيرة من الكائنات الخفية غير الطبيعية من الوثنية إلى المسيحية ، وكانت فى الوقت الذى نتحدث عنه لا تزال تتسرب إليها من ألمانيا واسكنديناوة وأيرلندة فى صورة سحرة ، وجن ، ومردة ، وجنيات ، وأغوال وهولات عجيبة ، وشياطين وعفاريت تمتص الدماء . وظلت خرافات جديدة تدخل أوربا من بلاد الشرق ؛ فكان الأموات يمشون فى الهواء فى صورة أشباح ، وكان الخلائق الذين باعوا أنفسهم للشيطان يجوسون خلال الغابات والحقول كما كانت تجوس خلالها الذئاب ؛ وكانت أرواح الأطفال الذين ماتوا قبل أن يعمدوا تغشى المستنقعات وتظهر للناس فى صورة غاز المستنقعات المضىء ؛ ولما أن رأى القديس إدمند رتش St. Emund Rich جماعة من الغربان السود أدرك من

فوره أنها سرب من الشياطين جاءت لتحمل روح غراب فى تلك المنطقة(٤) ؛ وكانت كثير من قصص العصور الوسطى تقول إنه إذا أخرج شيطان من جسم رجل ، فإن فى مقدور من حوله أن يروا ذبابة كبيرة سوداء تخرج من فمه(٥) ؛ وكانت دنيا الشياطين لا يعتريها الضعف مطلقاً .

وكانت مئات الأشياء — كالأعشاب ، والحجارة ، والتمائم ، والأقراط ، والجواهر — تلبس لكى ترد بقوتها السحرية الشياطين وتأتى للابسها بالحظ الطيب . وكان حذاء الفرس مجلبة للحظ الطيب لأنه على شكل الهلال ، الذى كان فى وقت ما إلهة معبودة ، وكان الملاحون الذين هم تحت رحمة العناصر الطبيعية ، والفلاحون الذين تتحكم فيهم تقلبات الأرض والسماء ، يرون خوارق الطبيعة أينما ساروا ، ويعيشون فى جو من الخرافات والأوهام . وانتقل الاعتقاد بأن لبعض الأعداد قوى سحرية من فيثاغورس عن طريق الآباء المسيحيين : فكان رقم ٣ وهو عدد الثالوث المقدس أكثر الأعداد قداسة ، وكان يرمز إلى النفس البشرية ؛ وكان الرقم ٤ يمثل الجسم ؛ ورقم ٧ وهو مجموع الرقمين يرمز إلى الإنسان الكامل ؛ ومن ثم كانت فضائل الرقم ٧ — سبعة أعمار الإنسان ، والكواكب السبعة ، والسبع الفضائل الرئيسية ، والخطايا السبع المهلكة . وكانت عطسة فى غير الوقت المناسب نذير سوء ، وكان من الخير أن يتقى شرها بعبارة « يرحمك الله » ، كلما حدثت . وكان مزيج من الدواء يعطى لتوليد الحبّ أو القضاء عليه ؛ وكان منع الحمل ببصق ثلاث مرات فى فم ضفدعة ، أو إمساك حصاة من حجر اليشب باليد أثناء الجماع(٦) . وكان أجوبار Agobard المستنير كبير أساقفة ليون Lyons فى القرن التاسع عشر يشكو من أن المسيحيين يؤمنون بهذه السخافات التى لم يكن يستطيع الإنسان قبل ذلك الوقت أن يحمل الكفرة على تصديقها(٧) » .

وقاومت الكنيسة وثنية هذه الخرافات ، ونددت بكثير من المعتقدات

وأعمال الشعوذة ، وعاقبت مرتكبيها بضروب من الكفارات متدرجة فى صرامتها ، فكانت تندد بالسحر الأسود — الالتجاء إلى العفاريت لنيل السلطان على الحوادث — ، ولكن هذا الضرب من السحر كان واسع الانتشار فى ألف مكان خفى . وكان الذين يمارسونه يوزعون سراً كتاب اللعنة المحتوى على أسماء العفاريت الكبرى ومساكنها ، وقواها الخاصة(٨) . وكان كل إنسان تقريبا يؤمن ببعض الوسائل السحريه التى تحول مقدرة الكائنات فوق الطبيعية إلى غايات محبوبة . وهاهو ذا يوحنا السلزبرى يحدثنا عن ضرب من السحر يستخدمه شماس وقس وكبير أساقفة(٩) . وكان أبسط أنواع السحر ما يحدث بتلاوة الرقية وهى عبارة تتلى عدة مرات فى العادة ؛ وبها يمكن اتقاء شر ، وشفاء من مرض ؛ وإبعاد عدو من الطريق . وأكبر الظن أن معظم المسيحيين كانوا يعدّون علامة الصليب ، والصلاة الربانية ، والسلام عليك يا مريم Ave Maria رقى سحرية ، ويستخدمون الماء المقدس ، والعشاء الربانى على أنهما من الطقوس السحرية ذات الآثار المعجزة .

وكاد الاعتقاد بوجود النساء الساحرات يكون عاما فى ذلك الوقت ، فهاهو ذا كتاب التوبة الذى وضعه أسقف إكستر Exter ينـــدد بالنساء اللائى يدعين القدرة على تبديل عقول الرجال بضروب السحر ، كتبديل الكره حُبًّا ، والحب كُرهاً ، أو « سحر بضائع الناس وسرقتها » ، أو « يدعين القدرة على أن يركبن فى بعض الليالى على ظهور بعض الدواب مع حشد من العفاريت فى صورة النساء ، وعلى أن ينضممن إلى تلك الجماعات »(١٠) — وذلك هو « سبت الساحرات » الذى ذاعت سمعته السيئة فى القرن الرابع عشر . وكان من ضروب سحر النساء السهلة صنع صورة من الشمع للضحية المقصودة ، وإنفاذ الإبر فيها ، وتلاوة صيغ من اللعنات عليها ؛ وقد اتهم وزير من وزراء فليب الرابع بأنه استأجر ساحرة لتفعل هذا بصورة الملك . وكان من المعتقدات المنتشرة أن بعض النساء يستطعن أن

يؤذين أو يقتلن بنظرة من « عيونهن الحاسدة » . وكان برثولد الرچنزبرجى Berthold of Regenesburg يظن أن سيلقى فى الجحيم من النساء أكثر ممن سيلقى فيها من الرجال لأن كثيرات من النساء يمارسن فنون السحر — فلديهن « رقى للحصول على الزواج ، ورقى للزواج ، ورقى قبل مولد الطفل ، ورقى قبل التعميد ... ومن عجب أن الرجال لا يفقدون عقولهم بسبب فنون السحر الرهيبة التى تمارسها النساء عليهن »[١١] . وكانت قوانين القوط الغربيين تتهم النساء باستحضار العفاريت ، وبتقريب القرابين للشياطين ، وبإثارة العواصف وما إلى ذلك ، وتأمر بأن تحلق رؤوس من تثبت عليهن هـذه الجرائم ، وجلدهن مائتى جلدة[١٢] . وكانت قوانين كانوت Cnut فى انجلترا تعترف بأن من المستطاع قتل إنسان بالسحر . وكانت الكنيسة فى بادئ الأمر سهلة مع أصحاب هذه العقائد الشعبية ، ترى فيها بقايا وثنية لن تلبث أن تزول ولكن الذى حدث كان عكس هذا ، فقد أخذت تزيد وتنتشر ؛ حتى إذا كان عام ١٢٩٨ شنت محكمة التفتيش حملة قوية بغية القضاء على السحر بحرق الساحرات علناً . ذلك أن الكثيرين من رجال الدين كانوا يعتقدون مخلصين أن من النساء من كن على صلة بالعفاريت ، وأن من الواجب أن يحمى المؤمنون من رقاهن السحرية . ويؤكد لنا قيصريوس الهستر باخى Caesarius of Heisterbach أن كثيرين من الرجال فى أيامه يتحالفون مع الشياطين[١٣] ، ويقال إن من يمارسون السحر الأسود كانوا يحتقرون الكنيسة ويسخرون من شعائرها بأن يعبدوا الشيطان بقداس أسود[١٤] . وكان كثيرون من المرضى وضعاف النفوس يعتقدون أنهم قد لبستهم العفاريت ؛ ولربما كان القصد من الأدعية ، والصيغ ، والاحتفالات التى تتلى أو تقام لإخراج هذه العفاريت والتى تستخدمها الكنيسة لهذا الغرض ، أن تتخذ علاجاً نفسانياً لتهدئة عقول المخرفين .

وكان الطب فى العصور الوسطى إلى حد ما فرعاً من اللاهوت والشعائر

الدينية ؛ فقد كان أوغسطين يظن أن أمراض الآدميين تسببها العفاريت ، ووافقه لوثر على ظنه هذا ؛ وبدا من ثم أن علاج الأمراض بالصلوات ، وعلاج الأوبئة بالمواكب الدينية وإقامة الكنائس ، أمر يتفق مع المنطق السليم . ومن أجل هذا بنيت كنيسة سانتا ماريا دلاسالوتى Santa Matia della Salute فى البندقية لمقاومة طاعون ؛ وقد شفيت تلك المدينة — على حد قولهم — من وباء الزحار بفضل الصلوات التى أقامها القديس چربولد Gerbold أسقف بايو Bayeux[١٥] . وكان الأطباء الصادقون يرحبون بما يسديه الإيمان بالدين من عون لنجاح وسائل العلاج ، فكانوا يوصون بإقامة الصلوات ، ولبس التمائم[١٦] ؛ ولهذا نجد منذ عهد إدورد المعترف لا بعد الحكام الإنجليز يباركون الخواتم لعلاج الجذام[١٧] . وكان الملوك الذين نالوا القداسة بلمس المخلفات الدينية يشعرون أن فى مقدورهم علاج المرضى بوضع أيديهم عليهم ؛ وكان يظن أن المصابين بالداء الخنازيرى يستجيبون أكثر من غيرهم للمس الملوك ؛ ولهذا سمى هذا المرض « داء الملك King's evil » . وما أكثر ما تحمل القديس لويس من العناء الطويل فى مس المصابين بهذا الداء ، ويقال إن فليپ قالوا « مس » ألفاً و خمسمائة من الأشخاص فى جلسة واحدة[١٨] .

وكان ثمة وسائل سحرية للمعرفة وللصحة جميعاً ، فقد انتشرت فى العصور الوسطى كلها معظم الوسائل الوثنية التى كانت تتبع للتنبؤ بالغيب أو رؤية الغائبين على الرغم من تنديد الكنيسة بهذه الوسائل ؛ مثال ذلك أن تومس أبكت Thomas à Becket أراد أن يسدى النصح إلى هنرى الثانى فى مشروعه لغزو بريطانى فاستشار لذلك عرّافاً بزجر الطير ومراقبة طيرانها ، وقارئ كف عرف مصير الحملة بدراسة خطوط يده[١٩] . ويدعى قارئو الكف أن « علمهم » هذا مؤيد من عند الله ، ويستدلون على صدق السحر بآية من سفر الخروج (الآية الثامنة عشرة من الأصحاح الثانى والعشرين) التى تقول : لا تدع ساحرة تعيش .

وكان غير هؤلاء من المتنبئين يحاولون معرفة الغيب بمراقبة حركات الرياح ، أو المياه ، أو الدخان المتصاعد من نار . وكان بعضهم يعلمون مواضع خبط عشواء على الأرض (أو أية مادة من مواد الكتابة) ويصلون هذه النقط بخطوط ، ويتنبئون بحظ السائل بالنظر فى الأشكال الهندسية التى تحدث بهذه الطريقة . ويقال إن بعضهم كانوا يتنبئون بالمستقبل باستحضار أرواح الموتى ؛ من ذلك أن ألبرتس جروتس Albertus Grotus استحضر — على حد قولهم — روح زوجة الإمبراطور فردريك بربرسا بناء على طلبه(٢٠) . ومنهم من كان يستشير كتب التنبؤ بالغيب ، كالكتب التى يقال إنها تحتوى على نبوءات السيبلات Sibyls أو مرلين Merlin أو سليمان . ومنهم من كان يفتح الكتاب المقدس أو الإنياذة فى غير موضع معين ، ويتنبأ بالمستقبل بقراءة الآية أو بيت الشعر الذى تقع أعينهم عليه . وكان أكثر المؤرخين جداً ووقاراً فى العصور الوسطى يجدون — كما وجد ليڤى — أن الحوادث ذات البال قد عرفت قبل وقوعها إما مباشرة أو رمزاً ، بالنذر ، أو الرؤى ، أو النبوءات ، أو الأحلام . وكانت توجد أكداس من الكتب — ككتاب آرنلد الڤلانوڤى Arnold Villanova — تعرض أحدث التفسيرات العلمية للأحلام — ولم تكن هذه التفسيرات أكثر سخفاً مما كتبه أشهر العلماء فى القرن العشرين . وكان الناس فى الزمن القديم يمارسون الأساليب المتبعة للتنبؤ أو الجلاء البصرى كلها تقريباً كما يمارسونها فى هذه الأيام .

غير أن زماننا الحاضر ، على الرغم مما بذل فيه من بعض الجهود ، لم يبلغ ما بلغه عصر الإيمان — فى الإسلام أو اليهودية أو المسيحية — من اعتقاد بأن المستقبل مكتوب فى النجوم كتابة لا يستطاع حل رموزها(*) . فإذا كان مناخ الأرض — على حد قولهم — ونمو النبات يتأثران تأثراً واضحاً بالأجرام السماوية ،

(*) لعل الكاتب يريد أن بعض المسلمين كانوا يعتقدون أن المستقبل مدون فى النجوم وربما كان هذا صحيحاً ولكن الدين الإسلامى نفسه لا يشير بهذا لا تصريحاً ولا تلميحاً . (المترجم)

فكيف لا تؤثر هذه الأجرام ، فى أحوال الناس والدول ، بل كيف لا تحدد هذه الأحوال تحديداً فتسيطر على نموهم ، وطبيعتهم ، وأمراضهم ، ومراحل حياتهم ، وخصوبتهم ، وما يفشو بينهم من أوبئة ، وما يقع لهم من أحداث وثورات ، وتقرر مصيرهم ؟ هذا ما كان راسخاً فى عقل كل إنسان تقريباً فى العصور الوسطى . وقلما كان يخلو بيت ملك أو أمير من منجم محترف . وكان الأطباء يحجمون مرضاهم ، كما لا يزال كثير من الفلاحين يبذرون حبهم ، حسب أوجه القمر ؛ وكانت معظم الجامعات تدرس مناهج فى التنجيم ، ويقصدون به « علم النجوم » ؛ وكان علم الفلك نفسه جزءاً من التنجيم ، وكان من أكبر أسباب تقدمه اهتمام الناس بالتنجيم وأغراضه . وكان العلماء الجادون يقررون أنهم وجدوا علاقات ثابتة منتظمة يمكن التنبؤ بنتائجها بين الأجرام السماوية والأرض ؛ فالذين يولدون وزحل فى أوجه يكونون باردى المزاج ، نكدين ، منقبضى الصدور ، والذين يولدون والمشترى فى أوجه يكونون معتدلى المزاج مرحين ؛ ومن يولدون تحت تأثير المريخ يكونون ملتهبى المزاج ذوى نزعة عسكرية ؛ ومن يولدون تحت تأثير الزهرة يتصفون بالرقة وكثرة النسل ؛ ومن يولدون تحت تأثير عطارد يصيرون خلائق متقلبين لا يثبتون على حال ؛ ومن يولدون والقمر فى كبد السماء يكونون سوداويين قد تصل حالهم إلى حد الجنون . وكانت قراءة طالع المولود تنبئ بحياتها كلها بالنظر إلى البرج الموجود وقت مولده . ولهذا فإن من يريد معرفة الطالع الصحيح لشخص ما يجب عليه أن ينظر إلى الساعة ويعرف بالدقة اللحظة التى ولد فيها ، وموضع النجوم بغاية الدقة والتحديد . ومن ثم كانت أهم الأغراض التى وضعت من أجلها الأزياح الفلكية هى المساعدة على معرفة هذه الطوالع .

وتبرز فى تلك الأيام أسماء المتبحرين فى هذه العلوم الخفية ؛ من هؤلاء بطرس الأبنووى Peter of Abano الذى كان ينزل بالفلسفة فيجعلها تنجيما . وكان لآرنلد الفلانوفى الطبيب الشهير ولع بالسحر ؛ وكان سكوداسكولى

Cecco d'Ascoli (١٢٥٧ ؟ — ١٣٢٧) مدرس التنجيم فى جامعة بولونيا يفخر بأنه يستطيع قراءة أفكار أى إنسان ، أو يعرف ما يخبوءه فى يده إذا عرف تاريخ مولده . وأراد أن يشرح آراءه هذه فعمل على كشف طالع المسيح ، وأثبت أن البرج الذى كان فى السماء ساعة مولده قد جعل صَلْبه أمراً محتوماً . وأدانته محكمة التفتيش (١٣٢٤) ، وأرغم على إنكار دعواه ، وعفى عنه على شريطة أن يلزم الصمت ، وخرج إلى فلورنس ، ومارس التنجيم لعدد من العملاء ، ثم حرق علناً لأنه أنكر حرية الإرادة (١٣٢٧) . واتهم كثيرون من العلماء المخلصين لعلمهم — ومنهم قسطنطين الأفريقى ، وجربرت ، وألبرتس مجنس ، وروجر بيكن ، وڤنسنت البوڤيسى Vincent of Beauvais — بالسحر وبالاتصال بالشياطين لأن الناس لم يكونوا يصدقون أنهم حصلوا على علمهم بالوسائل الطبيعية . وكان ميخائيل اسكت هدفاً للريبة لأنه كتب رسائل ذائعة الصيت عن العلوم الخفية ، منها كتاب فى التنجيم ، وكتاب فى العلاقة بين الصفات الخلقية وصفات الجسم ، وكتابين فى الكيمياء الكاذبة . وكان ميخائيل يندد بالسحر ، ولكنه يسره أن يكتب عنه ، وقد ذكر ثمانى وعشرين طريقة للتنبؤ بالغيب ، ويبدو أنه كان يؤمن بها كلها[21] . وكان كمعظم معاصريه دقيق الملاحظة ، يجرى بعض التجارب ؛ ولكنه يقول إن حمل حجر اليشب أو الياقوت الأصفر يساعد الرجل على الامتناع عن الجماع[22] . وقد بلغ من مهارته أن ظل حسن الصلة بفردريك الثانى والبابابوات ، ولكن دانتى الصلب الذى لا يقبل شفاعة جعل مثواه الجحيم .

وكانت الكنيسة ومحكمة التفتيش جزءاً من البيئة المحيطة بالعلوم الأوربية فى القرن الثالث عشر . وكانت الجامعات تعمل فى الأغلب الأعم تحت سلطان الكنيسة ورقابتها . بيد أن الكنيسة كانت تترك للأساتذة قدراً كبيراً من حرية العقيدة ، وكانت فى كثير من الأحوال تشجع طلب العلم . من ذلك أن

ولیم الأوڤرنى أسقف باريس (المتوفى عام ١٢٤٩) ، كان يناصر البحث العلمى ، ويسخر من الذين يتسرعون فيرون فى كل حادثة غير مألوفة عملا من أعمال الله مباشرة . وقد برع جروستستى أسقف لنكلن فى دراسة العلوم الرياضية ، والبصريات ، وفى العلوم التجريبية ، براعة جعلت روجر بيكن يضعه منزلة أرسطو. ولسنا نعرف أن طائفتى الرهبان الدمنيك أو الفرنسيس قد أثارتا اعتراضاً على الدراسات العلمية التى قام بها ألبرتس مجنس أو روجر بيكن ؛ أما القديس برنار وبعض المتحمسين المتزمتين فكانوا يعارضون فى طلب العلم ؛ ولكن الكنيسة لم تأخذ برأيهم هذا[٢٣] ؛ وكانت ترى أن من الصعب عليها أن ترضى بتشريح جثث الآدميين لأن من عقائدها الأساسية أن الإنسان خلق فى صورة الله ، وأن الجسم والروح كليهما سيقومان من القبر . وكان المسلمون واليهود يرون معها هذا الرأى بعينه[٢٤] ، كما كانت تقول به الكثرة الغالبة من الناس[٢٥] . وقال جيـــدو الڤجيڤانوى Guido of Vigevano فى عام ١٣٤٥ عن التشريح إنه « محرم بأمر الكنيسة »[٢٦] . ولكننا لانجد ما يحرمه فى أوامرها قبل مرسوم البابا بنيفاس الثامن الصادر فى عام ١٣٠٠ ، وحتى هذا المرسوم لا ينهى إلا عن تقطيع الجثث وغلى لحمها ، لكى ترسل عظام الصليبيين المعقمة إلى أهليهم ليدفنوها فى بلادهم[٢٧] . وربما فسر هذا تفسيراً خاطئاً ففهم على أنه نهى عن تشريح الجثث بعد الموت ، ولكننا نجد مندينو Mondino الجراح الإيطالى يغلى الجثث ويشرحها حوالى عام ١٣٢٠ ؛ ومبلغ علمنا أن الكنيسة لم تحتج على عمله هذا[٢٨] .

وبعد فإذا ما بدت ثمار العلوم الطبيعية فى الغرب أثناء العصور الوسطى ضئيلة قليلة الغناء فى هذا الموجز الذى يراه القارئ فيما بعد ؛ فإن علينا أن نذكر أنها نشأت فى بيئة من الخرافة والسحر معادية للعلم ، وفى عصر تتجه فيه خير العقول إلى القانون ، واللاهوت ، وفى وقت يعتقد فيه الناس كلهم تقريباً أن المسائل

الكبرى الخاصة بنشأة الكون ، وبنى الإنسان ، والطبيعة ، ومصائر الناس قد حلت كلها . ولكن العقول فى أوربا الغربية استفاقت من رقدتها بعد عام ١١٥٠ لما أن ازداد الفراغ ، ونمت الثروة ، وأخذت التراجم تنصب صبا فى أوربا من بلاد الإسلام ، واشتدت رغبة الناس فى المعرفة حتى صارت ولعاً وتحمساً ، وشرعوا يبحثون شئون العالم القديم العظيم الذى كان يبحثه اليونان دون أن تقام فى وجههم العقبات والعراقيل ، ولم يمض إلا قرن من الزمان حتى كانت أوربا اللاتينية كلها تموج بالعلم والفلسفة .

الفصل الثانى

الثورة الرياضية

إن أول الأسماء العظيمة فى علوم ذلك الوقت اسم لبونارد وفيبوناتشى البيزى Leonardo Fibonacci of Pisa .

لقد انتقلت علوم الرياضة السومرية ، التى لا نعرف نشأتها ، إلى بابل عن طريق بلاد اليونان ؛ وانتقل علم الهندسة المصرية ، الذى لا يزال ماثلا أمام أعيننا فى الأهرام ، إلى أيونيا وبلاد اليونان ، ولعل انتقاله كان عن طريق كريت ورودس ؛ وانتقلت علوم الرياضة اليونانية إلى أيونيا فى أثر الإسكندر ، وكان لها شأن أيما شأن فى ذلك التطور الذى بلغ ذروته فى براهماجپتا Brahmagupta (٥٨٨ ؟ — ٦٦٠ ؟) وترجمت مؤلفات الهنود الرياضية إلى اللغة العربية حوالى ٧٧٥ ؛ وبعد قليل من ذلك الوقت ترجمت مؤلفات اليونان فى هذا العلم إلى تلك اللغة نفسها ؛ ودخلت الأرقام الهندية إلى بلاد المسلمين الشرقية حوالى عام ٨٣٠ ؛ ثم نقلها جربرت Gerbert إلى فرنسا حوالى عام ١٠٠٠ ، ودخلت علوم الرياضة اليونانية ، والعربية ، والعبرية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر بلاد أوربا الغربية عن طريق أسپانيا وصقلية ، وحملها التجار الإيطاليون إلى البندقية وجنوى ، وأملفى ، وپيزا ؛ وشأن النقل فى الحضارة كشأن التناسل فى الحياة .

وظهر طريق آخر من طرق نقل العلوم فى القرن السادس قبل الميلاد وذلك فى صورة « المِعَدّ » الصينى ؛ وهو أداة للعد بنقل عصى صغيرة من الخيزران من مجموعة إلى أخرى ؛ ولا تزال أداة منقولة عن هذه تستعمل فى بلاد الصين إلى يومنا هذا ؛ ويقول هيرودوت إن المصريين فى القرن الخامس

قبل الميلاد كانوا يستخدمون الحصا فى العد ، وينقلونه بأيديهم من اليمين إلى اليسار » . أما اليونان فقد ساروا فيه من اليسار إلى اليمين ؛ واستخدم الرومان أشكالا كثيرة من المعد ، كانت أدوات العد فى أحدها تنزلق فى حزوز ، وكانت هذه الأدوات تصنع من الحجارة ، أو المعادن ، أو الزجاج الملون ؛ وكانوا يسمونها الكلكولى Calculi أى الحجارة الصغيرة[٢٩] . ويذكر يوثيثيوس حوالى عام ٥٢٥ المعد ويقول عنه إنه يمكن الإنسان من العد بالعشرات ؛ ولكن هذه البداية لاستخدام الطريقة العشرية أهملت ؛ وكان تجار إيطاليا يستخدمون المعد ، ولكنهم يكتبون نتائجه بالأرقام الرومانية السمجة .

وولد ليو ناردو فيبوناتشى فى پيزا عام ١١٨٠ ؛ وكان والده مديراً لإحدى المؤسسات التجارية فى بلاد الجزائر ، وانضم إليه ليوناردو فى تلك البلاد وهو فى سن المراهقة ، وتعلم على أستاذ مسلم ، ثم طاف ببلاد مصر ، والشام ، واليونان ؛ وصقلية ، ودرس أساليب التجار ، وتعلم طريقة العد ، على حد قوله « بوسيلة عجيبة استخدم فيها أرقام الهنود التسعة »[٣٠] ؛ وهنا كانت الأرقام الهندية فى بداية تاريخها الأوربى تسمى بحق أرقاما هندية ؛ وكانت هذه الأرقام التى هى من أسباب الملل والإجهاد لأطفال هذه الأيام موضع الدهشة والبهجة فى ذلك الوقت . ولعل ليوناردو قد تعلم اللغة اليونانية كما تعلم العربية ؛ وسواء كان ذلك أو لم يكن فإننا نجده ملماً كل الإلمام برياضيات أرخميدس ، وإقليدس ، وهيرون ؛ وديوفانتس Diophantus . ونشر فى عام ١٢٠٢ كتاب العمد Liber abaci وهو أول عرض أوربى كامل للأرقام الهندية ، وللصفر ، والطريقة العشرية ، يقوم به مؤلف مسيحى ، وكان بداية بعث العلوم الرياضية فى بلاد أوربا المسيحية . وأدخل هذا الكتاب نفسه الجبر العربى فى أوربا الغربية ، وأحدث انقلابا بسيطا فى ذلك العلم لأنه كان يستخدم من حين إلى حين حروفاً بدل الأرقام لتعميم

المعادلات الجبرية واختزالها . واستخدم ليوناردو فى كتابه الهندسة التطبيقية Practica geometrica (١٢٢٠) — لأول مرة فى العالم المسيحى على ما تعلم — الجبر فى حل النظريات الهندسية . ووضع فى كتابين آخرين نشرا فى عام ١٢٢٥ طرقاً مبتكرة لحل معادلات الدرجة الأولى والثانية . وفى تلك السنة نفسها رأس فردريك الثانى فى مدينة پيزا مهرجاناً رياضيا ، وضع فيه يوحنا بالرمو John Palermo مسائل مختلفة حلها فيبوناتشى .

وظل تجار أوربا يقاومون طريقة العد الجديدة على الرغم من ظهور هذا المؤلف الذى يُعدّ بداية عهد جديد فى تاريخ العلوم الرياضية ، فقد كان كثيرون منهم يفضلون تحريك المعَدّ بأصابعهم وكتابة النتائج بالأرقام الرومانية ؛ وفى عام ١٢٩٩ استطاع « العدّادون » فى فلورنس أن يقنعوا ولاة الأمور بسن قانون يحرم استعمال « الأرقام الخيالية الجديدة[٣٢] » ، ولم يدرك إلا عدد قليل من الرياضيين الرموز الجديدة وهى الصفر وترتيب الخانات العشرية فى آحاد وعشرات ومئات ... قد مهدت السبيل إلى تطور يكاد يكون مستحيلا إذا ظلوا يتخذون الحروف القديمة اليونانية والرومانية والبهودية أرقاما . ولم تحلّ الأرقام الهندية آخر الأمر محل الأرقام الرومانية إلا فى القرن السادس عشر ، ولا تزال طريقة العد الاثنا عشرية مستخدمة فى ميادين كثيرة فى إنجلترا وأمريكا لأن رقم ١٠ لم ينتصر بعد فى كفاحه الطويل الذى دام ألف عام انتصاراً حاسماً على رقم ١٢ .

وكان للعلوم الرياضية فى العصور الوسطى أغراض ثلاثة : خدمة التجار ، وإمساك حسابات رجال الأعمال ، ورسم خرائط للسماء . وكانت علوم الرياضة ، والطبيعة ، والفلك وثيقة الصلة بعضها ببعض ، ومن كتب فى واحد منها أفاد العلمين الآخرين ؛ ومن أمثلة هؤلاء العلماء جون الهوليوودى John of Holywood (فى يوركشير) المعروف فى العالم اللاتينى باسم چوانس ده سكروبسكو

Johannes de Saerobosco الذى درس فى أكسفورد، وكان أستاذاً فى جامعة باريس ، وألف رسالة عن الكرة الأرضية وعرضاً للرياضة الجديدة سماه الرياضة للعموميين (حوالى ١٢٣٠) . وكان لفظ اللوغاريتمات وهو اسم ممسوخ من اسم الخوارزمى اصطلاحاً لاتينياً يطلق على الطريقة الرياضية التى تستخدم الأرقام الهندية . ويعزو چون إلى العرب فضل اختراع هذه الطريقة ؛ وهو من المسئولين عن الخطأ الذى أدى إلى تسمية الأرقام الهندية بـ « الأرقام العربية »(٣٢) . وجاء رجل من تشستر يدعى ربرت حوالى ١١٤٩ بحساب المثلثات العربى إلى إنجلترا ، وأدخل لفظ الجيب فى العلم الجديد ، وذلك فى أثناء تعديل أزياج البتانى والزرقانى .

وكان من أسباب دوام الاهتمام بالفلك حاجات الملاحة والرغبة الشديدة فى التنجيم . وكانت المكانة العظيمة التى يمثلها كتاب المجسطى الذى ترجم مراراً كثيرة من أسباب جمود علم الفلك فى أوربا المسيحية واستمساكه بنظرية بطليموس نظرية الدوائر المختلفة المراكز والدوائر التى فى محيطات دوائر أخرى ، والقائلة إن الأرض هى محور الكون . وأحست بعض العقول اليقظة كعقول ألبرتس مجنس ، وتومس أكوناس ؛ وروچر بيكن ، بقوة النقد الذى وجهه العالم الفلكى البطروجى ، لهذه النظرية فى القرن الثانى عشر ، ولكن لم توجد نظرية سماوية مقبولة تحل محل نظرية بطليموس الميكانيكية قبل أيام كوپرنيق . فقد كان علماء الفلك المسيحيون فى القرن الثالث يتصورون أن الكواكب تدور حول الأرض ، وأن النجوم الثوابت مرصوصة فى قبة من البلور يسيرها العقل الإلهى ، وتدور فى حشد منظم حول الأرض وأن مركز الكون كله وأرقى ما فيه هو ذلك الإنسان الذى يصفه علماء الدين بأنه دودة حقيرة ملوثة بالذنوب ، ومحكوم على كثرة أفراده بأن يصلوا نار الجحيم . وقد بحث علماء الفلك الساميون فى القرن

الثالث عشر رأى هرقليدس القائل بأن منشأ حركة السماء اليومية الظاهرة دوران الأرض حول محورها ، ولكن العالم المسيحي نسى هذا الرأى نسياناً تاماً ؛ ونقل مكروبيوس Macrobius ومارتيانس كابلا Martianus Capella رأياً آخر لهرقليدس وهو أن عطارد والزهرة يدوران حول الشمس ، واستمسك جون اسكوتس إرچينس بهذا الرأى فى القرن الثامن ثم طبقه على المريخ والمشترى ، وبهذا أوشكت النظرية القائلة بأن الشمس مركز العالم أن تنتصر(٣٤) . ولكن هذه الفروض الباهرة كانت من بين الأفكار التى اندثرت فى العصور المظلمة ، وظلت الأرض مركز الكون حتى عام ١٥٤٢ ، وإن كان علماء الفلك جميعهم قد اتفقوا على أن الأرض كرية(٣٥) .

وجاءت الأزياج والآلات الفلكية إلى الغرب من بلاد الإسلام ، أو عملت على غرار الأزياج والآلات الإسلامية . ورصد ولشر اللوريني Walcher of Lorraine الذى أصبح فيما بعد رئيساً لدير ملفرن Malvrn خسوف القمر فى إيطاليا بأسطرلاب ، وكان هذا أول الأرصاد الفلكية المعروفة فى العالم المسيحى الغربى ؛ ولكن وليم الكلودى William of St Cloud اضطر بعد مائتى عام من ذلك الوقت (حوالى ١٢٩٦) أن يذكر الفلكيين ، بأقواله وبما ضربه لهم من مثل بنفسه ، أن خير ما يتقدم به العلم هو الملاحظة لا القراءة أو الفلسفة . وخير ما قدم لعلم الفلك المسيحى من عون فى ذلك الوقت هو الأزياج الأنفسية لحركات الأجرام السماوية التى أعدها عالمان يهوديان أسپانيان لألفنسو الحكيم .

وتجمعت المعلومات الفلكية فكشفت عن أخطاء تقويم يوليوس قيصر (٤٦ ق . م) الذى وضع على أساس عمل سوسيجنيس والذى جعل السنة أطول من حقيقتها بإحدى عشرة دقيقة وأربع عشرة ثانية . وكان ازدياد تنقل الفلكيين ، والتجار ، والمؤرخين بين أقطار العالم مما كشف عن الصعاب التى يلاقونها

من جراء اختلاف التقاويم . وكان البيرونى قد قام بدراسات نافعة للطرق المختلفة المتبعة فى تقسيم الزمن وتاريخ الحوادث (حوالى عام ١٠٠٠) ، وواصل هارون ابن مشلام وابراهام بارخية هذه الدراسة فى عامى ١١٠٦ و ١١٢٢ ، وأعقبها ربرت جروستستى وروجر بيكن فعرضا فى القرن الثالث عشر مقترحات عملية ، أسفرت (حوالى عام ١٢٣٢) عن وضع جروستستى لطائفة من الأزياج لتعيين أوقات الحوادث الفلكية والتواريخ المتغيرة كتاريخ عيد القيامة ، وكانت هذه الأزياج أول خطوة لوضع التقويم الجريجورى (١٥٨٢) الذى يرشدنا ويضللنا فى هذه الأيام .

الفصل الثالث

الأرض وحياتها

وكان أكثر العلوم تقدماً فى العصور الوسطى هو علم طبقات الأرض ؛ وسبب ذلك أن الأرض كانت فى رأيهم موطن المسيح ، وغلاف الجحيم ، وأن الأحوال الجوية من تقدير الله . وكان المسلمون واليهود والمسيحيون على السواء يغشون علم التعدين بغلاف من الخرافات . ويؤلفون « الجوهريات » فيما للحجارة من قوى سحرية . من ذلك أن ماربو Marbood أسقف رنن Rennes (١٠٣٥ — ١١٢٣) كتب بالشعر اللاتينى كتاباً شعبيا سماه كتاب الجواهر وصف فيه القوى الخفية الكامنة فى ستين نوعا من الحجارة الكريمة ، فقال هذا الأسقف المتبحر فى العلوم إنه إذا أمسك الإنسان بيده حجراً من الياقوت الأزرق أثناء الصلاة كان ذلك أدعى لاستجابة الله إلى دعائه[٣٦] ، وإن حجر عين الهر إذا لف فى ورقة من نبات الفار يُخفى من يمسك به عن أعين الناس ، وإن حجر الجمشت يجعله بمأمن من السكر ؛ وإن الماس يجعل من يمسك به صنديداً لا يُهزَم[٣٧] .

وكان التشوف والتحمس اللذان أحاطا معادن الأرض بهذه الخرافات هما اللذين بعثا الناس فى العصور الوسطى على التجوال فى أوربا وبلاد الشرق ، فأغنوا بذلك علم الجغرافيا على مهل . من هؤلاء جرالدس كمبرنسس Giraldus Cambrensis — جرالد الويلزى Girald of Wales (١١٤٧ — ١٢٢٣) — الذى طاف ببلاد كثيرة وكتب فى موضوعات كثيرة ، وأتقن لغات كثيرة ليس

منها لغته هو ، والذى صحب الأمير چون إلى أيرلندة ، وعاش فيها عامين ، ثم طاف بأنحاء ويلز يدعو الناس إلى الحرب الصليبية الثالثة ، وألف أربعة كتب ممتعة عن هذين البلدين . وقد أثقل صحف كتبه بتحيزه وبكثرة ما أورده فيها من أخبار المعجزات ، ولكنه خففها بوصفه الواضح الحى للأشخاص والأماكن ، وحديثه الظريف عن الأشياء التافهة التى توضح خصائص الأشخاص والعصور . وكان واثقاً من أن كتبه سوف تخلد ذكره(٣٨) ، ولكنه استخف بما يمتاز به الزمان من قدرة على النسيان .

وكان هو واحداً من آلاف الرجال الذين حجوا إلى بلاد الشرق فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . وقد رسمت خرائط البلاد والطرق ليهتدى بها هؤلاء الحجاج ، وأفاد من ذلك علم الجغرافية . وحدث بين عامى ١١٠٧ و ١١١١ أن أبحر سجورد چوراسلفار Siguard Jorasalfare ملك النرويج فى حملة صليبية ومعه ستون سفينة ، ومرَّ بإنجلترا ، وأسپانيا ، وصقلية ، ووصل إلى فلسطين . وحارب المسلمين كلما لاحت له فرصة لحربهم ، ثم قاد حملته بعد أن هلك منها من هلك إلى القسطنطينية ، ومنها اجتاز بلاد البلقان ، وألمانيا ، والدنمرقة بطريق البر حتى وصل إلى النرويج . وتكون قصة هذه الرحلة المفعمة بالأخطار جزءاً من قصص اسكنديناوة الشعبية العظيمة . وفى عام ١٢٧٠ أعاد لنزارتى مالوسلو Lanzarotte Malocello كشف جزائر الخالدات التى كانت معروفة للأقدمين . وتقول إحدى الروايات المتواترة التى لم تحقق بعد إن أوجولينو Ugo'ino وڤادينو ڤيڤلدو Vadino Vivaldo أبحرا من جنوى حوالى عام ١٢٩٠ على ظهر سفينتين كى يصلا إلى الهند بالطواف حول قارة أفريقية . ويبدو أن جميع من كانوا على ظهر السفينتين من الملاحين لقوا حتفهم . وانتقلت قصة هذه الرحلة بطريقة ساخرة فى صورة رسالة من « برسترجون Prester John » أمنطورى (حوالى عام ١١٥٠) يتحـــدث فيها عن أملاكه فى أواسط آسية ،

وعن جغرافية بلاد الشرق حديثاً مليئاً بالأوهام والخرافات . وقلّما كان المسيحيون يعتقدون بوجود أرضين وسكان فى الأجزاء المقابلة لبلادهم وعلى سطح الأرض ، وذلك على الرغم من قيام الحروب الصليبية وما استتبعته من الأسفار . وكان القديس أوغسطين يرى أن « من غير المعقول أن يسكن الناس فى الجهة المقابلة لنا على سطح الأرض ، حيث تغرب الشمس حين تشرق عندنا ، وحيث يمشى الناس وأقدامهم فى اتجاه أقدامنا »[٣٩] ؛ وكان راهب أيرلندى يدعى القديس فرجيل St. Fergil قد أشار حوالى عام ٧٤٨ إلى إمكان وجود « عالم آخر وخلق آخرين تحت الأرض »[٤٠] . وقبل ألبرتس مجنس وروجر بيكن هذه الفكرة ، ولكنها بقيت خيالا جريئاً يطوف بعقول قلة من الناس حتى طاف مجلان Magellan بالكرة الأرضية .

وجاءت إلى أوربا أهم المعلومات عن الشرق الأقصى من راهبين فرنسيسيين . ذلك أن إنوسنت الرابع أرسل فى إبريل من عام ١٢٤٥ إلى بلاط المغول فى قرقورم چيوڤنى ده بيانو كربينى Giouanni de Piano Carpèni ، وهو رجل بدين فى الخامسة والستين من عمره . ولاقى چيوڤنى ورفيقه من الصعاب شد ما يلقاه الإنسان فى حياته ، فقد ظلا مسافرين خمسة عشر شهراً ، يبدلان الجياد فى كل يوم . وإذا كانت قوانين الرهبان الفرنسيس تحرم عليهما أكل اللحم ، فقد كادا يموتان جوعاً بين البدو الذين لا يكادون يجدون غيره طعاما يمدونهما به وأخفق چيوڤنى فى مهمته ، ولكنه كتب بعد عودته وصفاً لرحلته يعد الآن من أمهات كتب الأدب الجغرافى — فهو يمتاز بوضوحه ، وإنكاره لشخصه ، واهتمامه بالحقائق دون غيرها لا يذكر فيها كلمة شكوى أو كلمة عن نفسه . وأرسل لويس التاسع فى عام ١٢٥٣ وليم الربركويزى William of Rubruquis (وليم ڤان رويزبروك William van Ruysbrook) إلى الخان الأعظم ليعيد على مسامعه رغبة البابا فى عقد حلف معه . وعاد وليم يحمل معه دعوة جافة

بخضوع فرنسا إلى سلطة المغول[٤١] ، وكان كل ما أثمرته البعثة هو وصف وليم الشيق الممتاز لعادات المغول وتاريخهم . وعرف الأوربيون وقتئذ لأول مرة منابع نهرى الدن Don والفلجا ، وموضع بحيرة بلكاش ، وشعائر الدلاى لاما Dalai Lama ، وأماكن النساطرة المسيحيين فى الصين ، والفرق بين المغول والتتار .

وأشهر الرحالة الأوربيين إلى بلاد الشرق الأقصى فى العصور الوسطى وأعظمهم نجاحا هم أسرة پولو تجار البندقية . فقد كان لأندريا بولو Andrea Polo أبناء ثلاثة هم ماركو الأكبر ، ونقولو ، ومافيو Maffeo ؛ وكانوا كلهم يعملون فى تجارة بيزنطية ويعيشون فى القسطنطينية . وانتقل نقولو ومافيو حوالى عام ١٢٦٠ إلى بخارى حيث بقيا ثلاث سنين ، ومنها سافرا فى أعقاب بعثة سياسية تتارية إلى بلاط كوبلاى خان فى شانجتو . وأعادهم كوبلاى فى بعثة إلى البابا كلمنت الرابع ؛ واستغرقت عودتهما إلى البندقية ثلاث سنين ، فلما جاءا إليها كان كلمنت قد مات . وفى عام ١٢٧١ خرجا من البندقية عائدين إلى الصين ، وأخذ نقولو معه ابنه ماركو الأصغر وكان وقتئذ فى السابعة عشرة من عمره . وقضيا ثلاث سنين ونصف سنة فى رحلتهما مخترقين قارة آسية عن طريق بلخ ، وهضبة الپامير وكاشغر ، ولوب نور وصحراء غربى ، وتنجوت . فلما وصلا إلى تنجوت كان ماركو فى الحادية والعشرين من عمره ؛ وأعجب به كوبلاى ، وخصه بمناصب رئيسية ، ووكل إليه القيام ببعثات هامة ؛ وأبقى أفراد أسرة بولو الثلاثة فى الصين سبعة عشر عاما . ثم أبحروا عائدين إلى بلادهم ، وقضوا فى عودتهم ثلاث سنين عن طريق جاوة ، وسومطرة ، وسنغافورة ، وسرنديب ، والخليج الفارسى ؛ ثم ساروا برا إلى طربزون ، ومنها ركبوا السفينة إلى القسطنطينية والبندقية . فلما استقروا فيها لم يصدق أحد ، كما يعرف العالم كله ، القصص التى أخذ يقصها « ماركو ذو الملايين » عن « بلاد الشرق

الفخمة » . وأسر ماركو وهو يحارب فى جيش البندقية فى عام ١٢٩٨ ، وألقى فى سجن جنوى عاماً كاملا ، وفيه أملى قصته على زميل له فى السجن ؛ وأثبتت بحوث الرواد بعدئذ صحة عناصر قصته كلها تقريباً ، وكانت تعد من قبل غير معقولة . فقد وصف ماركو للمرة الأولى رحلة تخترق جميع بلاد آسية ، وفى كتابه أول لمحة كتبها أوربى عن بلاد اليابان ، وأول وصف صادق لبكين ، وجاوة ، وسومطرة ، وسيام ، وبورما ، وسرنديب ، وساحل زنجبار ، ومدغشقر ، وبلاد الحبشة ؛ وكشف كتابه للغرب الستار عن بلاد الشرق ، وساعد على فتح طرق جديدة للتجارة ، ولانتقال الأفكار ، وكان له نصيب فى تشكيل علم الجغرافية الذى أوحى إلى كولمبس بالسفر إلى الشرق بالاتجاه نحو الغرب .

ولما اتسع ميدان التجارة والأسفار أخذ علم رسم الخرائط يعود متثاقلا إلى المستوى الذى بلغه فى أيام أغسطس ، وشرع الملاحون يُعِدُّون كتباً يُهتَدَى بها إلى الثغور التجارية ، تحتوى خرائط ، ورسوماً ، وإرشادات للسائحين ، وأوصافاً ، لمختلف المرافئ ؛ وبلغت هذه الكتب على أيدى أهل بيزا وجنوى درجة كبرى من الدقة . وكانت خرائط العالم التى رسمها الرهبان فى ذلك الوقت إذا قورنت بغيرها تسير على نمط محدد لا تحيد له ويصعب فهمها .

وكانت رسائل أرسطو فى علم الحيوان ، وكتاب ثيوفراسطس الحجة فى النباتات ، حافزاً قويا لعقل الغرب المستيقظ من رقاده ، فأخذ يكافح للخروج من القصص ومن أقوال بلنى إلى علم الحيوان والنبات . وكان كل إنسان تقريبا فى ذلك الوقت يعتقد أن الكائنات العضوية الصغيرة ، بما فيها من الديدان والذباب ، تتولد من تلقاء نفسها من التراب ، والطين ، والمواد المتعفنة ، الفاسدة . وكادت الكتب التى تصف الحيوانات — الحقيقى منها والخرافى — وترسم صوراً لها تحل محل كتب علم الحيوان ؛ وإذ كان الرهبان هم الذين يؤلفون معظم هذه الكتب فقد كان علم الحيوان يوصف فى عبارات مستمدة من كتب اللاهوت

بأنه مستوع للرموز المقوية للإيمان ، وابتدعت منه مخلوقات إضافية ابتكرها الخيال للهو والتسلية ، أو خلقتها الحاجة إلى التقى والصلاح . انظر مثلاً إلى قول الأسقف هونوريوس الأوتونى Honorius of Autun من رجال القرن الثانى عشر الميلادى :

وحيد القرن ، وحش شديد الافتراس له قرن واحد ، فإذا أريد القبض عليه وُضعت فى الحقل فتاة عذراء ، إذا رآها اقترب منها واستراح فى حجرها ، وبذلك يُقبض عليه . ويمثل هذا الحيوان المسيح ، ويمثل قرنه قوة المسيح التى لا تُغلب ... فقد انتزعه الصيادون وهو فى رحم عذراء — أى أن الذين أحبوا المسيح وجدوه فى صورة إنسان(٤٢) .

وكان أقرب كتب الأحياء إلى العلم الصحيح فى العصور الوسطى هو كتاب فردريك الثانى المسمى « فن القنص بالطير » وهو رسالة فى هذا الفن فى ٥٨٩ صفحة ، تعتمد فيما تعتمد عليه على المخطوطات اليونانية والإسلامية ، ولكن الجزء الأكبر منها مستمد من الملاحظة والتجربة . وكان فردريك نفسه من أشهر الصائدين بالبزاة ؛ ويحتوى وصفه لأجسام الطير على عدد كبير من المعلومات الأصيلة التى لم يسبقه إليها غيره من المؤلفين ، ويدل تحليله لطيران الطيور وهجرتها ، وتجاربه فى تفريخ البيض بالطرق الصناعية ، وأعمال الصقورة ، على روح علمية لا نظير لها فى أيامه(٤٣) . وقد وضح فردريك نصوص كتابه بمئات من صور الطير ، ربما كانت من صنع يده — وهى رسوم « صادقة حتى فى أدق التفاصيل »(٤٤) . ولم تكن مجموعات الحيوانات التى جمعها ، مجرد هوى شاذ يقصد به التظاهر كما كان يظن بعض معاصريه ، بل كانت معملاً يدرس فيه دراسة مباشرة مسلك الحيوانات . وبذلك كان هذا الإسكندر أرسطو نفسه :

الفصل الرابع

المادة والطاقة

كان حظ الطبيعة والكيمياء أحسن من حظ علمى طبقات الأرض والأحياء ، ذلك أن قوانينهما وعجائبهما كانت فى جميع الأوقات أكثر ائتلافاً مع عقيدة الإيمان بالله من « أنياب العالم الطبيعى ومخالبه الحمراء » . ويدلنا على قوة هذين العلمين فى بداية تلك الفترة ما كان يبذله ألقر المالمزبرى Oliver of Malmesbury من جهود لصنع طائرة ؛ فقد أتم فى عام ١٠٦٥ تركيب جهازه ، وعلا به فى الجو من مكان مرتفع ولقى حتفه(٤٥) .

ولمع فى علم الميكانيكا فى القرن الثالث عشر اسم عظيم ، اسم راهب دمنيكى سبق إسحق نيوتن إلى عدد من المبادئ الأساسية فى هذا العلم . ذلك هو جردانس نموراريوس Jordanus Nemorarius الذى أصبح فى عام ١٢٢٢ القائد الثانى للرهبان الدمنيكيين . وإن قيامه بأعماله الباهرة فى ميدان العلوم الطبيعية ليشهد بما كان عليه الإخوان الواعظون من حماسة عقلية وغيرة علمية . وقد ألف هذا الراهب ثلاث رسائل فى العلوم الرياضية نافس فيها رسائل فيبوناتشى فى شجاعته ونفوذه العظيم . استخدم فيها الأرقام الهندية ، وارتقى بعلم الجبر بحرصه الدائم على استعمال الحروف بدل الأرقام فى قوانينه العامة وقد درس فى كتابه Elements super demonstrationem ponderis فعل الجاذبية فى مسير جسم متحرك ، ووضع القانون المعروف الآن باسم بديهية جردانس . وهو أن القوة التى تستطيع رفع جسم معين إلى ارتفاع معين تستطيع رفع جسم أثقل من الأول ك المرات إلى ارتفاع يقل عن الارتفاع الأول ك المرات . وحلل فى رسالة أخرى De ratione ponderis (لعل مؤلفها أحد

تلاميذه) فكرة قوة السكون ــ حاصل قوة ما في طول ذراع رافعتها ، واستبق الأفكار الحديثة في ميكانيكية الروافع والمستويات المائلة[٤٦] . وحاولت رسالة أخرى تعزى إلى « مدرسة چوردانس » أن تعبر عن نظرية الإزاحة الافتراضية ــ وهي المبدأ الذي قدره فيما بعد ليوناردرو دافنشي ، وديكارت ، وچون برنولي John Bernoulli وصاغه آخر الأمر ج . ولارد چبز J. Willard Gibbs في القرن التاسع عشر .

وأثر تقدم الميكانيكا في الاختراع تأثيراً بسيطاً . من ذلك أن ربرت الإنجليزي Robert of England عرض في عام ١٢٧١ نظرية رقاص الساعة عرضاً واضحاً ؛ وفي عام ١٢٨٨ نسمع عن ساعة كبيرة في برج وستمنستر ، كما نسمع حوالي ذلك الوقت نفسه عن ساعات ضخمة مثلها في كنائس أخرى بالقارة الأوربية ، ولكننا لا نجد دليلا قاطعاً على أن هذه الساعات كانت آلات ميكانيكية كاملة ؛ أما أول ذكر صريح لساعة تدار بالبكرات ، والأثقال ، والتروس فيرجع تاريخه إلى عام ١٣٢٠[٤٧] .

وكان أكثر فروع علم الطبيعة نجاحاً في ذلك الوقت هو علم البصريات ، ذلك أن رسالة ابن الهيثم العربية التي ترجمت إلى اللغة اللاتينية قد فتحت آفاقاً جديدة في بلاد الغرب ؛ وقد تحدث ربرت جروستستي عن هذا العلم في مقال له عن قوس قزح نشر حوالي عام ١٢٣٠ عن فرع ثالث من فن المنظور . . . لم يطرق بابه ولم يعرفه بيننا أحد حتى هذا الوقت ...(وهو) يعرفنا كيف نجعل الأشياء الشديدة البعد عنا تبدو شديدة القرب منا ، وكيف نجعل الأشياء الكبيرة القريبة تبدو جد صغيرة ، وكيف نجعل الأشياء البعيدة تظهر بالحجم الذي نريده .

ويضيف إلى ذلك قوله إنه يمكن الوصول إلى هذه الأشياء العجيبة بتكسير « شعاع الضوء » وذلك بجعله يمر خلال عدة أجسام شفافة ، أو عدسات مختلفة التركيب . وافتتن تلميذه روچر بيكن بهذه الآراء أيما افتتان . وبحث چون بكهام ، وهو في أغلب الظن تلميذ من تلاميذ جروستستي في جامعة أكسفورد ،

فى انعكاس الضوء ، وانكساره ، وتركيب العين فى رسالة سماها فن **المنظور العام** Perspetiva Communis ؛ وإذا ذكرنا أن بكهام أصبح بعدئذ كبير أساقفة كنتربرى ، أدركنا مرة أخرى ما كان بين العلوم وكنيسة العصور الوسطى من وفاق .

وكان من نتائج هذه الدراسات فى الضوء اختراع النظارات . فقد كانت المجاهر — النظارات المكبرة — معروفة لليونان الأقدمين[٤٨] ، ولكن يبدو أن صنع هذه النظارات بحيث تجمع الأشعة جمعاً صحيحاً وهى قريبة من العين كان لا بد أن ينتظر البحوث التى تجرى فى هندسة انكسار الضوء . وتوجد وثيقة صينية ترجع إلى تاريخ غير موثوق بصحته بين عامى ١٢٦٠ و ١٣٠٠ تتحدث عن نظارات تسميها آى تاى Ai tai يستطيع بها كبار السن أن يقرأوا الكتابة الدقيقة . وجاء فى موعظة لراهب دومنيكى ألقاها فى بيسائزا عام ١٣٠٥ : « منذ عشرين عاماً قبل هذا الوقت كشف فن صنع النظارات (أكشيالى occhiali) التى تمكن الإنسان من أن يحسن القراءة . . . ولقد تحدثت بنفسى إلى الرجل الذى كان أول من كشفها وصنعها » . وورد فى خطاب مؤرخ عام ١٢٨٩ : « لقد تقدمت بى السنون حتى أصبحت عاجزاً عن القراءة والكتابة بغير النظارات المسماه (أكيالى okiial) التى اخترعت من وقت قريب » . ويعزى فضل اختراعها عادة إلى سلڤينو دا مارتو Salvino da Marto الذى كُتب على شاهد قبره المصنوع فى عام ١٣١٧ « مخترع النظارات » . وفى عام ١٣٠٥ أعلن طبيب من منبلييه أنه أعد غسيلا للعين يجعل الإنسان فى غنى عن النظارات[٤٩] .

وكانت قوة المغنطيس الجذابة معروفة هى الأخرى لليونان ، ويلوح أن الصينيين هم الذين كشفوا فى القرن الأول الميلادى قدرته على تعيين الاتجاه . وتعزو إحدى الروايات الصينية المتواترة إلى المسلمين أول استعمال للإبرة المغنطيسية فى إرشاد السفن حوالى عام ١٠٩٣ . وأكبر الظن أن استعمالها كان واسع

الانتشار بين الملاحين المسلمين والمسيحيين قبل نهاية القرن الثانى عشر ؛ وترجع أقدم إشارة لهذا الاستعمال عند المسيحيين إلى عام ١٢٠٥ ، وعند المسلمين إلى عام ١٢٨٢ [٥٠] ، ولكن لعل الذين عرفوا هذا السر الثمين من زمن طويل لم يتعجلوا فى إذاعته ؛ يضاف إلى هذا أن الملاحين الذين كانوا يفيدون من هذا الاختراع كانوا يُرتاب فى أمرهم فيظن أنهم سحرة ، وبلغ من أمرهم أن بعض الملاحين رفضوا أن يسافروا مع أمير سفينة يحتفظ معه بهذه الآلة الشيطانية [٥١] . ونجد أول وصف معروف لبيت إبرة تتحرك على نقطة ارتكاز فى رسالة فى المغنطيسية كتبها بطرس برجرينس Petrus Peregrinus فى عام ١٢٦٩ . وقد سجل الحاج بطرس هذا كثيراً من التجارب ، ودعا إلى الطريقة التجريبية ، وأوضح فعل المغنطيس فى جذب الحديد ، ومغنطة غيره من الأجسام ، وتعيين اتجاه الشمال ، وحاول كذلك أن يصنع آلة دائمة الحركة تعمل بمغنطيسات تولد بنفسها القوة اللازمة لتحريكها [٥٢] .

وكانت البحوث فى الكيمياء الكاذبة أكبر العوامل فى تقدم علم الكيمياء ؛ فقد أخذت النصوص العربية فى هذا العلم تترجم إلى اللغة اللاتينية من القرن التاسع وما بعده ، وما لبثت البحوث الخاصة بهذا النوع من الكيمياء أن انتشرت فى بلاد الغرب حتى لم تخل منها الأديرة نفسها . فقد نشر الأخ إلياس خليفة القديس فرانسس كتاباً فى الكيميا القديمة طلبه إليه فردريك الثانى ؛ وكتب راهب فرنسيسى آخر يشايع فكرة تحويل المعادن بعضها إلى بعض ؛ وكان أشهر الكتب الطبية كلها فى ذلك العهد كتاب فى العلل يعرض الكيمياء القديمة والتنجيم كما وردا فى كتاب مدسوس على أرسطو . وكان عدد من ملوك أوربا يستخدمون الكيميائيين القدامى ليسدوا ما ينقص من أموال خزائنهم بتحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب [٥٣] . وواصل غيرهم من المتحمسين البحث عن إكسير الحياة وحجر الفلاسفة . ولم تنقطع هذه البحوث

رغم أن الكنيسة حرمتها فى عام ١٣٠٧ ووصفتها بأنها من البحوث الشيطانية ، ولعل بعض المؤلفين فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر أرادوا النجاة من غضب الكنيسة بأن عزوا مؤلفاتهم إلى « جبر » Gebir(*) المسلم .

وأضافت التجارب الطبية على العقاقير معلومات كثيرة إلى علم الكيمياء ، كما أن العمليات الخاصة بالصناعة كادت ترغم على الكشف إرغاما ، وأفاد علم الكيمياء فوائد جمة من أعمال عصر الجعة ، وصنع مواد الصباغة ، والخزف ، والميناء ، والزجاج ، والغراء ، واللاك ، والمداد ، ومواد التجميل . وألف بطرس العمرى Peter of St. Omer حوالى عام ١٢٧٠ **كتاب صنع الألوان** libier de coloribus fasciendis ، فيه ذكر لعدد من المواد الملونة المستخدمة فى التصوير تصف واحدة منها كيفية صنع ألوان زيتية بخلط الألوان الملونة بزيت بذر الكتان(٥٤) . ونشرت حوالى عام ١١٥٠ رسالة تعرف باسم Salernus Magister — ربما كانت من رسائل مدرسة الطب فى سلرنو — ذكر فيها تقطير الكحول ؛ وكان هذا أول ذكر صريح لهذه العملية المنتشرة فى جميع أنحاء العالم فى هذه الأيام . وكانت الأقطار التى تنتج العنب تقطر النبيذ وتسمى ما ينتج من تقطير هذا العصير **ماء الحياة** aqua vitae أو eau de vie أما بلاد الشمال ذات العنب القليل والبرد القارس فكانت تجد تقطير الحبوب أقل نفقة من تقطير العنب ؛ وكان لفظ **يسكبيتا** uisqebeatha الكلتى الذى اختصر فصار **وسكى** whisky يعنى أيضاً « ماء الحياة »(٥٥) . على أن التقطير كان معروفاً عند الكيميائيين المسلمين قبل ذلك الوقت بزمن طويل ، غير أن استكشاف الكحول ثم استكشاف الأحماض المعدنية بعد ذلك فى القرن الثالث عشر وسعا دائرة المعارف الكيميائية وآفاق الصناعة توسيعا كبيراً .

(*) يريد جابر بن حيان الكيميائى الشهير . (المترجم)

ويكاد يضارع تقطير الكحول فيما له من آثار خطيرة استكشاف البارود . ويرتاب العلماء الآن فيما كان يظن قديماً من سبق الصينيين إلى هذا الاختراع . وليس في المخطوطات العربية ذكر صريح له قبل عام ١٣٠٠[٥٦]. وكانت أول إشارة معروفة لهذه المادة المفرقعة هي التي وردت في **كتاب النيران لحرق الأعداء** الذي ألفه ماركس غريقس Marcus Graecus حوالى عام ١٢٧٠ ، فقد وصف مارك اليونانى النار اليونانية والتألق الفصفورى ، ثم وصف طريقة عمل البارود فقال : حوّل إلى مسحوق دقيق — كلا على انفراد — رطلا من الكبريت الحى ، ورطلين من الفحم النباتى المصنوع من شجر الليمون الحامض أو الصفصاف ، وستة أرطال من ملح البارود (نترات البوتاسيوم) ، ثم امزجها كلها[٥٧] . ولم نعثر على ذكر لاستخدام البارود فى الأعمال الحربية قبل القرن الرابع عشر .

الفصل الخامس

إحياء علم الطب

يخلط الفقر على الدوام بين الأساطير والطب لأن الأساطير حرة لا ثمن لها والعلم غال عزيز المنال . والصورة الأساسية لطب العصور الوسطى هى صورة الأم ومخزنها الصغير من وسائل العلاج المنزلية ؛ والنساء العجائز غزيرات العلم بالأعشاب واللاصوق ، والرقى السحرية ؛ وجامعى حشائش التطبيب يطوفون بها على الناس ، والعقاقير المجربة ذات الفائدة الأكيدة ، والحبوب ذات القوة المعجزة ؛ والقابلات المتأهبات على الدوام لفصل الحياة الجديدة عن القديمة فى عملية الولادة المخزية السخيفة ، والدجالين المتأهبين لمداواة الناس أو قتلهم نظير أتفه الأجور ؛ والرهبان بما ورثوه من طب الأديرة ؛ والراهبات يواسين المرضى فى هدوء بما يقدمن لهم من خدمات أو دعوات صالحات ؛ والأطباء المدربين فى أماكن متفرقة يعالجون القادرين ويمارسون طبهم التمائم على أساس علمى إلى حد ما . وانتشرت العقاقير الغريبة المروعة والصيغ السحرية العجيبة ؛ وكما أن بعض الحجارة إذا أمسكت باليد كانت فى رأى بعض الناس تمنع الحمل ، كذلك كانت بعض النسوة وبعض الرجال — حتى فى سلرنو مدينة الطب نفسها — يأكلون روث الحمير لتقوى قدرتهم على الإخصاب .

وظل بعض رجال الدين يمارسون الطب حتى عام ١١٣٩ ، وكل ما كان هناك من علاج فى المستشفيات كان يوجد عادة فى ملاجئ أديرة الرجال والنساء . وكان للرهبان فضل عظيم فى حفظ التراث الطبى من الضياع ؛ وهم الذين مهدوا السبيل لزراعة النباتات الطبية ، وربما كانوا يعرفون ما يفعلون وهم يخلطون الطب بالمعجزات : وحتى الراهبات أنفسهن كن فى بعض الأحيان يحذقن علاج

المرضى . فقد كتبت هلديجاردى Hildegarde المتصوفة رئيسة دير بنجن Bengin كتاباً فى الطب العلاجى — وهو كتاب **العلل والعلاج** (حوالى عام ١١٥٠) — وكتاباً فى المواد الطبية أفسدته فى بعض مواضعه بالرقى السحرية ولكنه ملئ بالمعلومات الطبية . وربما كانت الرغبة فى القيام بالخدمة الطبية المدائمة من البواعث على التجاء الشيوخ من الرجال والعجائز من النساء إلى الأديرة . ولما أن تقدم الطب الذى يمارسه غير رجال الدين . وسرى حب الكسب فى القائمين على العلاج فى الأديرة ، حرمت الكنيسة فى أوقات مختلفة (١١٣٠ ، ١٣٣٩ ، ١٦٦٣) على رجال الدين ممارسة الأعمال الطبية جهرة ، ولم يحل عام ١٢٠٠ حتى كاد هذا الفن القديم كله يصبح فى أيدى غير رجال الدين .

ويرجع أكبر الفضل فى بقاء الطب العلمى فى بلاد الغرب أثناء العصور المظلمة إلى الأطباء اليهود ، الذين نشروا المعلومات الطبية اليونانية — العربية فى بلاد العالم المسيحى . وذلك عن طريق الثقافة البيزنطية التى انتشرت فى جنوبى إيطاليا وترجمة الرسائل الطبية اليونانية والعربية إلى اللغة اللاتينية : وربما كانت مدرسة سلرنو الطبية قائمة فى أحسن المواقع . وكانت أحسن المدارس استعداداً للإفادة من هذه المؤثرات ، فقد كان الأطباء اليونان ، واللاتين ، والمسلمون ، واليهود يعلمون أو يتعلمون فيها ؛ وظلت حتى القرن الثانى عشر أكبر المعاهد الطبية فى أوربا اللاتينية . وكانت النساء يدرسن التمريض والقبالة فى سلرنو[٥٩] وأكبر الظن أن النساء اللاتى يسمين طبيبات سلرنو كن قابلات تدربن فى تلك المدرسة . وكان من أشهر ما أخرجته مدرسة سلرنو الطبية رسالة فى التوليد نشرت فى القرن الثانى عشر بعنوان : **ترتولا وعلاج أمراض النساء** ، وأكثر المؤرخين مجمعون على أن ترتولا Trotula هذه كانت قابلة فى سلرنو[٦٠] ولقد وصلتنا من مدرسة سلرنو عدة رسائل هامة

تشمل فروع الطب كلها تقريباً ، منها رسالة لأرخماثيوس Archimatheus تصف حال الطبيب وهو واقف بجوار سرير المريض : يجب أن يتحلى الطبيب وهو ينظر إلى حال المريض بالرزانة ، حتى لا تقلل من مكانته خاتمة المريض السيئة ، وحتى يضيف شفاؤه عجيبة أخرى إلى ما اشتهر به من العجائب ؛ وعليه ألا يغازل زوجة المريض أو ابنته أو خادمته ؛ وحتى إذا لم تكن ثمة ضرورة لدواء ما وجب عليه أن يصف له مركباً عديم الضرر ، حتى لا يظن المريض أن العلاج لا يساوى أجر الطبيب ، وحتى لا يظن أن الطبيعة هى التى شفت المريض دون معونة الطبيب[٦١] .

وحلت جامعة نابلى محل مدرسة سلرنو بعد عام ١٢٦٨ ، حتى لم نعد نسمع عن هذه المدرسة إلا الشيء القليل . وكان خريجوها قبل ذلك العام قد نشروا طب سلرنو فى طول أوربا وعرضها . وكانت ثمة مدارس للطب صالحة فى القرن الثالث عشر فى بولونيا ، وبدوا ، وفرارا ، وبروچيا وسينا ، ورومة ومنبلييه ، وباريس ، وأكسفورد ؛ وامتزجت فى هذه المدارس التقاليد الطبية الثلاثة الشهيرة — اليونانية ، والعربية ، واليهودية ، وامتصتها امتصاصاً تاماً ، وصيغ التراث الطبى كله صياغة جديدة حتى اصبح هو أساس علم الطب الحديث ، واحتفظ أسلوبا التشخيص القديمان — وهما فحص جدران الصدر بالمسماع وتحليل البول — بشهرتهما وكثرة استعمالها (ولا يزالان يحتفظان بهما إلى يومنا هذا) . وبلغ من انتشارهما أن كانت المبولة رمز مهنة الطب أو دلالتها فى بعض الأماكن[٦٢] . كذلك بقيت أساليب العلاج القديمة بالمسهلات والحجامة ؛ وكان الطبيب فى انجلترا « مركب عَلَق » . وكانت الحمامات الحارة من طرق العلاج المحببة . فكان المرضى يسافرون « ليأخذوا الماء » من العيون المعدنية . وكان الطعام الخاص بالمرضى يوصف وصفاً دقيقاً فى الأمراض كلها تقريباً[٦٣] ، ولكن العقاقير الطبية كانت موفورة ، فقلما كان هناك عنصر من العناصر لا يستخدم فى العلاج — من الأعشاب البحرية (الغنية باليود) التى وصفها روچر السلرنى عام ١١٨٠

لعلاج تضخم الغدة الدرقية إلى الذهب الذى كان ينعاطى « لتسكين آلام الأطراف »[٦٤] — ويظهر أن هذه هى طريقتنا الحديثة لعلاج التهاب المفاصل . ويكاد كل عضو من أعضاء الحيوان يكون له عمل فى أقرباذين العصور الوسطى — قرون الغزال ، دماء التنين ، وصفراء الأفاعى ، ومنىّ الضفادع ؛ وكان براز الحيوان يوصف فى بعض الأوقات[٦٥] . وكان أكثر العقاقير استعمالا هو الترياق theriacum ، وهو مزيج غريب من نحو سبع وخمسين مادة أشهرها لحم الأفاعى السامة . وكانت عقاقير كثيرة تستورد من بلاد الإسلام وظلت محتفظة بأسمائها العربية .

ولما ازداد عدد الأطباء المدربين شرعت الحكومات تنظم صناعة الطب . من ذلك أن روجر الثانى صاحب صقلية قصر مهنة الطب على الذين ترخص لهم الدولة ، وأكبر الظن أنه حذا فى ذلك حذو السوابق الإسلامية القديمة . وحتم فردريك الثانى (١٢٢٤) على من يريد ممارسة هذه المهنة أن يحصل على ترخيص بذلك من مدرسة سالرنو ؛ فإذا أراد إنسان أن يحصل عليها وجب عليه أن يتلقى منهاجاً يدوم ثلاث سنين فى العلوم المنطقية Scientia logicalil — ونظن أن معنى هذا اللفظ العلوم الطبيعية والفلسفة ؛ وكان عليه بعدئذ أن يدرس الطب فى المدرسة مدة خمس سنين ، وينجح فى امتحانين ، ويتمرن عاما تحت إشراف طبيب مجرب[٦٦] .

وكانت كل مدينة ذات شأن تدفع أجور الأطباء لعلاج الفقراء مجاناً[٦٧] . وكان فى بعض المدن أطباء موظفون . من ذلك أنه كان فى أسبانيا المسيحية فى القرن الثالث عشر طبيب تستأجره البلدية للعناية بقسم خاص من الأهلين ، فكان يفحص فى فترات محددة كل شخص فى الإقليم المخصص له ؛ ويسدى النصيحة له حسب ما يكشف عنه الفحص . وكان يعالج الفقراء فى مستشفى عام ، ويجبر

على زيارة كل مريض ثلاث مرات في الشهر ؛ وكان كل هذا يؤدى من غير أجر إلا إذا زار المريض أكثر من ثلاث مرات فى الشهر ، فيصرح له فى هذا الحال أن يطلب أجراً عن الزيارة التالية . وكان الطبيب الذى يؤدى هذه الخدمات يعفى من الضرائب ويتقاضى مرتباً سنويا مقداره عشرون جنيها(٦٨) قيمتها أربعة آلاف دولار فى هذه الأيام(*) .

وإذا كان الأطباء المرخصون قليلى العدد فى أوربا المسيحيه أثناء القرن الثالث عشر ، فقد كانت أجورهم عالية ، وكانت لهم منزلة اجتماعية سامية ؛ فنهم من جمعوا ثروات طائلة ، ومنهم من أصبحوا من هواة جمع التحف الفنية ، ومنهم من كانت لهم شهرة عالمية . فمن هؤلاء الأطباء بطرس هسپانس Petrus Hispanus – بطرس اللشبونى ولكمپستيلى Peter of Lis bon and Compostela – الذى هاجر إلى باريس ثم إلى سينا وكتب أوسع كتب الطب انتشاراً فى العصور الوسطى وهو كتاب *كنز الفقراء* ، وخير بحث فى علم النفس فى تلك العصور وهو كتاب *النفس* De anima ؛ وصار بعدئذ البابا يوحنا الحادى والعشرين فى عام ١٢٧٦ ، ثم قضى نحبه حين سقط عليه سقف فى عام ١٢٧٧ . وكان أشهر طبيب مسيحى فى ذلك الوقت هو آرنلد الڤلانوڤى (حوالى ١٢٣٥ – ١٣١١) . وقد ولد بالقرب من بلنسية وتعلم اللغات العربية ، والعبرية ، واليونانية ؛ ودرس الطب فى نابلى ، وعلمه هو أو الفلسفة الطبيعية فى پاريس ، ومنپلييه ، وبرشلونه ، ورومة ، وألف عدداً كبيراً من الكتب فى الطب ؛ والكيمياء ، والتنجيم ، والسحر ، واللاهوت ، وعصر النبيذ ، وتفسير الأحلام . ولما عين طبيباً لجيمس الثانى ملك أرغونة أنذر الملك مراراً أنه إن لم يحم الفقراء من الأغنياء فإنه سوف يلقى فى الجحيم (٧٠) . وكان جيمس يحبه رغم هذا التحذير

(*) ولم يكن يحق للطبيب حسب قوانين القوط الغربيين فى أسبانيا أن يتقاضى أجراً إذا توفى مريضه(٦٩) .

ويرسله فى كثير من البعثات الدبلوماسية . وهاله ما رآه فى كثير من البلدان من البؤس والاستغلال ، فأضحى من أتباع يواقيم الفلورى Joachim of Flora وأعلن فى رسائل يبعث بها إلى الأمراء والأحبار أن آثام الأقوياء وترف رجال الدين تذيران بخراب العالم . ورمى الرجل بالسحر والإلحاد واتهم بأنه صنع باستخدام الكيمياء سبائك من الذهب لربرت ملك نابلى . وأدانته محكمة الكنيسة ولكن البابا بنيفاس الثامن أطلق سراحه ؛ ونجح فى علاج البابا الشيخ من حصا فى الكلى ، فأهداه البابا قصراً فى أنيانى . ثم أنذر بنيفاس أنه إذا لم تصلح الكنيسة أحوالها ، فسيحل عليها غضب الله سريعاً . وما لبث بنيفاس بعدئذ أن حلت به النوائب التى ذاعت أخبارها فى طول البلاد وعرضها ومات من فرط اليأس . وظلت محكمة التفتيش تطارد آرنلد ولكن الملوك والبابوات كانوا يدافعون عنه لأنه يداوى أسقامهم ، إلى أن مات غريقاً أثناء بعثة من قبل چيمس الثانى لكلمنت الخامس(٧١) .

هذا من حيث الطب ، أما الجراحة فى ذلك الوقت فقد كانت تحارب فى جبهتين إحداهما الحلاقين والثانية ضد المطببين العموميين . فقد كان الحلاقون من زمن بعيد يعطون الحقن ، ويخلعون الأسنان ، ويعالجون الجروح ، ويحجمون . وكان الجراحون الذين تلقوا تدريبا طبيا يحتجون على أداء هذه الخدمات التى تستخدم فيها القوة العضلية ، ولكن القانون ظل يحمى الحلاقين طوال العصور المظلمة كلها ، حتى لقد ظل من واجبات جراحى الجيش فى بروسيا إلى عهد فردريك الأكبر أن يحلقوا ذقون الضباط(٧٢) . وكان من نتائج هذا الخلط فى الواجبات أن ظل الجراحون أقل منزلة من الأطباء فى العلم وفى نظر المجتمع ، فكان ينظر إليهم على أنهم صناع بسطاء يطيعون أوامر الطبيب الذى كان قبل القرن الثالث عشر يستنكف أن يمارس الجراحة بنفسه(٧٣) . وكان مما يثبط همم الجراحين زيادة على هذا خشيتهم من السجن أو الموت إذا أخفقوا فى أعمالهم ؛

ولم يكن يجرؤ على القيام بالجراحات الخطرة إلا أعظمهم شجاعة ؛ وكان معظم الأطباء يطلبون قبل إقدامهم على هذه المجازفة ضمانا كتابيا بأنهم لن يصيبهم مكروه إذا أخفقوا فى عملهم(٧٤) .

ومع هذا فقد تقدمت الجراحة فى ذلك الوقت أسرع من تقدم أى فرع آخر من فروع الطب ؛ ويرجع بعض السبب فى هذا إلى أنها كانت تعنى بأحوال قائمة لا بنظريات ، كما يرجع بعضه إلى ما كان يتاح للجراحين من فرص قيمة فى معالجة جراح الجنود . ونشر روجز السالرنى حوالى ١١٧٠ كتابه العمليات الجراحية وهو أقدم رسالة فى الجراحة معروفة فى بلاد الغرب المسيحية ؛ وظلت هذه الرسالة من المراجع الهامة ثلاثة قرون ، وفى عام ١٢٣٨ أمر فردريك الثانى أن تشرح جثة مرة كل خمس سنوات فى سالرنو(٧٥) ؛ وظل تشريح الجثث يجرى بانتظام فى إيطاليا بعد عام ١٢٧٥(٧٦) ؛ وفى عام ١٢٨٦ فتح طبيب فى كرمونا جثة ليدرس عليها سبب وباء انتشر فى ذلك الوقت ، فكان هذا أول تشريح لجثة بعد الموت لمعرفة سبب الوفاة ؛ وفى عام ١٢٦٦ بدأ تيودريكو برجنيونى Theodorico Brogognomi أسقف سرفيا Cervia كفاحاً طويلا فى الطب الإيطالى ضد الفكرة العربية القائلة إن تكوين الصديد يجب أن يشجع أولا فى علاج الجروح ؛ ويعد بحثه فى التعقيم من أعظم البحوث فى طب العصور الوسطى . وخطا ججليلموساليستى Guglielmo Salicetti — ولیم السالیستوى William of Saliceto (١٢١٠ — ١٢٧٧) — أستاذ الطب فى جامعة بولونيا خطوات كبيرة إلى الأمام فى تحسين الجراحة ، وذلك فى كتاب الجراحة الذى صدر فى عام ١٢٧٥ . وقد قرن فى هذا الكتاب التشخيص الجراحى بمعرفة الطب الباطنى ، وكان يعنى بالاحتفاظ بسجلات للمرضى ، وأظهر كيف يوصل الأعصاب المنفصلة ، ودعا إلى استعمال المشرط بدل الكى الذى

كان واسع الانتشار عند الأطباء المسلمين ، لأن جروح المشرط أضمن من النار شفاء ولا تترك من الأثر فى الجسم مثل ما تتركه النار . وقال وليم فى رسالة عامة إن سبب تضخم الغدة اللمفاوية والقرحة الزهرية هو الاتصال الجنسى بعاهر مصابة بالمرضين ، ووصف داء الاستسقاء وصفاً دقيقاً وقال إنه ينشأ من تحجر الكليتين وضيقهما ، وأسدى نصائح طبية ممتازة " الصحة والتغذية لكل سن فى حياة الإنسان .

ونقل تلميذاه هنرى المندفيلى Henri de Mondeville (١٢٦٠ — ١٣٢٠) وجيدو لانفرانشى Guido Lanfranchi (المتوفى عام ١٣١٥) المعارف الطبية من بولونيا إلى فرنسا . وعمل المندفيلى ما عمله تيودوريكو فحسن طرق التعقيم بأن دعا إلى العودة إلى طريقة إبقراط وهى الاحتفاظ بالجرح نظيفاً بأبسط الوسائل . ولما نفى لانفرانشى من ميلان فى عام ١٢٩٠ انتقل إلى ليون وباريس ، وألف كتاب التشريح الكبير Chirurgia Magna الذى أصبح المرجع المعتمد فى هذا العلم فى جامعة باريس . وقد وضع لانفرانشى مبدأ بفضله أنقذ علم التشريح من الوسائل الهمجية وهو : « ليس فى وسع إنسان أن يكون طبيباً قديراً إذا كان يجهل علم التشريح ، وليس فى مقدور إنسان ما أن يجرى جراحات ناجحة إذا كان يجهل الطب » . وكان لانفرانشى أول من استخدم تشريح الأعصاب لعلاج التتنوس ، وإدخال أمبومية فى المرىء ، وهو أول من أدلى بالوصف الجراحى لارتجاج المخ . وقصارى القول أن الفصل الذى وصف فيه إصابات الرأس من المعالم البارزة فى تاريخ الطب .

وقد ورد ذكر الجرعات المنومة فى كتب أرجن Origen (١٨٥—٢٥٤) وهيلارى أسقف بواتيه Hilary Bishop of Poitiers (حوالى ٣٥٣) . وكانت طريقة التخدير المألوفة فى العالم المسيحى أثناء العصور الوسطى هى طريقة

الاستنشاق مصحوبة فى أغلب الظن بشرب مزيج أساسه المندرغورة(*) ، ويحتوى فى العادة على الأفيون وعصير الشوكران ، والتوت . وقد ورد ذكر هذه « الإسفنجة المنومة » فى القرن التاسع وما بعده[٧٨] . أما التخدير الموضعى فكان يستعان عليه بضمادة غمست فى محلول شبيه بهذا : وكان المريض يوقظ بتشميمه عصير الشمر . ولم تكن أدوات الجراحة وقتئذ قد تقدمت عما كانت عليه عند اليونان الأقدمين ؛ أما فن التوليد فقد انحط عما كان عليه فى عهد سورانس Soranus (عام ١٠٠ م) وبولس الإيجينى Paul of Aegina (حوالى ٢٤٠ م) . وقد ذكرت العملية القيصرية(**) فى الأدب ولكن يبدو أنها لم يكن يلجأ إليها . وكان تقطيع الجنين عند تعسر الولادة لتخليصه من الرحم يلجأ إليه فى كثير من الأحيان لأن القابلة قلما كانت تعرف كيف تغير وضع الجنين . وكانت الولادة تحدث فى كرسى يعد لهذا الغرض خاصة[٧٩] .

وتقدمت المستشفيات وقتئذ عما عرف عنها فى أى عصر من العصور القديمة فقد كان عند اليونان الأقدمين مؤسسات دينية لعلاج المرضى ؛ وأنشأ الرومان مستشفيات لعلاج جنودهم ، ولكن نظم الصدقات المسيحية كانت هى السبب فى تقدم نظام المستشفيات تقدماً كبيراً . وحسبنا أن نذكر عن هذا التقدم أن القديس باسيلى أسس فى مدينة قيصرية من أعمال كبدوكيا داراً سميت **الباسلياس** نسبة إليه ، كان فيها عدة مبان للمرضى ، والممرضات ، والأطباء ، والمصانع ، والمدارس . وافتتح القديس إفرايم Ephraim مستشفى فى الرها عام ٣٧٥ ؛ وأنشئت مستشفيات أخرى فى جميع أنحاء الشرق اليونانى وتخصصت وتنوعت . وكان عند اليونان البيزنطيين مصحات للمرضى ؛ وملاجئ للقطاء ، وأخرى لليتامى ، وملاجئ للفقراء ،

(*) وتسمى البيروح وهى نبات من الفصيلة الباذنجانية معروف فى العالم القديم شبيه بصورة الإنسان (من قاموس الدكتور شرف) . (المترجم)

(**) وهى تخليص الجنين بشق البطن بدون استئصال الرحم . (المترجم)

وغيرها للفقراء أو العاجزين من الحجاج أو للشيوخ الطاعنين فى السن . وقد أسست فابيولا Fabiola فى رومة عام ٤٠٠ أول مستشفى فى البلاد المسيحية اللاتينية . وأنشأت أديرة كثيرة مستشفيات صغيرة ، وقام عدد من الرهبان — رهبان المستشفيات ، ورهبان المعبد ، والأنطونيين ، والألكسيين Alexians ، — والراهبات بالعناية بالمرضى . ونظم إنوسنت الثالث فى رومة عام ١٢٠٤ مستشفى الروح القدس Santo Spiriot ، وقامت بوحى منه مؤسسات من نوعه فى جميع أنحاء أوربا ، فكان فى ألمانيا وحدها فى القرن الثالث عشر أكثر من مائة من « مستشفيات الروح القدس » : وكانت المستشفيات فى فرنسا تعنى بالفقراء ، والطاعنين فى السن ؛ والحجاج ، كما تعنى بالمرضى ؛ وكانت كمؤسسات الأديرة تستضيف هذه الطوائف ؛ وأنشأ لويس التاسع حوالى عام ١٢٦٠ ملجأ فى باريس يدعى الثلاثمائة Les quiuze-vingt ؛ وكان فى بادئ الأمر مأوى للمكفوفين ، ثم أضحى مستشفى للرمد ، وهو الآن من أهم المراكز الطبية فى باريس ؛ وأنشئ أول المستشفيات الإنجليزية المعروفة فى التاريخ (وليس من الضرورى أن يكون أول ما أنشئ منها فى إنجلترا) بكنتربرى عام ١٠٨٤ . وكانت هذه المستشفيات تقوم فى العادة بأداء الخدمات بالمجان لمن يعجزون عن أداء الأجور ، وكانت ممرضاتها (ما عدا مستشفيات أديرة الرجال) من الراهبات . واتخذت الأثواب التى ترتديها « ملائكة الرحمة ورسلها » ، وهى التى تبدو فى نظرنا مرهقة لهن ، فى القرن الثالث عشر ، وأكبر الظن أنها اتخذت هذا الشكل لحمايتهن من الأمراض المعدية ؛ ولهذا السبب عينه جرت عادة قص الشعر وتغطية الرأس (٨٠) .

وتطلب مرضان معينان اتخاذ وسائل خاصة للوقاية ، وهذان المرضان هما « نار القديس أنطونيوس » وهو وباء جلدى — لعله مرض الحمرة — وهو مرض بلغ من خبثه أن تألفت حوالى عام ١٠٩٥ طائفة من الرهبان هى جماعة

الأنطونيين لمعالجة ضحاياه . ويذكر جريجورى التوزى Gregory of Tours (حوالى عام ٥٦٠) مستشفيات الجذام ؛ وتألفت جماعة القديس لازار St. Lazarus من الرهبان للخدمة فى مستشفيات الجذام . وكانت أمراض ثمانية تعد من الأمراض المعدية : وهى الطاعون الدملى ؛ والتدرن الرئوى ، والصرع ، والجرب ، والحمرة ، والبثرة الخبيثة ، والرمد الحبيبى ، والجذام . وكان يحرم على المصاب بأحد هذه الأمراض أن يدخل مدينة إلا معزولا عن غيره ، أو أن يعمل فى بيع الطعام أو الشراب . وكان يفرض على المجذوم أن يحذر الناس من اقترابه بالنفخ فى قرن أو بدق ناقوس . وكان مرضه يبدو عادة فى شكل طفح صديدى على الوجه والجسم . وليس هذا المرض شديد العدوى ، ولكن أكبر الظن أن ولاة الأمور فى العصور الوسطى كانوا يخشون انتشاره بطريق الجماع . وربما كان هذا اللفظ يشمل فيما يشمله ، ما يعرف الآن عند الأطباء بأنه مرض الزهرى ، ولكننا لا نجد إشارة صريحة لهذا الداء قبل القرن الخامس عشر[٨١] . ويبدو أنه لم تتخذ أية وسيلة خاصة لعلاج المصابين بأمراض عقلية قبل القرن الخامس عشر .

وعانت العصور الوسطى من فتك الأوبئة أكثر مما عاناه أى عصر آخر معروف ، وذلك لأن الفقر كان يحول بين أهلها وبين النظافة أو الغذاء الصالح ، ومن أمثلة ذلك « الوباء الأصفر » الذى اجتاح أيرلندة فى عامى ٥٥٠ و٦٦٤ وأهلك كما تقول الأخبار غير الموثوق بصحتها ثلثى الأهلين[٨٢] . واجتاحت أوبئة مثله بلاد ويلز فى القرن السادس ، وإنجلترا فى القرن السابع . وفشا فى فرنسا وألمانيا فى أعوام ٩٩٤ ، ١٠٤٣ ، ١٠٨٩ ، ١١٣٠ وباء يسميه الفرنسون mal des ardents (وباء الاحتراق) وقد وصف بأنه يحرق الأمعاء . وربما كان الصليبيون هم الذين نشروا وباءى الجذام والأسقربوط ، ويبدو أن مرض التلثى البولندى Plica Polonica —

وهو مرض من أمراض الشعر — قد جاء به الغزاة المغول إلى بولندة حين غزوها فى عام ١٢٨٧ ؛ وكان السكان البائسون يعزون هذه الأوبئة للقحط ، والجدب وجيوش الحشرات ، وتأثير النجوم ، وتسميم اليهود لآبار المياه ، أو غضب الإله . وأقرب من هذه الأسباب إلى العقل ازدحام المدن الصغيرة المسورة بالسكان ، وعدم وجود الاحتياطات الصحية أو مراعاة قواعدها ، وما ينشأ عن ذلك من ضعف مقاومة الأهلين للعدوى التى يحملها الجنود والحجاج والطلاب العائدون إلى أوطانهم[٨٣] . وليست لدينا إحصاءات عن عدد الموتى فى العصور الوسطى ولكن أكبر الظن أن الذين كانوا يصلون إلى سن النضوج لم يزيدوا على نصف المواليد ، وكانت خصوبة النساء تعمل جاهدة للتكفير عن غباء الرّجال وبسالة الجنود .

وتحسنت وسائل المحافظة على الصحة العامة فى القرن الثالث عشر . ولكنها لم تبلغ قط فى العصور الوسطى الدرجة الممتازة التى بلغتها أيام الإمبراطورية الرومانية . وكانت معظم المدن ، وأحياء المدن ، تعين موظفين للعناية بشوارعها[٨٤] ، ولكن أعمال هؤلاء الموظفين كانت بدائية ، وكان من يزورون المدن المسيحية من المسلمين يشكون — كما يشكو من يزورون المدن الإسلامية من المسيحيين فى هذه الأيام — من قذارة « مدن الكفار » ورائحتها الكريهة[٨٥] . فقد كانت الفضلات وأقذار البالوعات تجرى فوق البالوعات فى شوارع كمبردج التى تبلغ الآن درجة كبرى من الجمال والنظافة ، وكانت تنبعث منها « روائح كريهة . . . يمرض منها الكثيرون من المدرسين والطلاب »[٨٦] . وكانت لبعض المدن فى القرن الثالث عشر قنوات مغطاة لنقل ماء الشرب ، وبالوعات ، ومراحيض عامة ؛ وكانت الأمطار هى التى يعتمد عليها فى معظم المدن لاكتساح الأقذار ، وكان تدنيس الآبار ينشر وباء التيفود ؛ وكانت المياه التى تستخدم فى عمل الخبز وعصر الخمر تؤخذ عادة — فى البلاد الواقعة فى

شمال الألب — من المجارى المائية التى تتلقى أقذار المدن[٨٧] . وكانت إيطاليا أكثر رقياً من غيرها من البلدان ، وأكبر السبب فى هذا ما ورثته عن الرومان ، وما سنه فردريك الثانى ، من تشريعات مستنيرة لإزالة الأقذار ، ولكن عدوى الملاريا الناشئة من المستنقعات المحيطة بها جعلت رومة مدينة غير صحية ، فقتلت كثيرين من كبار موظفيها وزائريها ، وأنجت المدينة بين الفينة والفينة من الجيوش المعادية التى استسلمت للحمى وسط انتصاراتها .

الفصل السادس

ألبرتس مجنس ١١٩٣ – ١٢٨٠

تبرز أمامنا فى تلك الفترة من الزمان أسماء ثلاثة رجال، وهبوا أنفسهم للعلم : أدلارد الباثى Adelard of Bath ، وألبرت العظيم ، وروجر بيكن .
فأما أدلارد فقد تلقى العلم فى كثير من الأقطار الإسلامية ثم عاد إلى إنجلترا وكتب (حوالى عام ١١٣٠) حواراً طويلا سماه **الأسئلة الطبيعية** يشمل كثيراً من العلوم . ويبدأ الكتاب على الطريقة الأفلاطونية بوصف اجتماع أدلارد بجماعة من أصدقائه ، ويسألهم عن الحالة فى إنجلترا ، فيجيبونه بأن الملوك يشعلون نيران الحروب ، والقضاة يرتشون ، وكبار رجال الدين يسرفون فى شرب الخمر ، وأن العهود جميعها تنكث ، والأصدقاء كلهم يتحاسدون . ويتقبل أدلارد هذا على أنه هو الحال الطبيعية التى لا تقبل التغير ، ويعرض على أصدقائه أن ينسوها . ويسأل ابنُ أخ لأدلارد عمَّه ماذا تعلم فى بلاد المسلمين ؟ فيجيبه بأنه يفضل علوم المسلمين عن علوم المسيحيين ، فيتحداه أصدقاؤه وتكون أجوبته لهم مختارات طريفة من جميع علوم ذلك العصر . ويندد فيها بما تفرضه التقاليد والسلطات من قيود ثقيلة ويقول : لقد تعلمت عن أساتذتى العرب أن أسترشد بالعقل ، أما أنتم يامن أسرتكم ... السلطات ، فإنكم تسيرون إلى حيث يقودكم المقود والزمام . . . وماذا عسى أن تسمى السلطة غير المقود والزمام ؟ » إن الذين يحسبون الآن من أصحاب السلطان إنما حصلوا على سلطانهم باتباع العقل ، لا السلطات . ثم يقول لابن أخيه : « فإذا شئت إذن أن تسمع منى أكثر مما سمعت فأعط العقل وخذه . . . إذ ليس شيء أكثر ضماناً من العقل . . . وليس شيء أكثر كذباً

من الحواس »[٨٨] . ويدلى أدلارد ببعض الأجوبة الطريفة وإن كان يسرف فى اعتماده على المنطق الاستدلالى . فإذا سئل ما الذى يمسك الأرض فى الفضاء أجاب بأن أسفل الأرض ومركزها شىء واحد ؛ ويسأل إلى أى مدى يسقط الحجر إذا ألقى فى ثقب يخترق مركز الأرض إلى الجانب الآخر منها ؟ فيجيب بأنه لا يصل إلا إلى مركز الأرض . وهو يذكر فى وضوح مبدأ عدم فناء المادة ، ويقول إن مبدأ الاستمرار العالمى يجعل وجود الفراغ مستحيلا . وجملة القول أن أدلارد برهان ساطع على يقظة العقل فى أوربا المسيحية أثناء القرن الثانى عشر . فقد كان شديد التحمس لإمكانيات العلوم ، ويسمى فى زهو وخيلاء عصره أى عصر أدلارد بالعصر الحديث[٨٩] ، وأعلى ما وصل إليه التاريخ كله .

أما ألبرتس مجنس فلم تبلغ روحه العلمية ما بلغته روح أدلارد ، ولكن شغفه بمعرفة حقائق الكون أدى به إلى إنتاج ضخم أكسبه اسم « العظيم » . واتخذت معظم مؤلفاته العلمية ، كما اتخذت معظم مؤلفاته الفلسفية ؛ صورة شروح لرسائل أرسطو المقابلة لها ، ولكنها تحتوى من حين إلى حين نسمات جديدة من الملاحظات المبتكرة ، وتتاح له وسط سحب المقتبسات المنقولة عن المؤلفين اليونان ، والعرب واليهود فرص ينظر فيها إلى الطبيعة بنفسه . وقد زار معامل التجارب ، والمناجم ، ودرس كثيراً من المعادن المتنوعة ، وفحص عن حيوان بلاده الأصلية — ألمانيا — ونباتها ، ولاحظ حلول البحر محل الأرض والأرض محل البحر ، وفسر بذلك وجود الحفريات القديمة فى الصخور . وإذا كانت فلسفته قد طغت على علمه فحالت بينه وبين الدقة العلمية ، فقد ترك نظرياته « القَبْلية » (*) تؤثر فى نظرياته العلمية ، مثال ذلك ادعاؤه أنه رأى شعر الخيل يتحول فى الماء إلى ديدان . ولكنه كان مثل أدلارد يرفض تفسير الظواهر الطبيعية بأنها تحدث

(*) النظريات القبلية هى التى تكون فى عقل الباحث قبل أن يثبتها بالأدلة الاستقرائية .

تبعاً لإرادة الله ، ويقول إن الله يعمل وفق علل طبيعية ، وإن من واجب الإنسان أن يبحث عن الله فى هذه العلل نفسها .

وقد طمست ثقته بأرسطو رأيه فى التجارب العلمية . وإنا لتثير عقولنا فقرة شهيرة فى الكتاب العاشر من مؤلفه De vegetabilis يقول فيها : « إن التجربة وحدها هى التى توصل إلى الحقائق المؤكدة Experimentum solum Certificat » ولكن كلمة تجربة experimentum كان لها وقتئذ معنى أوسع من معناها فى هذه الأيام كما يبدو ذلك من سياق هذه الفقرة : « إن كل ما هو مدون هنا إما ثمرة تجربتنا أو مأخوذ من مؤلفين نعلم أنهم قد كتبوا ما أيدته تجربتهم الشخصية ، لأن التجربة وحدها هى التى توصل إلى الحقائق المؤكدة » . ومع هذا كله فقد كان عمل ألبرتس تقدماً سليما عظيم النفع . ويسخر ألبرتس من المخلوقات الأسطورية أمثال الحيوان الذى نصفه أسد ونصفه نسر ؛ والهولة المفترسة القذرة التى لها جسم امرأة ، وجناحا الطير الجارح ومخالبه وقدماه ، والتى هى رسول انتقام الآلهة ، والخرافات وقصص الحيوانات الخرافية الواردة فى أحد الكتب الواسعة الانتشار فى ذلك الوقت وهو كتاب Physiologus ؛ ويذكر فيما يذكره أن « الفلاسفة يذكرون كثيراً من الأكاذيب » (٩٠) . وكان فى بعض الأحيان — ولا نقول فى أغلب الأحيان — يجرى تجارب ، كما حدث حين أثبت هو ورفاقه أن « زير الحصيدة » (Cicada) ظل يغنى لحظة وجيزة بعد أن قطع رأسه . ولكنه كان يثق بأقوال يلى ثقة الإنسان البرىء بأولياء الله الصالحين ، ويصدق تصديق السذج البلهاء القصص التى يرويها الكذابون من صائدى الوحوش والسمك .

وقد خضع لزمانه حين آمن بالتنجيم ، ويعلم بالغيب وعزا قوى عجيبة للجواهر والأحجار ، وبدعى أنه شاهد بعينيه ياقوتة زرقاء شفت قرحاً . وهو يرى ، كما يرى تومس الواثق من نفسه ، أن السحر من الحقائق المؤكدة ، وأنه من فعل

العفاريت ، ويؤمن بأن الأحلام تنبئ أحياناً بالحوادث المستقبلة ، ويقول : « إن النجوم فى الحقيقة هى التى تحكم العالم » فى الأحوال الجسمية ، وأن اقتران الكواكب يفسر فى أغلب الظن « أحداثاً خطيرة وأعاجيب عظيمة » ؛ وأن المذنبات قد تنذر بالحروب وموت الملوك : « إن فى الإنسان مصدراً مزدوجاً للعمل — الفطرة والإرادة ؛ فأما فطرته فتحكمها النجوم ، وأما الإرادة فحرة ؛ لكن الإرادة إذا لم تقاوم ، اكتسحتها الفطرة » . ويعتقد أن فى وسع المنجمين القادرين أن يتنبئوا إلى حد كبير بما سوف يحدث للإنسان فى حياته ، أو بنتيجة ما سوف يقدم عليه من المشروعات ؛ وذلك بالنظر فى مواقع النجوم . وهو يقبل ببعض التحفظ نظرية الكيميائيين القدامى ، (أو المذهب النووى الحديث) القائل بتحول العناصر بعضها إلى بعض[٩٢] .

وكان أحسن ما عمله فى علم النبات . فقد كان أول عالم فى النبات من أيام ثيوفراسطس (على قدر ما وصل إليه علمنا) يدرس النبات للعلم بالنبات لا لفائدته فى الزراعة أو الطب . وقد صنف النباتات ، ووصف ألوانها ، وروائحها ، وأجزاءها ، وثمارها ، ودرس قوة إحساسها ، ونومها ، وتذكيرها وتأنيثها ، ونموها ، وحاول أن يكتب مقالا فى الفلاحة . وقد دهش همبولدت Humboldt إذ وجد فى كتاب النبات لألبرت : « ملاحظات غاية فى الدقة عن التركيب العضوى للنبات وعن وظائف أعضائه »[٩٣] . وأما كتابه الضخم فى الحيوان فعظمه شرح لأرسطو ، ولكننا نجد فيه أيضاً ملاحظات أصيلة . فهو يحدثنا مثلا بأنه « سافر فى بحر الشمال للقيام ببحوث فيه ، وبأنه نزل فى الجزائر ، وعلى الشواطئ الرملية ليجمع » نماذج للدرس[٩٤] وقد وازن بين الأعضاء المتماثلة فى الحيوان والإنسان[٩٥] .

وإذا ما نظرنا إلى هذه الكتب فى ضوء علمنا الحاضر حكمنا على أن فيها كثيراً من الأغلاط ، ولكننا إذا نظرنا إليها فى ضوء ما كانت عليه عقول الناس فى الزمن الذى ألفت فيه حكمنا بأنها من أعظم ما أثمرته العقول فى العصور

الوسطى . فقد كان الناس فى ذلك الوقت يعترفون بأن ألبرت أعظم المعلمين فى زمانه ، ولقد طال به العمر حتى رأى رجالا من طراز بطرس الأسپانى Peter of Spain ، وڤنسنت البوڤيزى اللذين ماتا قبله ينقلون عنه فى مؤلفاتهم . نعم إنه لم يكن فى مقدوره أن يضارع ابن سينا أو ابن ميمون أو تومس فى دقة الحكم وصدقه أو فى قبضته على ناصية الفلسفة ، ولكنه كان أعظم علماء التاريخ الطبيعى فى زمانه .

الفصل السابع

روجر بيكن – حوالى عام ١٢١٤ - ١٢٩٢

ولد أشهر علماء العصور الوسطى فى سمرست حوالى عام ١٢١٤ ، ونحن على يقين من أنه عاش حتى عام ١٢٩٢ ، وأنه قال عن نفسه فى عام ١٢٦٧ إنه شيخ كبير[٩٦] . ودرس فى أكسفورد على جروستستى وكسب من هذا العالم المحيط بشتى الفنون افتتاناً بالعلم . وكانت الروح الإنجليزية ، روح النفعية والاعتماد على الاختبار ، قد أخذت تتشكل . وسافر بيكن إلى باريس حوالى عام ١٢٤٠ ، ولكنه لم يجد فيها الحافز القوى الذى بعثته فيه أكسفورد ، وأدهشه كثيراً أن لم يجد إلا قلة ضئيلة من أساتذة جامعة باريس تعرف لغة من لغات العلم خلاف اللغة اللاتينية ، وأنهم لايولون العلم إلا قدراً ضئيلا من وقتهم ، وأنهم ينفقون الكثير منه فى الجدل المنطقى والميتافيزيقى وهو الذى كان يبدو لبيكن عديم النفع فى الحياة إلى حد الإجرام . ودرس الطب وشرع يكتب رسالة فى تخفيف متاعب الشيخوخة . وسعى للحصول على ما يلزمه من المعلومات لهذه الرسالة بالسفر إلى إيطاليا ؛ ودرس اللغة اليونانية فى بلاد اليونان الكبرى(*) ، وفيها عرف بعض المؤلفات الطبية الإسلامية ، ثم عاد إلى أكسفورد فى عام ١٢٥١ ، وانضم إلى هيئة التدريس فى تلك الجامعة ؛ وكتب فى عام ١٢٦٧ يقول إنه أنفق فى العشرين السنة السابقة على ذلك العام ألفى جنيه فى شراء « الكتب السرية والآلات » وفى تعليم الشبان اللغات والعلوم الرياضية[٩٧] . واستأجر اليهود ليعلموه هو وطلابه اللغة العبرية وليعاونوه على قراءة العهد القديم بلغته الأصلية .

(*) كان اليونان فى الزمن القديم يطلقون هذا الاسم على جنوب إيطاليا . (المترجم)

وانضم إلى طائفة الرهبان الفرنسيس حوالى عام ١٢٥٥ ، ولكن يبدو أنه لم يصبح فى يوم من الأيام قسا .

وعاقت نفس بيكن ميتافيزيقية المدرسيين ، فألقى بنفسه بحماسة بالغة فى تيار العلوم الرياضية ، والتاريخ الطبيعى ، والفلسفة . وليس من حقنا أن نفكر فيه على أنه مبتكر فذ ، وصوت عالى يدوى فى بيداء الفلسفة المدرسية ؛ لأن الواقع أنه كان فى كل ميدان مديناً لمن سبقوه ؛ وأن ما وهب من القدرة على الابتداع كان هو الذروة المحتومة لتطور طويل المدى. ولقد وضع ألكسندر نكهام ، وبارثلميو الإنجليزى Bartholomew the Englishman ، وربرت جروستستى ، وآدم مارش Adam Marsh فى أكسفورد تقاليد علمية ثابتة ، ورثها بيكن ، وأعلنها إلى العالم ؛ وكان يعترف بفضل أولئك السباقين عليه ويثنى عليهم ثناء لا حد له : وكان يعترف كذلك بما للعلوم والفلسفة الإسلامية من فضل عليه وعلى العالم المسيحى كله ، وبما هو مدين لليونان عن طريق العلماء المسلمين ؛ وأشار إلى أن علماء اليونان والمسلمين « الكفرة » كانوا هم أيضاً ممن تلقوا الوحى والهداية من الله[98] . وكان يجل إسحق إسرائيلى ، وابن جبيرول وغيرهما من المفكرين العبرانيين ، ووجد فى نفسه من الشجاعة ما يمكنه من أن يقول كلمة طيبة عن اليهود الذين كانوا يقيمون فى فلسطين حينما صلب المسيح[99] . ولم يكن يأخذ العلم بنهم عن العلماء وحدهم ، بل كان يأخذه أيضاً عن أى إنسان تستطيع معارفه فى الصناعات اليدوية أو الأعمال الزراعية أن تزيد ما لديه من معلومات . وكتب فى هذا المعنى بتواضع لا عهد لنا به :

لاريب فى أن إنساناً ما لن يستطيع ، قبل أن يرى الله وجهاً لوجه ، أن يعرف شيئاً مؤكداً تأكيداً نهائيا ... لأنه لا يوجد إنسان ملم بجميع أحوال الطبيعة إلماما يمكنه من أن يعرف كل شيء .. عن طبيعة ذبابة واحدة وخواصها .. وإذ كانت الأشياء التى يجهلها الإنسان لا حصر لها ؛ وكانت أعظم وأجمل إذا

قيست إلى ما يعرفه منها ، فإن من يمتدح نفسه بكثرة ما يعرفه ، مخبول قد اختلت موازين عقله . وكلما زاد الناس حكمة ، كانوا أكثر تواضعاً واستعداداً لتلقى العلم من غيرهم ؛ وهؤلاء لا يحتقرون من يأخذون عنه لسذاجته ، ولكنهم يظهرون التواضع للفلاحين ، وللعجائز من النساء وللأطفال ، لأن السذج وغير المتعلمين يعرفون أشياء كثيرة تخفى على الحكماء . . . ولقد عرفت أنا نفسى من أُناس ذوى مكانة وضيعة حقائق أكثر أهمية من التى عرفتها من جلة العلماء الذائعى الصيت . فليحذر كل إنسان إذن أن يفاخر بما أُوتى من حكمة(١٠٠) .

واندفع فى العمل بجهد وسرعة أثرتا فى صحته حتى اعتل جسمه فى عام ١٢٥٦ ، فانسحب من الحياة الجامعية ولم نعد نعرف عنه شيئاً فى العشر السنين التالية . وأكبر الظن أنه ألف فى هذه الفترة بعض كتبه الصغيرة أمثال : **فى العدسات المحرقة وفى قوى الاختراع والطبيعة العجيبة ، وتقدير الحادثات الطبيعية** . ووضع فى هذا الوقت خطه « **الكتاب الرئيسى** » وهو موسوعة من عمل رجل واحد أراد أن تكون فى أربعة مجلدات : (١) النحو والمنطق . (٢) الرياضة ، والهيئة ، والموسيقى . (٣) العلوم الطبيعية — البصريات ، والجغرافية ، والتنجيم ، والكيمياء القديمة ، والزراعة ، والطب ، والعلوم التجريبية . (٤) ما وراء الطبيعة والأخلاق .

وبعد أن كتب أجزاء متفرقة من هذه الموسوعة واتته فرصة خيل إليه أنها فرصة سعيدة ، فحالت بينه وبين إنجاز برنامجه . ذلك أن جاى فولك Guy Foulques كبير أساقفة نربونة ارتقى عرش البابوية فى شهر فبراير من عام ١٢٦٥ وتسمى باسم كلمنت الرابع ، وجاء معه إلى البابوية ببعض الروح الحرة التى نشأت فى جنوبى فرنسا من اختلاط الشعوب والعقائد الدينية . وكتب إلى بيكن فى أشهر يونية يأمره بإرسال « نسخة مبيضة » من مؤلفاته « سراً وعاجلا »

و « دون مبالاة بتحريم أى رئيس دينى ، أو لائحة الطائفة التى تنتمى إليها »[١٠١] .
وشرع بيكن بكل ما فى وسعه من جهد (كما يتبين ذلك من أسلوبه الحماسى)
يعمل ليتم موسوعته ؛ ولكنه خشى أن يتوفى كلمنت أو يفقد اهتمامه بالعمل
قبل تمامه ، فأجله ، وألف فى اثنى عشر شهراً — أو جمع من مخطوطاته —
الرسالة الأولية المعروفة لنا باسم **الكتاب الأكبر** Opus Maius ؛ وظن أن
هذا المؤلف نفسه قد يكون أطول مما يريده البابا الكثير المشاغل فكتب
عناصر منه سماها **الكتاب الأصغر** ؛ وأرسل هذين المخطوطين فى أوائل عام
١٢٦٨ إلى كلمنت ومعها مقال **عن تضاعف الرؤية** . وخشى أن تضيع هذه
فى طريقها إلى البابا فكتب خلاصة أخرى لآرائه هى **الكتاب الرابع** وأرسلها
إلى كلمنت مع رسول خاص ، مصحوبة بعدسة ، وأشار على البابا أن يجرى
بها تجارب بنفسه . وتوفى كلمنت فى شهر نوفمبر من عام ١٢٦٨ . ومبلغ علمنا
أن كلمة واحدة لم ترسل إلى الفيلسوف من البابا نفسه أو ممن جاءوا بعده
اعترافاً منه أو منهم بوصول هذه الكتب .

فالكتاب الأكبر إذن هو عندنا « أكبر مؤلفات » بيكن ، وإن كان
هو لم يرده إلا أن يكون فاتحة لمؤلفاته . وهو كتاب ضخم يضم ثمانمائة صفحة
مقسمة إلى سبع رسائل : (١) فى الجهل والخطأ . (٢) وفى العلاقة بين الفلسفة
وعلوم الدين . (٣) وفى دراسة اللغات الأجنبية . (٤) وفى فائدة العلوم الرياضية .
(٥) وفى فن المنظور والبصريات ، (٦) وفى العلوم التجريبية . (٧) وفى الفلسفة
الأخلاقية . وفى الكتاب قدره الخليق به من السخافات ، وفيه كثير من
الاستطراد ، وأكثر مما يليق من المقتبسات الطويلة من مؤلفات غيره ؛
ولكنه يمتاز بالقوة ، والإخلاص ، والاتجاه إلى القصد مباشرة ، ويقبل عليه

القراء فى هذه الأيام أكثر من إقبالهم على أى مؤلف آخر من مؤلفات العصور الوسطى فى العلوم أو الفلسفة . وإنا ليسهل علينا أن نفهم الاضطراب الحماسى ، والإشادة بالبابوية ، والحرص الشديد على الجهر بالتمسك بالدين القويم ، والنزول بالعلم والفلسفة إلى منزلة الخدم لعلوم الدين ، نقول إنا ليسهل علينا أن نفهم وجود هذا كله فى كتاب يبلغ هذا المبلغ من اتساع المدى وتعدد الموضوعات ، كتب ليكون خلاصة عاجلة ، ويراد به الحصول على تأييد البابا للتربية العلمية والبحث العلمى . ذلك أن روجر بيكن كان يشعر به فرانسس بيكن وهو أن تقدم العلوم فى حاجة إلى معونة رؤساء الدين وكبار رجال الدولة ، وإلى أموالهم لتبتاع بها الكتب ، والآلات والسجلات ، ومعامل الاختبار ، والتجارب ، ولأداء أجور الموظفين .

وكأنما أراد أن يستبق سميه إلى تحطيم « الأصنام » بثلثمائة عام ، فبدأ بذكر أربعة أسباب هى التى توقع الإنسان فى الخطأ وهى : « الاقتداء بالمراجع الراهنة غير الجديرة بأن يقتدى بها ، والعادة التى استقرت من زمن بعيد ، وإحساس الجماهير الجاهلة ، وتغشية الجهل بستار من التظاهر بالحكمة »[١٠٢]. ويحرص على أن يضيف إلى هذا أنه « لا يشير بحال من الأحوال إلى تلك السلطة القوية الموثوق بها التى .. وهبت إلى الكنيسة » . (٥) وهو يأسف لتسرع أهل زمانه واعتقادهم أنه يكفى لأن تكون قضية ما فى رأيهم قد ثبتت بالدليل إذا وجد فى أرسطو ، ويجهر بأنه لو أوتى السلطة الكافية لأحرق جميع كتب هذا الفيلسوف ، لأنها فى رأيه منبع الأخطاء ومصدر الجهل[١٠٣] ، ثم تراه بعد هذا لا تخلو صفحتان من كتابه دون عبارة مقتبسة من أرسطو .

ويكتب فى أول الجزء الثانى يقول : « وبعد أن أقصيت أسباب الخطأ الأربعة وألقيت بها فى الدرك الأسفل أحب أن أبين حكمة واحدة لا أكثر هى الحكمة الكاملة ، وهى الحكمة التى يحتويها الكتاب المقدس » . وفى رأيه أنه

إذا كان فلاسفه اليونان قد ألهموا نوعاً من الإلهام الثانوى ، فسبب ذلك أنهم اطلعوا على كتب الأنبياء والبطارقة(١٠٤). ويبدو أن بيكن يؤمن بقصص الكتاب المقدس إيماناً ساذجاً ، ويعجب لم لا يسمح الله للناس أن يعيشوا ستمائة عام(١٠٥). ويؤمن كذلك بقرب نزول المسيح وبنهاية العالم . وهو يدفع عن العلم لأنه يكشف عن الخالق فى خلقه ، ولأنه يمكن المسيحيين من أن يهدوا الكفار الذين لايتأثرون بالكتاب المقدس . وهكذا « يتأثر العقل البشرى فيؤمن بحقيقة مولد المسيح من العذراء ، لأن بعض الحيوانات تحمل وهى عذراء وتلد صغاراً ، ومن أمثلة ذلك الصقورة والقردة ، كما يقول أمبروز فى كتابه **الأيام الستة**(*) . هذا إلى أن الخيل فى كثير من البلدان تحمل بفعل الرياح وحدها حين تشتهى الذكر كما يقول پلنى(١٠٦) ، وتلك كلها أمثلة يؤسف لها اعتمد فيها على أصحاب « السلطة » العلمية لا أكثر .

ويبذل بيكن فى الجزء الثالث من كتابه غاية جهده ليعلم البابا اللغة العبرية لأن دراسة اللغات فى رأيه لازمة للدين ، والفلسفة ، والعلوم ، وذلك لأن الترجمة أيا كانت لا تنقل معنى الكتب المقدسة أو أقوال الفلاسفة الكفرة نقلا دقيقاً . ويتحدث بيكن فى **الكتاب الأصغر** حديثاً علميا مدهشاً عن التراجم المختلفة للكتاب المقدس ويثبت علمه الواسع بالنصوص العبرية واليونانية . ويقترح أن يعين البابا لجنة من العلماء المتبحرين فى اللغات العبرية واليونانية ، واللاتينية لمراجعة الترجمة اللاتينية القديمة لهذا الكتاب ، وأن تكون هذه الترجمة المراجعة — **لا أعظم** بطرس لمبارد هى التى تدرس مع علوم الدين ويحث على إنشاء كراسى أساتذة لتدريس اللغات العبرية واليونانية والعربية ، والكلدانية ؛ ويعارض فى استخدام القوة لتحويل غير المسيحيين إلى الدين المسيحى ، ويتساءل

(*) يريد الأيام الستة التى خلق الله فيها العالم . (المترجم)

كيف تستطيع الكنيسة أن تتصل بالمسيحيين اليونان ، والأرمن ، والسوريين ، والكلدان إلا عن طريق لغاتهم . وكان بيكن يعمل بجد فى هذا الميدان ويعظ الناس ، وكان أول العلماء فى العالم المسيحى الغربى يتم وضع كتاب نحو يونانى ليستخدمه الذين يعرفون اللاتينية ، وأول مسيحى يؤلف فى نحو اللغة العبرية . وكان يقول إن فى مقدوره أن يكتب باللغتين اليونانية والعبرية ، ويبدو أنه درس أيضاً اللغة العربية(١٠٧) .

وحين يصل بيكن إلى موضوع الرياضيات تصبح كتبه مسرحاً للتحمس البليغ والنظريات الغامضة . ويقول عن الرياضيات : « واعتقادى أن العلوم الرياضية لازمة وأنها تلى فى ذلك اللغات » . ويكشف عن خضوعه لتأثير الدين حين يقول إن العلوم الرياضية « يجب أن تساعد على معرفة مكان الجنة والنار » ، وتزيد من علمنا بجغرافية الكتاب المقدس والتواريخ الدينية ، وتمكن الكنيسة من إصلاح التقويم(١٠٨) . ويقول : ولنلاحظ كيف تساعدنا « القضية الأولى فى الهندسة » — وهى إنشاء مثلث متساوى الأضلاع على خط معلوم — على « أن ندرك أننا إذا سلمنا بشخص الله الأب ، تبدى أمامنا الثالوث ذو الأشخاص المتساوين »(١٠٩) ثم ينتقل من هذا المركز السامى الذى يضع فيه الرياضة فيستبق استباقا مدهشاً علم الطبيعة الرياضية الحديث بإصراره على أن العلم لا يبلغ حد الكمال فى الخصائص العلمية إلا إذا صاغ نتائجه كلها فى صورة رياضية ، وإن كان لا بد له أن يجعل التجارب هى الطريقة التى يستخدمها فى الوصول إلى تلك الغاية . وعنده أن جميع الظواهر غير الروحية أثر من آثار المادة والقوة ، وأن جميع القوى تعمل فى تناسق وانتظام ، ولهذا فإنها يمكن التعبير عنها بخطوط وأشكال « ومن الواجب تحقيق الأشياء بالبراهين المبينة بخطوط وأشكال » ؛ وليست جميع العلوم الطبيعية فى آخر الأمر إلا علوما رياضية(١١٠)

ولكن إن كانت الرياضة هى النتيجة ، فإن التجربة يجب أن تكون وسيلة العلم وطريقة اختيار نتائجه . ولقد أحدث بيكن ثورة علمية أداتها الرياضيات والتجارب ، على حين أن الفلاسفة المدرسيين من أبلار إلى تومس أكوناس قد وضعوا كل ثقتهم فى المنطق ، وكادوا يضمون أرسطو إلى الثالوث المقدس ، لأنهم فى واقع الأمر جعلوه روحا قدسا . فهو يقول إن أدق النتائج التى يؤدى إليها المنطق تتركنا غير واثقين من صدقها حتى تؤيدها الخبرة ، فالحرق وحده هو الذى يقنعنا بحق أن النار تحرق ؛ « ومن يُرد أن يبتهج ابتهاجاً لاريب فيه بالحقائق الكامنة وراء الظواهر الطبيعية فليهب نفسه للتجارب العلمية »[١١١] . ويبدو أنه فى بعض الأوقات يرى أن التجربة experimentum ليست وسيلة من وسائل البحث ، بل هى الطريقة النهائية من طرق البرهان بوضع الأفكار — التى وصل إليها الإنسان بالخبرة والاستدلال — موضع الاختيار . وذلك بأن تصنع على أساسها أشياء ذات فائدة عملية[١١٢] . وهو يدرك ويعلن فى وضوح . أكثر من فرانسس بيكن أن التجربة فى العلوم الطبيعية هى البرهان الذى لا برهان غيره . ولم يكن يدعى أن هذه الفكرة جديدة أتى بها من عنده ، بل يعتقد أن أرسطو ، وجالينوس ، وبطليموس ، والعلماء المسلمين ، وأدلارد ، وبطرس الأسپانيولى ، وربرت جروستستى ، وألبرتس مجنس وغيرهم قد قاموا بالتجارب العلمية أو امتدحوها ، وكل ما فعله روجر بيكن أن جعل الضمنى صريحاً ؛ وأن ثبت راية العلم فى الأرض المنتزعة من بيداء الجهل .

ولم يفد روجر بيكن العلوم نفسها ، كما لم يفدها فرانسس بيكن ، إلا فى القليل الذى لا يغنى ، إذا استثنينا من ذلك علم البصريات وإصلاح التقويم . ذلك أن هذين الرجلين لم يكونا عالمين بل كانا من فلاسفة العلم . وقد واصل روجر عمل جروستستى وأمثاله فاستنتج أن التقويم اليوليوسى بالغ فى طول السنة الشمسية فزادها يوماً فى كل ١٢٥ سنة — وهو أدق تقدير وصل إليه العالم فى ذلك

الوقت — وأن التقويم كان فى عام ١٢٦٧ متقدماً عن الشمس بعشرة أيام ؛ ولهذا اقترح إسقاط يوم من التقويم اليوليومى فى كل ١٢٥ سنة . ولا تكاد الصفحات المائة التى خصها بعلم الجغرافية فى الجزء الرابع من **الكتاب الكبير** تقل براعة عن هذه الفكرة البارعة . فقد تحدث روجر بحماسة بالغة مع وليم ربرسكوى William of Rubresquis عن عودة زملائه الرهبان الفرنسيس من الشرق ، وعرف الشىء الكثير عنه ، وانطبع فى ذهنه قول وليم إن ثمة ملايين لا حصر لها من الناس لم يسمعوا شيئاً قط عن الدين المسيحى . وأعلن بالاستناد إلى أقوال وردت فى أرسطو وسنكا أن « البحر الذى يفصل طرف أسپانيا الغربى عن شرق الهند يمكن اجتيازه فى بضعة أيام قليلة جداً إذا كانت الريح مواتية »[113] . وقد اقتبس كولمبس الفقرة التى نقلت عنه فى **مصور العالم** (١٤٨٠) لكردنال پيير دايي Pierre d, Ailly فى خطاب كتبه إلى فرديناند وإزبلا فى عام ١٤٨٠ وقال إنها مما أوحى إليه بالرحلة التى قام بها فى عام ١٤٩٢[114] .

وكأنما كان بيكن فى العمل الذى قام به فى علم الطبيعية يرى بعين الخيال المخترعات الحديثة ، وإن كان يغشاها من حين إلى حين الآراء السائدة فى عصره . وإلى القارئ ترجمة حرفية لفقرات مشهورة يقفز فيها من القرن الثالث عشر إلى القرن العشرين :

يختص جزء من خمسة أجزاء من كل علم بصنع آلات عظيمة النفع إلى أقصى حد كالآلات التى تستخدم فى الطيران ، أو بالانتقال فى مركبات لا تجرها دواب ، ولكنها تجرى مع هذا بسرعة لا تعادلها قط سرعة أخرى ؛ أو فى عبور البحار من غير مجاديف وبسرعة أكبر مما يظن أنها مستطاعة على أيدى الآدميين . ذلك أن هذه الأشياء قد حدثت فى أيامنا هذه . وليس من حق أى إنسان أن يسخر أو يدهش منها . وهذا الجزء من العلم يرينا كيف نصنع آلات يستطاع

بها رفع أثقال لا يصدقها العقل أو إنزالها بغير مشقة ولا جهد ....[١١٥]. ألا إن من المستطاع صنع آلات طائرة . . . إذا جلس الرجل فى وسط الواحدة منها أمكنه أن يديو دولاباً عجيب الابتكار تستطيع به أجنحة صناعية أن تضرب الهواء كما يضربه جناحا الطائر. » . ويمكن أيضاً صنع آلات يمشى بها الإنسان فى البحر أو النهر وفى قاعهما نفسه ، من غير خطر عليه[١١٦] .

وفى **الكتاب الأكبر** فقرة فسرت بأنها تشير إلى البارود :

لقد كشفت فنون جديدة لمقاومة أعداء الدولة يستطاع بها إهلاك كل من يجرؤ على مقاومتها وإن لم يستخدم فى ذلك سيف أو غيره من الأسلحة التى تحتاج إلى الاتصال البدنى . . . . ذلك أن دوياً مروعاً يصدر من قوة الملح المعروف بنيترات البوتاس إذا اشتعل فيه جسم ضئيل الحجم ، وهو قطعة صغيرة من الرق . . . وهذا الدوى المروع يفوق هزيم الرعد وينبعث منه بريق أشد من البرق الذى يصحب الرعد .

وفى فقرة لعلها مدسوسة على **الكتاب الثالث** يضيف بيكن إلى القول السابق قوله إن بعض اللعب « المفرقعة » تستعمل فى ذلك الوقت وتحتوى على خليط من نيترات البوتاس (بنسبة ٢ر٤١٪) والفحم النباتى (بنسبة ٤ر٢٩٪) والكبريت (بنسبة ٤ر٢٩٪)[١١٧] ، ويشير إلى أن قوة هذا المسحوق المفرقعة يمكن مضاعفتها بوضعه فى داخل مادة صلبة . وهو لا يدعى بأنه اخترع البارود ، وكل ما فى الأمر أنه كان من أوائل من درسوه كيميائياً وتنبأوا بإمكانياته .

وخير ما كتبه بيكن على الإطلاق هو الجزء الخامس من **الكتاب الأكبر** « فى علم المنظور ». وفى الرسالة المكملة له **فى تضاعف الرؤية** . وقد تفرعت هذه المقالة البارعة فى البصريات من كتاب جروستستى عن قوس قزح ، ومن تلخيص وتلو Witelo لكتاب ابن الهيثم ، ومن دراسات علم البصريات التى تنقلت من

ابن سينا ، إلى الكندى ، إلى بطليموس ، وبلغت غايتها فى إقليدس (٣٠٠ ق.م) الذى برع فى تطبيق الهندسة النظرية على حركات الضوء . وكان من البحوث التى قام بها بيكن : هل الضوء هو انبعاث جزيئات من الجسم المرئى ؟ أو هل هو تحرك الوسط الكائن بين هذا الجسم والعين ؟ ويعتقد بيكن أن كل جسم مادى يشع قوة فى جميع الاتجاهات ، وأن هذه الإشعاعات قد تنفذ فى الأجسام الصلبة :

ليس ثمة جسم يبلغ من الكثافة حداً يمنع الأشعة منعاً باتاً من أن تمر فيه ذلك أن المادة التى تتركب منها الأجسام واحدة فيها جميعاً ، ولهذا فليس ثمة جسم لا تحدث الأفعال التى تصحب مرور شعاع ما تغيرا فيه ... إن أشعة الحرارة والصوت تخترق جدران إناء من الذهب أو الشبه ، ويقول بوئيثيوس إن عين الوشق(*) تخترق الجدران السميكة(١١٨) .

ولسنا واثقين من هذه القوة المعزوة إلى الوشق ، ولكننا إذا استثنينا هذا القول حق علينا أن نعجب بهذا الخيال الجرىء لذلك الفيلسوف ، وهو « الخيال المتماسك فى كل أجزائه » . وحاول بيكن وهو يقوم بالتجارب على العدسات والمرايا أن يصوغ قوانين انكسار الضوء ، وانعكاسه ؛ وفعل الأشعة الضوئية فى تكبير الأجسام وتصغيرها . ومثل لنفسه قدرة العدسة المحدبة على تركيز كثير من أشعة الشمس فى نقطة واحدة ، ثم تشتيت هذه الأشعة خلف هذه النقطة لتكون منها صورة مكبرة فكتب يقول :

فى مقدورنا أن نشكل الأجسام الشفافة (العدسات) ونرتبها بالنسبة إلى قوة بصرنا والأجسام المرئية ترتيباً يجعل الأشعة تنكسر وتنحنى فى أى اتجاه نريده ، فنرى من أية زاوية نشاء الجسم قريباً منا أو بعيداً عنا . وعلى هذا فإن فى وسعنا أن نقرأ أصغر الحروف من بعد لا يصدقه الإنسان ، وأن نعد حبات

(*) Lynx وهو حيوان من فصيلة الهر مرتفع الجسم عند مؤخره ، ذو شعر طويل ، وذيل قصير ، تنتهى أذناه بخصيلتين من الشعر ويقال إنه حاد البصر . (المترجم)

التراب او الرمل ... وعلى هذا فإن جيشاً صغيراً يمكن أن يبدو للناظر كبيراً ... وقريباً منه كل القرب ... وفى وسعنا أيضاً أن نجعل الشمس ، والقمر ، والنجوم تبدو كأنها قد نزلت إلينا ، ... وما إلى هذا من الظواهر الكثيرة المماثلة مما لا يتقبله عقل الشخص الذى يجهل الحقائق ...[١١٩] ويمكن إلى هذا تصوير السماء بكل ما لها من طول وعرض بصورة مجسمة تتحرك حركتها اليومية ، وقيمة هذا عند الرجل العاقل تعادل مملكة بأسرها ... وثمة عجائب أخرى غير هذه يخطئها الحصر ويمكن عرضها على العين[١٢٠] .

تلك فقرات ذات روعة وجلال ، ويكاد كل عنصر من عناصر النظرية التى نبسطها يوجد قبل بيكن وخاصة فى كتب ابن الهيثم ؛ ولكنه هو الذى جمع مادتها كلها فى صورة عملية ثورية استطاعت وقت أن حل أوانها أن تبدل العالم . وهذه الفقرات هى التى أرشدت ليونارد دجس Leonard Diggis (المتوفى حوالى ١٥٧١) إلى وضع النظرية التى اخترع المرقب على أساسها[١٢١]

ولكن ما الذى يحدث إذا زاد تقدم العلوم الطبيعية من قدرة الإنسان دون أن يسمو بأغراضه ؟ لعل أكثر نظرات بيكن نفاذاً إلى الصميم هى سبقه إلى تصور مشكلة لم تتضح للعالم إلا فى أيامنا هذه ، فها هو ذا فى الكتاب الأكبر يعبر عن اعتقاده الراسخ أن العلم وحده لا ينجى الإنسان :

كل هذه العلوم السالفة الذكر نظرية . ولسنا ننكر أن لكل علم وجهة عملية ؛ ... ولكن الفلسفة الأخلاقية وحدها هى التى نستطيع أن نقول عنها ... إنها عملية فى جوهرها ... لأنها تبحث فى سلوك الإنسان ، فى الفضيلة والرذيلة : فى السعادة والشقاء ... والعلوم الأخرى كلها لا قيمة لها إلا من حيث أنها تعين على العمل الصالح ؛ وعلى هذا الاعتبار تصبح العلوم « العملية » ، كالتجارب والكيمياء ، وغيرهما علوماً نظرية إذا قورنت بالعمليات التى تعنى بها العلوم الأخلاقية أو السياسية . وعلم الأخلاق هذا هو سيد كل فرع من فروع الفلسفة[١٢٢] .

ويصور بيكن حكمه الأخير فى صالح الدين لا فى صالح الفلسفة ، فبالأخلاق وحدها يؤيدها الدين يستطيع الإنسان أن ينجى نفسه . ولكن أى دين يقصد ؟ إنه يحدثنا عن ندوة الأديان — البوذية ، والإسلام ، والمسيحية — وهى النـــدوة التى عقـــدت ، على ما يقول وليم الربرسكوى فى قرقورم Karakorum بناء على دعوة منجوخان وتحت رياسته[١٢٣]. ويفاضل بيكن بين الأديان الثلاثة ، ويصدر حكمه فى صالح الدين المسيحى ، ولكنه لا يصدر هذا الحكم له بوصفه ديناً يتعبد به الناس فى العالم وكفى . وهو يشعر بأن البابوية ، مهما وجه إليها جروستستى من نقد لاذع ، هى الرابطة الروحية لأوربا ، وبدونها تمزقها فوضى العقائد والحروب ، وكان يأمل أن يدعم الكنيسة بالعلوم ، واللغات ، والفلسفة ليمكنها من أن تحكم العالم حكما روحياً خيراً من حكمها الحاضر[١٢٤] . وختم كتابه كما بدأ بالجهر الصادر عن عقيدة قوية بولائه للكنيسة ، ويمجد فى نهايته القربان المقدس — كأنه يقول إن الإنسان إذا لم يعمل من حين إلى حين للاتصال بأسمى مثله العليا احترق فى لهيب هذا العالم .

ولعل عجز البابوات عن الاستجابة بوسيلة ما إلى المنهج الذى وضعه بيكن وإلى دعواته المتكررة قد أظلم روحه وأمرّ قلمه . وكانت نتيجة هذا أنه نشر فى عام ١٢٧١ **موجزاً للدراسات الفلسفية** غير كامل لم يضف إلا القليل للفلسفة ، ولكنه أضاف الشىء الكثير إلى **الأحقاد الدينية** التى كانت تمزق المدارس تمزيقاً . وفيه قضى قضاء عاجلا على الجدل الآخذ وقتئذ فى الضعف بين الواقعية والصورية فقال : « ليس الكلى إلا تماثل عدة أفراد » و « فى الفرد الواحد من الواقعية أكثر مما فى الكليات كلها مجتمعة »[١٢٥] . وأخذ بنظرية أوغسطين ووصل إلى أن جهود الأشياء كلها لإصلاح شأنها قد أحدثت سلسلة طويلة من التطورات[١٢٦] . كما أخذ بفكرة أرسطو القائلة بوجود العقل الفاعل

أو العقل الكونى الذى « يسرى إلى عقولنا وينيرها » وأقترب اقتراباً شديداً من مبدأ وحدة الوجود الذى ينادى به ابن رشد(١٢٧) .

ولكنه لم يهز مشاعر معاصريه بآرائه الفلسفية بقدر ما هزها بهجومه على منافسيه وعلى مبادئ زمانه الأخلاقية . ذلك أنه فى **موجز الدراسات** الفلسفية كاد يلهب بسوطه جميع نواحى الحياة فى القرن الثالث عشر : اضطراب نظام المحاكم البابوية ، وانحطاط طوائف رهبان الأديرة ، وجهل رجال الدين ، وثقل مواعظهم وخلوها من التشويق ، وفساد أخلاق طلاب العلم ، وما فى الفلسفة من لغو وتلاعب بالألفاظ . وذكر فى رسالة له عن أخطاء الطب « ستة وثلاثين عيباً أساسياً كبيراً » فى النظريات والأعمال الطبية فى عصره ، وكتب فى عام ١٢٧١ فقرة ربما تدعونا إلى التسامح فى عيوب أيامنا هذه :

يُرتكب فى عصرنا هذا من الذنوب أكثر مما يرتكب فى أى عصر قبله . فالكرسى البابوى يمزقه خداع الظالمين وغدرهم ... ولقد فشا الكبرياء بين الناس ؛ وغلت مراجل الطمع فى الصدور ؛ وأنشب الحسد أنيابه فى جميع النفوس ؛ والبلاط البابوى كله يسربله الفجور بالعار ، والنهم هو سيد الجميع ... وإذا كان هذا هو شأن الرأس فماذا عسى أن تفعل سائر الأعضاء ؟ فلننظر إلى كبار رجال الدين كيف يجروذ وراء المال ، ويهملون العناية بالأرواح ، ويرفعون إلى المناصب العليا أبناء إخوتهم وأخواتهم وغيرهم من الأصدقاء وأولى الأرحام ؛ والمحامين الماكرين الذين يفسدون كل شىء بنصائحهم ... ولننظر إلى طوائف الرهبان من رجال الدين ، لست أستثنى أحداً مما أشاهده بينهم ؛ انظروا فى أية هاوية ترد وا ، وهووا من شامخ مجدهم فرادى وجماعات ، وهاهم أولاء الرهبان (الإخوان) الجدد قد فسدوا فساداً مروعاً وحادوا عن تقواهم الأولى . إن رجال الدين على بكرة أبيهم لا هم لهم إلا التكبر ، والفجور ، والبخل ، وحيثما يجتمع طلاب العلم ...

لا تسمع منهم إلا اغتياب غير رجال الدين والتشهير بحروبهم ومنازعاتهم وغيرها من الرذائل . والأمراء ، والأشراف ، والفرسان يظلم بعضهم بعضاً ، ويشقون رعاياهم بحروبهم ومطالبهم التي لا حد لها . . . . والشعب الذي يشقى بأمرائه ، يحقد على هؤلاء الأمراء ، ولا يدين لهم بولاء إلا إذا أرغم على ذلك قوة واقتداراً ؛ وقد أفسده المثل السيئ الذي ضربه له سادته وكبراؤه ، فترى أفراده يظلم بعضهم بعضاً ويخدعه ويغشه ، ونحن نشهد هذا كله بأعيننا في كل مكان ، وهم منهمكون في فسقهم ونهمهم ، وقد بلغوا من الانحطاط حداً يعجز اللسان عن النطق به . أما التجار والصناع فحدث عنهم ولا حرج ، لأن الخداع والغش هما ديدنهم في جميع أقوالهم وأفعالهم . . . لقد كان الفلاسفة الأقدمون ، وإن أعوزتهم الكياسة المنعشة التي تجعل الناس خليقين بالخلود ، يعيشون خيراً منا إلى أبعد حد مستطاع ، سواء في أدبهم أو في احتقارهم هذا العالم وكل ما فيه من بهجة وغنى ، وثروة ، وألقاب التكريم ، كما يتبين الناس جميعاً من مؤلفات أرسطو ، وسنكا ، وتلى Tully ، وابن سينا ، والفارابي ، وأفلاطون ، وسقراط وغيرهم ؛ وبهذا وصلوا إلى أسرار الحكمة ، وكشفوا عن جميع المعارف ؛ أما نحن المسيحيين فلم نكشف شيئاً بما كشفه أولئك الفلاسفة ؛ بل إننا لنعجز عن إدراك حكمتهم . ومنشأ جهلنا هذا هو أن أخلاقنا شر من أخلاقهم . . . . وليس ثمة بين العقلاء من يخالجه أدنى شك في أن الواجب يقضي بتطهير الكنيسة[١٢٨] .

ولم تنطبع في عقله صورة طيبة من الفلاسفة المعاصرين له ، وشاهد ذلك ما كتبه عنهم إلى كلمنت الرابع يقول إن أحداً منهم لا يستطيع في عشر سنين أن يؤلف كتاباً مثل **الكتاب الأكبر** ، فقد كانت مؤلفاتهم في نظر بيكن مجلدات ضخمة من « الكذب الذي لا يستطاع وصفه » والحشو الذي لا ضرورة له[١٢٩] ؛ وكان هيكل تفكيرهم كله يقوم على الكتاب المقدس

ومؤلفات أرسطو ، وذاك قد أسيء فهمه وهذه قد أسيئت ترجمتها[١٣٠] .
وكان يسخر من نقاش تومس الطويل فى عادات الملائكة ، وسلطانهم ، وذكائهم ، وحركاتهم[١٣١] .

وما من شك فى أن هذا الإسراف فى اتهام حياة أوربا وأخلاقها ، وتفكيرها ، فى ذلك القرن المتلألئ الباهر قد جعل بيكن وحده فى ناحية وأوربا كلها فى ناحية أخرى . ولكننا لا نجد دليلا على أن طائفته أو الكنيسة قد اضطهدته أو تدخلت فى حرية فكره أو قوله قبل عام ١٢٧٧ ، أى قبل أن يكتب المرثاة السالفة الذكر بست سنين . ولكن حدث فى تلك السنة أن أخذ يوحنا القرشلى John of Vercelli رئيس الرهبان الدمنيك وجيروم الأسكولى Jerome of Ascoli رئيس الرهبان الفرنسيس يتفاوضان ليخففا من حدة بعض النزاع الذى شجر بين الطائفتين . واتفقا على أن يمتنع الإخوان فى كل طائفة عن نقد الطائفة الأخرى ، وأن «كل أخ يتبين أنه أساء إلى أخ من الطائفة الأخرى بالقول أو بالفعل يجب على مجلس مقاطعته أن يوقع عليه من العقاب ما يرضى أخاه الذى أسيء إليه[١٣٢] . وبعد قليل من ذلك الوقت قام جيروم — على حد قول **أخبار قادة الطائفة الأربعة والعشرين** التى كتبت فى القرن الرابع عشر — «عملا بمشورة كثيرين من الإخوان فعارض واستقبح تعاليم الأخ روجر بيكن مدرس علم اللاهوت المقدس لأنها تحتوى على بدع تثير الشك ، ومن أجل هذا حكم على روجر المذكور بالسجن »[١٣٣] .. ولسنا نعلم عن هذه المسألة شيئاً غير هذا ؛ فهل كانت هذه « البدع » هى الإلحاد ، أو ارتياب من حكموا عليه فى أنه يمارس فنون السحر ، أو أن هذا الأمر يخفى فى طياته قراراً بإسكات هذا الناقد البغيض إلى الدمنيك والفرنسيس على السواء ؟ ولسنا نعرف كذلك ما فرض من التضييق على بيكن فى سجنه أو طول الزمن الذى ظل فيه

سجيناً مضيقاً عليه . وكل ما نعرفه أن بعض المساجين الذين حكم عليهم بالسجن فى عام ١٢٧٧ ، قد أطلق سراحهم فى عام ١٢٩٢ ، وربما كان بيكن ممن أطلق سراحهم فى ذلك الوقت أو قبله . لأنه نشر فى عام ١٢٩٢ **موجزاً فى الدراسات اللاهوتية** ، ثم لا نجد بعد ذلك إلا كلمة فى سجل قديم : « دفن الدكتور روجر بيكن الجليل القدر فى كنيسة جريسى فريرز Grecy Friars (كنيسة الرهبان الفرنسيس) بأكسفورد فى عام ١٢٩٢ »[١٣٤] .

ولم يكن لبيكن فى عصره إلا أثر قليل . فكل ما يذكره به ذلك العصر أنه رجل يأتى بكثير من الأعاجيب ، وأنه ساحر ومشعوذ . وقد صور بهذه الصورة فى مسرحية كتبها روجر جرين RogerGreen بعد ثلاثمائة سنة من وفاته . وليس من السهل علينا أن نعرف مقدار ما يدين له به سميه فرانسس بيكن (١٥٦١ — ١٦٢٦) ؛ وكل ما نستطيع أن نقوله فى هذا أن فرانسس وروجر على السواء كلهما رفضا منطق أرسطو ، والطريقة المدرسية ، وارتابا فى الاعتماد على المراجع القديمة ، وعلى العادات وغيرها من أصنام التفكير التقليدى ، وامتدحا العلوم ، وذكرا ما يتوقع اختراعه بالاعتماد عليها ، ورسما منهاجاً لها ، وأكدا فائدتها العملية . وأخذت شهرة بيكن تعظم وتنتشر ببطء من القرن السادس عشر حتى أصبحت حياته من القصص الخرافية — فقيل إنه مخترع البارود ، والبطل الحر التفكير ، الذى ظل طول حياته مضطهداً من رجال الدين ، والمبتكر العظيم للتفكير الحديث . والآن أخذت الآية تنقلب ، فالمؤرخون يقولون إنه لم تكن لديه إلا فكرة مهوشة عن التجارب العلمية ، وإنه لم يجر من هذه التجارب إلا القليل ، وإنه كان فى الدين أكثر حرصا على تقاليده من البابا نفسه ، وإن صفحات كتبه تنتشر فيها الخرافات ، والسحر ، والخطأ فى الاقتباس ، والتهم الكاذبة ، والقصص غير الصادقة المأخوذة من التاريخ .

وهذا كله صحيح ؛ وصحيح أيضا أنه وإن لم يجر من التجارب إلا القليل ، قد ساعد على دعم مبدأ التجربة العلمية ، ومهد السبيل إلى قيامها ، وأن جهره بالتمسك بالسنن الدينية قد يكون إجراء سياسيا من رجل يسعى للحصول على تأييد البابوية للعلوم التى كانت مثاراً للريبة . أما أخطاؤه فقد كانت عدوى زمانه ، أو لعلها قد نشأت من العجلة التى تسير بها روح تحرص على أن تجعل المعارف كلها ميدانا لها . وأما امتداحه نفسه فقد كان هو البلسم الشافى لتجاهل عبقريته ؛ كذلك كان هجومه على غيره تنفيسا لغضب إنسان جبار خابت آماله ، فأخذ يشهد إخفاق أحلامه النبيلة تغرق فى بحر من الجهل وهو عاجز عن إنقاذها . وأما هجومه على النقل فى الفلسفة والعلم فقد أنار السبيل لتفكير أوسع مجالا وأكثر حرية مما كان فى زمانه ؛ كذلك كان تأكيده لأسس العلم وأهدافه الرياضية تقدما بخمسمائة عام عن العصر الذى يعيش فيه ؛ وخير من هذا كله فى تحذيره الناس من إخضاع الأخلاق للعلم درس لرجال الغد يجب أن يأخذوا به . وملاك القول أن **الكتاب الأكبر** رغم أخطائه وآثامه ، خليق باسمه ، وأنه أعظم من أى مؤلف فى جميع آداب ذلك القرن العجيب .

الفصل الثامن

أصحاب الموسوعات

وقف العلماء المحيطون بمختلف العلوم موقفاً جريئاً بين العلم والفلسفة يعملون لبث النظام والوحدة فى معارف عصرهم التى كانت آفاقها تزداد اتساعاً على مر الأيام ؛ وليكونوا من العلم الفن ، والصناعة والحكومة ، والفلسفة والدين ، والأدب والتاريخ ، وحدة كلية منتظمة يمكن أن تتخذ أساساً للحكمة . ولهذا بز القرن الثالث عشر سائر القرون بما وضع فيه من الموسوعات ، والخلاصات التى كانت كتباً جامعة طابعها التركيب . وكان أكثر أصحاب الموسوعات تواضعاً يقنعون بتلخيص موضوعات العلوم الطبيعية ، ومن هؤلاء الكسندر نكهام رئيس دير سرنسستر Cirencester (حوالى عام ١٢٠٠) ؛ وتومس الكنتمبريثى Thomas of Cantimpré تراهب الدمنيكى الفرنسى (حوالى عام ١٢٤٤) ؛ وقد كتب كلاهما موجزاً فى العلوم بعنوان **طبيعة الأشياء** ، ومنهم بارثلميو الإنجليزى Bartholomew of England وهو راهب فرنسيسى أخرج مجلداً كثير الحشو فى **خصائص الأشياء** (حوالى ١٢٤٠) ؛ وفى عام ١٢٦٦ كتب برونتو لاتينى Brunetto Latini وهو مسجل صكوك من فلورنس نفى من بلده لمبادئه السياسية الجلفية (Guelf) ، وأقام بضع سنين فى فرنسا ، كتب بلغة دوئيل lange d'oil **كتاب الكنز** Le Livre de Tresor وهو موسوعة موجزة فى العلوم والأخلاق والتاريخ والحكم . وظلت هذه الموسوعة واسعة الانتشار حتى أن نابليون نفسه فكر فى أن تصدر الدولة طبعة منها بعد أن تراجع ، وذلك بعد خمسين عاما من إصدار ديدرو Diderot موسوعته الكبرى التى هزت العالم هزاً . وكانت هذه

المؤلفات كلها التى صدرت فى القرن الثالث عشر تمزج اللاهوت بالعلوم ، والخرافات بالمشاهدات ، لأنها كانت تتنفس هواء زمانها ؛ ولو أننا قدر لنا أن نعرف نظرة الناس إلى علمنا الجامع بعد سبعة قرون من هذه الأيام لأغضينا ما نرى .

وأشهر موسوعات المسيحيين فى العصور الوسطى موسوعة ڤنسنت بوڤيه المسماة **المرآة الكبيرة** (١٢٠٠ — ١٢٦٤ أو حوالى ذلك الوقت) . وقد انضم بوڤيه هذا إلى جماعة الرهبان الدمنيك ، وأصبح معلماً للويس التاسع وولده ، وعهد إليه الإشراف على مكتبة الملك ، وأخذ على عاتقه هو وجماعة من أعوانه أن يضع فى صورة سهلة التناول جميع ما يحيط به من ألوان المعرفة . وقد أطلق على موسوعته اسم **صورة العالم** Imago mundi ، ومثل فيها العالم بمرآة ينعكس عليها الذكاء القرطبى والتخطيط الإلهى ، وكانت موسوعة ضخمة تعادل فى حجمها أربعين مجلداً من المجلدات الكبيرة الحجم فى هذه الأيام . وأتم منها ڤنسنت مع النساخين ثلاثة أجزاء : **المرآة الطبيعية** ، **ومرآة العقائد** ، **ومرآة التاريخ** ، وأضاف إليها من خلفوه فى هذا العمل ، حوالى عام ١٣١٠ **مرآة الأخلاق** ومعظمها مأخوذ من موجز تومس أكوناس . وكان ڤنسنت نفسه إنساناً متواضعاً ظريفاً ، قال عن نفسه . « إنى لا أعرف علماً واحداً » ، وهو يتنصل من أنه ابتكر شيئاً ما ، ويقول إن كل ما أراد أن يفعله هو أن ينقل أقوال ٤٥٠ مؤلفاً يونانياً ، ولاتينياً ، وعربياً . وقد نقل أخطاء بلينى بأمانة ، وصدق كل عجائب التنجيم ، وملأ صحفه بالصفات السحرية للنبات والحجر ، ولكن عجائب الطبيعة وروائع جمالها تبدو مع ذلك واضحة فى كتابه من حين إلى حين ، تنفذ من خلال ما فيه من أقوال غير ذات قيمة ، ويحس هو بها كما لا يستطيع أن يحس بها ملتهم الكتب فحسب :

أعترف ، وأنا الإنسان المذنب ، ذو العقل الملوث في الجسد ، أنني تدفعني الروح السامية نحو الخالق المسيطر على هذا العالم ، وأني أزداد تعظيما له حين تقع عيني على ما خلقه ... من عظمة وجمال . ذلك بأن العقل إذا ارتفع من الأقذار التي يحبها ، وسما ، وهو القادر على السمو ، إلى نور التأمل ، أبصر من شاهق علوه عظمة الكون المحتوى على أماكن لاحصر لها مليئة بطوائف المخلوقات المختلفة الأنواع (١٣٥) .

ويضارع النشاط العلمي الذى انبثق فى القرن الثالث عشر عظمة فلسفاته المختلفة ، وآدابه المتنوعة الباهرة ، من الشعراء الغزليين إلى دانتي . لقد كان علم تلك الأيام ، كما كانت موجزاته العظيمة والصلاة الإلهية ، يعاني الشيء الكثير من إسراف أصحابه في الوثوق به ، ومن عجزهم عن بحث فروضه ، ومن خلط المعارف بالدين بلا تفريق بينهما . ولكن سفينة العلم الصغيرة التي كانت تسبح فى بحر من المزاعم الخفية خطت خطوات واسعة فى عصر الإيمان نفسه . فقد بدأ أدلارد وجروستستى ، وألبرت ، وآرنلد الفلانوفى ، ووليم السليستوى ، وهنرى المندفيلى ، ولا نفراتشى ، وروجر بيكن ، وبطرس الحاج وبطرس الأسبانى ، بدأ هؤلاء كلهم مشاهدات وملاحظات جديدة ، وتجارب صغيرة أخذت تحطم ما كان لأرسطو ، وبلنى ، وجالينوس من سلطان على العقول . وملأ التحمس للارتياد والمغامرة أشرعة سفينة الرواد ، وقد عبر عن ذلك الإخلاص العلمى الجديد ألكسندر نكهام فى بداية ذلك القرن العجيب فكتب يقول « إن العلم لا ينال إلا بثمن باهظ ، هو اليقظة الدائمة ، وإنفاق الوقت الطويل ، وبالجد والكدح المتواصلين ، وباستخدام العقل بحماسة وقوة »(١٣٦) .

ولكن مزاج العصور الوسطى يتحدث إلينا قبيل نهاية كتاب ألكسندر أحسن أحاديثه ، ويتحدث إلينا برقة لا تتناسب مع عصره فيقول :

ربما عشت أيها الكتاب بعد ألكسندر هذا ، وربما أكلني الدود قبل أن تقرض صفحاتك ... إنك مرآة عقلي ، وشارح تأملاتي ... والشاهد الصادق على ضميري ، والمواسي الرحيم لأحزاني ... وإنك أنت المستودع الأمين الذي أودعت فيه أسرار قلبي ... فيك أقرأ ما في نفسي ... سوف تقع في يدي قارئ تقي ينزل من علياته فيدعو لي بخير ، وإذن فسيفيد منك صاحبك أيها الكتاب الصغير ، وإذن ستجزي إسكندرك أحسن جزاء وأعظمه ؛ ولست آسفاً على كدحي ، فستصادف إخلاص قارئ صالح يضعك تارة في حجره ، ويرفعك تارة إلى صدره ، ويتخذك حيناً وسادة تحت رأسه ، ويطويك برفق ، ويدعو لي في حرارة وإخلاص عيسى المسيح الذي يعيش مع الله والروح القدس خلال الأحقاب التي لا نهاية لها — آمين(١٣٧) .

الباب الثامن والثلاثون

عصر الخيـــال

١١٠٠ – ١٣٠٠

الفصل الأول

إحياء اللغـــة اللاتينية

كل عصر فى حياة العالم عصر خيال ، لأن الناس لا يستطيعون أن يعيشوا بالخبز وحده ، والخيال عماد الحياة ، ولعل القرنين الثانى عشر والثالث عشر من تاريخ أوربا كانا إلى حد قليل أبعد خيالا من معظم العصور الأخرى . ذلك أن هذين القرنين لم يرثا جميع المخلوقات الخفية التى ابتدعها خيال أوربا الوثاب فحسب ، بل قبلا الملحمة المسيحية بكل ما فيها من جمال الخيال ورهبته ، واتخذا الحب والحرب فناً وديناً ؛ وشهد هذان القرنان الحروب الصليبية وجاءا بمئات القصص والعجائب من بلاد الشرق ، وكتبا فى واقع الأمر أطول القصص الخيالية المعروفة فى التاريخ كله .

وكان مما ساعد على ازدهار الأدب فى هذين القرنين ازدياد الثروة ، والفراغ ، والأدب غير الدينى ، ونشأة المدن والطبقة الوسطى ، وارتفاع شأن المرأة فى الدين ، ونظام الفروسية . ولما تضاعف عدد المدارس بهر شيشرون ، وفرچيل ، وهوراس ، وأوفد ، وليفى ، وسالست ، ولوكان ، وسنكا ، واستاتيوس ، وچوفنال ، وكونتليان ، وسيو نوتيوس ؛ وأپوليوس ، وسيدونيوس ، وحتى ماريتال وپترونيوس

السفيهان المفحشان ، بهر هؤلاء بفنهم وعالمهم الغريب كثيراً من ملاجئ الأساتذة والأديرة المنعزلة عن العالم وتسربا فى بعض البلاد إلى قصور الأعيان : واختلست الأرواح المسيحية من چيروم إلى ألكوين ، إلى هلواز ، وهيدلبيرت ، دقائق من أوقات صلواتهم لينشدوا أغانى الإنياذة وهم صامتون . وكانت جامعة أورليان تعتز اعتزازاً خاصاً قوياً بآداب رومة الوثنية ، حتى شكا أحد المتزمتين وهو مرتاع وجل قائلا إن الآلهة القدامى ، لا المسيح أو مريم ، هى التى تعبد فيها . وكاد القرن الثانى عشر يصبح « عصر أوفد » ؛ فقد أنزل فرچيل عن العرش الذى رفعه إليه ألكوين حتى جعله شاعر بلاط شارلمان ؛ وكان الرهبان ، والسيدات ، « والعلماء الجاثلون » على السواء يقرأون بنشوة وابتهاج كتب **التحولات** ، **والهيرويدات** ، **وفن الحب** . وفى وسعنا أن نعفو عن كثير من أسباب اللهو المباح عند الرهبان الذين أحبوا هذه الكتب الملعونة ، وحفظوها من الضياع ، ولقنوها بإخلاص ووفاء إلى الشبان المتبرمين الشاكرين .

ونشأت من هذه الدراسات القديمة لغة لاتينية خاصة بالعصور الوسطى ، كان فيها من التنوع وأسباب المتعة ما يعد من أعظم المفاجآت السارة فى الكشوف الأدبية . مثال ذلك أن القديس برنار الذى لم يكن يعتد إلا قليلا بالمزايا العقلية ، كتب رسائل تفيض بالحب الرقيق ، والقدح الفصيح ، واللغة اللاتينية الممتازة ؛ وقد احتفظت عظاة بطرس دميان ، وبرنار ، وأبلار ، وبرثولد الرچنز برجى للغة اللاتينية بقوتها وحيويتها .

وكتب المؤرخون الإخباريون فى الأديرة بلغة لاتينية فظيعة ؛ ولكنهم لم يكونوا يدعون أنهم يكتبون كتابة تشبع حاسة الجمال لدى القراء . بل كانوا يسجلون أولا نشأة أديرتهم وتاريخها — انتخاباتها ، ومبانيها ، ووفاة رؤسائها ، ومعجزات الرهبان ومنازعاتهم ؛ وأضافوا إلى ذلك مذكرات عن الخسوف

والكسوف ، والمذنبات ، والجفاف ، والفيضان ، والقحط ، والأوبئة ، ونذر أيامهم ؛ وتوسع بعضهم فضمن كتاباته بعض الحوادث القومية والدولية نفسها . وقل منهم من كان يبحث فى المراجع التى يعتمد عليها بروح النقد الصحيح ، أو يفحص عن العلل ؛ وكان معظمهم مهملين غير دقيقين ، يضيفون إلى أرقامهم صفراً أو صفرين ليبعثوا الحياة فى الإحصاءات الميتة ؛ وكلهم بلا استثناء يأتون بالمعجزات ، ويظهرون سذاجة واستعداداً ظريفاً لتصديق كل ما يقال . من ذلك أن الإخباريين الفرنسيين افترضوا أن فرنسا قد استوطنها الطرواديون النبلاء ، وأن شارلمان فتح أسبانيا واستولى على بيت المقدس ، وحاول كتاب **أعمال الفرنسيين** Gesta Francorum (حوالى ١١٠٠) أن يروى بأمانة نسبية قصة الحرب الصليبية الأولى ، ولكن كتاب **أعمال الرومان** Gesta Romanortum (حوالى ١٢٨٠) يروى فى صراحة تاريخاً مخترعاً لتشوسر ، وشيكسبير ، وألفا من كتاب الروايات . وجعل جوفرى المنموثى Geoffrey of Monmouth حوالى (١١٠٠ — ١١٥٤) من كتابه **تاريخ بريطانيا** Historia Britonum ضرباً من الأساطير القومية ، وجد فيها الشعراء قصص الملك لير ، وآرثر ، وميرلين Merlin ، ولانسلت Lancelot ، وترسترام Tristram ، وبرسفال Perceval ، وجريل المقدس Holy Grail . ومن الأدب الحى حتى الآن ثرثرة چوسلين Jocelyn وما رواه من أخبار بيورى سانت إدمندس Bury St. Edmonds (حوالى ١٢٠٠) وما رواه الأخ سلمبينى Salimbene عن بارما (حوالى ١٢٨٠) .

وفى عام ١٢٠٨ أهدى ساكسولانج (اللغوى) Saxo Lange الذى سمى بعد وفاته ساكسو النحوى Saxo Grammaticus إلى أبسالوم كبير أساقفة لند Lund كتابه **أعمال الدنمرقيين** ، وهو كتاب فيه بعض الحشو وفيه من سرعة التصديق ما لا يصدقه الإنسان() . ولكنه مع ذلك قصة قوية حية ، فيها من

الاتصال أكثر مما فى كثير من تواريخ الغرب فى هذه الأيام . فنى الكتاب الثالث من هذا المؤلف نقرأ عن أملث Amleth أمير جتلندة Jutland الذى قتل عمه الملك وتزوج الملكة . ويقول سكسو إن أملث هذا « اختار أن يتظاهر بالبلادة وفقدان الوعى فقداناً كاملا ، وضمن بهذا الصنع الماكر سلامته » .

وارتقى خمسة من المؤرخين اللاتين فى ذينك القرنين من طبقة الإخباريين إلى طبقة المؤرخين وإن احتفظوا بالطابع الإخبارى . من هؤلاء وليم المالمزبرى (حوالى ١٠٩٠ — ١١٤٣) الذى رتب مادة كتابه **أعمال الأحبار** Gesta Pontificum ، **وأعمال الملوك الإنجليز** Gesta Regum Anglorum ليجعل منها قصة متصلة حية ، نزيهة ، جديرة بالثقة ، تروى أخبار الأحبار والملوك . وأرسل أردركس ڤيتالس Ordericus Vitalis (حوالى ١٠٧٥ — ١١٤٣) المولود فى شروزبرى Shrewsbury إلى دير القديس إڤرول St. Evroul فى نورمندية فى العاشرة من عمره وفاء لنذر ، وعاش فيها بقية سنيه الثمان والستين ، ولم ير خلالها أبويه . وقضى من هذه السنين ثمانى عشرة فى كتابة **تاريخ الكنيسة** المكون من خمسة مجلدات ، ولم يمتنع عن العمل فى خلال تلك السنين ، كما يقول الرواة ، وأشد أيام الشتاء برداً حين كانت أصابعه تفقد حساسيتها من فرط البرد . ومن عجب أن عقلا مضيقاً عليه فى المكان يستطيع التحدث هذا الحديث الحسن فى مختلف الشئون الدينية والدنيوية ، فضلا عن استطرادات فى تاريخ الرسائل والأخلاق العادية . وقص أتو Otto أسقف ڤرايزنج (حوالى ١١١٤ — ٥٨) فى كتابه **فى المدينتين** تاريخ الدين والعالم الدنيوى من خلق آدم إلى ١١٤٦ ، وبدأ ترجمة مليئة بالفخر لابن أخيه فردريك بربرسا ، ولكنه توفى ولما يتجاوز بطله منتصف حياته . وعين رجل فرنسى مولود فى فلسطين يدعى وليم الصورى William of Tyre (حوالى ١١٣٠ — ١١٩٠) مستشاراً لبولدون الرابع ملك بيت المقدس ،

ثم أصبح بعدئذ كبير أساقفة صور ؛ وتعلم اللغات الفرنسية ، واللاتينية واليونانية والعربية وقليلا من اللغة العبرية ؛ وكتب بلغة لاتينية سليمة كتاباً هو خير ما يعتمد عليه من المصادر فى تاريخ الحملات الصليبية الأولى ، وسماه تاريخ حوادث ما وراء البحار Historia reum in partibus transmarinis gestarum . وقد حاول فيه أن يفسر الحوادث جميعها بالاستناد إلى الأسباب الطبيعية . وكانت نزاهته فى تصوير أخلاق نور الدين ع ٥٥ د وصلاح الدين من أكبر أسباب عقيدة أوربا المسيحية فى هذين العاهلين اللذين يخالفانها فى الدين . وكان ماثيو پاريس (حوالى ١٢٠٠ — ١٢٥٩) راهباً فى دير سانت أولبنز ، وشغل أولا منصب مؤرخ لديره ، ثم بعد ذلك منصب مؤرخ للملك هنرى الثالث ، واستعان بهذين المنصبين على تأليف كتابه التاريخ الكبير بلغة شيقة ممتعة ؛ وهو يروى الحوادث الهامة التى وقعت فى تاريخ أوربا بين عامى ١٢٣٥ ، ١٢٥٩ . ويمتاز كتابه بالوضوح والدقة ، ولكن فيه تحيزاً لم يكن متوقعاً منه ؛ ونَدد فيه « بالبخل الذى نفر الشعب من البابا » ، وانحاز إلى فردريك الثانى ضد البابوية . وملأ صفحاته بأنباء المعجزات ، وروى قصة اليهودى الجوال (فى عام ١٢٢٨) ، ولكنه روى بصراحة تشكك أهل لندن فى انتقال بعض نقط من دماء المسيح إلى دير وستمنستر (١٢٤٧) . ووضح كتابه بعدة خرائط لإنجلترا رسمها بنفسه ، وهى خير ما رسم من الخرائط فى ذلك الوقت ، وربما كان هو الذى رسم أيضاً الأشكال التى وضح بها كتابه . وإنا لنعجب بجده وغزارة علمه ، ولكن الصورة التى رسمها للنبى محمد (١٢٣٦) تكشف عما يمكن أن يكون عليه رجل مسيحى متعلم من جهل عجيب بالتاريخ الإسلامى .

أما أعظم المؤرخين فى ذلك العصر فهما فرنسيان كتبا بلغتهما القومية ، وكان لهما مع الشعراء الغزلين ورواة الملاحم وشعرائها الفضل فى جعل اللغة الفرنسية لغة

أدبية . فأما أولهما جيوفروى ده ڤيل هاردون Geoffroy de Villehardouin (حوالى ١١٥٠ — حوالى ١٢١٨) . فكان من النبلاء والمحاربين لم ينل من التعليم النظامى إلا القليل ؛ ولكن جهله بالحيل البلاغية التى تعلم فى المدارس هو الذى مكنه من أن يملى كتابه **فتح القسطنطينية** (١٢٠٧) بلغة فرنسية دقيقة خالية من التنميق ، تتجه نحو الغرض من أقرب طريق ، ومن أن يجعل هذا الكتاب من أهم ما كتب فى فن كتابة التاريخ . ولم يكن من أسباب شهرة هذا الرجل بُعده عن التحيز ، فقد كان وثيق الصلة بالحرب الصليبية الرابعة ، واضطلع فيها بدور هام ، فلم يستطع لهذين السببين أن يرى تلك الخيانة الجميلة الظاهرة ، خيانة الحقيقة والتاريخ ، بعين الرجل الموضوعى الذى ينظر إلى الحقائق دون غيرها ؛ ولكن من أهم مزاياه أنه كان فى وسط الحوادث نفسها يشهدها ويحس بها حين وقوعها ، مما أضفى على كتابه حيوية لا يكاد يبليها الزمن . وظهر بعد قرن أو نحوه من ذلك الوقت چان سير ده چوانڤيل Jean Sire de Joinville قيم القصر فى شمبانيا ؛ وبعد أن خدم لويس التاسع فى حملته الصليبية وفى فرنسا ، كتب وهو فى الثامنة والخمسين من عمره كتابه **تاريخ القديس لويس** (١٣٠٩) ؛ ونحن نحمد له وصفه خلائق التاريخ وصفاً أميناً بعيداً عن التكلف ، واهتمامه بعاداتهم وقصصهم التى توضح سيرهم وتنير ما يكتنفها من ظلمات . وبفضله نستطيع أن نحس بالجو الذى كان سائداً فى ذلك العصر كما لا نحس به فى كتاب ڤيل هاردون ، فتصحبه حين يخرج من قصره بعد أن يرهن ما يمتلكه كله تقريباً لينضم إلى الحملة الصليبية ، ويقول إنه لم يجروء على النظر إلى الوراء حتى لا يذوب قلبه أسى حين تقع عينه على زوجته وأبنائه ، ولعله لن يراهم بعد ذلك اليوم . ولم يكن لهذا الرجل ما كان لڤيل هاردون من دهاء وسعة حيلة ، ولكنه كان يمتاز بالإدراك الفطرى السليم ، وكان يرى ما فى قديسه من عيوب ، ولهذا رفض أن ينضم إلى الحملة الصليبية التالية حين طلب إليه لويس الانضمام إليها ،

لأنه رأى ببصيرته أن هذه مغامرة لا يرجى لها فلاح ، ويقول إنه حين سأله هذا الملك الورع : « أيهما تفضل — أن تصاب بالجذام أو أن ترتكب خطيئة موبقة ؟ » .

« فأجبته وأنا الذى لم يكذب عليه قط بأنه خير لى أن أرتكب ثلاثين خطيئة موبقة من أن أصاب بالجذام . ولما خرج الرهبان من حضرته استدعانى وحدى وأجلسنى عند قدميه وقال لى : كيف تجرؤ على هذا القول ؟ ... فأجبته بأنى قلته مرة أخرى بعد ذلك الوقت ؛ فرد علىّ بقوله : لقد تسرعت وكنت أحمق فى ردك ، فإن من واجبك أن تعرف أنه ليس ثمة جذام أبشع من ارتكاب الخطيئة الموبقة ... وسألنى : هل غسلت أقدام الفقراء يوم خميس الصعود ؟ فأجبته : يا مولاى ، لو فعلت لأصبت بالغثيان ، إنى لن أغسل قط أقدام أولئك الأدنياء . فقال لى الملك : الحق أنك قد اخطأت إذ نطقت بهذا القول ، لأن عليك ألا تحتقر ما فعله الله ليعلمنا ، ولهذا فإنى أرجوك بحق حبك الله أولا وحبك إياى ثانياً أن تعوّد نفسك غسل أقدام الفقراء »[٢] .

ولم تكن حياة القديسين كلها تروى بمثل هذا الصدق وتلك الأمانة ؛ ذلك أن الإحساس بالتزام الأمانة ومراعاة الضمير فى رواية التاريخ كانا من الضعف فى عقول الناس فى للعصور الوسطى بحيث يخيل إلينا معهما أن كتاب هذه القصص الأخلاقية كانوا يظنون أن لا ضرر مطلقاً فى اعتقاد الناس أن ما يروونه صحيح كله ، وأن الخير كل الخير فى أن يصدقوه . وأكبر الظن أن المؤلفين كانوا فى معظم الأوقات يأخذون القصص المنتشرة عن غيرهم ، وأنهم كانوا يصدقون ما يكتبون . وإذا أخذنا تراجم القديسين على أنها قصص لا أكثر وجدناها مليئة بالطرائف والمتع . فلينظر القارئ مثلا إلى الطريقة التى حصل بها القديس كرستفر Christopher على اسمه لقد كان فى أول حياته رجلا جباراً من أهل كنعان يبلغ طوله

ثمانى عشرة قدماً ، ثم دخل فى خدمة أحد الملوك لأنه سمع أن هذا الملك أقوى رجل فى العالم . وحدث فى يوم من الأيام أن رسم الملك على نفسه علامة الصليب حين ذكر بعضهم أمامه اسم الشيطان ، فاستدل كرستفر من هذا على أن الشيطان أقوى من الملك ، ولم يكن منه إلا أن دخل فى خدمة الشيطان . ولكن الشيطان رأى علامة الصليب إلى جانب الطريق فولى هارباً ، واستدل كرستفر من هذا على أن عيسى (عليه السلام) أقوى بلا شك من الشيطان ، فوهب نفسه للمسيح . ووجد الرجل مشقة فى الصوم المسيحى ، فقد كان جسمه الضخم يتطلب الطعام الكثير ، وكان لسانه الكبير يتعثر فى أبسط الصلوات . ووضعه ناسك صالح على شاطئ مخاضة أغرق تيارها السريع كثيرين ممن حاولوا اجتيازها . وحمل كرستفر المسافرين على ظهره ونقلهم إلى الشاطئ الآخر فى أمان دون أن يبتلوا بالماء ، حتى كان فى يوم من الأيام يحمل طفلا صغيراً ليعبر به المجرى ، فوجده ثقيلا ؛ ولما سأله عن السبب أجابه الطفل بأنه يحمل ثقل العالم كله ؛ ولما وصل هذا الطفل إلى بر السلامة شكر له حسن صنيعه وقال له : « أنا المسيح عيسى » ثم اختفى ؛ وفى هذه اللحظة أزهرت فجأة عصا كرستفر وكان قد غرسها فى الرمل[٣] . ثم لينظر القارئ إلى قصة القديس چورچ شفيع بريطانيا . فمن هو هذا القديس ؟ لقد كان بالقرب من سيلينم Şilenum فى ليبيا تنين يقدم له فى كل عام شاب أو شابة طعاما له ؛ وكان الشاب (أو الشابة) يختار بالقرعة ويقدم للتنين حتى لا يسمم القرية بنفسه . ووقعت القرعة فى أحد الأعوام على ابنة الملك العذراء ، ولما أقبل اليوم الموعود مشت نحو البركة التى يقيم فيها التنين ، فرآها القديس چورچ وسألها عن سبب بكائها ، فأجابته الفتاة قائلة : « أيها الشاب ، أرى أن لك قلباً كبيراً نبيلا ، ولكنى أرجوك أن تبادر بالابتعاد عنى » . وأبى الشاب أن يجيبها إلى ما طلبت ، وما زال بها حتى أجابته عن سؤاله ، فلما فعلت قال لها :

« لا تخافى فإنى سأساعدك باسم عيسى المسيح » . وخرج التنين من الماء فى هذه اللحظة ورسم چورچ علامة الصليب ، ونادى باسم المسيح ، وهجم على التنين ، وطعنه بحربته ، وأمر الفتاة أن تلقى بمنطقتها حول عنق التنين الجريح ، ففعلت ما أمرها به ؛ وخضع التنين لسحر جمالها الفتان كما يخضع له كل شهم من الرجال ، وسار خلفها مطيعاً ذليلا طوال حياتها وجمع ياقوبو ده ڤوراجين Jacopo de Voragine كبير أساقفة جنوى هاتين القصتين وأمثالها فى كتاب ذائع الصيت نشر حوالى ١٢٩٠ ؛ فكان يروى لكل يوم من أيام السنة قصة قديسها المخصص هذا لليوم له ، وسمى كتابه **قراءات عن القديسين** Legenda sanctorum . وصارت مجموعة قصص ياقوبو من الكتب المحببة للقراء فى العصور الوسطى ، وأطلقوا عليها اسم **القراءات الذهبية** . وأشارت الكنيسة بوجوب الاحتياط فى تصديق بعض هذه القصص[٤] ، ولكن الناس أحبوها وصدقوها كلها ، ولعلهم لم يكونوا فى هذا أكثر انخداعا فى الحياة عن السذج من الناس الذين يصدقون القصص الخرافية فى هذه الأيام .

وكان الشعر أحسن ما كتب باللغة اللاتينية فى العصور الوسطى ، ولم يكن الكثير منه شعراً إلا بالاسم فحسب ، لأن جميع المواد التلقينية على اختلاف أنواعها — من تاريخ ، وقصص ، ورياضة ، ومنطق ، ودين ، وطب — كانت تكتب فى أبيات موزونة مقفاة ، ليسهل بذلك استظهارها . وكتبت أيضاً ملاحم تافهة عظيمة الطول مثل ملحمة **الكسندريس** Alexandreis (١١٧٦) التى نظمها ولتر الشاتيونى Walter of Châtillon وتبدو لنا هذه الملاحم الآن مملة بقدر ما تبدو قصيدة **الفردوس المفقود** Paradise Lost وكتب أيضاً جدل شعرى — بين الجسم والنفس ، والموت والإنسان ؛ والرحمة والصدق ، والفلاح والقس ، والمرأة والرجل والنبيذ والماء ، والنبيذ والجعة ، والورد والبنفسج ؛ والطالب الفقير والقس

الذى ينال من الطعام كفايته . بل ذهب بعضهم إلى أبعد من هذا فكتب جدلا بين هيلين وجنيميد ليوازن بين فضائل عشق الرجال للنساء وعشق الرجال للغلمان(٥) . وقصارى القول أن شيئاً ما من شئون الآدميين لم يكن غريبا على الشعر .

وترك الكتَّاب من القرن الخامس وما بعده قياس أوزان الشعر بمقدار ما فيه من الحروف المتحركة كما كانوا يفعلون فى الشعر القديم ، وجاء الشعر اللاتينى المستمد من الشعور العام لا من الفن العلمى بنوع من الشعر جديد يعتمد على النبرات والوزن والقافية . وكانت هذه الضروب من الشعر موجودة بين الرومان قبل أن تغزو الأوزان اليونانية بلادهم ، وظلت ألف عام مع الطراز اليونانى . وبقيت الأنماط الفصحى — من شعر سداسى الأوتاد ، ومراث ، وشعر من نوع شعر سابفو طوال العصور الوسطى ؛ ولكن العالم اللاتينى حل هذه الأنماط ، فقد خيل إليه أنها لا تتناغم مع أمزجة التقى ، والرحمة ، والرقة ، والأدعية الدينية التى نشرها الدين المسيحى ؛ فدخلت فيه أوزان أكثر منها بساطة ، هى الأبيات القصيرة من البحر العميق(*) تكاد تنقل كل عاطفة بشرية من خلجات القلب إلى ضربات أرجل الجند الزاحفين إلى الحرب .

وما من أحد يعرف من أين جاءت القافية إلى العالم المسيحى الغربى وإن كان الكثيرون يبدون آراء تعتمد على الحدس وحده . لقد اتبعت القافية فى عدد قليل من القصائد الوثنية كقصائد إينوس ، وشيشرون ، وأبوليوس ؛ وكانت تستعمل أحياناً فى الشعر العبرى والسريانى ، واستعملت مراراً متفرقة فى الشعر اللاتينى أثناء القرن الخامس ؛ وهى شائعة الاستعمال فى الشعر العربى منذ عهد قديم يرجع إلى القرن السادس الميلادى . ولعل حب المسلمين للقافية قد أثر فى

(*) Iambic بحر من الشعر مؤلف من فواصل قصيرة تليها فواصل طويلة ، أو من مقاطع لها نبرة صوتية تليها مقاطع غير ذات نبرة صوتية . (المترجم عن قاموس سعادة)

المسيحيين الذين اتصلوا بالإسلام ، وبذكرنا الإفراط فى التزام القافية فى أواسط الأبيات وأواخرها فى شعر العصور الوسطى اللاتينى بهذا الإفراط عينه فى الشعر العربى . ومهما يكن فى هذا من خير أو شر فإن هذه الصيغ الجديدة قد أنتجت ضرباً جديداً من الشعر اللاتينى ، يختلف فى كل شيء عن الشعر القديم ، موفوراً وفرة عجيبة ، يبلغ من الجودة درجة لم تكن متوقعة . وإلى القارئ مثلا من شعر بطرس دميان (١٠٠٧–١٠٧٢) الناسك المصلح يشبه دعوة المسيح بدعوة محب فتاة يحبها :

منذا الذى يدق بابى ؟

أتريد أن تبدد أحلام ليلى ؟

فيناديني ، يا أجمل العذارى ،

يا أختى ، ورفيقتى ، يا جوهرة متألقة !

أسرعى ! قومى ! افتحى يا أحلى الفتيات !

* * *

أنا ابن الملك العلى الأعلى

أنا أكبر أبنائه وأصغرهم

هبط من السماء إلى هذه الظلمة

ليحرر أرواح الأسرى .

لقد تحملت الموت وكثيراً من ضروب الأذى » .

* * *

فغادرت فراشى من فورى

وهرولت نحو عتبة الباب

لكى يُفتح البيت كله إلى الحبيب

وتمتلى روحى برؤية

من تتحرق شوقاً إليه .
ولكنه مرّ بنا مسرعاً
وغادر بابى
فماذا أفعل أنا الشقية البائسة ؟
فتبعت والدمع ينهمر من عينى
الشاب الذى صوّرت يداه الإنسان .

وكان قول الشعر عند بطرس دميان أمراً عارضاً ؛ أما عند هيلدبرت اللاڤردينى Hildebert of Lavardin (١٠٥٥ — ١١٣٣) كبير أساقفة تور فكان هياماً شق به طريقه إلى الإيمان . ولعل برنجر Birenger عالم تور Tours الذى درس على فلبرت فى بلدة شارتر Chartres قد بعث فيه حباً للآداب اللاتينية القديمة . ونزلت به محن كثيرة سافر بعدها إلى رومة ، وهو لا يدرى أى الأمرين أقوى عنده من الآخر : أهو السعى إلى البركة البابوية ، أم إلى رؤية الأماكن التى جعلتها القراءة عزيزة عنده ؟ وتأثر الرجل بعظمة العاصمة القديمة واضمحلالها ، وأنطقه شعوره بمرثاة من الطراز القديم :

« أى رومة ! ليس فى المدائن كلها ما يماثلك ! وإن كدت تصبحين خربات ! ألا ما كان أعظمك وأنت بمنجاة من الدمار ! إننا نتعلم منك فى محنتك ؛ لقد حطم كبرياءك مر الدهور ، فتداعت فى المناقع حصون قيصر مع هياكل الأرباب . وتهدمت تلك الصروح ، تلك الصروح الشاهقة التى كان البرابرة العتاة يرتعدون خوفاً حين يرونها قائمة ، ويحزنون حين يرونها متداعية . . . ولكن كر الدهور وقعقعة السيوف لا يقويان على إبادة هذا المجد » .

فى هذه المرثاة برع شاعر فى العصور الوسطى فى استخدام اللغة اللاتينية براعة لا تقل عن براعة ڤرجيل نفسه . ولكنه لم تفارقه قط نزعته المسيحية ، فقد كان يجد من السلوى فى المسيح ومريم أكثر مما يجدها فى جوپتر ومنيرڤا ، ولهذا

نراه فى قصيدة متأخرة عن القصيدة السابقة يهجر الأضرحة القديمة ويقول :

(رومة تتحدث) : إن هذه الهزيمة أحلى عندى من تلك الانتصارات ، وإنى فى فقرى لأعظم منى فى غناى ، وإنى وأنا ملقاة على الأرض لأعظم منى وأنا رفيعة العماد ، ولقد أمدنى علَم الصليب بأكثر مما أمدتنى النسور ، ووهبنى بطرس أكثر مما وهبنى قيصر ، وحبتنى الجموع العزلاء بأكثر مما حبانى القواد المدججون بالسلاح . لقد سدت الأمم وأنا قائمة على قدمى ، وهأنذا وأنا مخربة أضرب فى أعماق الأرض ؛ ولقد سيطرت على الأجسام وأنا قائمة ، وهأنذا وأنا محطمة جاثية أحكم الأرواح ؛ لقد كنت فى الزمن القديم آمر شعبا بائسا ، أما الآن فإنى أصدر أوامرى إلى أمراء الظلام ؛ لقد كانت المدائن مملكتى فى الزمن القديم أما الآن فمملكتى هى السماء .

إن اللغة اللاتينية لم يكتب بها حتى ذلك الوقت شعر يضارع هذا الشعر منذ أيام فورتناتس Fortunatus .

الفصل الثاني

الخمر والمرأة والأغاني

من الطبيعي أن يكون علمنا بالنواحي الوثنية أو المتشككة فى حياة العصور الوسطى قطعا متفرقة ؛ ذلك بأن الماضي لم يصل إلينا نزيها أمينا إلا فى دمائنا . وهذا يزيد من إعجابنا بروح التسامح والتحرر — أو روح الزمالة فى الغبطة — التى حملت دير بندكتبيرن Benediktbeuern (فى باڤاريا العليا) على الاحتفاظ بالمخطوط الذى شق طريقه إلى المطبعة فى عام ١٨٤٧ وسمى باسم **قصائد بيرانه** Carmina Burana والذى يعد الآن أهم ما لدينا من المصادر لشعر « العلماء الجوالين »(*). ولم يكن هؤلاء من الذين يضربون فى الآفاق ؛ فقد كان منهم رهبان ضلوا فى طريقهم إلى أديرتهم ، ومنهم قساوسة فقدوا مناصبهم ، وكانت كثرتهم طلابا فى طريقهم من موطنهم إلى جامعتهم أو من إحدى الجامعات إلى الأخرى ؛ وكثيراً ما كانوا يقطعون طريقهم هذا سيراً على أقدامهم . وكان كثيرون من الطلاب يعرجون على الحانات فى الطريق ، ومنهم من كانوا يتذوقون الخمر والنساء ، ويستمعون إلى المعارف غير المدونة ، ومنهم من كانوا يؤلفون الأغانى ، ويتغنون بها ، ويبيعونها لمن يطلبها ؛ ومنهم من فقدوا أملهم فى أن يكونوا من رجال الدين فكانوا يعيشون بأقلامهم يخصون بشعرهم الأساقفة أو الأعيان . وكانت أكثر ميادين نشاطهم فرنسا وألمانيا الغربية ؛ ولكن شعرهم ما لبث أن انتشر بين البلدان المختلفة لأنهم كانوا يكتبونه باللغة اللاتينية . وكانوا يدعون أنهم ينتظمون فى هيئة خاصة هى **نقابة الجوالين**، واخترعوا لها مؤسسا ، وهو ما

(*) ومن المصادر الأخرى مخطوط فى مكتبة هارلم ألف قبل عام ١٢٦٤ ونشره تومس ﺭَيت فى عام ١٨٤١ باسم « قصائد لاتينية تعزى عادة إلى والترمپس » .

وقديساً شفيعاً هو شخصية أسطورية شبيهة بشخصيات ربليه وسموه جلياس Golias . وإنا لنجد من ذلك الزمن البعيد ، وهو القرن العاشر الميلادى ، ولتر كبير أساقفة سان Sens ساخطاً أشد السخط على « أسرة جلياس » المرذولة ، كما أن مجلساً كنسياً عقد فى عام ١٢٢٧ جهر بسخطه على الجلياردى Goliardi لأنهم ينشدون أشعاراً يسخرون فيها من أقدس الأناشيد والطقوس الدينية[٦] . ويقول مجلس سلزبرج المنعقد فى عام ١٢٨١ إنهم « يسيرون بين الناس عراة ، وينامون فى أفران الخبز ، ويغشون الحانات ، وأماكن الألعاب ، والمواخير ، ويكسبون عيشهم برذائلهم ، ويتشبثون أشد التشبث بشيعتهم »[٧] .

ولسنا نعرف من هؤلاء الشعراء الجليارديين ، إلا أفراداً قلائل ، منهم شاعر يسمى هيو Hugh أو هوجو بريماس Hugo Primas ، وكان راهباً علمانياً فى أورليان عام ١١٤٠ يصفه كاتب من منافسيه[٨] بأنه « إنسان دنىء ، مشوه الوجه » ، ولكنه اشتهر « فى كثير من الأقاليم » بحضور البديهة ، وقرض الشعر ، هلك لأن أحداً لم يبتع شعره ؛ وكان يقذف الأغنياء من رجال الدين بأقذع أنواع الهجاء التى يمليها عليه حقده . كان رجلا غزير العلم ، صفيق الوجه ، قليل الحياء ، يصوغ أفحش المعانى فى شعر سداسى الأوتاد ، لا يقل روعة عن شعر هيلدبيرت .

وكان أوسع منه شهرة شاعر آخر لا نعرف الآن اسمه ولكن المعجبين به كانوا يسمونه « كبير الشعراء Archipoeta » (حوالى ١١٦١) ؛ وهو فارس ألمانى يفضل الخمر والمداد عن السيف والدم ، ويعيش عيشاً مضطرباً على الصدقات التى كان يمده بها من حين إلى حين رينلد ڤن داسل Rainald Von Dassel كبير أساقفة كولونى المنتخب ، وسفير بربرسا فى بافيا . وحاول رينلد أن يصلح ما فسد من أخلاقه ، ولكن الشاعر توسل إليه أن يتركه وشأنه ، وكان ذلك فى قصيدة من أشهر ما قيل من القصائد فى العصور الوسطى ، وهى قصيدة « اعتراف

جالوت » — التى أصبحت المقطوعة الأخيرة منها نشيد الشراب المحبب الشائع فى الجامعات الألمانية :

١ أنا الذى فاضت نفسى بالحقد الدفين الشديد ،
استمع يا صاح إلىّ أعلن ما فى نفسى من حقد مرير :
لقد خلقت من عنصر واحد ، مادتى الطيش ،
أشبه الأشياء بورقة من شجرة فى مهب الريح .

* * *

٢ لم أطق حتى اليوم الأحزان ولا الاعتدال فى الشهوات ،
أحب النكات ، والمرح عندى أحلى من الشهد .
وكل ما أمرت به ڤينوس هو عندى الغبطة التى لا تعادلها غبطة ،
وهى لم تتخذ قط لها مسكناً فى قلب خبيث .

* * *

٣ إنى أسير فى الطريق الرحب شاباً غير نادم على شىء ؛
ألا فلفّنى فى الرذائل لفّاً لكى أنسى كل الفضائل(*) .
فإن شرهى لعب اللذات أكثر من شوقى إلى ملكوت السموات ،
لأن ما كان فىّ من روح قد مات ، وأصبح من الخير لى أن أنجى الجسد .

* * *

٤ عفواً أيها السيد الصالح ، يا صاحب العقل الحصيف ،
إن هذا الموت الذى أسعى إليه حلو ؛ وهو سم ما أحلاه .
لقد نفذت فى جسمى سهام لحاظ فتاة جميلة .

(*) يذكرنا هذا بقول أبى نواس : تكثر ما استطعت من الخطايا . . . الخ . انظر الجزء ١٣ من هذه السلسلة . (المترجم) .

وماذا على العقل لو عبدها إن لم يكن إليها من سبيل ؟

* * *

٥ ألا تحرقك النار إن جلست فى وسطها ؟
وإن جئت إلى پاڤيا ، فهل تعود منها طاهراً عفيفاً كما جئتها ؟
پاڤيا التى تجتذب الشباب بأطراف أناملها ،
الشباب الذى وقع فى شرك عينيها وافتتن بسحر شفتيها .

* * *

٦ جىء بهپوليتس ليتعشى فى پاڤيا ،
فإذا أصبح الصباح اختفى هپوليتس عن الأنظار .
فليس فى پاڤيا طريق لا يؤدى إلى الفجور ،
وليس فى أبراجها الكثيرة برج واحد للعفاف .

* * *

٧ إن هذا هو معقد أملى ؛ فإذا دنت الساعة منى ،
فدعنى أمت فى الحانة وكأس الخمر إلى جوارى ،
والملائكة يطلون على ويغنون مغتبطين :
« رضى الله عن هذا السكير » (*)

وتشمل قصائد بيرن جميع موضوعات الشباب : تشمل الربيع ، والحب ، والافتخار بغواية النساء ، والفحش الرقيق ، وأغانى الحب الحنونة التى لا يستجيب لها الحبيب ، وأغنية ينشدها طالب علم يشير فيها بوقف الدرس ، وتقرير يوم عطلة للحب . . . وفى إحدى الأغانى تفاجىء فتاة شاباً أثناء كدحه وتسأله : « ماذا تفعل ياسيدى ؟ هيا بنا نلعب سوياً » ؛ وتتغنى أنشودة أخرى بخيانة النساء . وأخرى

(*) ما أشبه هذه القصيدة بشعر عمر الخيام الذى ذكر المؤلف شيئاً منه فى الجزء الذى عقده للحضارة الإسلامية فى هذا المجلد . (المترجم) .

عبرها بحزن فتاة غدر بها الحبيب ، وكانت بدانتها سببا فى الضربات يكيلها لها أبواها . ويتغنى كثير من القصائد بملذات الشراب ، والميسر ؛ ومنها ما يندد بثروة الكنيسة مثل « قصيدة الإنجيل حسب المارك الفضى » ؛ ومنها ما يقلد أنبل الترانيم ، ومنها قصيدة على غرار قصائد هوتمان Whitman تتغنى بالطريق المفتوح(١٠) . وكثير منها شعر غث لكن منه ما هو آية رائعة من آيات الشعر الغنائى . وها هى ذى أنشودة محب يتغنى فيها بالموت المثالى :

لما أن استسلمت فى غير مبالاة للحب ولى ،
ضحك الجمال من كوكبها الوضاء البعيد فى السماء ،
وغمرتنى نشوة لا حد لعظمتها ،
ولم يتسع قلبى لهذه الغبطة العظيمة التى فاضت على
حين بدلتنى حبيبتى ، وقد طوقتنى بذراعيها ، غير ما كنت ،
وصبت كل ما فى شفتيها من رحيق فى قُبلة حبتنى بها .
وما أكثر ما أحلم بالحرية التى نلتها من صدرها الآن .
لقد أصبحت بعدها ربا آخر بين أرباب السماء ،
وإذا ما وجدت يدى مرة أخرى فوق صدرها فسأكون الحكم الأعلى
بين الآلهة والخلق(*)(١١) .

ومعظم الشعر الغزلى فى قصائد بيرن شهوانى صريح . نعم إن فيه أبياتاً تفيض رقة وظرفاً ولكنها أبيات قليلة نادرة الوجود ؛ وكان علينا ولو لم نعثر على هذا الشعر أن نتوقع وجود ترانيم لفينوس تنشأ عاجلا أو آجلا إلى جوار ترانيم الكنيسة . ذلك أن المرأة ، وهى الدعامة القوية الوفية للدين ، هى أكبر منافس للآلهة . وظلت الكنيسة تستمع وهى صابرة لهذه الأغانى ، أغانى الحب والخمر ،

(*) وهذا يذكرنا أيضاً بقول امرئ القيس فى معلقته : وبيضة خدر . . . الخ . (المترجم)

ولكن مجلساً لها عقد فى عام ١٢٨١ قرر أن كل قس (ومن ثم كل طالب) يؤلف أغانى شهوانيـــة أو خارجة على الدين ، أو يتغنى بها ، يفقد بذلك منصبه الدينى وحقوقه . وبذلك انحط من بقى من الطلاب بعد هذا القرار موالياً لجولياث إلى منزلة المغنى ، وخرج من سلك الأدباء إلى سلك الوزانين المفحشين . ولم يحل عام ١٢٥٠ حتى كان عهد الطلاب الجوالين قد انقضى . ولكنهم كانوا قد ورثوا تياراً وثنياً يسرى فى طيات القرون المسيحية ، ولهذا فإن مزاجهم وشعرهم بقيا كامنين حتى دخلا فى عصر النهضة .

وكان الشعر اللاتينى نفسه يلفظ آخر أنفاسه بانقضاء عهد الطلاب الجوالين ؛ ذلك أن القرن الثالث عشر قد وجه العقول نحو الفلسفة ؛ وانزوت الآداب القديمة وقنعت بمنزلة صغرى فى برامج الجامعات . ولم يجد الأدب الظريف الممتع أدب هيلد بيرت ويوحنا السلزبرى الذى كان يضارع أدب عصر أغسطس ، لم يجد هذا الأدب من يرثه . ولما تصرم القرن الثالث عشر واتخذ دانتى اللغة الإيطالية أداة يكتب بها شعره ، أضحت اللغات القومية لغات الأدب ؛ وحتى التمثيل ربيب الكنيسة وخادمها خلع عنه رداء اللاتينية ونطق بلغات الشعوب .

الفصل الثالث

بعث التمثيـــل

مات فن التمثيل القديم قبل بداية العصور الوسطى ، لأنه انحدر إلى تمثيليات هزلية ماجنة ثم حلت محله استعراضات للألعاب ؛ وكانت تمثيليات سنكا وهرسويذا Hroswftha حركات رياضية لا أكثر ، ويبدو أنها لم تجد سبيلها إلى المسرح . وبقيت بعد ذلك ناحيتان من نواحي النشاط التمثيلي تصلان الماضي القديم بالزمن الذي تلا العصور الوسطى : أولاهما مناظر المحاكاة التي كانت تجرى فى الأعياد الزراعية ، وثانيتهما التمثيليات الهزلية التي كان يمثلها المغنون الجوالون والمهرّجون فى أبهاء القصور أو ميادين القرى[١٢] .

ولكن أشهر منابع التمثيل فى العصور الوسطى هى الطقوس الكنسية شأنها فى هذا شأن اليونان القديمة . فالقداس نفسه منظر تمثيلى ، والحرم المقدس مسرح مقدس ، وكان القساوسة القائمون بخدمة القداس يلبسون حللا رمزية ؛ ويقومون هم وخدم الكنيسة بالحوار . وأناشيد القساوسة والمرتلين المتبادلة ، والمرتلين بعضهم مع بعض ، توحى بأن التمثيل تطور من الحوار الذى نشأت منه المسرحية الديونيسية . وفى الاحتفالات التى كانت تقام فى بعض الأعياد المقدسة نشأ العنصر التمثيلى نشأة واضحة صريحة ؛ فقد كان الناس فى بعض الطقوس الدينية التى تقام فى يوم عيد الميلاد فى القرن الحادى عشر يدخلون الكنائس فى زى رعاة الغنم ويحييهم غلام « ملاك » من المغنين بقوله : « أخبار سارّة » ، ويتعبدون أمام صورة طفل من الجبس فى مذود . ثم يدخلون ثلاثة « ملوك » من باب فى الجهة الشرقية ويقودهم إلى المذود نجم يُجرّ على سلك[١٣] . وكانت بعض الكنائس تمثـــل فى

الثامن والعشرين من ديسمبر « مذبحة البريئين » : فكان بعض الغلمان المرتلين يمشون فى صحن الكنيسة وجناحيها ، ويسقطون على الأرض كأن هيرود قد ذبحهم ، ثم يقومون ، ويسيرون إلى الحرم المقدس ، يرمزون بذلك لصعودهم إلى السماء[١٤] . وفى يوم الجمعة الحزينة كانت كنائس كثيرة ترفع صور المسيح المصلوب من المذبح ، ثم تحمل هذه الصور وتودع فى مستقر يشبه الضريح المقدس ، تعاد منه بعد ذلك إلى المذبح فى صباح عيد الفصح باحتفال مهيب رمزاً لبعث المسيح[١٥]. وكتب جريجورى نزيانزين Gregory Nazianzen بطريق القسطنطينية فى عام ٣٨٠ لا بعد قصة آلام المسيح فى صورة تمثيلية يوربيدية Euripidean[١٦] ، ولا تزال تمثيلية آلام المسيح من ذلك الوقت حتى الآن ذات شأن عظيم عند الشعوب المسيحية . وكانت الكتب تقول إن أول مسرحية من هذا النوع هى التى مثلت فى سينا حوالى عام ١٢٠٠ ، ولكن أكبر الظن أن مسرجيات أخرى كثيرة من نوعها مثلت قبل ذلك التاريخ بزمن طويل .

وإذ كانت الكنيسة تستعين بالبناء ، والنحت ، والتصوير ، والموسيقى لتطبع فى عقول المؤمنين المناظر والأفكار الرئيسية فى الملحمة المسيحية ، فإنها بذلك كانت تلجأ إلى خيال الشعب وتزيد تقواه بما تضفيه على المناظر التمثيلية فى الأعياد الكبرى من روعة وتفاصيل مطردة الزيادة ؛ وكانت النصوص الموضحة التى أضيفت إلى الطقوس الدينية لتكسبها الروعة الموسيقية ، كانت هذه النصوص الموضحة تحول أحياناً إلى تمثيليات قصيرة . من ذلك أن نصاً موضحاً لعيد الفصح فى مخطوط من القرن العاشر فى سانت جول St, Gall يدخل الحوار الآتى فى ترنيمة مقسمة لتمثل فيها الملائكة والمريمات الثلاث[*].

الملائكة : منذ الذى تبحثن عنه فى الضريح يا خادمات المسيح ؟

المريمات : نبحث عن المسيح الذى صلب يا رسلا من السماء .

(*) مريم أم المسيح ، ومريم أختها ، ومريم المجدلية . (المترجم)

الملائكة : ليس هو فى هذا المكان ، لقد صعد كما قال من قبل ؛ اذهبن وأذعن أنه قد صعد .

المرتلون جميعا : احمدوا الرب ، الرب قد صعد[١٧] .

وأخذت المناظر الدينية منذ القرن الثانى تزداد تعقيداً على مر الأيام حتى لم يعد تمثيلها فى داخل الكنيسة مستطاعاً ، ولذا أقيم طوار مرتفع فى خارجها ومثل المسرحية فوقه ممثلون يختارون من بين أفراد الشعب ، ويدربون على استظهار أدوار مطولة مكتوبة . وأقدم ما لدينا من أمثلة لهذا الضرب من التمثيل **تمثيلية آدم** التى كتبت فى القرن الثانى عشر باللغة الفرنسية بينها سطور باللغة اللاتينية مكتوبة بالمداد الأحمر لتكون تعليمات للممثلين .

وفى هذه المسرحية يظهر آدم وحواء فى دثارين أبيضين يلعبان فى جنة ممثلة بأعشاب وأزهار أمام الكنيسة . ثم تظهر الشياطين فى الأثواب الحمراء الملتصقة بالجسم التى أضحت من ذلك الوقت ثيابهم الخاصة فى دور التمثيل ، ويجرى أولئك الشياطين بين النظارة يلوون أجسامهم ويقطبون وجوههم تقطيباً مروعاً رهيباً ، ويقدمون الفاكهة المحرمة لآدم فيرفضها ، فيقدمونها لحواء ، فتتناولها ، وتقنع آدم بأن يحذو حذوها . ويدان آدم وحواء برغبتهما فى المعرفة فيسلكان فى أغلال من الحديد وتجرهما الشياطين إلى الجحيم ممثلة بحفرة فى الأرض ينبعث منها صوت رهيب دال على الفرح . وفى الفصل الثانى يستعد قايين لذبح هابيل وينادى : « يا هابيل سوف تموت » ، فيسأله هابيل : « ولم أموت ؟ » فيجيبه قايين : « أتريد أن تعرف لم أريد أن أقتلك ؟ . . . سأخبرك . سبب ذلك أنك تفرط فى سعيك لتنال الحظوة عند الله » . ويلقى قايين بنفسه فوق هابيل ويضربه حتى يموت . ولكن مؤلف الرواية تأخذه الرأفة فيكتب بين السطور بالمداد الأحمر : « سيكون تحت ثياب هابيل جفنة »[١٨] .

وأطلق فيما بعد على هذه التمثيليات المستمدة من الكتاب المقدس اسم « الأفعال الخفية » ؛ واللفظ مشتق من الكلمة اللاتينية ministerium ومعناها الفعل، وكان هذا أيضاً هو معنى drama . ولما أضحت القصة تمثل أحداثاً وقعت بعد زمن الكتاب المقدس سميت بمسرحيات المعجزات، وكانت تدور فى العادة حول بعض الأفعال العجيبة التى قامت بها العذراء أو قام بها بعض القديسين . وقد كتب هيلاريوس Hilarius تلميذ أبلار كثيراً من هذه المسرحيات (حوالى ١١٢٥) بخليط من اللغتين اللاتينية والفرنسية ، ولم ينتصف القرن الثالث عشر حتى كانت اللغات القومية الأداة التى تكتب بها « مسرحيات المعجزات » . وأخذت الفكاهات المتزايدة الصراحة تصبح فيها ذات شأن مطرد الزيادة ، كما أصبحت موضوعاتها تتجه شيئاً فشيئاً وجهة دنيوية غير دينية .

وكانت « المهازل » فى هذه الأثناء قد أخذت تتطور تطوراً مستقلا نحو المسرحيات . ويتمثل هذا التطور فى مسرحيتين قصيرتين وصلتا إلينا من قلم آدم ده لا هال Adam de la Halle (حوالى ١٢٦٠) ، وهو رجل أحدب من أراس Arras . وتدور إحدى هاتين المسرحيتين ، مسرحية آدم Li Jus Adam ؛ حول حياة المؤلف نفسه . فقد كان يفكر فى أن يكون قساً ، ولكنه أحب مارية الحسناء . « وفى يوم جميل من أيام الصيف سماؤه صافية ، وجوه لطيف ، بينما كانت الطيور تنطلق بأصواتها العذبة ، تحت بين الأشجار العالية على شاطئ النهر فتاة هى الآن زوجتى . . . لقد رويت الآن ظمأى منها » . ويخبرها بهذا فى صراحة ظريفة ويعتزم الذهاب إلى باريس وإلى الجامعة . ويُدخل المؤلف فى هذا الفصل الخاص بشئونه هو وزوجته ، طبيباً ، ومجنوناً ، وراهباً ، يستجدى الناس الصدقات ويعدهم بالمعجزات ، وجماعة من الجنيات ينشدن الأناشيد ، ويذكرنا هذا بأدوار الرقص التى تقحم إقحاماً فى التمثيليات الغنائية الحديثة . ويسىء آدم إلى إحدى الجنيات ، فتصب عليه لعنة تمنعه أن يفارق زوجته طول حياته ، ومن

هذا الهراء أخذت المسرحيات تتطور تطوراً مستمراً حتى وصلت إلى مسرحيات برناردشو Bernaad Shaw .

وكلما بعدت المسرحيات عن الموضوعات الدينيـة واقتربت من الموضوعات الدنيوية ، انتقل تمثيلها شيئاً فشيئاً من الكنيسة وما حولها إلى السوق العامة أو إلى غيرها من ميادين البلدة . ذلك أنه لم تكن هناك وقتئذ دور للتمثيل ، فكانوا إذا أرادوا أن يمثلوا فى مكان ما تلك المسرحيات القليلة — وكان ذلك يحدث فى العادة فى عيد من الأعياد الصيفية — يقيمون مسرحاً مؤقتاً ، ويضعون مقاعد للنظارة ، وينشئون مظلات مزركشة لأصحاب المقامات العالية . وكان من المستطاع أن تستخدم البيوت المحيطة بالميدان لتمثيل المناظر الخلفية وغيرها مما يحتاجه الممثلون . وكان الذين يقومون بالأدوار فى المسرحيات الدينية هم الشبان من رجال الدين ؛ أما فى المسرحيات غير الدينية فكان الممثلون هم أهل المدينة « الماجنين » أو المغنين الجوالين ؛ وقلما كانت النساء يشتركن فى التمثيل . ولما زاد بعد التمثيليات عن الكنيسة فى مناظرها وموضوعاتها ، نزعت هذه التمثيليات إلى التهريج والخلاعة والفحش ؛ ورأت الكنيسة ، وهى التى نشأت فى أحضانها المسرحية الجدية ، أن لا بد لها من أن تعلن أن التمثيليات القروية تجافى الأخلاق الفاضلة . وهكذا نرى جروستستى أسقف لنكلن يضم التمثيليات ، ومنها « تمثيليات المعجزات » إلى مجالس الشراب . « وعيد الحمقى »(*) ، ويقول إن هذه أعمال يجب ألا يشهدها أى مسيحى ؛ وصدرت بعده أوامر شبيهة بهذا الأمر (بين عامى ١١٣٦ و١١٤٤) تقضى بأن الممثلين الذين يشتركون فى هذه التمثيليات يحرمون من الدين . أما القديس تومس فكان أكثر من هذا تسامحاً ، وقال إن مهنة التمثيل قد وجدت لمواساة الإنسانية ، وإن الممثل الذى يمارسها على خير وجه ربما نجا من الجحيم برحمة من الله .

(*) اسم كان يطلق على رأس السنة عند بعض كنائس فرنسا فى العصور الوسطى وسمى كذلك لما كان يحدث فيه من الخلاعة . (المترجم)

الفصل الرابع

الملاحم والقصص المنثورة

سار اصطباغ الأدب بالصبغة الدنيوية مع نشأة اللغات القومية جنباً إلى جنب . ويمكن القول بوجه عام إن رجال الدين وحدهم هم الذين كانوا يفهمون اللغة اللاتينية قبل القرن الثانى عشر ، وإن الكتاب الذين كانوا يريدون أن يتصلوا بغير رجال الدين كانوا مضطرين إلى الكتابة باللغات القومية ؛ وكان جمهور القراء يزداد اتساعاً كلما زاد النظام الاجتماعى نماء ، وأخذت الآداب القومية ترتقى تدريجاً لتسد مطالب هذا الجمهور . وكانت نتيجة هذا أن نشأ الأدب الفرنسىُ فى القرن الحادى عشر ، والأدب الألمانى فى القرن الثانى عشر ، والإنجليزى والأسبانى والإيطالى فى القرن الثالث عشر .

وكان من الطبيعى أن تصبح الصورة الأولى لهذا الأدب القومى هى الأغنية الشعبية ، ثم طالت الأغنية فأضحت هى القصيدة الغنائية ، ثم كبرت القصيدة الغنائية بما أدخل عليها من تطور وتضخم فصارت هى الملحمة الصغرى كملحمة بيولف Beowulf ، وأغنية رولان Chanson de Roland ونيبلنچنلايد Nibelungenlied والسيد Cid . وأكبر الظن أن أغنية رولان ضمت بعضها إلى بعض حوالى عام ١١٣٠ من أغان كانت شائعة فى القرن التاسع أو القرن العاشر . وهى تروى فى أربعة آلاف بيت من الشعر السهل المنسجم العميق الوزن قصة موت رولان فى رنسفال Roncessvales . وتفصيل ذلك أن شارلمان بعد أن « فتح » بلاد الأندلس الإسلامية كان عائداً بجيشه نحو فرنسا ، فما كان من جانيلون Ganelon الخائن إلا أن دل العدو على طريق الجيش ، وتطوع رولان لقيادة المؤخرة لينجيها من مأزق خطر . وبينا هو سائر فى أخدود ضيق

ملتو فى جبال البرانس إذ انقض حشد من الباشقنس من شعاب الجبال على قوة رولان الصغيرة . ويرجوه صديقه ألفييه أن ينفخ فى بوقه الكبير ليستنجد بشارلمان ، ولكن رولان يأبى أن يطلب النجدة ، ويقود هو وألفييه ، وتوربين Turpin كبير الأساقفة ، جنودهم ، ويدافعون عن أنفسهم دفاع المستميت حتى يقتلوا كلهم تقريباً . وينزف الدم من جروح مميتة فى رأس ألفييه ويغشى عينيه فيظن رولان جنديا من الأعداء ويضربه بسيفه ويشق خوذته من أعلى رأسه إلى موضع أنفه ، ولكنه ينجو من الموت :

وينظر إليه رولان وهو يضربه ؛
ويسأله بصوت لين حنون :
« أيها السيد الرفيق ؛ أتفعل هذا بجد ؟
إنى أنا رولان الذى يحبك أعظم الحب
ولم تطلب إلىّ النزال »
فيقول ألفييه : « أنا الآن أستمع قولك ؛
ولكنى لا أراك ، رعاك الله وأنجاك !
لقد ضربتك ، فاغفرها لى ! »
فيجيبه رولان : « لم أصب بسوء
وأعفو عنك لساعتى وأشهد الله . »
فلما نطق بهذا انحنى كلاهما لصاحبه
وافترقا متحابين[٢٠] .

وينفخ رولان أخيراً فى بوقه العاجى ، ويواصل النفخ حتى ينبثق الدم من صدغيه ، ويسمعه شارلمان فيعود لنجدته و « لحيته البيضاء تطير فى الريح » . ولكن الطريق طويل و « الجبال شامخة ، شاسعة مظلمة ، والوديان عميقة ، والأنهار سريعة التيار » . ورولان فى هذه الأثناء حزين مكب على جثة ألفييه

يناديها بقوله : « أيها السيد الرفيق ، لقد كنا زميلين أياماً وليالى طوالا ، لم تسئ إلىّ فيها ولم أسئ إليك ، فإذا مت فالحياة من بعدك كلها آلام » . ويتوسل إليه كبير الأساقفة وهو يحتضر أن ينجو بالهرب . ويأبى رولان ، ويواصل الحرب حتى يفرّ المهاجمون ، ولكنه هو أيضاً يصاب بجرح مميت . ويستجمع آخر ما فيه من قوة ويحطم فوق صخرة من الصخور سيفه دورندال Durendal المطعم بالجواهر حتى لا يقع فى أيدى الكفار . و « رقد الكونت رولان تحت شجرة صنوبر ووجهه متجه نحو أسبانيا . . . وطافت به وقتئذ ذكريات كثيرة ، ففكر فى البلاد التى فتحها ، وفى فرنسا الحلوة ، وفى أسرته ، وفى شارل الذى رباه ، وبكى » . ورفع قفازه إلى السماء دليلا على خضوعه لله ، ووفاته . ويقبل شارل ويجده قد مات . تلك هى خلاصة القصة مترجمة ولكن الترجمة أيا كانت لا تستطيع محاكاة أصلها السهل الجذل ، وما من أحد غير من نشأ على حب فرنسا وتكريمها يستطيع أن يحس بالقوة والعاطفة اللتين تفيض بهما هذه الملحمة التى يحفظها كل طفل فرنسى ويتلوها فى كل صلواته .

ووهب شاعر مجهول حوالى عام ١١٦٠ أسبانيا ملحمة قومية يمجد فيها أخلاق راى Ruy أو ردريجو دياز (المتوفى سنة ١٠٩٩) ، وهى المعروفة بملحمة السيد Poema de Cid . وموضوعها هى الأخرى القتال بين الفرسان المسيحيين والمسلمين فى الأندلس ، وتمجيد بطولة سادة الإقطاع ، وشرفهم ، وعظمتهم ، وتفضيل أمجاد الحرب عن ذلة الحب . وينفى رولان ملك جاحد بفضله ، فيودع زوجته وأبناءه فى أحد الأديرة ويقسم ألا يعيش بينهم بعدئذ حتى ينتصر فى خمس معارك ، ويخرج لقتال المسلمين . ويردد النصف الأول من القصيد ذكر انتصارات هومرية . وينهب السيد فى خلال الفترات الواقعة بين المعارك أموال اليهود ، ويوزع الصدقات على الفقراء ، ويقدم الطعام بيده إلى مجذوم ، ويأكل معه فى صحفة واحدة ، وينام معه فى فراش واحد ، ويتبين أنه ألعازر Lazarus الذى

رفعه السيح من بين الموتى . وليست هذه بطبيعة الحال هى صفات السيد التاريخية ، ولكنها لا تسيء إلى التاريخ أكثر مما تسيء إليه أغنية رولان بتمجيدها شارلمان وجعلها إياه مثلا أعلى للرجال ، وأضحت ملحمة السيد حافزاً قوياً للتفكير الأسبانى والعزة الوطنية الأسبانية ؛ وألفت مئات الأغانى الشعرية التى تدور حول بطلها ، كما ألفت عنه مئات من الكتب متفاوتة القرب من الحقيقة التاريخية . وبعد فليس فى الأشياء ما هو أبعد عن قلوب الناس من الصدق ، وعماد الناس والدول هو الروايات الخيالية التى تتعاقب على مدى الأيام .

* * *

وانتقل بعد ذلك إلى أيسلندة فنقول إن أحداً لم يفسر لنا بعد كيف أخرجت هذه الجزيرة الصغيرة ، التى قست عليها الطبيعة وفصلتها البحار عن غيرها من البلدان ، فى تلك الفترة من الزمان ، أدباً لا يتناسب فى مداه ولا فى بهائه مع مكانها وحجمها . لقد ساعدها على ذلك عاملان : قدر كبير من الروايات التاريخية المتواترة ، العزيزة على قلب كل جماعة من الناس معزولة عن غيرها من الجماعات ، وحب للقراءة ، أو الاستماع إلى القارئين — أعان عليه طول ليالى الشتاء . لقد وجد فى الجزيرة منذ القرن الثانى عشر لا بعد كثير من دور الكتب بالإضافة إلى مكتبات الأديرة . ولما أن أصبحت الكتابة من مميزات الشخص المهذب ، صاغ الكتاب من رجال الدنيا والدين هذه القصص الشعبية صياغة أدبية بعد أن كانت من قبل ملكا للشعراء الشعبيين .

وكان من المصادفات النادرة أن زعيم كتاب القرن الثالث عشر فى أيسلندة كان هو أغنى أهلها ، والرجل الذى اختير مرتين ليكون رئيساً لجمهوريتها — الناطق بالقانون كما يسمونه فيها . كان أسنرى استورلسون **Snorri Sturlson** (١١٧٨ — ١٢٤١) يحب الحياة أكثر مما يحب الأدب ، وكان كثير الأسفار ، منهمكا فى السياسة والمنازعات ، ثم قتله زوج ابنته وهو فى الثانية والستين من عمره .

وقد روى فى كتابه العالم المستدير Heimskringla تاريخ بلاد الشمال وقصصها بما فطر عليه رجل الجد والعمل من بساطة وإيجاز ؛ وروى فى كتاب إدا استرا استورلسونر Edda Snorra Sturlsnar أو إدا المنثورة موجز التاريخ الوارد فى الكتاب المقدس ، وشذرات من أساطير الشماليين ، وضمنه مقالا فى أوزان الشعر ، ورسالة فيه ، وشرحا فذاً لنشأة هذا الفن من البول يقول فيه إن طائفتين من الأرباب اقتتلوا ثم عقدوا الصلح بأن أخذوا يبصقون فى جرة ، ونشأ من هذا البصاق نصف إله يدعى أكفازير Kvasir علم الناس الحكمة كما علمهم إياها پروميثيوس . وقتل الأقزام أكفازير ، ومزجوا دمه بالخمر وصنعوا رحيقا يهب كل من يشربه القدرة على الغناء . واتخذ الإله العظيم أودين Odin سبيله إلى المكان الذى خزن فيه الأقزام هذا الخمر الشعرى ، وشربه كله ، وطار إلى السماء ؛ غير أن بعض السائل المحبوس خرج منه بطريقة قلما تستخدم فى الفساق العامة ؛ وسقط هذا الماء الإلهى رذاذاً مالهما على الأرض ، وامتص من سقط عليه موهبة قرض الشعر[٢١] . ذلك هراء جاء به عالم من العلماء وليس هو أبعد عن العقل من التاريخ .

وهذه الفترة من تاريخ أيسلندة غنية بأدبها غنى تحار فيه العقول ، ولا يزال هذا الأدب يفيض طرافة ، ومرحا ، وفكاهة ، وفتنة شعرية تسرى فى نثره . وكتبت فى ذلك العهد مئات من القصص المنثورة بعضها قصير وبعضها فى طول الروايات النثرية ، بعضها تاريخى وبعضها يخلط التاريخ بالأساطير . وكلها بوجه عام ذكريات للحضارة من عصر الهمجية ، مليئة بأعمال المروءة والعنف ، يعقدها التقاضى ويخفف من ملالها الحب . وكثيراً ما يرد فى قصص إنجلنجا Ynglinga تأليف أسنرى ذكر فرسان الشمال الذين يحرق بعضهم بعضاً ، أو يحرق الواحد منهم نفسه ، أو ذكر أبهائهم أو أقداح شرابهم . وأوسع هذه القصص خيالا

قصص الفلسنجاساجا Volsungasaga . وقد وردت قصصها فى صورة باكرة فى الإدا الكبرى أو الإدا الشعرية ؛ وأحدث صورة لها هى التى وردت فى خاتم النبلنجيين Nibalungs تأليف فاجنر Wagern .

والفلسنج Volsung هو كل من تناسل من ويلز Waels ، وويلز هذا ملك من ملوك الشمال ، وهو ابن حفيد أودين وجدّ سيجورد Sigurd (سيجفريد Siegfried) . والنيبلنجون حسب نص النيبلنجيد Nibelungenlied ملوك برغنديون ، أما فى الفلسنجاساجا فهم سلالة من الأقزام يحرسون فى بلاد الرين كنزاً وخاتماً من الذهب يجلاّن عن التقدير ، ولكنهما يجلبان النقمة لكل من يمتلكهما . ويقتل سيجورد فهنر Fahnir التنين الذى يحرس الكنز ويستولى عليه ، ويصل فى تجواله إلى تل تحيط به النيران وتنام عليه برندهلد Brundhild الفلكيرية Valkyrie (نصف الإلهة التى من نسل أودين) . وتلك إحدى صور قصة الجميلة النائمة Sleeping Beauty . ويفتتن سيجورد بجمالها وتفتتن هى به ، ويقسمان يمين الوفاء ، ثم يتركها ويواصل أسفاره — كما يفعل الرجال فى كثير من قصص العصور الوسطى . ويلتقى فى بلاط جيوكى Gukil أحد ملوك بلاد الرين بالأميرة جدرون Gudrun ، وتسقيه أمها شراباً مسحوراً ينسيه برندهلد ويتزوج جدرون ؛ ثم يتزوج جنار Gunnar بن جيوكى برندهلد ويأتى بها إلى بلاط أبيه ، ويسوؤها نسيان سيجورد إياها فتعمل على قتله ، ثم تندم على فعلتها فتعلو كومة حريقة ، وتنتحر بسيفه وتحترق معه .

وأحدث صورة لهذه القصص الأيسلندية هى قصة أنجال المحترق Njal (حوالى ١٢٢٠) . وشخصيات هذه القصة واضحة تحددهم أعمالهم وأقوالهم أكثر مما يحددهم وصفهم . والقصة محكمة البناء وتنتقل حوادثها المثيرة تنقلا يحتمه السياق حتى تصل إلى الكارثة التى تدور حولها حوادثها — وهى احتراق بيت

نجال ؛ واحتراقه هو وزوجته برجثورا Bergthura وأبنائه على أيدى جماعة مسلحة من الأعداء يقودهم شخص يدعى فلوسى Flosi يحقد على أبناء نجال ويعمل على الانتقام منهم :

ثم نادى فلوسى . . . نجال وقال له .

« إنى آذن لك ، يا سيد نجال ، أن تخرج لأنه لا يليق بك أن تحترق فى داخل الدار »

فيرد عليه نجال قائلا : لن أخرج لأنى شيخ كبير ، لا أقوى على الثأر لأبنائى ، ولكن لن أعيش مجللا بالعار »

ثم نادى فلوسى برجثورا قائلا : « أخرجى يا صاحبة الدار لأنى لا أريد أن أحرقك داخل البيت مهما تكن الأسباب »

فتجيبه برجثورا بقولها : « لقد تزوجت نجال وأنا صغيرة ، ووعدته أن ألقى وإياه نفس المصير »

ثم عادا بعد ذلك إلى البيت :

وسألته برجثورا : « أية نصيحة نتبعها الآن ؟ » .

فيجيبها نجال : « سنذهب إلى فراشنا ، ونرقد عليه ، فطالما تاقت نفسى إلى الراحة »

ثم قالت للغلام ثورد Thord بن كارى : Kari : « سأخرجك أنت ولن تحترق هنا »

فيجيبها الغلام قائلا : « لقد وعدتنى يا جدتى ألا نفترق ما دمت أرغب البقاء معك ؛ ولكنى أرى أن موتى معك ومع نجال خير من حياتى بعدكما »

ثم حملت الغلام إلى سريرها و... ووضعته بينها وبين نجال ، ورسما عليهما

وعلى الغلام علامة الصليب ، وأسلما أرواحهما إلى الله ، وكان هذا آخر لفظ سمعه الناس منهما[٢٢]

وكان عصر الهجرة (٣٠٠ — ٦٠٠) قد ترك فى ذكريات الشعوب والمغنين المضطربة ألف قصة وقصة عن الفوضى الاجتماعية ، والشجاعة الهمجية ، والحب القاتل ؛ وانتقلت بعض هذه القصص إلى بلاد النرويج وأيسلندة وأثمرت **الفلسنجا-اما** ، وكثير منها متقاربة الأسماء والموضوعات ، وقد عاشت وتضاعف عددها فى ألمانيا فى صورة قصص تاريخية ، وقصائد غنائية وقصص شعبية ، حتى قام رجل ألمانى غير معروف فى زمن غير معروف أثناء القرن الثانى عشر وصاغ من تلك المواد **النيبلنجلنيد** أو أغانى **النيبلنجيين** . وهى مصوغة فى قصص مسلسل من الشعر لكل بيتين منه قافية واحدة بلغة القسم الأوسط من ألمانيا العليا ؛ وقصصها مزيج من الانفعالات البدائية والأمزجة الوثنية .

وحكم الملك جنثر Gunther وأخواه برغندية زمناً ما فى القرن الرابع الميلادى فى قصرهم فى ورمز على ضفة نهر الرين ، وكانت تقيم معهم فى ذلك القصر أختهم الشابة كريمهيلد Kremhild — « التى لم يكن أجمل منها فى بلد من البلاد » . وكان الملك سجمند فى هذه الأثناء يحكم الأراضى الوطيئة ، وأقطع ابنه سيجفريد (سيجورد) ضيعة غنية بالقرب من أكسنتين Xanten الواقعة هى الأخرى على ضفة الرين . وترامت إلى مسامع سيجفريد أخبار جمال كريمهيلد فذهب لزيارة بلاط جنثر وأقام هناك على الرحب والسعة مدة عام ؛ ولكنه لم ير كريمهيلد قط وإن كانت هى قد أبصرت من نافذتها الشبان يتثاقفون فى فناء القصر ، فأحبته من أول نظرة . ذلك أن سيجفريد كان يفوق سائر الشباب فى قراع السيوف ، وأظهر بسالة عظيمة فى حربه فى صفوف البرغنديين ؛ وأراد جنثر أن يحتفل بعقد الصلح بعد انتصاره وأمر سيدات القصر أن يشهدن الاحتفال !

وازينت كثيرات من بنات الأشراف أحسن زينة ، وتاقت نفوس الشبان لنيل رضاء السيدات وإعجابهن ، ونزلوا عن حقهم في أرض الملك الغنية نظير فوزهم بهذا الإعجاب . . . . : وتبدت كريمهيلد كأنها كوكب الصباح يتألق بين السحب الدكناء ، ولم يكد يراها الشاب الذي انطوى قلبه على حبها من زمن بعيد حتى ذهب عنه ما كان يحس به من تعب . . . . وسر سيجفريد وحزن ، فقد قال في نفسه : « كيف أخطب ود فتاة مثلك ؟ تلك لاريب أضغاث أحلام ، ولكن الموت عندى أفضل من البعد عنك » . . . واحمرت وجنتاها حين أبصرت أمامها ذلك الرجل ذا النفس العالية ، وقالت : « مرحباً بك يا سيجفريد ، أيها الفارس الباسل النبيل » . وامتلأ قلب الفارس شجاعة حين سمع هذه الألفاظ ، وانحنى أمامها انحناءة جميلة شأن الفارس الشهم ، وشكر لها تحيتها . وارتبط قلباهما برباط الحب القوى وتبادلا النظرات سراً .

وترامت أخبار برنهيلد ملكة أيسلندة إلى جنثر وكان أعزب ، وقيل له إنها لا ينالها إلا من يتفوق عليها في ثلاث تجارب للقوى ، وإنه إذا أخفق في أية تجربة منها جوزى بقطع رأسه . ووافق سيجفريد على أن يساعد جنثر على نيل برنهيلد إذا زوجه بكريمهيلد . ويعبران البحر بسرعة القصص وسهولتها ؛ ويلبس سيجفريد طيلساناً سحرياً يخفيه عن الأنظار ، ويساعد جنـــثر على الخروج ظافراً من التجارب الثلاث ، ويأتى جنثر ببرنهيلد إلى موطنه ليتزوجها على كره منها . وتساعد ست وثمانون فتاة كريمهيلد على إعداد الأثواب الغالية للعروس . ويحتفـــل بزواج جنثر وبرنهيلد وبزواج سيجفريد وكريمهيلد احتفالا فخما .

ولكن برنهيلد تبصر سيجفريد فتحس أنه هو لا جنثر الذى يليق أن يكون زوجها . ويقبل جنثر عليها ليلة زفافها فترده عنها خائباً ؛ وتربطه في عقدة وتعلقه على الجدار . وينطلق جنثر من العقدة ويستنجد بسجفريد ؛ وفى الليلة الثانية يتخفى البطل في زى جنثر وينام بجوار برنهيلد ، بينا يكون جنثر نفسه مختبئاً في

حجرة مظلمة يستمع إلى كل شيء ولا يرى شيئاً . وتلتقى برنهيلد بسيجفريد بعيداً عن الفراش وتشتبك معه فى معركة تفرى العظم ، وتحطم الرأس ، ولا تجرى على سنن متبعة . ويقول فى نفسه أثناء المعركة : « وا حسرتاه ! إننى إذا مت بيد امرأة فإن الزوجات جميعهن سيحتقرن أزواجهن » . وتهزم برنهيلد آخر الأمر ، وتعد أن تكون زوجة . وينسحب سيجفريد دون أن يراه أحد حاملا معه منطقتها وقرطها ، ويحل جنثر محله بجوار الملكة الخائرة القوى . ويهدى سيجفريد المنطقة والقرط إلى كريمهيلد ، ويأتى بها إلى أبيها ، فيتوجه ملكا على الأراضى الوطيئة . ويستخدم سيجفريد ما له من ثروة فى سنيبلنجن فيلبس زوجته ووصيفاتها من الثياب ما لم تلبسه امرأة أخرى قبلهن .

وتزور كريمهيلد بعد فترة من ذلك الوقت برنهيلد فى مدينة ورمز . وتبصر برنهيلد أثواب كريمهيلد الغالية فتدب الغيرة فى قلبها ، وتذكرها بأن سيجفريد من أتباع جنثر . وترد عليها كريمهيلد بأن تكشف لها عن المنطقة والقرط لتثبت لها أن سيجفريد لا جنثر هو الذى غلبها على أمرها . وكان لجنثر أخ نكد غير شقيق يدعى هاجن Hagen ملأ صدره حقداً على سيجفريد ؛ فأرسلا إليه يدعوانه للخروج إلى الصيد . وينحنى سيجفريد فوق مجرى ماء ليروى ظمأه . فيطعنه هاجن بحربة ، وتبصر كريمهيلد بطلها يلقى منيته « فيغمى عليها وتفقد وعيها طوال ذلك اليوم وتلك الليلة » . وترث كنز نيبلنج بوصفها أرملة سيجفريد ، ولكن هاجن يغرى جنثر باغتصابه منها ، ويدفن جنثر وإخوته هذا الكنز فى نهر الرين ويقسموا ألا يكشفوا لأحد عن مخبئه .

وتظل كريمهيلد ثلاثة عشر عاماً تفكر فى الثأر لزوجها من هاجن وإخوتها ، ولكنها لا تجد الفرصة التى تمكنها من هذا الثأر ، ثم تقبل ما عرضه عليها إتزل Etzel (أتلا Atilla) ملك الهون من زواجه بها ؛ وتنتقل إلى ڤينا Vienna لتعيش فيها وتكون زوجة له . « وكان إتزل ذا شهرة عظيمة تجتذب إلى بلاطه

بلا انقطاع أشجع الفرسان مسيحيين وكفاراً على السواء . . . . وكان الإنسان يرى عنده ما لا يستطيع أن يراه فى هذه الأيام — يرى المسيحيين والكفرة جنباً إلى جنب . وكان الملك ندى اليد سخياً على الناس جميعاً أيا كانت عقائدهم ، فلم يكن ثمة أحد لا ينال رفده » . وظلت كريمهيلد تحكم البلاد « حكما صالحا » مدى ثلاثة عشر عاما بدا فيها أنها لم تعد تفكر فى الانتقام ؛ وبلغ من أمرها أن طلبت إلى إتزل أن يدعو هاجن وإخوتها إلى وليمة ؛ ويلبى هؤلاء الدعوة رغم تحذير هاجن ؛ ولكنهم يأتون معهم بحاشية من الفلاحين والفرسان المسلحين . وبينا كان إخوة الملك وهاجن ومن معهم من الفرسان يستمتعون بضيافة حاشية الهون فى بهو إتزل ، إذ يقتل الفلاحون الذين فى خارج البهو بأمر كريمهيلد ، ويتلقى هاجن النبأ ، فيستل سيفه ، وتدور معركة رهيبة فى البهو بين البرغنديين والهون (ولعل القصة ذكرى حربهم الحقيقية التى دارت فى عام ٤٣٧) . ويطيح هاجن بضربته الأولى برأس أرتليب Artlieb ابن كريمهيلد وإتزل البالغ من العمر خمس سنين ويلقى برأسه فى حجر كريمهيلد وجنثر . ولما كاد البرغنديون جميعا يهلكون يطلب جرنوت Gernot أخو كريمهيلد وجنثر إلى إتزل أن يسمح للباقين من الزوار بالخروج من البهو . ويظهر فرسان الهون رغبتهم فى إجابة هذا الطلب ولكن كريمهيلد ترفضه ، وتستمر المذبحة : ويتوسل إليها جزلهر Gisslher أخوها الأصغر الذى كان غلاما بريئا فى الخامسة من عمره لما قتل سيجفريد ويناديها : « أختى يا أجمل النساء ، بأى ذنب أستحق الموت بأيدى الهون ؟ لقد كنت على الدوام وفيا لك ، لم تمسسك يداى بأذى ؛ ولكنى جئت إلى هذا المكان يا أعز الأخوات لأنى وثقت بحبك ، فهلا رحمتنى » . وترضى كريمهيلد بأن يخرج الباقون إذا أسلموا هاجن ، فيرد عليها جرنوت بقوله : « ذلك ما يأباه الله فى علو سمائه ، خير لنا أن نهلك عن آخرنا من أن نفتدى أنفسنا بواحد منا » . وتخرج كريمهيلد الهون من البناء ، وتغلق الأبواب على من

خيه من البرغنديين ، وتأمر بإحراقه . ويجن البرغنديون من فرط الحرارة والظمأ فيصيحون من شدة الألم ، فيأمرهم هاجن بأن يطفئوا ظمأهم بشرب دماء القتلى ، فيصدعوا بما يؤمرون ؛ ويخرج بعضهم من بين الأخشاب الملتهبة المتساقطة ، وتستمر المعركة دائرة فى الفناء حتى لا يبقى حياً من البرغنديين غير جنثر وهاجن . ويقاتل ديتريخ Dietrich القوطى هاجن ، وينتصر عليه ؛ ويأتى به إلى كريمهيلد مكبلا بالأغلال . وتسأله هاجن أين أخفى كنز نيبلنج ، فيجيبها بأنه لن يكشف لها عن ذلك السر ما دام جنثر حياً ؛ ويقتل جنثر ، وكان لا يزال حياً ، بأمر أخته ، ويحمل رأسه إلى هاجن ، ولكن هاجن يتحداها بقوله : « إن مكان الكنز لا يعرفه الآن إلا الله وحده وأنا ، ولن تعرفى هذا السر أيتها المرأة الشيطانة » ؛ فتقبض بيدها على سيفه وتقتله به . وتشمئز نفس هلدبراند Hildébrand القوطى مما سفكته كريمهيلد من الدماء فيقتلها .

تلك قصة رهيبة تجرى فيها الدماء كما تجرى فى أية قصة أخرى فى عالم الأدب أو فيما هو دونه . وإنا لنظلم هذه القصة بعض الظلم إذا انتزعنا لحظاتها الرهيبة مما يحيط بها من ولائم ، ومثاقفة ، وصيد ؛ وشئون النساء . ولكن هذا هو الموضوع الذى تدور حوادثها حوله — فتاة رقيقة يبدلها ما صادفته من الشر امرأة وحشية سفاحة . ومن عجب أنه قلما يبقى فى القصة بعد هذا شىء يقربها من الدين المسيحى ، فهى فى الواقع مأساة يونانية تدور حول الانتقام ، ولا تفعل ما تفعله المآسى اليونانية إذ تأبى أن تقع أعمال العنف على المسرح . وتطغى هذه الجرائم على جميع فضائل الإقطاع فلا يكاد يظهر منها شىء حتى إكرام رب الدار أضيافه الذين دعاهم لزيارته ، وليس ثمة ما يفوق وحشية هذه القصة إلا وحشية أيامنا نحن .

الفصل الخامس

شعراء الفروسية الغزلون(*)

فى أواخر القرن الثالث عشر ، أى فى الوقت الذى كنا نتوقع فيه أن يكون الأدب الأوربى مصطبغاً بالحماسة الدينية التى بعثها فى الناس الحروب الصليبية ، فى أواخر هذا القرن بالذات نشأت فى جنوبى فرنسا مدرسة من الشعر الغنائى أرستقراطية ، وثنية ، غير كهنونية ، عليها الطابع العربى ، تنبئ بانتصار المرأة على القيود الثقيلة التى فرضتها نظرية سقوط آدم . وانتقل هذا الطراز الشعرى من طولوز إلى باريس ومن باريس إلى لندن مع إليانور الأكتانية ، واستحوذ على قلب ابنها الباسل رتشرد الأول ، وأوجد المتصببين بالشعر من الألمان ، وصاغ النغمات العذبة الهادئة التى مهدت السبيل إلى دانتى .

ويتلألأ فى بداية هذا الطراز من الشعر وليم التاسع كونت پواتو ، ودوق أكتين ، وجد إليانور نفسها . وألفى هذا الخليع المستهتر نفسه فى الحادية عشرة من عمره (١٠٨٧) حاكما لفرنسا الجنوبية يكاد يكون مستقلا بحكمها ؛ واشترك فى الحرب الصليبية الأولى وتغنى بنصرها ؛ ولكنه كان مثل كثيرين غيره من النبلاء فى أرضه التى طغى عليها الإلحاد ، فكان قليل الإجلال للكنيسة يسخر من قساوستها . وقد وُصف فى ترجمة پروڤنسالية له بأنه « من أكثر خلق الله أدباً وظرفاً ، ومن أكثرهم غواية للنساء ، وأنه فارس مغوار ، كثير التورط فى مغامرات الحب ، يجيد الغناء وقرض الشعر ، وقد ظل وقتاً طويلا يجول فى البلدان ويغوى النساء »[٢٣] ؛ وقد اختطف وهو متزوج كونتة شاتل رول Châtellerault الحسناء ، وعاش معها علناً دون حياء ؛ ولما أمره أنجوليم Angoulême الأصلع

(*) Troubadour انظر اشتقاق هذا اللفظ فيما بعد . (المترجم)

الجرىء أن يقلع عن غيه أجابه بقوله : « سأنبذ الكونتة فى الساعة التى يحتاج فيها شَعرك إلى مشط » ؛ والتقى يوماً ما بأسقف بواتيه بعد أن حكم بطرده من الكنيسة وقال له : « اغفر لى وإلا قتلتك » فرد عليه الأسقف وهو يمد له عنقه : « اضرب » ، وأجابه وليم : « لست أحباك بالقدر الذى يكفى لأن أبعث بك إلى الجنة »[٢٤] . ووضع الدوق طرازاً من الشعر الغزلى يكتب إلى النبيلات ، وكان يفعل ما يقول ، وكانت حياته قصيرة مليئة بالمرح ، فقد مات فى السادسة والخمسين من عمره (١١٣٧) ، وأورث إليانور ضياعه الواسعة وذوقه الشعرى والغرامى .

وجمعت إليانور الشعراء حولها فى طواوز ، وسرهم أن يتغنوا لها ولحاشيتها بجمال النساء وما تبعثه مفاتنهن من نشوة ؛ وشرع برنار ده ڤنتادور Bernard de Ventadour ، وكان شعره فى نظر پترارك لا ينقص إلا قليلا عن شعره هو نفسه ، يتغنى بجمال ڤيكونتة ڤنتادور ؛ وحملت الڤيكونتة مديحه محمل الجد فاضطر زوجها أن يحبسها فى برج قصره . وشجع هذا برنار فراح يتغنى بجمال إليانور نفسها وتبعها إلى رون Rouen ؛ ولما أن فضلت حب ملكين أفرغ ما فى قلبه من هيام فى لحن حزين ذائع الصيت ؛ وبعد جيل من ذلك الوقت أصبح الشاعر الغزلى برتران ده بورن Bertrand de Born صديق رتشرد الأول الحميم ، ومنافسه المتفوق عليه فى حب السيدة مينز المرتنياكية Dame Maens of Martignac ؛ وصحب شاعر غزلى آخر يدعى پير ڤيدال Peire Vidal (١١٦٧ ؟ — ١٢١٥) رتشرد الأول فى الحرب الصليبية ، ورجع سالماً ، وعاش بعد مجيئه فقيراً يقرض الشعر حتى ظفر آخر الأمر بضيعة وهبها له ريمند السادس كونت طولوز[٢٥] . ولدينا أسماء ٤٤٦ شاعراً آخر من الشعراء الغزلين ، ولكن حسبنا هؤلاء الأربعة دليلا على ما كانت عليه هذه الطائفة المغنية من الخلال .

كان بعض أفرادها موسيقيين أفاقين ، وكانت كثرتهم من صغار النبلاء المولعين بالغناء ، وكان أربعة منهم ملوكا — رتشرد الأول ، وفردريك الثانى ،

وألفنسو الثانى ، وبدرو الثالث ملك أرغونة . وظل هؤلاء الشعراء قرناً من الزمان (١١٥٠ — ١٢٥٠) يسيطرون على أدب فرنسا الجنوبية ، ويشكلون عادات الطبقات الأرستقراطية التى كانت تنتقل فى ذلك الوقت من الوحشية الريفية إلى الفروسية التى كادت تكفّر بالمجاملات عن آثام الحرب ، وبالظرف والأدب عن الفجور والفسق . وكانت لغة شعراء الفروسية الغزلين هى لانج دك Lsngne Dioc أو لغة الرومان Roman التى كانوا يتكلمون بها فى جنوبى فرنسا وشمالى أسپانيا الشرقى . أما اشتقاق اسمهم فهو موضع الخلاف الشديد ، والراجح أن كلمة تروبدور Troubodour مشتقة من الكلمة الرومانية تروبار Trobar ومعناها يجد أو يخترع ، كما أن من الواضح أن الكلمة الإيطالية Trovatore (تروڤتورى) مشتقة من تروڤارى Torvare ، ولكن من الناس من يقول إنها مشتقة من كلمة الطرب العربية ومعناها الغناء[٢٦] . وكانوا يسمون فنهم « الحكمة المرحة » gai saber أو gaya ciencia ولكنهم كانوا يرونه من الأعمال الجدية التى تتطلب وقتاً طويلا من المران على الشعر ، والموسيقى ، وآداب الحديث التى تليق بالفرسان أولى النبل والشهامة . وكانو يتزيون بزى الأشراف ، ويتشحون برداء طرزت حواشيه بالذهب والفراء الثمينة ، وكثيراً ما كانوا يركبون وهم مدرعون بدروع الفرسان ، ويتسابقون فى ألعاب البرجاس ، ويقاتلون بالرماح والأقلام فى سبيل السيدات اللاتى يقدمون لهن شعرهم وإن لم يقدموا لهن حياتهم ؛ ولم يكونوا يكتبون لغير طبقة الأشراف ، وكانوا عادة يلحّنون بأنفسهم شعرهم الغنائى ويستأجرون المغنين ليغنوه فى المآدب وألعاب البرجاس ، ولكنهم كثيراً ما كانوا هم أنفسهم يعزفون على القيثار وينفسون بأغنية عن عاطفة مكبوتة .

وأكبر الظن أن العواطف التى كانوا يعبرون عنها لم تكن إلا صورة أدبية ، وأن تحرقهم لم يكن أكثر من رغبة ، وأن مسكنهم مع حبيباتهم فى السماء تعبير عن إشباع رغبتهم ، وأن يأس التروبدور المحزن إن هو إلا رخصة شعرية وأداة للتعبير .

ويبدو أن الأزواج الذين كانوا يسمعون هؤلاء الشعراء يتشببون بنسائهم لم يكونوا يرون فى هيامهم أكثر من هذا ، وأنهم لم يكونوا أكثر حرصاً على أزواجهم من معظم الذكور وإذ كان الزواج بين الأشراف لا يعدو أن يكون حادثاً من حوادث تداول الثروة ، فقد كان الحب إذا وجد يعقب الثروة لا يسبقها كما يحدث فى القصص الفرنسى : وأما ما وجد من الحب فى أدب العصور فكان كله من فرنسسكا Francesca وبيتريس Beatrice فى الجنوب إلى إيسلد Isolde وجنيفير Guinevere فى الشمال ، حباً حراماً إذا استثنينا منه بعض الأمثلة القليلة : وكان عجز المحب عن الوصول إلى السيدة المتزوجة هو الذى أوجد طائفة التروبدور ؛ ذلك أن من الصعب خلق رواية غرامية تدور حول الرغبة المشبعة ، وحيث لا توجد العقبات لا يوجد الشعر . ولسنا نسمع إلا عن أفراد قلائل من شعراء الفروسية الغزلين حظوا آخر الأمر بعطف السيدات اللائى اختاروهن موضوعاً لأغانيهم ، ولكن هذا لم يكن إلا خرقاً للمألوف من القواعد فى الشعر ، فقد جرت العادة أن يطفئ الشاعر حرقته بقبلة من الحبيبة أو بلمس يدها : وكان هذا التمنع من أسباب الرقة والظرف ؛ ومن أجل هذا انتقل شعر التروبدور — ولعله تأثر فى هذا الانتقال بعبادة مريم — من الشهوانية إلى ما يقرب من الرقة الروحية .

لكنهم قلما كانوا رجالا أتقياء صالحين ، وكان عدم تعففهم من أسباب التنافر بينهم وبين الكنيسة . وقد ألف بعضهم القصائد فى هجو كبار رجال الدين ، وفى السخرية من الجحيم[٢٧] ، والدفاع عن الملاحدة الألبجنسيين ، والإشادة بالحملة الصليبية التى انتصر فيها فردريك العاصى حيث أخفق لويس الصالح . ولم يرض جولم أديمار Ouillem Adémar إلا عن حملة صليبية واحدة ، وكان سبب رضائه عنها أنها أبعدت من طريقه زوج سيدة يتشبب بها . وكان

ريمون چوردن Ra mon Jorden يفضل ليلة يقضيها مع محبوبته عن أية جنة سماوية يعدونه بها(٢٨) .

وكانت الصور الإنشائية فى نظر شعراء الفروسية الغزلين أجل شأناً من الوصايا الأخلاقية . وكان لكل ضرب من قصائدهم اسم يتسمى به فالكانزو Canzo أغنية الغرام ، و البلانتى plante مرثية لصديق أو حبيب مات ، و التنسون Tenson حوار مقفى عن الحب ، والأخلاق ، والفروسية ، والسرفنتى sirvente أغنية الحرب ، والنزاع والهجوم السياسى ، والسِّتينة sixtene قصيدة تتألف من ست مقطوعات معقدة القافية ، فى كل واحدة منها ستة أبيات ، اخترعها أرنو دانيل Arnaud Daniel وأعجب بها دانتى ، و الرعوية pastourelle حوار بين شاعر فروسية غزلى وراعية ، و الفجرية aubade أو alba أغنية الفجر ، وهى فى العادة تنذر العاشقين بأن النهار سوف يفضح أمرهم ، والسيرينا أو السرنيد serena أو serenade أغنية المساء ، و البلادا balada قصة شعرية . وها هى ذى فجرية لشاعر غير معروف تنطق ببعض أبياتها فتاة من فتيات القرن الثانى عشر تذكرنا بچوليت Juliet :

فى حديقة ينشر فيها الشوك الأبيض أوراقه ،
كانت سيدتى يضطجع حبيبها بجوارها
حتى نادى الرقيب بطلوع الفجر — ويلاه الفجر الذى يحزن المحبين !
رباه ؟ يا رباه ، ما بال الفجر يقبل مسرعاً !

* * *

أتوسل إليك يا رب ألا ينقضى الليل ، الليل الحبيب ،
وألا يبتعد عنى حبيبى ،

وألا ينادى الرقيب « الفجر » — الفجر الذى يقضى على السلام !

رباه ! يا رباه ! ما بال الفجر يقبل مسرعاً !

* * *

« صديقتى الجميلة الحلوة ، أنيليني شفتيك — شفتينا مرة أخرى !

ها هى ذى الطيور فى المراعى تشدو

فليكن نصيبنا الحب ، ونصيب الحسود الألم !

رباه ! يا رباه ! ما بال الفجر يقبل مسرعاً !

* * *

من تلك الريح الحلوة التى تقبل من بعيد

شربت حتى ارتويت من أنفاس الحبيب ،

نعم ، من أنفاس حبيبى المرح العزيز !

رباه ! يا رباه ، ما بال الفجر يقبل مسرعاً

* * *

ألا ما أجمل فتاتى وما أظرفها ،

وما أكثر من يرقبون الطريق الذى يتجلى فيه جمالها

ولا يطوف بقلبها طائف القدر !

رباه ! يا رباه ! ما بال الفجر يقبل مسرعاً ![٢٩] .

وقضى على حركة شعراء الفروسية الغزلين فى فرنسا منتصف القرن الثالث عشر ، وكان من أسباب القضاء عليها ما فى صياغتها وعواطفها من تكلف وتصنع أخذا يتزايدان على مر الأيام ، وما حل بجنوبى فرنسا من دمار بسبب الحروب الدينية الألبجلسية ، فقد تهدمت فى الوقت العصيب كثير من القصور التى كان يأوى إليها شعراء الفروسية الغزلون ؛ ولما أن قاست طولوز نفسها حصاراً مزدوجاً انهار نظام الفروسية هذا فى أكتين . وفر بعض المغنين إلى أسبانيا وبعضهم إلى

إيطاليا ، وفيهما بعث فن أغانى الحب بعثاً جديداً فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر ، ولم يكن پترارك ودانتى إلا وريثين للتروبدور . وكان ما خلفوه من تقاليد الشهامة والمرح عوناً على صياغة دستور الفروسية ، وتحويل سكان جنوبى أوربا الهمج إلى رجال مهذبين ؛ ولقد ظلت الآداب من ذلك الحين تحس بأثر أغانيهم الرقيقة ، ولعل الحب تفوح منه فى هذه الأيام رائحة ذكية مستمدة من عطر مديحهم .

الفصل السادس

المتصببون بالشعر من الألمان

انتشرت حركة شعراء الفروسية الغزلين من فرنسا إلى جنوبى ألمانيا حيث ازدهرت فى عصر أباطرة هوهنستارفن الذهبي وكان الشعراء الألمان يسمون المنيسانجر Mennisänger أى المتصببين بالشعر ، ووجد شعرهم فى الوقت الذى وجدت فيه فى دستور الفروسية المعاصر خدمة المحبوب Minnedienst وخدمة السيدات Fraundienst . ونحن نعرف أسماء ثلثمائة من هؤلاء المتصببين ، ولدينا ثروة موفورة من شعرهم ؛ وكان بعضهم من طبقة الأشراف الدنيا ، وبعضهم من الفقراء ، يرعاهم الأباطرة أو الأدواق . وكان كثيرون منهم أميين وإن التزموا قواعد صارمة فى الوزن والقافية ، وكانوا يملون ألفاظ أغانيهم وموسيقاها ؛ ولا يزال الشعر يسمى فى ألمانيا إلى يومنا هذا دختونج Dichfung أى الإملاء . وكانوا عادة يتركون المغنين العازفين يغنون أشعارهم ، وكانوا أحياناً ينشدونها بأنفسهم . ويروى لنا الرواة مباراة غنائية Sängerkrieg عظيمة عقدت فى قصر وارتبيرج Wartburg عام ١٢٠٧ ، ويقال إن تان هوزر Tannhäuser وولفرام فن إشنباخ Wolfram von Eschenbach اشتركا فيها[٣٠](*). وظل المتصببون قرناً من الزمان يعملون على رفع منزلة المرأة فى ألمانيا ، وأضحت نساء طبقة الأشراف الباعثة والملهمة لثقافة أرق من أية ثقافة عرفتها تلك البلاد فيما بعد حتى عصر شلر Schiller وجيته .

(*) لقد خلطت القصص بين تان هوزر ، وهو من المتصببين المتأخرين ، وبين الفارس تان هوزر الذى فر من ڤينسبرج Venusberg إلى رومة ووجد له مكاناً صغيراً فى إحد المسرحيات الغنائية .

ويُضمّ ولفرام وولتر ڤن در ڤوچلويد Walther von der Vogelweide إلى طائفة المتصببين لأنهما كتبا أغانى فى الحب ، ولكن الأفضل أن يسلك ولفرام وقصائده المعروفة باسم بارزفال Parzival فى سلك كتاب الروايات الغرامية . وكان مولد ولتر « ابن مرج الطيور » فى مكان ما فى التيرول Tirol قبل عام ١١٧٠ . وكان من طبقة الفرسان ولكنه من فقرائهم ، وزاد أحواله سوءاً على سوء بأن اتخذ الشعر صناعة له . ونسمع عنه وهو فى سن العشرين يكسب قوته بالغناء فى بيوت الأشراف من أهل ڤينا . وكان وهو فى سن الشباب هذه يكتب فى الحب كتابة شهوانية طليقة أغضبت منه منافسيه ، ولا يزال الألمان حتى الآن يعتزون بقصيدته *تحت شجرة التيليا* Unter den Linden :

تحت شجرة التيليا وعلى الخلنج
كان لنا نحن الاثنين فراش ،
وهنا كنت تبصيرنا وقد التفت حولنا
الأزهار المتقطعة والكلأ الهشيم ؛
ومن أجمة فى الوادى — تندرادى —
يشدو البلبل بألحانه العذبة .

* * *

وأسرعتُ إليه من خلال الفضاء بين الأشجار ،
ووصل حبيبى إلى المكان قبلى ،
وهناك وقعت فى شرك الحبيب — وكنت أسعد الفتيات ،
وحظيت بسعادة ليس فوقها سعادة .
وهناك قبلنى مراراً — تندرادى .

انظروا إلى شفتى ما أشد حمرتها !

* * *

وهنا أسرع وهو مغتبط

فأقام لنا عريشاً من الأزهار ،

ولا يزال هذا دعاية زائلة ،

لأن الذين يمرون بهذا الطريق ويرون المكان الذى

وضعت فيها رأسى بين الورود — تندرادى !

* * *

ولو أن إنساناً (لا قدر الله !) كان بالقرب منا

لخجلنى العار ، فقد رقدنا هناك سوياً :

ولكن هذا لم يعرفه أحد غيرى أنا والحبيب

والعندليب الصغير — تندرادى ! —

وأنا أعرف أنه لن يتم علينا[٣٢]

ونضج تفكيره لما كبر ، وبدأ يرى فى المرأة مفاتن ومحاسن أجمل من بشرتها البضة ، وبدت له فوائد الاتحاد بالزواج أعظم قيمة من التقلب بين النساء : « ما أسعد الرجل وما أسعد المرأة ، اللذين يرتبط قلباهما بالإخلاص المتبادل ، واللذين تزداد حياتهما قيمة على مر الزمن ، وبارك الله فى بيتهما وجميع أيامهما »[٣٣] . وأخذ يندد بتملق زملائه الشعراء نساء البلاط ، وقال إن لقب « المرأة » أعظم قيمة لديه من لقب « السيدة » ، وإن النساء الصالحات والرجال الصالحين هم الأشراف بحق ، وإن « النساء الألمانيات يضارعن الملائكة فى الجمال ، وإن من يذمهن كذاب أشر »[٣٤] .

ومات الإمبراطور هنرى السادس فى عام ١١٩٧ وعمت الفوضى بلاد ألمانيا مدى جيل كامل ولم تنقطع إلا بعد أن بلغ فردريك الثانى سن الرشد . ولم يعد

الأشراف يناصرون الأدباء ويبسطون عليهم رعايتهم ، فأخذ ولتر يتنقل من بلاط إلى بلاط يغنى غناء البائس الشقى طلباً للقوت ، ينافسه فيه المشعوذون والمهرجون الأذلاء . وحسبنا دليلا على ما كان يعانيه فى ذلك الوقت هذه العبارة المنقولة من حساب نفقات ولفجر Wolfger أسقف باسو Passau « خمسة صلدات صرفت فى ١٢ نوفمبر عام ١٢٠٣ إلى والتر ڤن درڤوجلويد ليشترى بها سترة من الفراء يتقى بها برد الشتاء »[٣٥] . وكانت هذه حسنة مضاعفة لأن ولتر جبليني متحمس ، هجا فى شعره البابوات ، وندد بعيوب الكنيسة ، وثار على نقل الأموال الألمانية فوق جبال الألب لتملأ بها خزائن كنيسة القديس بطرس[٣٦] . غير أنه كان على الرغم من هذا مسيحياً صادقاً ، ألف نشيداً عظيما سماه « نشيد الصليبيين » ، ولكنه كان يستطيع فى بعض الأوقات أن يسمو فوق المعارك الحربية ويرى أن الناس كلهم إخوة :

الناس كلهم من أم واحدة
ونحن جميعاً أكفاء من الخارج والداخل ؛
وأفواهنا تطعم كلها بطعام واحد ،
وإذا ما سقطت عظامهم وأصبحت كومة مختلطة
فهل تعرفون يا من تميزون الأحياء بنظرة إليهم
أيهم الدنىء الآن وأيهم الشريف
بعد أن أكل الدود لحومهم وتعرت عظامهم ؟
إن المسيحيين واليهود والكفار كلهم يتعبدون
والله يبسط رعايته على جميع الخلق[٣٧] .

وظل ولتر ربع قرن فى تجواله وفقره ، ثم وهبه فردريك الثانى ضيعة ودخلا ثابتاً (١٢٢١) ، فاستطاع أن يقضى السبع السنين الباقية من حياته

هادئاً مطمئناً . وقد أحزنه أن شيخوخته ومرضه لا يمكنانه من الاشتراك فى الحرب الصليبية ، وطلب إلى الله أن يغفر له عجزه عن أن يحب أعداءه[٣٨] . وقد أوصى فى قصيدة له بمن يرث مخلفاته « فللحساد سوء حظى ، وللكاذبين أحزانى وللمحبين الغادرين حماقاتى ، وللسيدات آلام قلبى »[٣٩] . ودفن فى كتدرائية ورزبرج Würzburg وأقيم بالقرب منها نصب تذكارى يعلن حب ألمانيا لأعظم شعراء عصره .

وقضى على حركة الشعراء المتصببين بعد موته ما تورطت فيه من إسراف ومغالاة ؛ وحل بها ما حل بألمانيا من دمار بعد سقوط فردريك الثانى . ويصف لنا الريخ فن لختنشتاين Ulrich von Lichtenstein (حوالى ١٢٠٠ — ١٢٧٦) فى سيرته الذاتية الشعرية (Frauendienst) كيف نشأ وسط عواطف « خدمة السيدات » . فاختار سيدة لتكون له معبودة ، وخيطت شفته الشرماء ليقلل نفورها منه ، وحارب من أجلها فى ألعاب البرجاس . ولما قيل له إنها عجبت حين عرفت أنه لاتزال له إصبع كانت تظن أنه فقدها فى الدفاع عن شرفها ، قطع هذا العضو الآثم وبعث به إليها دليلا على الولاء والخضوع . وكاد يغمى عليه من شدة الفرح حين أسعده الحظ بشرب الماء الذى غسلت فيه يديها[٤٠] . ولما تلقى منها رسالة ظل يحملها فى جيبه عدة أسابيع حتى وجد شخصاً يستطيع أن يثق بأنه سيقرؤها له سراً ، لأن ألريخ كان يجهل القراءة[٤١] . ولما وعدته بأنها ستعطف عليه انتظر وفاءها بوعدها يومين كاملين فى ثياب المتسولين بين المجذومين الواقفين ببابها ؛ ثم أذنت له بالدخول ، ولما تبينت إلحاحه أمرت به فأنزل من نافذة مخدعها فى ملاءة سرير . وكان له فى ذلك الوقت زوجة وأبناء .

واختتمت حركة الشعراء المتصببين اختتاماً فيه بعض الكرامة بموت هنريخ فن مايسن Henrich von Meissen الذى أحرز بأغانيه فى تكريم

النساء لقب « مداح النساء » . ولما مات فى ميتز عام ١٣١٧ حملت نساء المدينة نعشه وأخذن يندبنه حتى ووري التراب فى كتدرائية المدينة ، وسكبن فوق تابوته خمراً بلغ من كثرتها أن جرت فى طول الكنيسة كلها[٤٢] . وخرج فن الغناء بعد موته من أيدى الفرسان إلى أيدى الطبقة الوسطى ؛ وزالت نزعة عباد السيدات الغرامية ، وحل محلها فى القرن الرابع عشر مرح جماعة المغنين فى المدن وفنهم العارمان يرفعان إلى ربات الشعر قيام طبقة الملاك الوسطى .

الفصل السابع

الروايات الغرامية

أما فى الروايات الغرامية فقد كانت الطبقة الوسطى هى المسيطرة على الميدان ؛ ذلك أن شعراء شمالى فرنسا أبناء الطبقة الدنيا — المعروفين عند الفرنسيين باسم التروفير Trouvères أى المخترعين — كانوا يحيون ليالى الطبقات الوسطى والعليا بقصص شعرية تتحدث عن الحب والحرب ، كما كان شعراء الفروسية الغزلون — التروبدور والتروفتورى يكتبون الأغانى الشعرية الرقيقة لنساء جنوبى فرنسا وإيطاليا .

وكانت كتابات المخترعين تتخذ صور القصص الشعرية ، ballade والأغانى الشعرية lai ، والتحدث بأعمال الأبطال Chanson de geste ، والقصص الغرامية . وقد وصلت إلينا نماذج جميلة من الأغانى الشعرية من قول كاتبة تدعى إنجلترا وفرنسا كلتاهما أنها أول شاعراتها العظيمات . فقد انتقلت Marie de Franca (مارية الفرنسية) من بريطانى لتعيش فى إنجلترا فى أيام هنرى الثانى (١١٥٤ — ١١٨٩) . وأشار عليها أن تصوغ عدداً من أقاصيص البريطانيين شعراً ، ففعلت وخلعت عليها من طلاوة اللفظ وقوة العاطفة ما لم يفقهما فيهما أى شاعر من شعراء الفروسية الغزلين . وخليق بإحدى قصائدها العاطفية أن تحتل مكاناً فى صفحات هذا الكتاب ، هى جديرة به ، لموضوعها غير العادى — حديث المحبوبة الحية إلى حبيبها الميت :

هل أحبك هناك إنسان طوال الصيف والشتاء ؟

وهل وجدت هناك جمالا وضع فى القبر معك !

وهل قبلة الميت الطويلة أحلى مما كانت قبلتى لك ؟

أو هل انتقلت إلى سعادة بعيدة ونسيتنى كل النسيان ؟
أى نوم رقيق همت به فلفك لفاً رقيقاً ؟
وأى موت ساحر أغواك بقوته العجيبة فاستحوذ عليك بالليل والنهار ؟
إنك ترقد فى بقعة صغيرة تحت الكلأ بعيدة عن الشمس والظلال
ولكنها لشدة حزنى بعيدة عنى بعد السماء ...
ستظل ترقد فى ذلك المكان كما ترقد الآن
وإن كان فى العالم العلوى شخص آخر يحيا حياتك مرة أخرى
ويحب حبيبتك كما كنت تحبها .
أليس مقامك حلواً تحت النخيل ؟
أليس اليوم الدفىء الهادئ الطويل الجميل الذى لا يعرف كنهه
خيراً من الحب ومن الحياة ؟
ألا ما أشبه أوراق الشجر العطرة العريضة العجيبة
بالأيدى تنسج برد الليل إلى نهايته ،
تنسج النوم الذى لا يستطيع الطير البراق مقاومته ،
أما أنت فالموت ينسج لك النوم
ويسلبك فى الصباح وفى الظهيرة
كثيراً من الأنفاس العجيبة القوية .
ويقينى أنك وأنت فى هذا المكان
قد وجدت الموت إغماء لذيذاً .
لا تستمسك من هذه الساعة بكلمة قلتها أو غنيتها
فما من شك فى أنك قد سمعت من زمن بعيد أغانى كثيرة أعذب منها ،
لأن التربة الخصيبة قد وصلت بلا ريب إلى قلبك ، وحولت إيمانك أزهاراً ،
واختلست الريح الدفيئة شيئاً فشيئاً روحك أثناء للساعات الغادرة .
ووجدت كثير من البذور الطرية تربة من التفكير المثمر

أنبتت زهرة تستقبل الشمس ، ولولاها لما استقبلتها ،
ولا ريب فى أنك قد استمعت إلى كثير
من العواطف القوية الجائشة
التى جعلت ذلك الموضع أجمل مما كان
وجعلت جزءاً من عواطفك لا يحنو علىّ هناك(٤٣) .

وربما نشأت **أغانى الأفعال** من قصص الحوادث أو الأغانى . فكان الشاعر ينسج حول حادث تاريخى ، يأخذه عادة من المؤرخين الإخباريين ، قصة من المغامرات الخيالية يرويها فى أبيات ذات عشرة مقاطع أو اثنى عشر مقطعاً ، وتبلغ من الطول ما لا تتسع له إلا ليالى الشتاء فى الشمال . ولقد كانت أغنية رولان مثلا متقدماً لهذه الأغانى . وكان البطل المحبب لأغانى الأفعال الفرنسية هو شارلمان ؛ وقد أفاد الشعراء الغزلون الفرنسيون من عظمته التاريخية فرفعوه فى شعرهم إلى درجة من العظمة لا يكاد يسمو إليها آدمى ، فبدلوا هزيمته فى أسبانيا فتحاً مبيناً ، وسيروه فى حملات مظفرة إلى القسطنطينية ، وبيت المقدس ، ومن حول لحيته البيضاء الخرافية هالة من العظمة والجلال . وكانت الأغانى الفرنسية مرآة ينعكس عليها عصر الإقطاع فى موضوعاته ، وأخلاق أهله ، وأمزجتهم . وكما كان بيولف والنيبلنجليد يرددان أصداء « عصر الأبطال » فى زمن الهجرات ، كانت هذه الأغانى الفرنسية — أيا كان موضوعها ، أو مكانها أو زمانها — تتحرك فى جو إقطاعى إلى أهداف إقطاعية فى أثواب إقطاعية . وكان موضوعها الذى لا تنفك تردده هو الحرب ، بين سادة الإقطاع ، أو بين الدول ، أو الأديان ، ولم تكن المرأة والحب يجدان بين قعقعة السيوف إلا أصغر مكان .

ولما صلحت أحوال النظام الاجتماعى ، وارتفعت منزلة المرأة على أثر ازدياد الثروة ، تخلت الحرب عن مكانها فى هذه الأغانى للحب ، فأضحى هو موضوع الشعراء الرئيسى ، فلما كان القرن الثانى عشر حلت القصص الغرامية محل أغانى الأفعال ، وجلست على عرش الأدب ، وظلت تجلس عليه قروناً عدة . وكان اللفظ الفرنسى roman المقابل للرواية الغرامية يعنى فى أول الأمر أى مؤلَّف مكتوب باللغة الفرنسية التى كانت تسمى هى الأخرى رومان Roman دليلا على أنها من تراث الرومان الأقدمين . ولم تكن القصص الغرامية Romances تسمى فى اللغة الفرنسية بهذا الاسم لأنها قصص وجدانية ، بل كان الأمر عكس هذا أى أن بعض العواطف أضحت توصف بأنها رومانسية romantic (وجدانية) لأنها كثيراً ما كتبت بهذه اللغةالرومانية roman الفرنسية . فكانت **رواية الوردة** Roman de la rose أو **طروادة** le Troie أو **الثعلب** de Renard لا تعنى أكثر من قصة عن وردة ، أو عن طروادة ، أو عن ثعلب باللغة الرومانية أى الفرنسية الأولى ؟ وإذ كانت كل صورة أدبية يجب ألا تولد فى عرف الأدباء إلا من أبوين شرعيين ، فإن لنا أن نعزو أصل الروايات الغرامية إلى **أغانى الأفعال** ممتزجة مع ما كان فى قصائد شعراء الفروسية الغزلين من عواطف الغرام . ولعل بعض مادة هذه القصص قد أخذ من الروايات اليونانية مثل **إثيوبيكا** Ethiopica لهليودورس Heliodorus . وكان لكتاب واحد يونانى ترجم إلى اللغة اللاتينية فى القرن الرابع أثر عميق فى هذه الناحية ، ونعنى به سيرة الإسكندر الخيالية التى تعزى زورا إلى كلسثنيز Callisthenes مؤرخه الرسمى . ذلك أن القصص التى تروى عن الإسكندر أضحت المعين المحبب الذى لا ينضب للفيض المتتابع من «سلاسل» الروايات التى انتشرت خلال العصور الوسطى فى أوربا وفى بلاد الشرق الناطقة باللغة اليونانية . وكانت أجمل صورة لهذه القصة فى بلاد الغرب **رواية الإسكندر**

Roman d' Alixandre من تأليف الشاعرين الغزليين لاميرلى تور Lambert li Tors وإسكندر البرنانى Alexander of Bernay حوالى عام ١٢٠٠ . وتقع هذه الرواية فى عشرين ألفاً من الأبيات الأثنى عشرية المقاطع ، أى من البحر المعروف بالبحر « الإسكندرى » .

وأكثر من هذه تنوعاً وأرق منها عاطفة سلسلة الروايات الفرنسية ، والإنجليزية ، والألمانية التى أخذت موضوعاتها من حصار طروادة . وكان أكبر ملهم لهذه الروايات هو ڤرچيل لاهومر . وكانت القصة التى كتبها ديدو Dido رواية غرامية حقة وإن جاءت فى هذا الوقت البعيد . ألم يستوطن الطرواديون الفارون من هزيمة هم غير خليقين بها فرنسا ، وإنجلترا ، كما استوطنوا إيطاليا ؟ ثم قام حوالى عام ١١٨٤ شاعر فرنسى غزلى يسمى بنوا ده سانت مور Benoît de Ste-Maure بإعادة قصة طروادة فى ثلاثين ألف بيت من الشعر ، ترجمت إلى أكثر من عشر لغات ، ودخلت فى آداب أكثر من عشر أمم . وفى ألمانيا كتب ولفرام ڤن إسشنباخ Wolfram von Eschenbach قصة حصار طروادة التى لا تقل فى حجمها عن الإلياذة نفسها ، وفى إيطاليا أخذ بوكاشيو Boccaccio من بنوا Benoît قصة فيلوستراتو Filostrato ؛ وفى إنجلترا كتب ليامون Layamon قصة بروت Brut (حوالى عام ١٢٠٥) فى ٣٢٫٠٠٠ بيت وُصف بها تأسيس لندن على يد بروتس ابن حفيد إينياس Aeneas ؛ ومن بنوا جاءت قصة ترويلس وكرسدى Troilus and Criseyde لتشوسر ومسرحية شيكسپير .

وكانت السلسلة الثالثة العظيمة من روايات العصور الوسطى الغرامية هى روايات آرثر Arthur . ولدينا من الأسباب ما يجعلنا نعتقد أن آرثر هذا نبيل مسيحى إنجليزى ، حارب الغزاة السكسون فى القرن السادس . ولسنا ندرى من هو الذى خلق منه هو وفرسانه تلك القصص البديعة المطربة التى لم يتذوق جمالها

إلا محبو مالورى Malory وحدهم ؟ ومنذا الذى ابتدع جاوين Gawaine وجـــلاهاد Galahad وپرسڤال Perceval ، ومرلين Merlin وچنڤير Guenevere . ولانسلت Lancelot ، وترسترام Tristram ، وفروسية المائدة المستديرة Round Table ذات الصبغة الدينية المسيحية ، وقصة الكأس المقدسة Holy Grail(*) ؟ لم يصل الأدباء إلى جواب مؤكد عن هذه الأسئلة بعد نقاش دام مائة عام كاملة ، ذلك أن البحث يقضى على الحقيقة المؤكدة(**) . ونجد أقدم إشارة لآرثر فى كتب المؤرخين الإخباريين الإنجليز ، وتظهر بعض عناصر قصته فى أخبار ننيوس Nenius (٩٧٦) ، ووُسِّع نطاق هذه القصة فى التاريخ البريطانى Historia Britonum لجوفرى المنموثى Geoffrey of Monmouth ؛ وصاغ قصة چوفرى شعراً فرنسياً ربرت ويس Robert Wace وهو شاعرغزلى من چرسى Jersey فى رواية بروتس الإنجليزى Le Brut d'A ngletterre (١١٥٥) ؛ وفيها نجد للمرة الأولى قصة المائدة المستديرة . والراجح أن أقدم أجزاء متقطعة لهذه القصة هى بعض قصص ويلز التى جمعت الآن فى مابنوجيون Mabinogion ؛ وأقدم مخطوطات عثرنا عليها للقصيدة بعد نمائها وتطورها مخطوطات فرنسية . والإجماع منعقد على أن مكان بلاط آرثر والكأس المقدسة فى ويلز والجنوب الغربى من بريطانيا . وأقدم رواية كاملة منثورة للقصة هى التى نجدها فى مخطوط إنجليزى يعزى إلى ولتر ماپ Walter Map أحـــد كبار شمامسة أكسفورد (١١٣٧ — ١١٩٦) وإن كان هذا مشكوكاً فى صحته . وأقدم صياغة شعرية لهذه السلسلة هى التى نجدها فى روايات Romans كريتيان ده تروى Chretien de Troyes (حوالى ١١٤٠ — ١١٩١) .

(*) الكأس التى استعملها المسيح فى العشاء الأخير . (المترجم)

(**) يريد فى أغلب الظن ما كان يظنه الناس حقيقة مؤكدة . (المترجم)

ولسنا نعرف عن حياة كريتيان إلا قدراً ضئيلا لا يكاد يزيد على ما نعرفه عن حياة آرثر . نعرف عنه أنه ألف فى بدء حياته الأدبية قصة مفقودة تدعى **ترستان** Tristan . ووصلت هذه القصة إلى يدى الكونتة مارى ده شمپانى Marie de Champagne ابنة إليانور الإكتانية ، ويلوح أنها قد بعثت فى قلبها الأمل بأن كريتيان هو الرجل الخليق بأن يصوغ « الحب الرقيق » ، وأنبل المثل العليا للفروسية فى صورة **الرواية الغرامية** . واستدعته مارى لأن يكون شاعرها الغزلى — إذا صح هذا التعبير — فى بلاطها بترويى Troyes . وكتب وهو فى رعايتها (١١٦٠ — ١١٧٢) أربع روايات غرامية فى شعر مقفى (الشعر الدوبيت العربى) كل بيتين منه ذوا قافية واحدة ، وفى كل بيت ثمانية مقاطع . وهذه الروايات هى **إرك وانيد** Eric et Enide **وكليجيه** Cligès ، **وأيفين** Yvaine **وفارس العربة** Le Chevalier de la Charette — ولم يجد هذا الشاعر عنواناً أرق من هـــذا لقصة « الفارس الكامل » لانسلت Lancelot . وبدأ فى عام ١١٧٥ أثناء إقامته فى بلاد فليب كونت فلاندرز رواية كونت دل جرال Conte del Graal أو پرسڤال له جالوا Perceval le Gallois ، وكتب منها ٩٠٠٠ بيت وتركها ليتمها غيره فى ٦٠,٠٠٠ بيت . ويظهر جو هذه فى القصص بداية **إرك** :

عقد الملك آرثر فى يوم عيد الفصح مجلساً للبلاط فى كاردجان Cardigan ، ولم يشهد الناس قبل ذلك الاجتماع حاشية أغنى من حاشيته ، فقد حضر الاجتماع كثيرون من صفوة الفرسان الأقوياء ، البواسل ، ذوى الجرأة والشجاعة ، كما اجتمع منها كثيرات من النساء والفتيات ذوات الثراء الواسع ، وبنات الملوك ذوات الرقة والجمال . وقبل أن ينفض الاجتماع فى ذلك اليوم أبلغ الملك فرسانه أنه يرغب فى أن يخرج فى اليوم الثانى لصيد الوعل الأبيض ؛ وكان ذلك استمساكاً منه بالعادة القديمة . فلما سمع اورد جاوين هذا غضب أشد الغضب وقال : « مولاى !

لن يعود عليك من هذا الصيد ثناء ولا رضاء . فنحن نعرف من زمن بعيد ما هى هذه العادة عادة الوعل الأبيض : نعرف أن من يقتل الوعل الأبيض يجب أن يقبل أجمل فتاة فى حاشيتك . . . ولكن هذا قد يؤدى إلى شر مستطير ، لأن فى هذا المكان خمسمائة فتاة من ذوات الحسب والنسب ، . . . وما من واحدة منهن إلا لها فارس جرىء مغوار ، على استعداد لأن يعلن بالحق أو بالباطل أن السيدة التى هو متيم بها أروعهن كلهن جمالا وأعظمهن رقة » . فأجابه الملك بقوله : « إنى أعلم هذا حق العلم ، ولكن علمى به لا يحول بينى وبين تنفيذ ما اعتزمته . . . وسنذهب غداً لنصيد الوعل الأبيض وسيكون ذلك اليوم يوم بهجة ومرح »(٤٤) .

وفى بداية الرواية أيضاً تجد المبالغات القصصية الممتعة . « لقد عمدت الطبيعة فى تكوين إنيد Enide إلى كل ما لديها من حذق ، ودهشت الطبيعة خمسمائة مرة من نجاحها فى إبداع هذا المخلوق الكامل » . ويقال فى قصة لانسلت إن « المحب الكامل مطيع على الدوام ، يسارع إلى تنفيذ رغبات حبيبته وهو مسرور . . . والألم (فى سبيلها) محبب إليه ، لأن الحب الذى يهديه ويقوده فى سبيله يخفف هذا الألم بل يمحوه »(٤٥) . غير أن الكونتة مارى كان لها فى الحب رأى فيه شىء من المرونة :

إذا وجد الفارس فتاة أو عذراء مهجورة ، وإذا كان يعنى بسمعته الطيبة ، فإن نفسه لا تطاوعه بأن يعاملها معاملة غير شريفة إلا بقدر ما تطاوعه لأن يقطع عنقه . وإذا ما هاجمها فإنه سيجلل بالعار فى كل بلاط ، أما إذا انتزعها منه وهى تحت حراسته بحد السلاح فارس آخر اشتبك معه فى معركة ، فإن من حق هذا الفارس الثانى أن يفعل بها ما يريد دون أن يجلله عار أو يستحق من أجله لوماً (٤٦) .

وشعر كريتيان ظريف ولكنه ضعيف ، وسرعان ما يمل الإنسان ثقله وكثرته فى عصر السرعة الحديث . لكنه يمتاز بأن فيه أكمل تعبير باق حتى اليوم عن المثل الأعلى للفروسية ، وذلك فى الصورة التى رسمها الكاتب لحاشية

تبدو فيها المجاملات ، والشرف ، والبسالة والإخلاص للحبيب أجل قدراً من الكنيسة أو العقيدة . ولقد أثبت كريتيان فى روايته الأخيرة أنه خليق باسمه(*) ، ورفع سلسلة الروايات التى تدور حول الملك آرثر إلى الذروة العليا بأن أضاف إليها قصة الكأس المقدسة(**) فقد جاء فى القصة أن يوسف الأريماثيائى Joseph of Arimathea تلقى بعض دم المسيح المصلوب فى وعاء شرب منه المسيح نفسه أثناء العشاء الأخير ؛ وجاء يوسف أو واحد من نسله بهذا الوعاء والدم الخالد إلى بريطانيا ، حيث احتفظ به ملك مريض سجين فى قصر خفى عجيب ، ولن يعثر على الكأس ويطلق سراح الملك بسؤاله عن سبب مرضه إلا فارس كملت طهارة حياته وقلبه . وتقول قصة كريتيان إن پرسڤال الغالى أخذ يبحث عن الكأس ، أما الصيغة الإنجليزية للقصة فتقول إن الذى أخذ يبحث عنها جلاهاد الابن الطاهر للانسلوت الملوث . وتتفق القصتان فى أن الذى عثر عليها صعد بها إلى السماء . وفى ألمانيا بدل ولفرام ڤن اسشنباخ پرسڤال فجعله پارڤيزال Parvizal وأعطى القصة أشهر صورة كانت عليها فى العصور الوسطى .

وولفرام هذا فارس باڤارى (حوالى ١١٦٥ — حوالى ١٢٢٠) كان يكسب قوته بشعره ، ثم وجد له نصيراً فى هرمان Hermann أمير ثورنجيا Thuringia ، وأقام فى قصر وارتبرج Wartburg عشرين عاماً ، وكتب أشهر قصيدة فى القرن الثالث عشر . وما من شك فى أنه كان يمليها إملاء لأن الرواة يؤكدون لنا أنه لم يتعلم قط القراءة . وهو يقول إنه لم يأخذ قصة پارزيڤال عن كريتيان بل أخذها عن شاعر پروڤنسالى يدعى كيو Kiot . ولسنا نعرف شاعراً يسمى بهذا الاسم ، كما أننا لا نعرف أحداً تعرض لهذه القصة بين زمنى كريتيان (١١٧٥)

(*) أى بأنه مسيحى صميم . (المترجم)

(**) Holy Grail ويقال إن لفظ Grail مأخوذ من لفظ Gratalis المشتق من اللفظ اللاتينى crater ومعناه الكأس .

وولفرام (١٢٠٥) . ويبدو أن أحد عشر «كتاباً» من «كتب» قصيدة ولفرام البالغ عددها ستة عشر تعتمد على قصة كونت دل جرال Conte del Graal لكريتيان ، ولم يكن المسيحيون الصالحون والفرسان الأمجاد من رجال العصور الوسطى يرون أن من واجبهم أن يعترفوا بما عليهم من ديون أدبية ، بل إن الكتاب كانوا يرون أن مادة الروايات الغرامية ملك مشاع ، من حق كل من يشاء أن يستعيرها إذا كان فى وسعه أن يرقى بها ، ولقد فاق ولفرام فى هذه الناحية أستاذه كريتيان .

وپارزيڤال فى قصة ولفرام ابن فارس من أنجو Anjou رزقه من الملكة هرزليد Herzeleide (الحزينة القلب) حفيدة تيتورل Titurel — أول حراس الكأس — وأخت أمفورتاس Amfortas الملك المريض فى ذلك الوقت . ويبلغها قبل أن تلد پارزيڤال بقليل أن زوجها خر صريعاً فى معركة بين الفرسان أمام الإسكندرية . وتعتزم ألا تعرض پارزيڤال للموت وهو صغير السن ، فتربيه فى عزلة فى الريف ؛ وتخفى عنه أصله الملكى ، وينشأ جاهلا بفنون القتال وحمل السلاح :

وحزن لذلك أهلها أشد الحزن ، لأنهم رأوه عملا مشئوماً ،
وقالوا إن هذه النشأة لا تليق قط بابن ملك عظيم ،
ولكن أمه أخفته فى أودية الغابات البرية ،
وحال حبها وحزنها بينها وبين التفكير فى مبلغ إساءتها للطفل الملكى .
فلم تعطه قط سلاحاً من أسلحة الفرسان إلا ما كان يصنعه لنفسه
فى أثناء لعبه من الأعشاب التى تنبت فى طريقه المنعزل .
فقد صنع لنفسه منها قوساً وسهاماً ، يقذف بها ،
وهو مرح غافل عن التفكير ،
الطيور وهى تشدو فوق رأسه على الأشجار المورقة .

فلما أن سقط طير الغاب المغرد ميتاً عند قدميه ،
مال برأسه ذى الشعر الذهبي فى دهشة وحيرة صامتة ،
واندفع فى غضب الطفولة وحيرتها الصامتة يقتلع غدائر شعره الذهبي ؛
(فأنا أعلم حق العلم أنه لم يكن على ظهر الأرض كلها من يضارعه فى جماله)
وطاف بعقله أن الموسيقى التى ظل طول حياته يعزفها بيده
قد ملأت بأنغامها العذبة قلبه نشوة ، فأحزنه هذا التفكير وأمضه[٤٧].

ويبلغ پارزيڤال طور الرجولة وهو قوى الجسم فارغ العقل ، حتى تقع عينه فى يوم من الأيام على فارسين فى الطريق ، فيعجب بدروعهما البراقة ، ويظنهما إلهين لافارسين ، ويعتزم أن يكون له مثل ما لهما من رونق وبهاء . ويعود إلى موطنه ليبحث عن الملك آرثر الذى يجعل الرجال فرساناً ، وتحزن أمه لذهابه حزناً يكاد يقتلها . ويلتقى پارزيڤال فى طريقه بدوقة نائمة فيختلس منها قبلة ، ويسلبها منطقتها ، وخاتمها ، ويرتكب بعمله هذا إثماً يدنسه سنين طوالا . ثم يلتقى بإيثر Ither ، الفارس الأحمر ، ويرسل معه هذا الفارس رسالة يدعو فيها الملك آرثر للقتال . ويدخل پارزيڤات على الملك ويستأذنه فى أن يجيب هو دعوة إيثر ، فيأذن له ويعود إلى إيثر ، ويقتله — لأن الحظ فى القصص يكون فى جانب المبتدئ — ، ويلبس دروعه ، ويركب طلباً للمغامرات . ويطلب إلى جرنمانز Gernemanz فى أثناء الليل أن يستضيفه ، ويعجب به البارون الشيخ ، فيعلمه أساليب القتال الإقطاعية ويسدى إليه نصيحة الفرسان :

اشفق على المحتاجين ، وكن رحيما ، كريماً ، متواضعاً . إن الرجل الكريم المحتاج يستحيي أن يسأل ، فتقدم إليه أنت بالعون قبل أن يسألك . . ولكن كن حازماً لاتجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولاتبسطها كل البسط . . . لاتكثر من السؤال ، ولاترفض الإجابة عن سؤال خليق أن تسأله. لاحظ واستمع . . . أعف عمن يستسلم لك مهما تكن إساءته إليك . . . تخلق بأخلاق الرجولة

وكن مرحاً . . . احترم النساء وأحبهن ، فذلك مما يزيد فى شرف الشاب — كن ثابتاً غير متقلب فإن الثبات من شيم الرجال . ألا ما أقل ما ينال من الثناء شخص يخون الحب الشريف(٤٨) .

ويخرج پارزيڤال مرة أخرى فى طلب المغامرات ، ويفك الحصار عن كندورامور Kondurramur ، ويتزوجها ، ويتحدى زوجها بعد عودته ، ويبارزه ، ويقتله ، ثم يترك زوجته ليبحث عن أمه . وتشاء الصدف أن يصل إلى قصر « الكأس المقدسة » فيستضيفه حراسه الفرسان ، وتقع عينه على الكأس (والكأس فى هذه القصة حجر ثمين) ، ويذكر نصيحة جورنماتز الطيب ، فلا يسأل عن الكأس المسحورة أو الملك المريض ، ولم يكن يعرف أنه عمه . ويصحو فى صباح اليوم الثانى فيجد القصر كله خاوياً على عروشه ، فيخرج على ظهر جواده ، وترفع أيد مجهولة الجسور الموصلة إلى القصر كأنها تنهاه عن العودة إليه . وينضم مرة أخرى إلى بلاط آرثر ، ولكن العرافة كندرى Kondury تتهمه فى أثناء هذا الترحيب بالجهل وقلة الأدب لأنه لم يسأل عن سبب علة أمفورتاس ، ويقسم پارزيڤال أن يعود مرة أخرى لطلب الكأس .

ولكن سورة من الغضب تظلم عليه حياته فى تلك الساعة . فهو يشعر أنه غير جدير بما وجهته إليه كندرى من تقريع ، ويدرك كثرة ما فى العالم من مظالم ، ويخرج عن طاعة الله ، ويظل أربع سنين لا يزور كنيسة ، ولا ينطق بصلاة(٤٩) . وتصيبه فى تلك السنين مائة من الكوارث ، ويظل يبحث عن الكأس ولكنه لا يجدها . ثم يعثر فى يوم من الأيام على خلوة ناسك يدعى تريڤريزنت Treverezent ويتبين أنه عمه ، ويعرف منه قصة الكأس ، وأن علة أمفورتاس التى تفارقه سببها أنه ترك حراسة الكأس ليشغل نفسه بحب غير مشروع . ويعيد الناسك پارزيڤال إلى الدين المسيحى ، ويتحمل عنه عقاب ذنوبه . وهكذا يهون پارزيڤال على نفسه ، ويتطهر من خطاياه ، وجهله وينجيه

عذابه من آثامه ، فيعود إلى البحث عن الكأس المقدسة . ويكشف الناسك إلى كندرى أن پارزيڤال ابن أخي أمفورتاس ووارث ملكه ، فتبحث عنه وتعلن إليه أنه اختير ليخلف أمفورتاس على العرش وليكون حارساً على الكأس . ثم تقوده إلى القصر الخفى ، ويسأل أمفورتاس عن سبب مرضه ، ويشفى الملك الشيخ لساعته . ويجد بارزيڤال زوجته كندوبرامور وتأتى إليه لتكون ملكته . ويرزقان بولد يدعى لوهنجرين Lohengrin .

وكأنما أراد جتفرايد السلزبرجى Gottfrind of Salisburg أن يمد ڤاجنر Wagner بموضوع آخر لمسرحياته الموسيقية ، فأخرج حوالى عام ١٢١٠ أعظم تراجم قصة ترستان نجاحاً . وهذه القصة تمجد الزنا وعدم الوفاء تمجيداً حماسياً ، وتندد بالدستور الأخلاقى الإقطاعى والمسيحى على السواء .

ولد ترتستان ، كما ولد پارزيڤال ، لأم صغيرة السن تدعى بلانش فلير Blanche fleur (الزهرة البيضاء) ولما يمض إلا وقت قصير على نبأ يأتيها بأن زوجها الأمير قتل فى معركة . ولهذا تسمى الطفل ترستان — أى الحزين — وتموت بعد مولده . ويكفل الولدَ عمُّه مارك Mark ملك كورنول Cornwall ويجعله من الفرسان . ولما بلغ أشده واستوى نبغ فى ألعاب البرجاس وقتل موروالد Morold خصيمه الأيرلندى ، ولكنه يجرح فى المعركة جرحاً مسموماً يقول له عنه موروالد وهو يحتضر إنه لا يشفيه إلا إيزيولت Isenlt ملكة أيرلندة . فيتخفى فى زى تانتريس Tantris العازف على القيثارة ، ويزور أيرلندة وتشفيه ملكتها . ويعين مربياً لابنة الملكة واسمها أيضاً إيزيولت . ويعود بعدئذ إلى كورنوول ويحدث مارك عن جمال إيزيولت الصغيرة وحسن صفاتها وأدبها ، ويرسله مارك مرة ثانية ليخطب له هذه الفتاة . وتأبى إيزيولت أن تفارق وطنها ، وتتبين أن ترستان هو قاتل عمها موروالد فيمتلئ قلبها حقداً عليه ؛ ولكن أمها تقنعها بالرحيل ، وتعطى وصيفتها برنجين Brangane شراباً مسحوراً يبعث الحب

فى القلوب لتسقيه إيزيولت ومارك لتستثير به حبهما . وتخطئ الوصيفة فتسقيه إيزيولت وترستان فلا يلبث الاثنان أن يحتضن كلاهما الآخر ، وتكثر الخيانات ويتفقان على أن يخفيا حبهما ؛ وتتزوج إيزيولت مارك ، وتنام مع ترستان ، وتدبر مكيدة لقتل برنجين لأنها تعرف أكثر مما ينبغى أن تعرفه . ومارك هو الرجل الشهم النبيل فى هذه القصة (وليس الأمر كذلك فى قصة مالورى) ؛ فهو يكشف الخديعة ، ويخبر إيزيولت وترستان أنهما أعز عليه من أن ينتقم منهما ، ويقنع فى ذلك بنفى ابن أخيه من البلاد . ويلتقى ترستان فى تجواله بإيزيولت ثالثة ويقع فى حبها ، وإن كان قد أقسم أن يكون هو وملكة مارك « قلباً واحداً ، وروحاً واحدة ، وجسما واحداً ، وحياة واحدة » . وهنا يترك جتفرايد القصة ناقصة حطمت فيها جميع المثل العليا للفروسية . أما بقية القصة فمن صنع مالورى وعصر متأخر ؛

وأخرجت ألمانيا فى هذا الجيل العجيب ، الجيل الأول من القرن الثالث عشر شاعراً آخر يكون هو وولتر ، وولفرام ، وجنفرايد أربعة لا يدانيهم أربعة سواهم فى أى مكان آخر فى أدب العالم المسيحى فى أيامهم . بدأ هارتمان فن أو Hartman von Aue بتقليد كريتيان تقليداً أعرج فى روايتيه الشعريتين إرك Erec و إوين Iwein ولكنه لما التفت إلى أقاصيص بلاده سوابيا Swabia أخرج آية فنية صغرى هى Der arme Heinrich (حوالى عام ١٢٠٥) . وكان « هنرى المسكين » كما كان أيوب رجلا غنياً يصاب وهو عنفوان مجده بداء الجذام ولا يستطيع أن يشفيه منه إلا موت عذراء طاهرة من أجله (إذ لا بد أن يقول السحر فى العصور الوسطى كلمته فى القصص) . ولا يتوقع هنرى أن يجد هذه التضحية فيستسلم للحزن واليأس ، ولكن فتاة هذه صفاتها فى الوجود ، تعتزم أن تموت كى يشفى هنريخ من دائه الوبيل . ويظن أبواها أن قرارها هذا موحى

به من عند الله فيوافقان على هذا العمل الذى لم يكن أحد يظن أنهما سيوافقان عليه ، وتكشف الفتاة عن صدرها الجميل للنصل . ولكن هنريخ تدب فيه نخوة الرجولة على حين غفلة ، فيأمر بألا تقتل الفتاة ، ويرفض هذه التضحية ، ويمتنع عن العويل ، ويرتضى آلامه معتقداً أنها من عند الله ، وتتبدل روحه بفضل هذه النزعة الجديدة ، فيزول مرضه الجثمانى زوالا سريعاً ، ويتزوج الفتاة التى أنقذته ويعوض هارتمان القصة عما فيها من سخف وبعد عن المعقول بشعره البسيط السلس الخالى من التكلف ، وقد احتفظت ألمانيا بهذه القصيدة حتى هذا العصر القليل الإيمان .

وثمة قصة أجمل منها كتبها شاعر فرنسى غير معروف فى وقت ما فى النصف الأول من القرن الثالث عشر وسماها **هذان هما أوكسان ونيقولت** C'est d'Aucaassin et Nicolette. والقصة نصفها رواية غرامية ، ونصفها سخرية من الروايات الغرامية ، صيغت كما يليق بها أن تصاغ تارة شعراً وتارة نثراً ، ووضعت لها علامات موسيقية بين النصوص الشعرية .

وخلاصتها أن أوكسان ابن الكونت بوكير Beaucaire يغرم بنيقولت متبناة ڤيكونت بوكير . ويعارض الكونت فى زواجه بها لأنه يريد أن يزوج ابنه من أحد البيوت الإقطاعية التى تستطيع أن تمده بالعون فى الحرب ، ويأمر تابعه الڤيكونت أن يخفى الفتاة . ويريد أوكسان أن يراها فيشير عليه الڤيكونت أن « يدع نيقولت وشأنها وإلا فلن يرى الجنة قط » . ويرد عليه أوكسان رداً يتفق مع نزعة التشكك التى أخذت تظهر فى الوقت :

ما شأنى أنا والجنة ؟ إنى لا يهمنى قط أن أدخلها ، وكل الذى يهمنى أن أحظى بنيقولت ... ذلك أن الجنة لا يدخلها إلا القساوسة الطاعنون فى السن ، والشيوخ المقعدون ، والمرضى الذين لا يبارحهم السعال ليلا أو نهاراً أمام مذابح الكنائس ... أما أنا فلا شأن لى بهؤلاء ، بل إنى أريد أن يكون مأواى الجحيم ، لأن الجحيم مثوى العلماء الظرفاء ، والفرسان الأنجاد الذين يقتلون فى ألعاب

الفروسية أو الحروب العوان ، كما هى مأوى النّابل القوى والرجل الوفى :
إنى أريد أن أكون مع هؤلاء . وإليها تذهب السيدات الحسان الظريفات
اللائى لكل منهن أصدقاء — اثنان أو ثلاثة — زيادة على زوجها . وفيها يمر
العازفون ، والمغنون ، وملوك العالم . سأذهب مع هؤلاء إذا كانت نيقولت
صديقتى الحلوة الجميلة إلى جانبى .

ويغلق والد نيقولت باب حجرتها عليها ، كما يحبس والد أوكسان ابنه
فى سرداب أرضى حيث يتغنى الصبى بدواء عجيب مسحور :

نيقولت — يا زهرة الزنبق البيضاء ،
يا أحلى فتاة وجدت فى عريش ،
يا حلوة كالكرمة
التى تفيض بها الكأس المتبلة حلاوة ؛
حدث لك فى يوم من الأيام ،
أن جاء من ليموزين Limousin
حاج متعب خائف ،
يرقد من شدة الألم على فراشه ،
يتقلب ويخشى الموت حين يتنفس ،
مكتئب أشد الاكتئاب ،
قاب قوسين أو أدنى من الموت .
فدخلت يا ذات الطهر والنقاء .
ومشيت بخفة حتى أبصرك الرجل العليل ،
ورفعت ذيل ثوبك المسبل ،
ورفعت الجلباب الموشى بالفراء ؛

ورفعت الشعار وكشفت له بخفة
عن كل عضو فيك جميل .
وحدث وقتئذ حادث عجيب ،
فقد قام فى تلك الساعة سليما معافى ،
وغادر فراشه ، وأمسك بيده الصليب ،
واتجه مرة أخرى نحو بلاده العزيزة .
يا زهرة الزنبق البيضاء الحلوة ،
ما أحلى وقع قدميك !
وما أحلى ضحكك وما أحلى حديثك !
وما أجمل لعبنا معاً !
وما أحلى قبلاتك وما ألين ملمسك !
إن الناس كلهم لا بد مولعون بك(٥١) .

وفى هذه الأثناء تفتل زهرة الزنبق حبلا من أغطية فراشها وتنزل به إلى الحديقة ، وتمسك ذيل ثوبها بكلتا يديها . . . وانزلقت بخفة فوق الندى المتراكم على الكلأ ، وخرجت بهذه الطريقة من الحديقة . وكان شعرها ذهبياً ، جعلت منه غدائر حب صغيرة . وعيناها زرقاوين باسمتين ، ووجهها جميل يسر المرء أن يراه . لها شفتان أشد حمرة من الوردة أو الكرزة فى حر الصيف ، وأسنان بيضاء صغيرة ، وثديان ناهدان يبدوان تحت ثيابها كأنهما رمانتان ، وكانت ذات خصر نحيل تكاد يداك تنطبقان عليه ، وكانت الأزهار التى تتكسر تحت قدميها تبدو سوداء أمام باطنهما وبشرتها . ألا ما أنصع بياض تلك الفتاة الحسناء(٥٢) .

وتتجه سمتها إلى نافذة سجن أوكسان ذات القضبان الحديدية وتقص خصلة من شعرها وتلقيها إليه ، وتقسم أن حبها لا يقل عن حبه . ويرسل والدها من يبحث عنها . فتفر إلى الغابات وتعيش مع الرعاة الذين يعرفون قدرها . ويظن

والد أوكسان بعد مضى فترة من الزمان أنها أصبحت بعيدة عن والده فيطلق سراحه . فيخرج أوكسان إلى الغابات ويبحث عنها وتعترضه فى ذلك البحث حوادث لا تخلو من الهزل ، ثم يعثر عليها ويردفها خلفه على جواده و « يقبلها وهما راكبان » . ويريدان الفرار من أبويها اللذين يتعقبانهما ، فيركبان سفينة يعبران بها البحر المتوسط ؛ وينزلان فى أرض يلد فيها الرجال ، ويحترب الناس بالترامى المرح بالفاكهة . ويعتقلهما محاربون أقل من هؤلاء رقة ، ويفترقان مدى ثلاثة أعوام ، ثم يجتمعان آخر الأمر مرة أخرى ؛ ويموت الوالدان الحانقان لحسن الحظ ، ويصبح أوكسان ونيقولت كونت بوكير وكنتها .

وليس فى أدب فرنسا الموفور الثراء ما هو أبدع من هذه القصة .

الفصل الثامن

الرجوع إلى الهجاء

وكانت الفكاهة التى تخللت فصول هذه القصة توحى بأن الفرنسيين بدأوا يتخمون بالروايات الغرامية . ذلك أن أشهر قصائد العصور الوسطى — وهى القصيدة التى يعرفها من القراء أكثر ممن يعرفون المسلاة الإلهية — بدأت قصة غرامية وانتهت بأن كانت أقوى وأفحش قصيدة هجائية فى التاريخ كله . وتفصيل ذلك أن جيوم ده لوريس Guillaume de Lorris(*)، وهو طالب صغير السن فى أورليان ، كتب حوالى عام ١٢٣٧ قصيدة رمزية كان يقصد بها أن تشمل جميع فنون الحب ، وأن تكون بفضل صبغتها التجريدية نموذجا لجميع الروايات الغرامية وخلاصة لهذه الروايات . ولسنا نعرف عن وليم اللوارى هذا William of the Loire(*) أكثر من أنه كتب الأبيات الأولى البالغ عددها ٤٢٦٦ من رواية الوردة Roman de la rose. وهو يصور نفسه فيها يطوف فى حلمه بحديقة حب فخمة تتفتح فيها كل زهرة معروفة وتشدو فيها جميع الطيور ، وتجتمع فيها أزواج سعيدة تمثل كل ما فى حياة الحب من متعة ونعيم — المرح والسرور ، والأدب والجمال ، ويرقص كل زوجين اثنين من هذه المتع تحت رياسة إله الحب . ذلك دين جديد يحتوى فكرة جديدة عن الجنة تحل فيها المرأة محل الله . وفى هذه الجنه يرى الحالم زهرة أبهى من كل ما يحيط بها من جمال ، ولكنها تحرسها ألف شوكة . وهذه الوردة هى رمز المحبوب . وتتألف من شوق بطل الرواية إلى بلوغها وقطفها قصة جميع الحملات الغرامية التى تثيرها الشهوة المكبوتة التى تثير الخيال وتغذيه . وليس فى القصة كلها إنسان سوى راويها نفسه ، أما من بقى من الممثلين فيها فتجسيد

(*) جيوم هو وليم كما يكتبه الفرنسيون . (المترجم)

لصفات خلقية توجد فى كل القصور التى يطارد فيها الرجال النساء : المظهر الجميل ، والكبرياء ، والنذالة ، والحياء ، والثراء ، والبخل ، والحسد ، والخمول ، والنفاق ، والشباب ، واليأس ، و « الفكر الجديد » نفسه — ومعنى الفكر الجديد هنا هو التذبذب . وأعجب ما فى القصة أن جويوم استطاع بهذه التجريدات أن يقرض شعراً ممتعاً — ولعل سبب ذلك أن الحب أياً كان عصره وأياً كان مظهره فيه من المتعة بقدر ما فى الدم من حرارة(*) .

ومات وليم صغير السن دون أن يتم قصيدته ؛ وظل العالم أربعين عاماً حائراً لا يدرى هل فعل المحب الذى أصابه كيوبد إله الحب بسهمه فأخذ يرتجف من شدة الحب ، نقول هل فعل أكثر من أن يقبل الوردة . ثم أمسك فرنسى آخر يدعى چان ده مونج Jean de Meung بالشعلة ، وبلغ بها أكثر من اثنين وعشرين ألف بيت من الشعر فى قصيدة بينها وبين قصيدة وليم من البعد مثل ما بين ربليه وتنيسن Tennyson . ذلك أن مرور جيل من الزمان قد بدل مزاج القوم ؛ وأن الروايات الغرامية قد استنفدت إلى حين كل ما عندها من حديث ، وأخذت الفلسفة تغشى بستار العقل شعر الإيمان ؛ وكانت الحروب الصليبية قد أخفقت ، وبدأ عصر الشك والهجاء . ويقول بعضهم إن چان كتب الجزء العاصف العجاج الذى أكمل به القصيدة بناء على إشارة الملك فليب الرابع الذى بعث بمحاميه المتشككين ليضحكوا فى وجه البابا . وكان مولد چان كلوپنل Jean Clopinel فى مونج القائمة على شاطئ نهر اللوار حوالى عام ١٢٥٠ ، ودرس الفلسفة والأدب فى باريس ، وأصبح من أعظم رجال زمانه تبحرا فى العلوم . ولسنا ندرى أى عامل من عوامل الشر والفساد أغراه بأن يسخر علمه ، وبغضه للكهنوتية ، واحتقاره للمرأة والروايات الغرامية ،

(*) لا تقل ترجمة تشوسر للنصف الأول من قصيدة رواية الوردة "The Romaunt of the Rose" فى جمالها عن أصلها الذى كتبه وليم نفسه .

أن يسخر هذا كله ليكمل به أعظم قصيدة غرامية فى الأدب كله . فقد أخذ چان يبسط آراءه فى جميع الموضوعات من خلق العالم إلى يوم الحساب بينا ينتظر الحبيب المسكين فى الحديقة طوال هذا الوقت ليقطف الوردة . ويصوغ أبياته فى شعر من نفس البحر ذى الثمانية المقاطع والقافية الواحدة فى كل بيتين كالذى صاغ فيه وليم قصيدته ، ولكنه بما فيه من حماسة وطرب بعيدٌ كل البعد عن أشعار وليم الحالمة . وإذا كان قد بقى فى قلب چان شىء من الغرام فقد كان ذلك هو صورة أفلاطون الخيالية للعصر الذهبى فى الماضى « لا يقول أحد فيه إن هذا الشىء أو ذاك ملك له ، ولا يعرف فيه الناس الشهوات أو السلب والنهب » ، ولم يكن فيه سادة إقطاعيون ، ولا دولة ، ولا قانون ، يعيش الناس فيه دون أن يأكلوا اللحم أو السمك أو الطير ، و « تكون فيه جميع خيرات الأرض ملكا مشاعاً بينهم »[٥٣] . وليس چان متحرراً من الدين ، فهو يقبل عقائد الكنيسة دون أن يحط من قدرها ، ولكنه يبغض « أولئك الفجار البدن المترفين ، والإخوان المتسولين ، الذين يخدعون الناس بالألفاظ الكاذبة ، ويملأون بطونهم باللحم والشراب »[٥٤] وهو لا يطيق المنافقين ، ويوصيهم بأكل البصل والثوم ليتيسر لهم أن يذرفوا دموع التماسيح[٥٥] . ويقر بأن « حب امرأة ظريفة » خير ما فى الحياة من نعم ، ولكن يبدو أنه لم يتذوق قط هذه النعمة[٥٦] ، ولعله لم يكن خليقاً بأن يتذوقها لأن الهجاء لم يكن قط طريق كسب فتاة حسناء ؛ ولأن چان كان شديد التأثر بأوفد ، وقد تتلمذ عليه إلى حد جعله يفكر فى وسائل الانتفاع بالنساء ، ويُعَلِّم غيره هذه الوسائل ، أكثر مما يحبهن . وهو يجهر بأن الاقتصار على زوجة واحدة سخف ، لأن الطبيعة قد أعدت الكل للكل — كل النساء لكل الرجال . وهو يُنطق الرجل المشبع بهذه الأبيات يؤنب بها زوجته المزدانة :

وماذا تجدى هذه المظاهر كلها ؟
وأى نفع يعود على من الأثواب الغالية وهذه الحلل ذات القطع
الشاذ الغريب ؟
وماذا يعنينى من هذه العصائب التى تلوين بها شعرك وتعقصينه ،
وتجدلينه بخيوط من الذهب ؟ ولماذا تطعمين بالعاج
مرايا مرصعة بالميناء ، منشورة عليها دوائر ذهبية ؟
وما شأن هذه الجواهر الخليقة بتيجان الملوك ،
لؤلؤ وياقوت أحمر وأزرق جميل ، يبعث فيك الغرور الجنونى
الممقوت ؟
وما جدوى هذه الأقمشة الغالية !
والطيات المثناة المجدولة ، والمناطق التى تطوقين بها خصرك .
محلاة ومزدانة بالنقوش الكثيرة ؟
ثم قولى لم تختارين أن تلبسى فى قدميك حذاءين ملتمعين
إلا إذا كنت تشتهين أن تكشفى عن ساقيك الجميلتين ؟
قسما بالقديس ثيبو Thibaud لأبيعن هذه الأشياء الغثة
قبل أن تمضى من هذا الوقت ثلاثة أيام ، ولأنبذنك نبذ الثوب
الخلق !(٥٧) .

وإنا لنجد بعض السلوى حين نعرف أن إله الحب يهاجم فى آخر الأمر ، على رأس أتباعه الذين يخطئهم الحصر ، البرج الذى يقوم فيه الخطر ، والحياء ، والخوف (تردد السيدة) بحراسة الوردة ، ويُدخل الترحابُ الحبيبَ إلى الكعبة الداخلية ويتركه يقتطف أمل أحلامه . ولكن أ لهذه الخاتمة الغرامية التى طال انتظارها أن تمحو ١٨٫٠٠٠ بيت من الواقعية الفظة والبذاءة الساخرة ؟

وكان أكثر ما يقبل الناس على قراءته فى أوربا الغربية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر كتبٌ ثلاثة هى رواية الوردة ، والقصة الذهبية ، وريتار

الثعلب . وبدأت قصة Reynard باللاتينية فى إيسنجرينس Ysingrinus حوالى عام ١١٥٠ ثم انتقلت منها إلى عدة لغات قومية بأسماء مختلفة Roman de Renart ، Reynard the Fox ، Reineke de Vos ، Reinaert ؛ وانتهى تطوافها برواية Reineke Fuchs لجيته . وأضاف مؤلفون مختلفون نحو ثلاثين قصة مرحة لهذه السلسلة حتى بلغ مجموعها ٢٤٫٠٠٠ بيت خصصت كلها تقريباً لهجاء الإساليب الإقطاعية ، وحاشية الملوك ، والاحتفالات المسيحية ، والعيوب الآدمية على لسان الحيوان .

ويحتال رينال الثعلب حيلا شيطانية على الأسد نوبل Noble (الشريف) ملك الدولة ، ويُعطّر درع نوبل بالسيدة هاروج Dame Harouge الفهدة ، وينصب لها من الدسائس ما لا يقل عن دسائس تليران Tallyrand حتى ترضى أن تكون عشيقته . ويسترضى نوبل وغيره من الوحوش بأن يهب كلا منها طلسما ينبئ الزوج بخيانات زوجته . وبهذه الطريقة تنكشف مخاز رهيبة ، ويضرب الأزواج زوجاتهم الخائنات ، فتفر الزوجات ويحتمين برنار فيتخذهن جميعاً حريماً له . وتقول إحدى القصص إن الحيوانات تشتبك فى ألعاب الفروسية ، وتبدو بأثواب الفرسان الزاهية فى استعراض رائع . وترى الثعلب فى قصة رينار الميت La Mort Renart يحتضر ؛ ويقبل برنار Bernard الحمار كبير أساقفة الحاشية ليقوم له بالمراسم الدينية ، ويخاطبه بلغة توفى على الغاية فى العاطفة والإخلاص ، ويتصنع منتهى الجد والوقار . ويعترف رينار بذنوبه ، ولكنه يشترط إذا شفى من مرضه أن يصبح فى حل من يمينه غير مقيد بها . وتدل المظاهر كلها على أنه مات ، وتجتمع كل الوحوش الكثيرة العدد التى خانها فى زوجاتها ، أو ضربها ، أو مزق لحمها ، أو خدعها ، تتظاهر بحزنها ، ولكنها فى خبيئة أمرها سعيدة بموته . ويلقى كبير الأساقفة على قبر الميت عظة شبيهة بأقوال ربليه ، ويلوم رينار لأنه كان يرى « أن كل شىء حسن إذا استطعت أن

تستحوذ عليه » . ولكن رينار تدب فيه الحياة حين يرش عليه الماء المقدس ، ويقبض على عُنق شانتكلير (الديك) وهو يطوح بالمبخرة ، ويخرج إلى الغابة بفريسته . وبعد فإذا أراد الإنسان أن يفهم العصور الوسطى على حقيقتها فعليه ألا ينسى رينار .

ذلك أن قصة رينار أعظم القصص الخرافية التى تروى على لسان الحيوان لهجاء الإنسان . وكانت هذه القصص عادة تكتب بالشعر ذى الثمانية الأوتاد ، ويتراوح طولها بين ثلاثين بيتاً وألف بيت ؛ ومنها ما هو قديم يرجع إلى عهد إيسوب Aesop أو إلى أقدم من عهده ، وجاء بعضها من بلاد الهند عن طريق المسلمين . وكان أكثره قذفاً فى حق النساء أو القسيسين ، يحسد النساء على ما حبتهن الطبيعة من سلطان ، والقسيسين على ما لهم من قوى غير طبيعية ؛ يضاف إلى هذا أن النساء والقساوسة قد عابوا على المغنين تلاوة القصص الخرافية الشائنة . ذلك أن الخرافات كانت تتجه على الدوام لأصحاب البطون القوية ، وتستخدم لغة الحانات والمواخير ، وصاغت آلافاً من الفكاهات شعراً . ولكن تشوسر ، وبوكاشيو ، وأريستو Ariosto ، ولافنتين ، ومائة غيرهم من القصاصين استمدوا من معينها الفياض كثيراً من القصص المثيرة للدهشة .

وكانت نهضة الشعر الهجائى سبباً فى انحطاط منزلة الشعر الغنائى . واشتق الشعراء المغنون الجوالون اسمهم Minstrels الإنجليزى من لفظ Ministeriales ، وهم فى الأصل خدم فى حاشية البارونات ، اشتقوا اسمهم الفرنسى Jonglenurs من اللفظ اللاتينى ioculator أى صاحب النكات . وقد قام هؤلاء بوظيفة شعراء اليونان الدوارين والماجنين الرومان ، وشعراء اسكنديناوة القدماء ، والمغنين الأنجليسكسون ، وشعراء ويلز وأيرلندة المداحين . وكان المغنون حين بلغت الروايات الغنائية قمة مجدها فى القرن الثانى عشر يقومون مقام الطباعة فى هذه الأيام ؛ وقد احتفظوا بمكانتهم بما كانوا يروونه أحياناً من القصص الخليقة بأن

تسمى أدباً . فكان الواحد منهم يمسك بقيثارة أو الكمان الكبيرة وينشد الأغانى أو القصص القصيرة ، أو الملاحم ، أو قصص مريم أو القديسين ، وأغانى أعمال الأبطال ، والروايات الغرامية أو خرافات الحيوانات(*) . وإذا حل موسم الصوم الكبير ، وقل عليهم الطلب ، عقدوا إذا استطاعوا مؤتمراً للمغنين والماجنين كالمؤتمر الذى نعرف أنه عقد حوالى عام ١٠٠٠ ؛ وفيه يتعلم بعضهم ما عند البعض الآخر من حيل وأساليب ، وما عند شعراء الفروسية الغزلين والقصاصين من أغان وقصص جديدة . ومنهم من كان يرضى ، إذا تبين أن أقواله ذات طابع عقلى أقوى مما يطيقه المستمعون ، أن يسلوهم بالشعوذة ، والألعاب البهلوانية ، وثنى الأجسام ، والمشى على الحبال . ولما أخذ القصاصون يتنقلون فى المدن يروون أقاصيصهم ، ولما انتشرت عادة القراءة وقل الطلب على القصاصين ، تحول المغنى الجائل تدريجاً إلى ممثل للمهازل ذات الأغانى والرقص ، وأصبح المغنى فى واقع الأمر مشعوذاً ، يقذف بالسكاكين ، ويحرك الدمى ، ويعرض ألعاب الدببة المدربة ، والقردة ، والخيل ، والديكة ، والكلاب ، والجمال ، والآساد . ومن المغنين من حول خرافات الحيوانات إلى روايات هزلية ، ومثلها دون أن يمحو ما فيها من فحش . وقاومت الكنيسة شيئاً فشيئاً هذه الطائفة ، وحرمت على الصالحين الاستماع إلى أفرادها ، وعلى الملوك أن يطعموهم ، وكان هونوريوس أسقف أوتون Autun يرى أن أحداً من أولئك المغنين أو القصاصين لن يدخل الجنة .

وكان حب الشعوب لأولئك المغنين والقصاصين ورواة خرافات الحيوانات ، والترحيب الصاخب الذى لقيته ملحمة جان ده مونج عن الطبقة الوسطى

(*) ما أشبه هؤلاء « بالشعراء » الذين ينشدون على الربابة قصص أبى زيد الهلالى وغيره من الأبطال والذين أخذوا مع الأسف الشديد ينقرضون فى هذه الايام . (المترجم)

bourgoisie من الطبقات المتعلمة الجديدة وطلبة الجامعات المتمردين ؛ كان هذا خاتمة ذلك العصر . نعم إن الروايات الغرامية ظلت باقية ، ولكنها كانت تتحداها من كل ناحية القصائد الهجائية ، والفكاهات ، والمزاج الدنيوى الواقعى الذى يسخر من قصص الفروسية قبل أن يولد سرڤنتير Cervantes بزمن طويل . وظل الهجاء قرناً كاملا من ذلك الوقت هو المسيطر على الميدان ، يقرض بأنيابه قلب الإيمان ، حتى تزعزت جميع دعائم صرح العصور الوسطى ، وتحطمت أضلاعه ، وتركت نفس الإنسان مزهوة تترنح على حافة العقل .

الباب التاسع والثلاثون

دانتى

١٢٦٥ – ١٣٢١

الفصل الأول

شعراء الفروسية الغزلون الإيطاليون

كان بلاط فردريك الثانى فى أبوليا هو المكان الذى ولد فيه الأدب الإيطالى . وربما كان لمن فى حاشيته من المسلمين نصيب فى الحافز الباعث على نشأة هذا الأدب لأن كل مسلم يعرف القراءة والكتابة فى ذلك الوقت كان يقرض الشعر . وشاهد ذلك أن سيلودالكامو Cillo d'Alcamo (حوالى عام ١٢٦٠) كتب « حواراً » جميلا « بين عاشق وسيدة » . وتكاد مدينة ألكامو إحدى مدن صقلية تكون مدينة إسلامية . ولكن أثراً أقوى من أثر المسلمين جاء إلى الجزيرة من شعراء الفروسية الغزلين فى پروڤانس . فقد كان هؤلاء يرسلون أشعارهم ، أو يأتون بأنفسهم ، إلى فردريك وأعوانه المثقفين ، وكان هو يجلهم ويقدر جهودهم . ولم يكن فردريك نفسه يناصر الشعر فحسب ، بل كان فوق ذلك يكتبه ، ويكتبه باللغة الإيطالية . وقد ألف كبير وزرائه پيرو دل ڤنى Piero delle Vigne أغانى ممتازة ، وربما كان هو الذى صاغها فى تلك الصيغة المجهدة . وكان ريناldo داكوينو Rinaldo d'Aquino (أخو القديس تومس) والذى كان يعيش فى بلاط فردريك ، وجيلودلى كولن

Iacopo da Lentino القاضى ، وياقوبو دالنتينو Guido delle Colonne
أحد مسجلى الصكوك فى بلاط فردريك ، كان هؤلاء جميعاً من بين شعراء
تلك « النهضة الأبولية » . وإنا لنجد فى أغنية ياقوبو (كتبت حوالى ١٢٣٣)
أى قبل مولد دانتى بجيل من الزمان ، ما نجده فى قصائد الحياة الجديدة
Vita Nuovo من رقة العاطفة وجمال الصقل :

أجد فى قلبى قوة تدفعنى إلى أن أخدم الله ،
لكى يكون مثواى الجنة
المكان المقدس الذى سمعت أن البهجة والنعيم
يفيضان فى كل مكان فيه .
غير أنى أكره الذهاب إليها من غير حبيبتى
ذات الوجه المتلألئ والشعر البراق ،
لأنى أعرف أنها إن غابت عنها وكنت أنا فيها
كان نعيمى أقل من لا شىء .
ولكن حذار أن تظن أنى أقول هذا
لأنى سأرتكب فيها الآثام ،
بل كل ما أبغيه أن أشاهد طلعتها البهية ،
وعينيها الناعستين الجميلتين ، ووجهها الصبوح
حتى تتم بذلك سعادتى
برؤية سيدتى مبتهجة فى مكانها !

ولما أن سافر فردريك وحاشيته فى بلاد إيطاليا أخذ معه شعراءه وحيواناته
البرية ، ونشر هؤلاء الشعراء أثرهم فى لاتيوم ، وتسكانيا ، ولمباردية . وسار
ابنه مانفرد Manfred على سنته فى مناصرة الشعر وكتب مقطوعات غنائية
استحقت ثناء دانتى . وتُرجم كثير من الشعر « الصقلى » إلى لغة تسكانيا ، وكان

له نصيب فى تكوين مدرسة الشعراء التى انتهت إلى دانتى . وحدث فى ذلك الوقت عينه أن هجر شعراء الفروسية الغزلون الفرنسيون بلاد لانجويدك Languedoc التى مزقتها الحروب الدينية ، ولجأوا إلى بلاد الحكام الإيطاليين ، وعلموا شعراء تلك البلاد فنهم المرح ، كما علموا النساء الإيطاليات أن يرحبن بقصائد المديح ، وأقنعوا كبار الإيطاليين بأن يجزلوا العطاء للشعراء وإن توجهوا بشعرهم إلى زوجاتهم ، وقد بالغ بعض شعراء التسكان فى تقليد شعراء الفروسية فكتبوا شعرهم بلغة پروڤنسال نفسها للفرنسيين . ومن هؤلاء سردلو Sordello (حوالى ١٢٠٠ — ١٢٧٠) وهو شاعر ولد فى منتوا Mantua بلدة ڤرچيل ، وأتى ما أغضب إزلينو Ezzelino الرهيب ؛ ففر إلى پروڤانس ، وكتب بلغة تلك البلاد قصائد فى الحب الروحانى الأفلاطونى .

ونشأ من هذه العاطفة الأفلاطونية ، بمزيج عجيب من الميتافيزيقا والشعر ، « الأسلوب الحلو الجديد » التسكانى . ذلك أن الشعراء الإيطاليين خرجوا على الشهوانية الصريحة التى وجدوها عند المغنين من شعراء پروڤانس ، وآثروا أن يحبوا ، أو ادعوا أنهم يحبون ، النساء بوصف كونهن ممثلات للجمال النقى المجرد ، أو كونهن رموزاً للحكمة أو الفلسفة الإلهيتين . وكانت هذه نغمة جديدة فى إيطاليا التى عرفت مائة ألف من شعراء الغزل . وربما كان قلم القديس فرانسس هو الذى حرك هذه الأقلام العفيفة ، أو لعل كتاب الخلاصة لتومس أكوناس كان شديد الوطأة عليهم ، أو لعلهم شعروا بتأثير المتصوفة المسلمين الذين لم يكونوا يرون فى الجمال غير الله ، والذين كانوا يوجهون قصائد الحب للخالق جل وعلا .

وتكونت المدرسة الحديثة من سرب من المغنين العلماء ، فأخذ جونزلى Guinizelli (١٢٣٠ ؟ — ١٢٧٥) أحد مواطنى بولونيا ، الذى سماه دانتى والده فى الأدب[٣] ، يتغنى بفلسفة الحب الجديدة أغنية ذائعة الصيت سماها أغنية « القلب الرقيق » ، وطلب فيها أن يغفر له الله حبه معشوقته لأنها فى رأيه الألوهية

مجسدة ؛ ونشر لاپاجيني Lapa Gianni ، وديثو فرسكوبلدى Dino Frescobaldi ، وجيدو أرلندى Guido Olandi ، وسينودا پستويا Cino da Pastoia ، نشر هؤلاء الأسلوب الجديد فى شمالى إيطاليا ؛ وجاء به إلى فلورنس جيدو كفلكنتى Guido Cavalcanti (حوالى ١٢٥٨ — ١٣٠٠) صديق دانتى وأظرف من عبر عن هذا الأسلوب قبل الشاعر الكبير . وكان جيدو من الأشراف ، ولهذا كان يختلف عن سائر هؤلاء الشعراء العلماء ، وكان زوج ابنة فاريناتا دجلى أبرتى Farinata degli Uberti الذى قاد حزب الجبلين Ghibelline فى فلورنس . وكان من أصحاب التفكير الحر فى الدين ومن المقتنعين بفلسفة ابن رشد ، متشككا فى الخلود وفى الله نفسه[٤] . واضطلع بدور إيجابى ، عنيف فى الشئون السياسية ، وأصدر دانتى ومن معه من الرؤساء فى عام ١٣٠٠ قراراً بنفيه ؛ فلما أصابه المرض عفى عنه ، ومات فى ذلك العام نفسه . وكان عقله الأرستقراطى المتكبر ألبق ما يكون لصياغة الأغانى فاترة تماثل فى رقتها الأغانى القديمة :

جمال النساء ؛ وقرار الإرادة العليا ؛
والفرسان الأنجاد المسلحون لألعاب الرجولة ؛
وشدو الطير الجميل ؛ وإجابات المحب الحلوة ؛
وقوة السفن المسرعة فوق متن البحار ؛
والهواء الصافى حين يبدأ الضوء أن يكون ؛
والثلج الأبيض ، الذى يسقط ويستقر فى سكون الريح ؛
وحقول الأزهار ، والمكان الذى ينبع منه الماء ؛
والفضة والذهب ، وزرقة الجواهر :
إذا وزنت أمام مالى من قيمة
فى قلب سيدتى العزيزة على

فإنها تبدو ضئيلة . وفى الحق أنى لأسمو فى نظرها
على هذه كلها وأعلو عنها علو السماء عن الأرضين
وكل خير سرعان ما يمتد للخلائق الأقربين (٥)

وأخذ دانتى الشىء الكثير عن جيدو وقلد أغانيه ، ولعله مدين له بعزمه على كتابة الملهاة المقدسة The Divine Comedy باللغة الإيطالية . وشاهد ذلك قول دانتى نفسه : « وقد رغب إلى فى أن أكتب له على الدوام بلغة البلاد لا باللغة اللاتينية »(٦) . وكن أسلاف دانتى هم الذين بدلوا فى القرن الثالث عشر فجاجة اللغة الجديدة وعجزها إلى نغمتها الحلوة ، وإلى العبارات المركزة الدقيقة التى لا تضارعها فيها لغة أخرى من اللغات الأوربية ، وهم الذين خلقوا لغة يستطيع دانتى أن يسميها : « فخمة ، أصيلة ، مهذبة ، عظيمة »(٧) — تليق لأن يكتب بها أعظم العظماء . وكانت أشعار البروفنساليين تبدو إذا قيست إلى أغانى الإيطاليين ناشزة غير متناغمة ، وقصص الأبطال الشعرية ، وغناء المغنين الجائلين تكاد تكون بالنسبة لها تافهة حقيرة . ولم يعد الشعر فى هذه الأغانى الإيطالية مصرفا للثرثرة المرحة ، بل أصبح عملا من أعمال الفن القوية المحكمة يبذل فى صياغته من الجهد ما بذل نقولا لاپيزانو وولده فى نحت تماثيل المنابر . وبعد فإن من أسباب عظمة الرجل العظيم أن رجالا أقل منه قد مهدوا له السبيل ، وهيئوا لعبقريته مزاج عصره ، وشكلوا له أداة يمسكها بيديه ، وأسلموه عملا أنجزوا نصفه .

الفصل الثاني

دانتي وبياتريس

في شهر مايو عام ١٢٦٥ وَلَدَتْ بلاّ ألجيري Bella Alighieri لزوجها ألجيرو ألجيري Alighiero Aligieri ولدا سموه دورانتي Duarante ألجيري ، ولعلهما لم يفكرا في ذلك الوقت أن معنى هذين اللفظين هو حامل الجناح الطويل البقاء . ويبدو أن الشاعر نفسه هو الذي اختصر اسمه الأول فجعله دانتي[٨] . وكان لأسرته سلسلة نسب طويلة في فلورنس ، ولكنها حلت بها الفاقة ، وماتت والدة الطفل في السنين الأولى من عمره ، وتزوج ألجيري غيرها ، ونشأ دانتي مع زوجة أبيه ، وأخ له غير شقيق ، وأختين غير شقيقتين ، ولعله لم يكن سعيداً معهم[٩] . ومات والد دانتي حين كان ابنه في الخامسة عشرة من عمره ، وخلف لهم عبئاً من الديون[١٠].

وكان دانتي يذكر من بين مدرسيه برونتو لاتيني Brunetto Latini ولا ينسى فضله عليه . وكان برونتو حين عاد من فرنسا قد اختصر موسوعته الفرنسية الكنز Tresor إلى موسوعة إيطالية صغرى سماها الكنيز Tesoretto وتعلم منه دانتي كيف يخلد الإنسان ذكره Come l'uom s'eterna[١١] . وما من شك في أن دانتي قد درس فرجيل ، وأنه وجد في دراسته لذة كبيرة ، فهو يحدثنا عن أسلوب شاعر مانتوا الجميل ، وهل يوجد طالب سواه أحب كتاباً من كتب القدماء حباً جعله يسير وراء مؤلفه في الجحيم ؟ ويشير بوكاشيو إلى أن دانتي كان في بولونيا عام ١٢٨٧ . وحصل الشاعر في هذه البلدة أو في مكان سواها قدراً يؤسف له من العلوم ومن فلسفة المعجزات التي كانت منتشرة في زمانه

جعل قصيدته مثقلة بعلمه الواسع الغزير . وكان مما تعلمه فضلا عن هذا ركوب الخيل ، والصيد ، والمثاقفة ، والتصوير ، والغناء . ولسنا نعرف كيف كان يحصل على قوته ، وأيا كانت سبيله فى تحصيله فإنه كان يقبل فى الأوساط المثقفة ، لصداقته لكفلكنتى إن لم يكن لأسباب أخرى مضافة إلى هذه الصداقة ، وقد وجد فى هذه الأوساط كثيراً من الشعراء .

وبدأت أشهر الحوادث الغرامية كلها حين كان دانتى وبياتريس كلاهما فى سن التاسعة . وكانت بدايتها كما يقول بوكاشيو فى حفلة من حفلات أول مايو أقيمت فى بيت فلكو برتنارى Folco Portinari أحد كبار المواطنين فى فلورنس . وكانت « بيس » الصغيرة ابنة فلكو ، والراجح أيضاً أنها هى التى يتحدث عنها دانتى باسم بياتريس[١٢] ، ولكن هذا الرجحان لا يقرب من التأكيد قرباً يزيل شكوك المتزمتين . ولسنا نعرف شيئاً عن هذا اللقاء الأول إلا من الوصف الذى كتبه عنه دانتى بعد تسع سنين من ذلك الوقت فى ڤيتا نيوڤو Vita nuovo وخلع عليها فيه من الصفات ما جعلها مثلا أعلى قال :

كان لباسها فى ذلك اليوم من أبدع الملابس ، فقد كان ذا لون قرمزى هادئ جميل ، وكانت ممنطقة ومزينة بما يناسب سنها الصغيرة . وإنى لأقول صادقاً كل الصدق إن روح الحياة المستكنة فى أعمق خبايا القلب أخذت من تلك اللحظة ترتجف ارتجافاً عنيفاً اهتزت معه جميع أجزاء جسمى ، وقالت وهى تهتز : « هاهى ذى إلهة أعظم منى قوة مقبلة لتسيطر على » وأصبحت من تلك اللحظة عبداً لهواها[١٣] .

إن فتى يقترب من سن البلوغ لفتى ناضج لهذا الارتجاف متأهب له ؛ ولقد عرف معظمنا هذه التجربة ، وفى وسعنا أن نعود بذاكرتنا إلى ذلك العشق السريع الزوال ، ونرى أنه من أكثر التجارب التى تعترض شبابنا روحانية ، وأنه يقظة عجيبة خفية من يقظات الجسم والروح ، ندرك بها الحياة ، والصلات

الجنسية ، والجمال ، ونقص الواحد منا بمفرده ، وإن كان الإنسان مع هذا لا يدرك وقتئذ رغبة الجسم فى الجسم ، بل كل ما فى الأمر أنه يتوق فى حياء لأن يكون قريباً من حبيبته ويخدمها ، ويستمع إلى حديثها ، ويراقب ظرفها ورشاقتها . وإذا ما وهبت نفس الشاب حساسية كحساسية دانتى — أى إذا كان ملتهب العاطفة قوى الخيال ، فقد يبقى هذا الإلهام وذاك النضوج فى ذاكرته مدى الحياة ، ويظل أبد الدهر حافزاً قوياً له . ويصف لنا دانتى كيف كان يتحين الفرص ليرى بياتريس ، وإن لم تتح له إلا نظرة لها دون أن تراه هى ؛ ثم يبدو أنه ظل لا يراها تسع سنين ، حين بلغا الثامنة عشرة من عمرهما ، وفى هذا يقول :

واتفق أن تبدت لى هذه الفتاة العجيبة فى أثواب ناصعة البياض بين سيدتين من كرائم العقائل أكبر منها سناً . وبينا كانت تجتاز الشارع التفتت إلى الناحية التى كنت واقفاً فيها يجللنى الحياء ، وحبتنى بفضل لا أستطيع وصفه ... إذ سلمت على وهى مشرقة البهجة ، تحيط بها هالة من الفضيلة والروعة ، خيل إلى معها فى تلك اللحظة وتلك البقعة أننى قد نلت منتهى ما أصبو إليه من السعادة ... ثم غادرت ذلك المكان ثملا بنشوة من الفرحة ... وفى هذه اللحظة اعتزمت أن أؤلف أغنية ، فقد كنت أنزع إلى حد ما أن أقول الحديث المقفى(١٤) .

وهكذا نشأت سلسلة أغانيه وتعليقاته المعروفة باسم **الحياة الجديدة** La vitá nuovo ، إذا جاز لنا أن نصدق ما قاله هو عن نفسه . وأخذ فى فترات من التسع السنين التالية (١٢٨٣ — ٩٢) يؤلف مقطوعاته الغنائية ، ثم أضاف إليها النثر فيما بعد . وكان يرسل إلى كفلكانتى المقطوعة إثر المقطوعة ، وكان كفلكانتى يحتفظ بها ، وأصبح من ذلك الوقت صديقاً له . والقصة الغرامية التى تحدثنا عنها هذه الأغانى من المبتكرات الأدبية إلى حد ما ، وإن ذوقنا الذى تبدل فى هذه الأيام ليمج هذه القصائد لما فيها من تأليه للحب تأليها مسرفاً فى الخيال كما كان يفعل شعراء الفروسية الغزلون ، وللأحاديث المدرسية المملة التى

يفسدها بها ، وما تحتويه من البحوث الخفية الغامضة حول الثلاثات والتسعات .
لهذا كان من الواجب علينا أن نغض الطرف عن هذه العيوب التي هي في الحق عدوى زمانه :

يقول المحب فيها : «كيف يمكن أن يكون الجسم وهو من تراب نقياً هذا النقاء ؟ » .
ثم يقسم وهو لا ينفك يحدق فيها : « حقاً إنها لمخلوق من خلق الله لم يعرف من قبل » .
إن لها من شحوب الدرة القدر الخليق بالمرأة الجميلة لا أكثر منه ولا أقل
ولقد سمت بالقدر الذي يمكن أن تسمو به الطبيعة وإبداع الخالق ،
بها يقاس الجمال ، وكل ما وقعت عليه نظراتها الحلوة
خرجت منه أرواح الحب ملتهبة . فإذا نظر الناس إلى هذه الأرواح
سرت في عيونهم وأصابت سهام تلك العيون شغاف قلوبهم .
وفي بسماتها ترى الحب مجسما فلا يستطيع إنسان أن يطيل النظر إليها(١٥)

وبعض النثر أبعث على السرور من الشعر :

فإذا ظهرت في مكان ما ، خيل إلي وأنا أؤمل أن تحييني تحيتها الجميلة ، أن لم يبق لي في العالم كله عدو ، وغمرني في ذلك الوقت فيض من المحبة لا أشك معه في أنني سأعفو عن كل من أساء إليّ مهما تكن إساءته ... ومشت يجللها التواضع ، فلما أن غادرت المكان قال كثيرون ممن فيه : « ليست هذه امرأة ، وإنما هي ملَك جميل هبط من السماء » . وإني لأقول بحق إن فيها من الرقة والظرف ما يبعث في نفس كل من ينظرون إليها هدوءا وسكينة يعجز البيان عن وصفهما(١٦) .

وليس في هذا الافتتان ، الذي نحسبه متكلفاً ، إشارة إلى فكرة زواجه من

بياتريس . ولقد تزوجت بالفعل فى عام ١٢٨٩ من سيمون ده بارى Simone de, Bardi ، وهو عضو فى شركة مصرفية كبرى . ولم يهتم دانتى بهذا الحادث العرضى ، بل ظل يكتب فيها القصائد دون أن يذكر اسمها ، فلما ماتت بياتريس بعد عام من زواجها وهى فى الرابعة والعشرين من عمرها ، رثاها الشاعر بقصيدة هادئة ذكر فيها اسمها لأول مرة ، وجاء فيها :

صعدت بياتريس إلى السموات العلى ،
إلى الملكوت الذى يتمتع فيه الملائكة بالسلام :
فهى تعيش معهم ، وإن فقدها الأصدقاء ،
ولم يدفعها إليه زمهرير الشتاء ، كما يدفع غيرها من الناس
لا ولا حر الصيف اللافح ،
وإنما اندفعت بغير هذا وذاك ، بلطفها الكامل ،
لأن هالة عظيمة خرجت من نور جبينها الوضاء ،
فأثارت الدهشة فى نفس الخلاق الأزلى ،
وسرت فيه رغبة حلوة فى ذلك الجمال البارع ،
فأمرها أن تتوق إليه فى علاه ،
لأنه رأى أن هذا المكان الممل الخبيث
غير جدير بكل هذا اللطف وتلك الرقة(١٧) .

ويصورها فى قصيدة أخرى يحيط بها فى الجنة من يقدمون لها فروض الولاء ، ثم يقول :

وبعد أن كتبت هذه المقطوعة ، قدر لى أن أرى رؤى عجيبة . إذ أبصرت أشياء اعتزمت بعدها ألا أقول شيئاً قط عن هذه السيدة المنعمة ، إلى أن يحين الوقت الذى أستطيع فيه أن أتحدث عنها حديثاً أجدر بها . وأنا أبذل ما وسعنى من جهد لبلوغ هذه الغاية ، كما تعرف هى بحق . ومن أجل هذا فإذا أراد الله

باعث الحياة فى كل شىء أن يطيل حياتى عدداً قليلا من السنين ، فإنى أرجو أن أكتب فيها ما لم يكتب من قبل فى أية امرأة سواها ؛ فإذا فعلت فقد يرى المنعم المتفضل أن تغادر روحى هذه الأرض لتتملى بمجد سيدتها ، أعنى مجد بياتريس السعيدة التى لا تنفك الآن تتطلع إلى وجه الله العلى القدير .

وهكذا ، أخذ كما يقول فى ختام كتابه الصغير يتطلع إلى وضع كتاب أكبر منه وأعظم ، « وأخذت مقطوعاتى تتابع بلا انقطاع من أول يوم رأيت فيه وجهها فى هذه الحياة ، حتى رأيت هذه الرؤيى » التى يختتم بها أقواله فى الجنة[١٨] . وقلما عرفنا إنسانا رسم طريقاً واضح المنهج ، ولم يحد عنه مهما صادفه من صروف الدهر وطوارق الحدثان .

الفصل الثالث

الشاعر فى غمار السياسة

بيد أنه حاد فى بعض الأحيان عن صراطه المستقيم . فقد تورط دانتى بعد موت بياتريس بوقت ما فى حب خفيف بعد حب خفيف — أحب « پيترا Pietra » ، « وبرجلتا Paragoletta » و « ليزتا Lisetta » « وغيرهن من الأباطيل التى لم ينتفع بهن إلا زمناً قصيراً »[١٩] وقد وجه إلى سيدة واحدة — يسميها السيدة الظريفة قصائد غزلية — أقل روحانية من قصائده إلى بياتريس . ثم تزوج فى عام ١٢٩١ وهو فى السادسة والعشرين من عمره جمادوناتى Gemma Donati ، وهى فتاة من سلالة أقدم الأسر الشريفة فى فلورنس . وأنجبت له فى عشر سنين عدة أبناء يقدرهم البعض بثلاثة ، والبعض باربعة ، والبعض الآخر بسبعة[٢٠] . ويلغ من إخلاصه لدستور شعراء الفروسية الغزلين أنه لم يذكر قط زوجته أو أبناءه فى شعره ، ولو فعل لكان هذا عملا غير لائق به ، لأن الزواج والحب الروائى ضدان لا يجتمعان .

ثم ألقى بنفسه فى بحر السياسة ، ولعل الذى ساعده على هذا هو كفلكانتى ؛ وانضم لأسباب لا نعرفها إلى حزب « البيض Blanchi وهو حزب الطبقة المتوسطة العليا . وما شك فى أنه كان ذا مواهب سياسية ، لأنه اختير فى عام ١٣٠٠ لا بعد عضواً فى المجلس البلدى ؛ وحدث فى أثناء اضطلاعه بهذا العبء القصير الأجل أن حاول السود Neir يقودهم كورسو دوناتى Corso Donati أن يحدثوا انقلاباً سياسياً مفاجئاً يعيدون به الأشراف الأقدمين إلى الحكم . ولكن المقدمين — أعضاء المجلس البلدى — قمعوا الفتنة وسعوا

وافقة دانتى للنشر لواء السلام فى المدينة بنفى زعماء الحزبين — ومنهم دوناتى — صهر دانتى ، وكفلكانتى صديقه . لكن دوناتى غزا فلورنس فى عام ١٣٠١ بعصبة من السود المسلحين ، وخلع المقدمين ، واستولى على زمام الحكم ؛ ثم حوكم دانتى وخمسة عشر من المواطنين فى أوائل عام ١٣٠٢ وأدينوا بعدة جرائم سياسية ، ونفوا من البلدة ، وحكم عليهم بأن يقتلوا حرقاً إذا عادوا إلى فلورنس مرة أخرى . ففر دانتى ولكنه ترك أسرته فى المدينة لأنه كان يأمل فى العودة إليها بعد قليل . واضطره هذا النفى وما صحبه من مصادرة أمواله إلى أن يقضى تسعة عشرة عاماً فى فقر مدقع وتجوال البلاد ، ملأ قلبه غلا وحقداً ، وكانا من أسباب مزاجه النكد الذى يسود موضوع الملهاة الإلهية . أما شركاؤه فى النفى فقد أقنعوا مدائن أرزو ، وبولونيا ، وپستويا بأن تسير على فلورنس جيشاً مؤلفاً من ١٠٫٠٠٠ مقاتل ليعيدهم إلى السلطة أو فى القليل يردهم إلى أوطانهم (١٣٠٤)، وقد فعلوا هذا على الرغم من نصيحة دانتى لهم ألا يقدموا على هذا العمل . وأخفقت هذه المحاولة ، واختط دانتى لنفسه من ذلك الوقت خطة خاصة ، وعاش مع أصدقائه فى أرزو ، وبولونيا ، وپدوا .

وكانت السنون العشر الأولى من نفيه هى التى جمع فيها بعض القصائد التى كتبها إلى السيدة الظريفة ، وأضاف إليها تعليقات نثرية استحالت بها هذه السيدة إلى السيدة الفلسفة . ويحدثنا دانتى فى قصيدة المائدة (Conviuio) (حوالى عام ١٣٠٨) كيف ولى وجهه ، بعد خيبته فى الحب وفى الحياة ، نحو الفلسفة ليخفف بها من آلامه ، وكيف وجد فى هذه الدراسة المغرية إلهاماً مقدساً ، وكيف اعتزم أن يشرك فيما كشفه من إلهام من لا يستطيعون قراءة اللغة اللاتينية بأن يكتب لهم بالإيطالية . ويبدو أنه كان يفكر فى كتابة موجز أو كنز جديد يدعى فيه أن كل جزء من أجزائه تعليق على إحدى قصائده

عن السيدة الجميلة . وتلك بلا ريب خطة عجيبة أراد بها أن يستعيض عن الحب الشهوانى بالحب المجدب . والكتاب الصغير خليط مهوش من العلوم الغامضة العجيبة ، والاستعارات المتكلفة ، وشذرات فلسفية مستمدة من بوئيثيوس وشيشرون . ويحق لنا أن نشيد بعبقرية دانتى التى حملته على أن يتخلى عن إتمام هذا الكتاب ، ويراه عملا خاسراً كل الخسران ، بعد أن كتب ثلاثة من الشروح الأربعة عشر التى كان يعتزم كتابتها .

وشرع وقتئذ فى ذلك العمل المتواضع ألا وهو إعادة حكم أباطرة الدولة الرومانية المقدسة فى إيطاليا ؛ ذلك أن تجاربه قد أقنعته بأن منشأ ما فى المدن الإيطالية من فوضى وعنف هو فهمها الخاطئ المجزَّأ للحرية — فقد كان كل إقليم ، وكل مدينة ، وكل طبقة ، وكل فرد ، وكل ذى شهوة ، يطالب بالحرية الفوضوية . وكان هو يتوق إلى ما تاق إليه مكيڤلى بعد مائتى عام من ذلك الوقت ، إلى قوة تنسق جهود الأفراد ، والطبقات ، والمدن فتجعل منها كلا منظما يستطيع الناس فى داخله أن يعملوا ويعيشوا فى سلم وأمان . وكان يرى أن هذه السلطة الموحدة إما أن تأتى من البابا أو من رئيس الدولة الرومانية الشرقية ، التى كان شمالى إيطاليا من زمن بعيد يخضع لها من الوجهة النظرية . غير أن دانتى كان قد نفى من زمن قصير بأمر حزب متحالف مع البابوية ؛ وتقول إحدى الروايات غير المؤكدة إنه اشترك فى بعثة سياسية غير موفقة أرسلت من فلورنس إلى بنيفاس الثامن ، وقد ظل البابوات زمناً طويلا يعارضون فى توحيد إيطاليا لأن هذا يعرض للخطر حريتهم الروحية وسلطتهم الزمنية . ولهذا بدا أن الأمل الوحيد فى عودة النظام إلى البلاد هو إعادة السلطة الإمبراطورية ، بالرجوع إلى **السلم الرومانية** التى بسطت لواءها رومة القديمة

وفى هذه الظروف كتب دانتى فى تاريخ غير معروف رسالته المثيرة **فى الملكية المطلقة** De monarchia ، كتبها باللغة اللاتينية ، وكانت لا تزال لغة

الفلسفة ؛ وقال إنه لما كان عمل الإنسان الذى يليق به هو النشاط الذهنى ، ولما كان عاجزاً عن ممارسة هذا النشاط إلا فى السلم ، فإن الحكم المثالى هو إقامة دولة عالمية تقر السلام الدائم وتبسط العدالة على جميع سكان الأرض . فإذا قامت هذه الدولة كانت الصورة الصحيحة المطابقة للنظام السماوى الذى وضعه الله فى الكون . وكانت روما الإمبراطورية أقرب الدول إلى هذه الدولة العالمية ، ولقد أظهر الله رضاءه عن هذه الدولة إذ اختار أن يكون إنساناً فى عهد أغسطس ، وإذ أمر المسيح نفسه الناس بأن يخضعوا لسلطان القياصرة السياسى . ولم يكن سلطان الإمبراطورية القديمة مستمداً بطبيعة الحال من الكنيسة المسيحية ، غير أن الدولة الرومانية المقدسة لم تكن إلا هذه الدولة القديمة عادت إلى الوجود . نعم إن البابا هو الذى توج شارلمان إمبراطوراً ؛ ولاح بهذا أن الإمبراطورية قد خضعت للبابوية ؛ ولكن « اغتصاب حق لا يخلق هذا الحق ؛ ولو أنه خلقه لدلت هذه الطريقة عينها على خضوع السلطة الكنسية للدولة المدنية بعد أن أعاد الإمبراطور أتو Otto البابا ليو Leo وخلع بنيفاس »[٢١] .

ولقد كان كتاب **الملكية المطلقة** دفاعاً قوياً عن قيام « عالم واحد » ، ذا حكومة واحدة ، وشرائع واحدة رغم ما فى هذا الكتاب من جدل مدرسى لم يعد يتمشى مع طرائق التفكير السائدة فى ذلك الوقت . ولم يكن مخطوط الكتاب معروفاً فى أثناء حياة مؤلفه إلا لعدد قليل من الناس ولكنه انتشر بعد وفاته ، واتخذه لويس الباڤارى Louis of Bavaria عدو البابوية وسيلة للدعاوة ، ثم أحرق الكتاب علناً بناء على مرسوم بابوى صدر فى عام ١٣٢٩ ، وأدرج فى القرن السادس عشر فى الثبت البابوى المحتوى أسماء الكتب المحرمة ، ثم رفعه من هذا الثبت ليو الثالث عشر فى عام ١٨٩٧ .

ويقول بوكاشيو إن دانتى ألف كتاب **الملكية** « حين جاء هنرى السادس » ذلك أن ملك ألمانيا غزا إيطاليا فى عام ١٣١٠ راجياً أن يبسط على شبه الجزيرة

كلها ، عدا الولايات البابوية ، الحكم الإمبراطورى الذى انقضى عهده بموت فردريك الثانى . ورحب به دانتى وجاشت فى صدره آمال كبار ؛ وأهاب بمدن لمبارديا ، فى « رسالة موجهة إلى أمراء إيطاليا وشعوبها » أن تفتح قلوبها وأبوابها إلى « القادم » اللكسمبرجى الذى سينجيها من الفوضى والبلبوات . ولما وصل هنرى إلى ميلان هرع دانتى إليها وألقى بنفسه وهو فى نشوة الحماسة عند قدمى الإمبراطور ، وخيل إليه أن كل ما كانت تصوره له أحلامه من قيام إيطاليا الموحدة يوشك أن يتحقق . لكن فلورنس لم تستجب لنداء الشاعر ، وأوصدت أبوابها فى وجه هنرى ؛ ووجه دانتى وهو فى سورة الغضب رسالة « إلى الفلورنسيين أشد الناس إجراماً Scelestissimis Florentinis (مارس ١٣١١) قال فيها :

ألا تعرفون أن الله قد أمر أن يخضع بنو الإنسان كلهم لحكم عاهل واحد ليدافع عن العدالة ، والسلم ، والحضارة ؟ وأن إيطاليا كانت على الدوام فريسة للحرب الأهلية كلما زال عنها سلطان الإمبراطورية ؟ يا من تعتدون على القوانين البشرية والإلهية ، ويا من يدفعكم النهم الرهيب إلى ارتكاب كل جريمة مهما بلغت من الشناعة — ألم تروعكم رهبة الميتة الثانية فخرجتم على مجد الأمير الرومانى ، ملك الأرض ومبعوث الله ؟ . . . يا أحمق الناس وأبلدهم إحساساً ! سوف تخضعون صاغرين إلى النسر الإمبراطورى ![٢٤] .

وساء دانتى وملأ قلبه هلعاً أن هنرى ترك فلورنس وشأنها ؛ ولهذا كتب الشاعر إلى الإمبراطور فى شهر إبريل كما كتب نبى من أنبياء بنى إسرائيل يحذر الملوك فقال :

لسنا ندرى أى خمول يقعدك عن العمل هذا الزمن الطويل ...إنك تضيع الربيع كما تضيع الشتاء فى ميلان ... (لعلك لا تعرف) أن فلورنس مصدر الشر المستطير ... وأنها هى الأفعى ... التى تنفث من أنفاسها الفاسدة الدخان الموبوء الذى يقضى على القطعان المجاورة لها... هُبَّ إذن يا ابن يسّى Jesse النبيل ![٢٥]

وكان رد فلورنس أن أعلنت نفى دانتى ، وحرمانه أبد الدهر من كل عفو يصدر عن الخائنين . وترك هنرى فلورنس دون أن يمسها بسوء ، وانتقل عن طريق جنوى وپيزا إلى رومة حيث توفى (١٣١٣) .

وكان موته من أشد الفواجع التى حلت بدانتى ؛ ذلك أنه قد قامر بكل شىء على انتصار هنرى ، وحرق من ورائه كل الجسور الفلورنسية ولم ير أمامه إلا أن يفر إلى جبيو Gibbio وبلجأ إلى دير الصليب المقدس (سانتا كروس Santa Croce) . ويبدو أنه كتب فى هذا الدير جزءاً كبيراً من الملهاة المقدسة[٢٦] . غير أنه لم يكن قد شبع بعد من السياسة ، فقد كان فى أغلب الظن مع أجشيونى دلا فجيولو Uguccione della Fuggiulo فى لوكا Lucca عام ١٣١٦ ، وفى ذلك العام هزم فجيولو الفلورنسيين عند مونتى كاتنى Montecatini ؛ ثم استفاقت فلورنس من هذه الهزيمة وضمت ابنى دانتى إلى المحكوم عليهم بالإعدام — ولم ينفذ هذا الحكم قط . وخرجت لوكا على أجشيونى وألفى دانتى نفسه مرة أخرى بلا وطن . ورأت فلورنس فى نشوة النصر أن تكون كريمة ، وأن تنسى أحكامها الأبدية ، فعرضت أن تعفو عن جميع المنفيين وتؤمنهم على حياتهم إذا عادوا إليها ، على شرط أن يؤدوا لها غرامة مالية ، وأن يسيروا فى شوارع المدينة فى أثواب الندم ، وأن يزج بهم فى السجن وقتاً قصيراً . وتطوع أحد أصدقاء دانتى بإبلاغه هذا القرار ، فرد عليه برسالة ذائعة الصيت قال فيها :

إلى صديق فلورنسى : تلقيت رسالتك بما يليق بها من الإجلال والحب ، وأدركت منها بقلب مفعم بالشكر ... أن عودتى إلى بلدى عزيزة على نفسك . ولكن انظر إلى ما هو مفروض علىّ ... ذلك أنى إذا ما قبلت أن أؤدى قدراً من المال وأن أتحمل وصمة السجن ، فيسيعفى عنى فأستطيع العودة من فورى .

فهل هذه إذن هى الدعوة الكريمة التى توجه إلى دانتى الجيرى ليعود إلى

بلده بعد أن صبر على النفى ما يقرب من خمسة عشر عاماً ؟ . . . إن رجلا ينادى بالعدالة لا يطيق أن يؤدى ما له إلى من يرتكبون المظالم ، كأنهم يحسنون إليه . ألا إن هذه ليست الطريقة التى أعود بها إلى بلدى . . . فإذا كان ثمة طريقة أخرى . . . لا تزرى بكرامة دانتى . . . فإنى لن أتوانى قط عن اتباعها ؛ أما إذا لم يكن دخول فلورنس مستطاعاً بهذه الطريقة الأخرى ، فإنى لن أدخلها أبداً . . . ما هذا الذى تقول ! أليس وسعى أن أستمتع بنور الشمس وجمال النجوم فى كل مكان على ظهر الأرض ؟ أليس فى مقدورى أن أفكر فى أعظم الحقائق شأناً تحت كل سماء ؟[٢٧]

وأغلب الظن أنه قبل فى أواخر عام ١٣١٦ دعوة وجهها إليه كان جراندى دلا اسكالا Can Grande della Scala ، حاكم فيرونا لأن يجىء إليه ويعيش فى ضيافته . ويبدو أنه أتم فى هذه البلدة قسم الجنة فى الملهاة المقدسة (١٣١٨) — وفيها بلا ريب أهدى هذا القسم إلى كان جراندى . وفى وسعنا أن نصوره فى تلك الفترة من حياته — أى فى الحادية والخمسين من عمره — كما صوره بوكاشيو فى الحياة الجديدة عام ١٣٥٤ ؛ نصوره رجلا متوسط القامة « منحنى الظهر قليلا » يسير بخطى وقورة متزنة تنم عن المهابة والانقباض ، ذا شعر أسود وبشرة سمراء ، ووجه طويل ينم عن كثرة التفكير ، وجبهة بارزة مغضنة ، وعينين غائرتين ذواتى نظرات صامتة ، وأنف رفيع أقنى ، وشفتين منطبقتين ، وذقن بارز[٢٨] . ذلك وجه روح كانت من قبل وادعة ظريفة ، ولكن الآلام جعلتها نكدة مريرة ؛ وليس من السهل على دانتى صاحب الوصف الوارد فى الحياة الجديدة أن يتصنع كل ما وصفه به هذا الكتاب من شفقة ورقة عاطفة ؛ وإن شيئاً من هذه الصفات ليظهر فيما بدا عليه من حنان وهو يستمع إلى قصة فرانسسكا . وكان عبوساً صارماً شأن الرجل المغلوب على أمره المنفى من بلده ، وقد أكسبته الشدائد حدة فى اللسان ، وغطرسة يغطى بها ما فقده من قوة وسلطان .

فكان يفخر بنسبه لأنه كان فقيراً ، ويحتقر رجال الطبقة الوسطى من أهل فلورنس الذين يجرون وراء المال ؛ ولم يكن فى وسعه أن يغفر لبرتنارى زواج بياتريس من مصرفى ؛ وسلك طريق الانتقام الوحيدة التى وجدها أمامه فوضع المرابين فى الدرك الأسفل من النار . ولم يكن ينسى قط أذى أو إهانة ، وما أقل من سلم من أعدائه من سموم قلمه . وكان يرى أن الذين يبقون على الحياد فى الثورات أو الحروب أقل نفعاً فى نظره منهم فى نظر سولون . وكان منبع صفاته الخلقية كلها هو الشدة الملتهبة : « لم أكن ما أنا بفضل ثرائى بل بفضل الله علىّ ، وإن غيرتى على بيته لتشعل النار فى قلبى »[٢٩] .

وقد أفرغ فى قصيدته كل ما وهبه الله من قوة ، ولم يكن يستطيع أن يعيش بعد تمامها زمناً طويلا . فنى عام ١٣١٩ غادر ڤيرونا وسافر إلى راڤنا ليعيش فيها مع الكونت جيدو دا پولنتا Count Guido da Polenta ، ثم تلقى دعوة من بولونيا للقدوم إليها لكى يتوج فيها شاعراً لبلاطها ، ورفض الدعوة بأنشودة رعوية كتبها باللغة اللاتينية . وفى عام ١٣٢١ أرسله جيدو إلى مدينة البندقية فى بعثة سياسية كان نصيبها الإخفاق ، وعاد دانتى من هذه البعثة مريضاً بحمى أصابته من مستنقعات ڤينيتو Veneto . ولم يستطع جسمه الضعيف مقاومة المرض ، فقضى عليه فى ١٤ سبتمبر سنة ١٣٢١ وهو فى السابعة والخمسين من عمره . واعتزم الكونت أن يقيم شاهداً على قبر الشاعر ، ولكن شيئاً من هذا لم يتم ، أما النقش القليل البروز القائم فوق التابوت الرخامى فى هذه الأيام فقد نحته پيترو لمباردو عام ١٤٨٣ ، والعالم كله يعرف أن بيرون جاء إليه وبكى ، والقبر فى هذه الأيام لا يكاد يبدو للناظر ، يجده الإنسان فى أحد الأركان وهو قادم من أكثر ميادين راڤنا ازدحاماً بالأعمال ، وإذا ما قدمت إلى حارسه المقعد الطاعن فى السن بضع ليرات أنشدك بعض قطع جميلة طنانة من القصيدة التى يمتدحها الناس جميعاً ولا يقرؤها منهم إلا القليلون .

الفصل الرابع

الملهاة المقدســة

١ – القصيدة

يقول بوكاشيو إن دانتى بدأها بالشعر اللاتينى السداسى الأوتاد — (ذى الستة التفاعيل) — ولكنه استبدل به اللغة الإيطالية ، لكى تصل قصيدته إلى عدد أكبر من القراء . ولعله تأثر فى اختياره بقوة عاطفته ؛ فقد بدا له أن التعبير عن الانفعال باللغة الإيطالية أيسر منه باللغة اللاتينية التى طال ارتباطها بالحياة المدنية والقيود القديمة . وكان فى شبابه قد قصر اللغة الإيطالية على شعر الحب ؛ أما الآن وقد جعل موضوعه أسمى فلسفة ، وهى افتداء البشرية عن طريق الحب ، فقد خطر بباله أن يقدم على التحدث بلغة بلاده . وكان فى وقت ماض غير معروف قد بدأ مقالا لاتينياً لم يتمه سماه فى فصاحة اللغة الشعبية De vulgari eloquentia ، أراد به أن يغرى الطبقة المتعلمة بالتوسع فى استخدام اللغة القومية . وقد امتدح فيه جزالة اللغة اللاتينية وإحكامها ، ولكنه عبر عن أمله فى أن تسمو اللغة الإيطالية فوق لهجاتها العامية بفضل أشعار دولة فردريك ، والأسلوب الجديد الذى ابتدعه شعراء التسكان واللمبارد القصاصون ، فتصبح (كما ورد فى المأدبة « غاصة بأروع التعابير وأجملها »)[٣٠] . ولم يكن دانتى نفسه — الذى نعلم عن كبريائه ما نعلم — يتصور أن ملحمته ستجعل اللغة الإيطالية صالحة للتعبير عن أى غرض من الأغراض الأدبية ، وأنها لن تكتفى بهذا بل ستسمو بهذه اللغة إلى درجة من العذوبة والرقة قلما عرف لها العالم مثيلا .

ولم يبذل فى إعداد قصيدة ما من الجهد مثل ما بذل دانتى فى إعداد قصيدته .

وكانت نزعة إلى التثليث — تعبر عن الثالوث الدينى المقدس — وتنم عن ضعف الشاعر هى التى عينت شكل القصيدة فجعلتها مؤلفة من ثلاثة « أناشيد » ، فى كل نشيد ثلاث وثلاثون أغنية ، تقابل سنى حياة المسيح على هذه الأرض ، تضاف إليها أغنية أخرى فى النشيد الأول فتكون عدتها مائة كاملة . واعتزم أن يكتب كل أغنية فى مجموعات كل منها ثلاث أبيات ، يتفق البيت الثانى من كل مجموعة فى قافيته مع البيتين الأول والثالث من المجموعة التى بعدها . وليس ثمة ما هو أكثر تكلفاً من هذا ، ولكن ما من فن يخلو من التكلف ، وخير ما يمكن أن يصنعه الفنان أن يخفى تكلفه ؛ وهذه القافية الثلاثية terza rima تربط كل أغنية بالتى تليها ، وتؤلف منها كلها أغنية واحدة متصلة ، تنساب فى لغتها الأصلية انسياباً سهلا على اللسان ، ولكنها إذا ترجمت تعثرت وبدت كليلة . ولقد ندد دانتى مقدماً بكل ترجمة لقصيدته ، فما من شىء يسرى فيه توافق الاتصال الموسيقى يمكن أن ينقل من لغته الأصلية إلى لغة أخرى دون أن يفقد حلاوته وتوافقه[31](*) .

وكما أن أبيات القصيدة هى التى عينت صورتها ، فإن الاستعارات هى التى عينت قصتها ، وقد شرح دانتى فى الرسالة التى أهدى بها القصيدة إلى كان جراندى[32] ما تنطوى عليه أناشيده من رموز ، ولنا أن نظن أن شرحه هذا فكرة متأخرة لاحت لشاعر كان يريد أن يكون فيلسوفاً ، ولكن انهماك العصور الوسطى فى الرمزية ، وما كان فى الكنائس الكبرى من تماثيل رمزية ، ومظلمات جيتو وجادى Gaddy ورفائيل ، وكلها رمزية ، وتسامى دانتى الرمزى فى **الحياة الجديدة والمائدة** ، كل هذا يوحى بأن الشاعر كان يفكر فى النقط الرئيسية لمشروعه الذى وصفه وصفاً مفصلا قد يكون خيالياً . ويقول دانتى إن

(*) ومن واجبنا أن نستثنى من هذا ترجمة دانتى جبريل روزتى للحياة الجديدة ومن جاءوا قبل دانتى .

القصيدة تتبع « جنس » الفلسفة ، وإن موضوعها هو الأخلاق . وهو يفعل ما يفعله عالم الدين الذى يفسر الكتاب المقدس فيجعل لكلماته ثلاثة معان : الحرفى ، والمجازى ، والصوفى .

« وموضوع هذه القصيدة حسب معانيها الحرفية . . . هو حال الأرواح بعد الموت . . . أما إذا نظرنا إليها نظرة مجازية فإن موضوعها هو الإنسان من حيث تعرضه للثواب والعقاب العادلين اللذين يستحقهما بسبب أعماله الطيبة أو الخبيثة . . والغرض المقصود منها فى مجموعها وأجزائها هو انتشال من يحيون هذه الحياة مما يعانونه من شقاء ، وإرشادهم إلى طريق السعادة » .

وإذا عبرنا عن هذه المعانى بطريقة أخرى قلنا إن الجحيم Inferno هى مرور الإنسان بالخطيئة ، والعذاب ، واليأس ؛ وإن المطهر هو تطهيره عن طريق الإيمان ؛ والفردوس هو نجاته عن طريق الوحى الإلهى والحب غير الأنانى . ويمثل ڤرچيل ، الذى يقود دانتى خلال الجحيم والمطهر ، المعرفة ، والعقل ، والحكمة . وهى التى تستطيع أن تقودنا إلى أبواب السعادة ؛ والإيمان ، والحب (بيتريس) وحدهما هما اللذان يدخلاننا فيها . وكان النفى فى ملحمة حياة دانتى هو جحيمه ، كما كانت دراساته وكتاباته هى مطهرة ، وكانت آماله وحبه هما نجاته وسعادته اللتين لم تكن له غيرهما نجاة أو سعادة . ولعل اتخاذ دانتى رمزيته فى الفردوس مأخذ الجد الشديد هو الذى يجعل هذا النشيد أكثر أناشيده استعصاء على الفهم ؛ ذلك بأن بيتريس التى كانت فى الحياة الجديدة رؤيى سماوية تصبح فى تصويره السماء تجريداً ذا أبهة وفخامة — ومثل هذه الجمال البرىء غير خليق بهذا المصير . ويشرح دانتى لكان جراندى فى آخر الرسالة سبب تسميته ملحمته ملهاة Commedia(*) — فيقول إن القصة انتقلت من الشقاء إلى السعادة ، و « إنها

(*) وقد أضاف إليها المعجبون بها صفة Divrina المقدسة فى القرن السابع عشر .

كتبت بأسلوب مهلهل وضيع ، باللغة العامية التى تتحدث بها ربات المنازل أنفسهن »(٣٣) .

وكانت هذه الملهاة الأليمة وهى « الكتاب الذى هزل فيه جسدى هذه السنين الطوال » شغله وسلوته فى منفاه ، ولم يفرغ منها إلا قبل موته بثلاث سنين . وقد لخص فيها حياته ، وتعليمه ، وآراءه الدينية ، وفلسفته ؛ ولو أنها احتوت فضلا عن هذا ما كان فى العصور الوسطى من فكاهة ، ورقة ، وشهوانية عارمة لجاز أن تكون من المؤلفات « الجامعة فى العصور الوسطى » . ذلك أن دانتى قد حشر فى هذه المائة من الأناشيد الموجزة كل ما أخذه من العلم عن برونتولاتينى ، ولعله حشر فيها أيضاً ما تعلمه فى بولونيا — حشر فيها كل ما كان هناك من فلك وعلم الكون ، وطبقات الأرض ، والتوقيت فى عصر تمنعه المشاغل من أن يكون عصر علم . ولم يكن يؤمن بالقوى الخفية ، وبالنتائج المحتومة التى يستقيها من التنجيم فحسب ، بل كان يؤمن فوق ذلك بجميع الأساطير المعماة الملغزة التى كانت تعزو معانى وقوة خفية للأعداد ولحروف الهجاء . فكان يقول مثلا إن العدد ٩ يميز بياتريس من غيرها لأن جزره التكعيبى هو ٣ الذى جعله الثالوث رقماً مقدساً . وفى الجحيم تسع دوائر ، وتسع طبقات فى المطهر ، وتسع طبقات كرية فى الفردوس . ويستمد دانتى فى رهبة واعتراف بالجميل قسطاً كبيراً من فلسفة تومس أكوناس وعلومه الدينية ، ولكنه لا يسير وراءه سيراً دقيقاً ولا يراعى الأمانة فى النقل عنه . وما من شك فى أن القديس تومس لم يكن يرتاح إلى الحجج الواردة فى كتاب الملكية أو إلى رؤية البابوات فى الجحيم ، وإن تصوير دانتى لله بأنه نور وحب « الحب الذى يحرك الشمس وسائر النجوم »(٣٣) لهو قول أرسطو انتقل إليه عن طريق الفلسفة العربية . وكان يعرف الشىء القليل عن الفارابى ، وابن سينا ، والغزالى ؛ وابن رشد ؛ ويضع ابن رشد فى المحيط الخارجى للجحيم ، ولكنه يهز مشاعر المتدينين بوضعه

سيجر البرابنتى Siger de Brabant معتنق مذهب ابن رشد فى الفردوس[٣٦] .
وفضلا عن هذا فهو ينطق تومس بالثناء على الرجل الذى أثار ثائرة هذا العالم الدينى الذى يكاد يصل إلى مرتبة الملائكة . غير أنه يبدو أن سيجر أنكر عقيدة الخلود الفردى الذى هو دعامة قصيدة دانتى ؛ ولهذا فإما أن يكون التاريخ قد تغالى فى وصف سيجر بالزيغ والضلال أو فى وصف دانتى بالاستمساك بالدين .

وتؤكد الدراسات الحديثة ما استمده دانتى من المصادر الشرقية وبخاصة المصادر الإسلامية كقصة أردا ڤيراف التى تصف الصعود إلى السماء ، ووصف الجحيم الوارد فى القرآن ، وقصة المعراج ، ووصف الجنة والنار فى رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى ؛ وفتوحات ابن عربى . . . ففى رسالة الغفران يصور المعرى إبليس يعذب فى الجحيم وهو مقيد بالأغلال ، كما يصور الشعراء المسيحيين وغيرهم من « الكفرة » يعذبون فيها . وتستقبل صاحب القصة عند باب الجنة واحدة من الحور العين ، اختيرت لترشده[٣٨] .
وقد رسم ابن عربى فى الفتوحات الحياة الآخرة رسماً دقيقاً ، ووصف الجنة والنار بأنها فوق البيت المقدس وتحتها مباشرة ، وقسم النار والجنة إلى سبع طبقات ، وصور مكان الملائكة المسبحين حول النور القدسى — وصف ذلك كله كما ورد فى الملهاة المقدسة لا يفترق عنه فى شيء[٣٩] (ونقول هنا استطراداً إن ابن عربى كتب قصائد فى الحب يفسرها المفسرون تفسيراً مجازياً دينياً) ، ومبلغ علمنا أن شيئاً من هذه الكتابات العربية لم يكن قد ترجم من قبل زمان دانتى إلى أية لغة يستطيع قراءتها .

وقد وردت فى الآداب الدينية اليهودية والمسيحية غير المعترف بها أوصاف لرحلات أو رؤى فى الجنة والنار ؛ ولا حاجة بنا إلى ذكر ما ورد فى وصفهما فى الكتاب السادس من إنيادة ڤرچيل : وتقول قصة أيرلندية إن القديس پاتريك زار المطهر والجحيم ، ورأى فيهما أثواباً وأحزمة من نار ، والمذنبين معلقين فيها من أرجلهم ، أو تلتهمهم الأفاعى أو يغطيهم الجليد[٤٠] . ووصف قس إنجليزى

قصاص يدعى آدم ده رس Adam de Ros فى قصيدة طويلة طواف القديس بولس فى النار يقوده الملاك ميخائيل ؛ وينطق ميخائيل بوصف مراتب العقاب التى توقع على درجات الذنوب المختلفة ، ويظهر بولس وهو يرتجف من هذه الأهوال كما يرتجف منها دانتى[٤١] . وتحدث قبل هذا يواقيم الفلورى Jaockim of Floraعن هبوطه إلى الجحيم وصعوده إلى السماء . وجملة القول أنه قد وجدت مئات من هذه الرؤى والقصص ؛ وأمام هذا الحشد الكبير من الأوصاف المروعة نرى أنه لم يكن دانتى بحاجة إلى أن يتخطى الحواجز اللغوية إلى الآداب الإسلامية لكى يجد فيها نماذج لوصف الجحيم . ولقد فعل دانتى ما يفعله كل فنان فمزج ما لديه من مادة وبدل فوضاها نظاماً ، ووضعها فوق النار بعد أن أضاف إليها خياله القوى وإخلاصه الملتهب . ولقد أخذ عناصر وصفه أنى وجدها — من تومس ، ومن شعراء الفروسية الغزلين ، ومن مواعظ بطرس دميان النارية وما ورد فيها من وصف لعذاب الجحيم ، ومن تفكيره الطويل فى بياتريس فى حياتها وبعد موتها ، ومن صراعه مع السياسيين والبابوات ، ومن العلوم القليلة التى اعترضت طريقه ؛ ومن اللاهوت المسيحى وما ورد فيه عن سقوط آدم ، وعن التجسد ، والخطيئة ، والغفران ، ويوم الحساب ؛ ومن الفكرة الأفلوطينية — الأوغسطينية عن مدارج صعود الروح حتى تتحد مع الله . ومن توكيد تومس أن الرؤى الطوباوية هى الهدف الأخير الذى يغتبط به الأبرار ؛ من هذا كله صاغ القصيدة التى وجدت فيها روح العصور الوسطى وما يحيط بها من رعب ، وأمل ، واغتراب صوتاً ، ورمزاً ، وصورة تعبر بها وتصورها .

٢ — الجحيم

« وجدت نفسى وأنا فى منتصف طريق حياتنا فى غابة مظلمة كانت الجادة فيها غير واضحة ومفقودة »[٤٢] . وبينما كان دانتى يجول فى هذه الظلمة إذ التقى

بڤرچيل « أستاذى ومرشدى الذى أخذت عنه وحده الأسلوب الجميل الذى ، شرفت به »[٤٣] . ويخبره ڤرچيل أن السبيل السليمة الوحيدة للخروج من الغابة هى اجتياز الجحيم المطهر ؛ فإذا ما صحبه دانتى فيهما فسيقوده إلى أبواب الفردوس ، « حيث يتولى إرشادك من هو أجدر منى وأكرم » . ويضيف إلى هذا فى صراحة أنه جاء ليقدم العون إلى الشاعر بأمر بياتريس . ويمران خلال فتحة فى سطح الأرض إلى أبواب الجحيم ، نقشت عليها هذه الألفاظ المريرة : « من خلالى يدخل الإنسان المدينة المحزنة ؛ ومن خلالى يدخل الإنسان الآلام السرمدية ؛ ومن خلالى يدخل الإنسان بين الأجناس الضالة . لقد حركت العدالة خالقى الأعلى ؛ وصنعتنى القوة الإلهية هى والحكمة العليا والحب الأزلى . ولم يخلق قبلى سوى الأشياء الأزلية ، وأنا باقية أبد الدهر ؛ فتخلوا عن كل آمالكم يا من تدخلون هذه الدار ! » .

والجحيم فتحة تحت الأرض تمتد إلى مركزها . ويصورها دانتى بخيال قوى يكاد يبلغ الغاية فى الاكتئاب : فهى هاوية سحيقة مظلمة مرعبة ، بين صخور ضخمة قائمة ؛ تتصاعد من منافذها الأبخرة والروائح الكريهة ، وتجتاحها السيول الجارفة ، وبها بحيرات ومجار ؛ وعواصف من المطر ، والثلج ، والبرد ؛ ومشاعل من لهب ؛ وتزمجر فيها الرياح والزمهرير الذى يجمد الدم والجسد ؛ وبها أجسام معذبة ، ووجوه كالحة مقطبة ؛ ويشقها صراخ وأنين يقف لهما الدم فى العروق . وفى أعلى مكان فى هذه الفتحة الجهنمية يقيم من لم يكونوا أخياراً أو أشراراً ، ومن وقفوا على الحياد بين الخير والشر . أولئك يعاقبون بآلام خسيسة ؛ تلسعهم الزنابير ، ويأكلهم الدود ، ويحرق قلوبهم الحسد والندم ، وهؤلاء يزدريهم دانتى الذى لم يقف على الحياد فى يوم من الأيام :

« الرحمة والعدالة تزدريانهم ، ونحن لانتحدث عنهم ، بل نلقى نظرة عليهم ونمر بهم » . ويصل الجائلان إلى نهر أكرون **Acheron** فى باطن الأرض ،

ويعبره بها كارون Charon الذى يعمل فى ذلك المكان من أيام هومر . فإذا عبراه وجد دانتى نفسه فى المحيط الخارجى للجحيم حيث يقيم الصالحون الذين لم يعمدوا ، ومنهم ڤرچيل وجميع الصالحين من عبدة الأوثان ، وجميع اليهود الصالحين إلا عدداً قليلا من أبطال العهد القديم الذين أطلقهم المسيح حين زار هذا المحيط الخارجى ورفعهم إلى السماء . وكل ما يعذب به هؤلاء هو رغبتهم الأبدية فى مصير خير من مصيرهم ، وعلمهم بأنهم لن ينالوا هذا المصير . وفى هذا الموضع من الجحيم شعراء وثنيون يعظمهم كل المقيمين فيه — هومر ، وهوراس ، وأوڤد ، ولوكان ؛ وهؤلاء يرحبون بڤرچيل ويحلون دانتى المكان السادس بينهم ، ثم يقول دانتى : وأنظر إلى أعلى « فأرى سيد العارفين يجلس بين أسرة الفلاسفة » أى أرسطو يحيط به سقراط ، وأفلاطون ، ودمقريطس ، وديچين ، وهرقليطس وأنكسغوراس ، وأنبادقليس ، وطاليس ، وزينون ، وشيشرون ، وسنكا : وإقليدس ، وبطليموس ، وأبقراط ، وجالينوس ، وابن سينا ، وابن رشد « الذى ألف الشرح العظيم »[٤٨] . وما من شك فى أنه لو كان دانتى مطلق الحرية فى رأيه لوضع فى الجنة هذه الفئة النبيلة كلها ، ومن بينها فلاسفة المسلمين المخالفين له فى الدين .

ثم يقوده ڤرچيل إلى الدائرة الثانية ، حيث تتقاذف الرياح العاتية الذين ارتكبوا خطايا جسدية شهوانية لا يستريحون منها أبداً . وهنا يشاهد دانتى باريس ، وهيلين ، وديدو ، وسميراميس ، وكليوبطرة ، وترستان ، وپاولو ، وفرانسسكا : وقصة فرانسسكا كما يرونها دانتى تتلخص فى أن فرانسسكا داپولنتا الجميلة أريد لها أن تتزوج چيان‌سيتو مالاتستا Gianciotto Malateste الشجاع المشوه لتقضى بزواجها على نزاع قام بين أسرة پولنتا سادة راڤنا ، وأسرة مالاتستا سادة ريمينى . هذا هو الجزء المؤكد فى القصة ، أما بقيتها فغير مؤكدة . فهناك رواية يقبلها الكثيرون تقول إن پاولو Paolo الوسيم أخا چيان سيتو يدعى

أنه هو الخطيب ، وأن فرانسسكا تعاهده على أن تتزوج به ، ولكنها تجد في يوم العرس أنها تزف على الرغم منها إلى چيان سيتو . ثم لا يمضى إلا القليل من الوقت حتى تستمتع بحب پاولو ؛ ويقبض عليها چيان سيتو ويقتلها في تلك اللحظة (حوالى ١٢٦٥) . وتقص فرانسسكا دار بمينى قصتها وهى تتأرجح فى الريح خيالا بلا جسد إلى جانب روح حبيبها غير المجسد :

إن أشد ما يحزن الإنسان أن يذكر أيام الهناءة حين يقترب منه الشقاء .. كنا فى يوم من الأيام نتسلى بقراءة لانسلت ، وكيف استبد به الهوى . وكنا فى تلك الساعة وحدنا ولا يوجد بالقرب منا ما نرتاب فيه . وكثيراً ما كانت أعيننا تتبادل النظرات فى أثناء هذه القراءة ، وذهب اللون من خدودنا وتبدلت صورتها . ثم وقعت أعيننا على نقطة فى الكتاب واحدة ، وذلك حين وصلنا إلى تلك القبلة المشتهاة التى طبعها فى هيامه ونشوته فتى برح به الوجد . وفى تلك اللحظة طبع وهو يرتجف قبلة على شفتى ، طبعها ذلك المحب الذى لن يفارقنى قط . لقد كان الكتاب وكاتبه كلاهما مبعوثين من عند الحب . ولم نقرأ شيئاً فى صحفه بعد ذلك اليوم»[٤٧]

ويتملك الأسى دانتى حين يسمع هذه القصة فيغمى عليه ، ثم يفيق فيجد نفسه فى الدائرة الثالثة من الجحيم ، حيث يستقر من كان ذنبهم النهم فى حمأة تحت عاصفة دائمة من الثلج ، والبرد ، والمياه القذرة ، وحيث ينبح فى وجوههم سربيروس Cerberus ويمزقهم إرباً بأنيابه الثلاثية . ثم يهبط ڤرچيل ودانتى إلى الدائرة الرابعة ، حيث يقيم أفلوطس Plutus ، وهنا يلتقى المبذرون والبخلاء ويقتتلون ، ويلقى بعضهم على بعض أثقالا ضخمة فى حرب سيسفية Sisyphean (*)

(*) نسبة إلى سيسفس ملك كورنثية الذى حكم عليه أن يرفع إلى أعلى تل حجراً ضخماً ، وكلما رفع الحجر إلى أعلى التل تدحرج إلى أسفله ، وبهذا أصبح عمله هذا أبدياً لا ينقطع وهذا هو المعنى المقصود بهذا اللفظ فى المتن . (المترجم)

ويسير الشاعران بإزاء نهر استيكس Styx المظلم الذى يغلى ماؤه ، حتى يصلا إلى الدائرة الخامسة ، حيث يقيم من كان ذنبهم الغضب ملطخين بالأقذار ، يضربون أنفسهم ويمزقون أجسادهم . والذين كان ذنبهم الكسل والتراخى يغمرون فى ماء البحيرة الأستيجية Stygian الآسن ، وتعلو سطحها الطينى فقاعات من زفيرهم . وينقل فلجياس Phlegyas الجائلين على سطح البحيرة حتى يصلا فى الدائرة الثالثة إلى مدينة ديس Dis ، أو الشيطان Lucifer حيث يشوى الملحدون فى قبور ملتهبة ، ثم يهبطان إلى الدائرة السابعة وهناك يريان من ارتكبوا جرائم العنف تحت رياسة المنوتور Minotaur (*) يكادون على الدوام يغرقون فى نهر من الدماء مضطرب صاخب ، ويرميهم القنطورون(**) بالسهام كلما علت رءوسهم فوق ماء النهر . ويريان فى قسم من هذه الدائرة المنتحرين ومنهم بيرودل ڤنى Piero delle Vigne ، وفى قسم آخر يريان من ارتكبوا جرائم العنف ضد الله ، أو الطبيعة ، أو الفن يقفون حفاة فوق رمال حامية ، وتسقط على رءوسهم كسف من النار . ويلقى دانتى بين السدوميين بمعلمه القديم برونتو لاتينى — وهو لا يليق بشخص كان هاديا لدانتى وصديقاً له وفيلسوفاً .

وتظهر عند طرف الدائرة الثامنة هولة مروعة تحمل الشاعرين وتنحدر بهما إلى هاوية المرابين ، وفى أحد أغوار هـــذه الهاوية يشاهدان طائفة عجيبة من الآلام السرمدية يعذب بها من يغوون النساء ، والمتملقون والمتجرون بالوظائف الدينية . وهؤلاء المتجرون يعلقون من أرجلهم فى حفر لا تظهر منها إلا سيقانهم ، ويلحس اللهب أقدامهم تدليلا لهم . ومن بين هؤلاء المتجرين البـــابا نقولاس الثالث (١٢٧٧ — ١٢٨٠) ؛ ويندد دانتى أشد التنديد بسيئ أعمال هذا البابا وغيره

(*) مخلوق خرافى له رأس ثور وجسم إنسان . (المترجم)

(**) القنطور أو السنطر مخلوق وهمى نصفه إنسان والنصف الآخر فرس . (المترجم)

من البابوات ؛ ويصور نقولاس هذا صورة فذة جريئة فيقول إن البابا يحسب أن دانتي هو بنيفاس الثامن (المتوفى عام ١٣٠٣) وأن قدومه إلى الجحيم متوقع فى أية لحظة من اللحظات[٤٨] . ويتنبأ نقولاس بأن كلمنت الرابع (المتوفى عام ١٣١٤) سينضم إليهم بعد زمن قليل . وفى الخور الرابع من الدائرة الثامنة يقيم من يدعون معرفة الغيب ، ورءوس أولئك الأقوام مثبتة فى أعناقهم ومتجهة نحو ظهورهم . ويطل الشاعران من جسر « ماليبلج Malebolge » — فوق الخور الرابع فيريان من تحتهما مختلسى الأموال العامة يسبحون إلى أبد الدهر فى فى بحيرة من القار فى درجة الغليان . أما المنافقون فلا ينقطع مرورهم حول الخور السادس فى أردية من الرصاص مطلية بالذهب . ويشاهد فى الممر الوحيد الذى يخترق هذا الخور قيافى مصلوباً و لمى على الأرض بحيث لا يستطيع أحد اجتياز الطريق إلا إذا وطئ جسده . وفى الخور الرابع يعذب اللصوص بأفاع سامة ؛ وهنا يتعرف دانتي على عدد من الفلورنسيين ، ويشاهد من عقد قائم فوق الخور الثامن لهيباً يحرق بجلود مشيرى السوء ، وكلما نضجت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب ؛ ويرى من بين هؤلاء أديسيوس المخادع . وفى الخور التاسع يستقر النمامون والعاملون على الانشقاق تنتزع أطرافهم طرفاً بعد طرف .

وفى الخور العاشر من الدائرة الثامنة يرقد المزورون ، المزيفون ، والكيميائيون الكاذبون ، يئنون من أوجاع مختلفة ، وتملأ الهواء من حولهم رائحة كريهة هى رائحة العرق والصديد ، وأنين المعذبين يملأ الهواء بأصوات كقصف الرعد .

وينتهى مطاف الشاعرين بالدائرة التاسعة وهى الدرك الأسفل من الجحيم ، ومن عجب أن توصف بأنها هوة واسعة من الجليد ؛ وفيها يدفن الخونة فى الجليد إلى أذقانهم ، وتتجمد دموع الألم فتصبح قناعاً متبلوراً فوق وجوههم . ومن بين هؤلاء يرى كونت أجولينو دلا غراردسكا Count Ugolino della Gheràrdesca الذى خان بيزا مشدوداً أبد الدهر إلى رجييرى Ruggieri كبير الأساقفة ، الذى

سجنه هو وأبناءه وأحفاده وتركهم كلهم يموتون جوعاً . والآن يستند رأس أجولينو على رأس كبير الأساقفة ، ويظل رجيرى إلى الأبد يمضع رأس أجولينو . وفى مركز الأرض أى فى قاع فتحة الجحيم الآخذة فى الضيق يرقد الشيطان (لوسفر) الجبار مدفوناً فى الجليد إلى وسطه يرفرف بجناحين ضخمين مثبتين فى كتفيه ، ويذرف من وجوهه الثلاثة التى تقسم رأسه دموعاً من الدم المتجمد من شدة الزمهرير ، ويمضغ فى كل فك من فكوكه الثلاثة أحد هؤلاء الخونة : بروتس ، وكاسيوس ، ويهوذا **Judas** .

وقصارى القول أن نصف الأهوال التى كانت تزعج الأنفس فى العصور الوسطى قد جمعت فى هذه القصة الدموية . وكلما أمعن الإنسان فى قراءة صحفها الرهيبة ازداد رعباً على رعب حتى تطغى عليه نتيجة هذا الرعب آخر الأمر فلا يعود يطيقها . وإن ذنوب الإنسان وجرائمه فى هذا العالم وفى جميع عوالم الكون وسلامه لأقل من غضب الإله وانتقامه بالصور التى يتخيلها الشاعر . وإن فكرة دانتى عن الجحيم لهى منتهى ما وصل إليه لاهوت العصور الوسطى من فظاعة . لقد كان اليونان القدامى يصورون جحيماً يسمونها **Hades** أو **Avenrus** تتلقى جميع الموتى من الآدميين . وكان مقرها مكاناً مظلماً تحت الأرض لا يمكن تمييز شىء فيه ، ولكنهم لم يصوروا هذه الجحيم بأنها مكان للتعذيب ؛ وكان لا بد من أن تمر قرون طوال من الهمجية ، والاضطراب ، والحرب قبـل أن يتقول الإنسان على خالقه فيعزو إليه صفتى الانتقام السرمدى والقسوة التى لا ينضب لها معين :

ويخفف من روعنا أن نعلم أن دانتى وڤرجيل قد مرا من خلال مركز الأرض ، وأنهما قلبا اتجاه رأسيهما وأقدامهما ، وأنهما يتحركان إلى أعلى نحو الجهة المقابلة لبلادنا من الأرض : ويجتاز الشاعران قطر الأرض كله فى سرعة الأحلام

التى تهزأ بمر الزمان ، ويخرجان إلى النصف الجنوبى منها فى صباح يوم عيد الفصح ، ويشربان فى وضح النهار ، ويقفان عند أسفل الجبل المدرج وهو المطهر .

٣ — المطهر

إذا قيست فكرة المطهر بفكرة الجحيم بدت فكرة رحيمة ؛ ذلك أن فى مقدور الإنسان بجهده وألمه ، وأمله ورؤياه ، أن يطهر نفسه من الذنوب والأثرة ، ويرقى خطوة خطوة فى مدارج الإدراك ، والحب ، والنعيم . والمطهر ، كما يصوره دانتى ، مخروط جبلى مقسم إلى سبع طبقات : ما قبل المطهر وهو سبعة أسطح — واحد للتطهير من الذنوب المميتة — وفى أعلاه يقوم الفردوس الأرضى . وينتقل المذنب من كل طبقة إلى التى تليها وتقل آلامه كلما انتقل إلى طبقة أعلى من التى كان فيها ، وفى أثناء هذا الانتقال ينشد ملك إحدى التطويبات . وتوجد فى المراحل السفلى من المطهر سبع عقوبات للذنوب التى اعترف بها وغفرت ، ولكنها لم يكفر عنها بما يكفى من العقاب . بيد أن هناك فارقاً عظيما بين المطهر والجحيم من هذه الناحية ؛ فى الجحيم يعرف الإنسان هذه الحقيقة المريرة وهى أن العذاب سرمدى ، أما المطهر ففيه تلك الحقيقة التى تبعث القوة فى النفس وهى أن السعادة السرمدية ستعقب العقاب الذى له أجل ينتهى عنده . ويسرى فى هذه المقطوعات مزاج أرق وضياء أبهى مما يسرى فى المقطوعات السابقة ، وتكشف عن دانتى يتعلم الرأفة من ڤرچيل مرشده الوثنى . ويغسل ڤرچيل بالدهن الندى ما غطى وجه دانتى من عرق الجحيم وأقذارها . وتتلألأ فى ضوء شمس المشرقة مياه البحر الذى يحيط بالجبل حين تهتز النفس التى كدرتها الذنوب طرباً وهى تستقبل الرحمة الإلهية . وهنا فى الطبقة الأولى يلتقى دانتى كاتو اليوتكى Cato of Utica ، الرواقى الصارم العنيد ، الذى آثر أن يقتل نفسه على أن يتلقى عذاب رحمة قيصر . وقد وضعه دانتى فى هذه الطبقة تحقيقاً

لأمل تومس أكوناس فى أن ينجو بعض عبدة الأوثان من الهلاك . وفى هذه الطبقة نفسها يقيم مانفرد بن فردريك الذى قاتل بابا من البابوات ولكنه أحب الشعر . ويسرع ڤرچيل بدانتى وهو يتلو عليه تلك الأبيات التى تجرى على كثير من ألسنة الناس .

« دع الناس يتكلموا ، وقف أنت كالبرج المتين الذى لا تهتز قمته وإن هبت عليه كل الرياح »(٥٠) . وليس المطهر بالمكان الذى يوائم ڤرچيل ، فهو لا يستطيع أن يجيب عن أسئلة دانتى بالسرعة التى تعود أن يجيب بها عن أسئلته فى الجحيم . وهو يحس بنقص ذكائه ، ويظهر أحياناً حنيناً يؤلمه ، غير أن ألمه هذا يزول حين يلتقى الشاعران بسردلو Sordello . ويحتضن الشاعران ابنا مانتو أحدهما الآخر ، يؤلف بين قلبيهما حبهما للبلدة التى قضيا فيها عهد الشباب . وفى هذه اللحظة ينطلق لسان دانتى بهذا الخطاب المؤلم يوجهه إلى بلده ، ويلخص فيه مقاله عن الحاجة إلى الحكومة الملكية :

أى إيطاليا المستعبدة ! يا موطن الأحزان ! ياسفينة بغير دليل فى مهب العاصفة الهوجاء ! يا سيدة انتزعت منها ولاياتها الجميـــلة ، ولم تعد إلا ماخوراً دنساً ! إن هذا الروح الرقيق قد حفزه الصوت الجميل الصادر من بلده العزيز أن يحيى رجلا من أهل وطنه مرحباً به مبتهجاً بلقائه . وفيك يقيم الأحياء من أبنائك يقتتلون ؛ يأكل الواحد منهم لحم أخيه من الغل والحقد ؛ نعم ما أشد الضغن الذى يملأ قلوب من يحيط بهم جدار واحد وخندق واحد . ألا أيها البائس الحزين طف بشواطئ بحارك ، ثم عد إلى نفسك فاسألها هل يستمتع جزء منك بالسلم الحلوة ؟ وماذا يفيدك إذا كان چستنيان قد [أحيا القانون الرومانى] من أجلك ، وهل ينفعك أن يصلح العنان إذا كان السرج [بغير ممتطيك] ؟ أيها الخلائق ، يا من يجب عليكم أن تطلوا مخلصين أوفياء ؛ أجلسوا قيصر فى السرج إذا شئتم أن تستجيبوا لأمر الله(٥١) ! »

وكأنما أراد دانتى أن يظهر شوقه إلى الملوك الذين يستطيعون القبض على الأعنة الثابتة ، فيصف لنا كيف يقوده سردلو هو وزميله إلى وادٍ مشمس جميل عند سفح جبل المطهر منثورة عليه الأزهار ، ويفوح منه شذى عطرها الذكى ، ويقيم فيه الإمبراطور رودلف ، وأتوكار Ottokar ، ملك بوهيميا ، وبطرس الثالث ملك أرغونة ، وهنرى الثانى ملك إنجلترا ، وفليب الثالث ملك فرنسا .

وتقود اوشيا (التى ترمز إلى ضوء رحمة الله) دانتى وفرجيل ، ويدخلهما أحد الملائكة إلى الشرفة الأولى من شرفات المطهر . وهنا يعاقب المتكبرون بأن يحمل كل منهم فوق ظهره المقوس حجراً ضخماً ، وترى على الجدار والطوار نقوش بارزة تصور أعمال التواضع الذائعة الصيت وما للكبرياء من نتائج رهيبة . وفى الشرفة الثانية يرى الحاسدون فى أثواب من الخيش الغليظ ، تخاط عيونهم باستمرار بخيوط من حديد ؛ وعلى السطح الثالث يستقر الغضب ، وعلى الرابع الكسل ، وعلى الخامس البخل ، ويلقى كل واحد منهم ما يستحقه من العقاب . ويرى على هذا السطح الأخير البابا هدريان الخامس ، الذى كان فى وقت ما حريصاً على الثروة ، يكفر عن ذنبه وهو هادئ هدوء الواثق من النجاة فى آخر الأمر . وفى إحدى الحوادث الباهرة التى تضىء ختام قصة المطهر يظهر الشاعر الرومانى استاتيوس Statius ويحيى الشاعرين الجائلين ويظهر من السرور بلقائهما ما يندر أن يظهره شاعر يلتقى بشاعر آخر على ظهر الأرض . ويصعد الشعراء الثلاثة جميعاً إلى السطح السادس حيث يطهر النهمون من نهمهم . وهناك تهتز الفاكهة الذكية الرائحة على الأشجار أمام أولئك النادمين ، فإذا امتدت أيديهم إليها لتقطفها استرجعت الأشجار فاكهتها ؛ وتسمع أصوات فى الهواء تردد ما فى التاريخ من أعمال القناعة . وعلى السطح السابع والأخير يستقر الذين كان جرمهم أنهم لم يستعففوا ، ولكنهم اعترفوا بذنبهم قبل الموت ، وهؤلاء يمسهم اللهب مساً خفيفاً ليطهرهم من ذنبهم . وهكذا يظهر دانتى أنه يعطف عطف الشعراء على

آثام الجسد ، وخاصة إذا ارتكبها ذوو المزاج الفنى ممن هم لهذا السبب رقيقو الإحساس ، واسعو الخيال ، مندفعون فى أعمالهم . ومن بين هؤلاء جيدو جوينزلى Guido Guinuzelli ؛ الذى يحبه دانتى ويسميه أباه فى الأدب ، ويشكر له « الأغانى الحلوة ، التى ستوحى إلينا ما بقيت لغتنا بأن نحب المداد الذى خطت به »(٥٢) .

ويقودهما أحد الملائكة خلال نار فى صعودهما الأخير إلى جنة الأرض ، وهنا يودع ڤرچيل صاحبه بقوله :

« إن علمى لا يصل إلى أبعد من هذا ، لقد سرت بك بحذق وفن إلى هذا الحد ، فاتخذ الآن مسرتك دليلا لك . . . انظر ! تر الشمس التى تسطع أشعتها على جبهتك ؛ انظر ! تر الأعشاب والشجيرات والأزهار التى تخرجها هذه الأرض موفورة من تلقاء نفسها . وإلى أن تأتيك هاتان العينان الوضاءتان [عينا بياتريس] تشع منهما البهجة ، وهما اللتان جعلتانى ببكائهما أسرع إلى معونتك — أقول إلى أن تأتيك هاتان العينان فأنت مخير بين الجلوس هنا أو التجوال حيث تشاء . ولا تنتظر أن تسمع منى بعد الآن صوتاً أو إشارة تحذرك . وإذ كنت الآن حراً تختار لنفسك ما تشاء ، حصيفاً ، حكيما . . . فإنى أخلع عليك التاج والعمامة وأجعلك سيد نفسك »(٥٣) .

ويجوس الآن دانتى خلال الغابات والحقول ، وعلى ضفاف الأنهار فى جنة الأرض ومن ورائه — لا من أمامه — ڤرچيل واستاتيوس ، يستنشق هواءها النقى ذا الرائحة الذكية ، ويستمع من خلال الأشجار شدو الطيور تغنى القسم الأول من النشيد الكهنوتى . وتمتنع سيدة تجمع الأزهار عن الغناء لتشرح لم خلت هذه الأرض الجميلة من الناس ، فتقول إنها كانت فيما مضى جنة عدن ، ولكن الإنسان عصى ربه ، فأخرج هو وذريته من مباهجها البريئة . وتنزل بياتريس من السماء إلى هذه الجنة المفقودة يحيط بها لألاء يذهب سناه بالأبصار ،

فلا يستطيع دانتي أن يراها بعينه ، بل كل ما يقدر عليه أن يحس بوجودها :

« ومع أن عيني لم ترياها فقد سرت منها قوة فضلى خفية لم أكد أمسها حتى استبدت بي قوة الحب القديم »(٥٤) .

ويلتفت ليحدث الشاعر الذي يرشده ، ولكن ڤرچيل كان قد عاد إلى المحيط الخارجي للجحيم وهو الموضع الذي جاء به منه استجابة لنداء بياتريس . ويبكي دانتي ولكن بياتريس تأمره أن يندب بدل البكاء شهواته التي دنس بها بعد موتها صورتها التي في قلبه . وتؤكد له أن أن تلك الغابة المظلمة التي أنجته منها على يد ڤرچيل لم تكن إلا حياة الدعارة التي ضل فيها في منتصف عمره وأظلم أمامه بسببها الصراط المستقيم . ويقع دانتي على الأرض من فرط الخجل ، ويقر بذنوبه ، فتقبل عذارى سماويات ويشفعن له عند بياتريس التي أساء إليها بفعله ، ويرجونها أن تكشف له عن جمالها الثاني الروحي . وليس هـذا لأن بياتريس قد نسيت جمالها الأول :

« فأنت لم تر في حياتك ، لا في الفن ولا في الطبيعة شيئاً يبلـغ من الحلاوة ما بلغته تلك الأعضاء التي كانت تلفى داخل إطارها الجميل ، والتي تناثرت الآن هباء »(٥٥) :

ويرق قلبها ، وتكشف له عن جمالها السماوي الجديد ، ولكن العذارى يحذرن دانتي من النظر إليها مباشرة ، ويطلبن إليه أن يكتفي بالنظر إلى قدميها وتقوده بياتريس هو واستاتيوس (الذي أتم أجله في المطهر بعد أن قضى فيه اثني عشر قرناً) إلى نبع يخرج منه نهران — أحدهما ليثي Lethe (النسيان) والآخر يونوئي Eunoë (الفهم الصالح) . ويشرب دانتي من يونوئي فيتطهر ، وتتجدد حياته ، و« يصلح للصعود إلى النجوم »(٥٦) .

وليس صحيحاً أن وصف الجحيم هو وحده الجزء الظريف الممتع في الملهاة

المقدسة . نعم إن وصف المطهر كثيراً من الفقرات التعليمية المجدبة ، وإن فيه على الدوام قدراً كبيراً من اللاهوت الذى لا حاجة للقصيدة به ، ولكنها وقد خلت فى هذا النشيد من رهبة التعذيب ترقى فى مدارج الجمال والحنان خطوة بعد خطوة ، وتغمر هـذا الرقى بجو من جمال الطبيعة الذى عاد إليها من جديد فأكسبها بهجة وطلاوة ، وبذلك تتأهب القصيدة لأن تضطلع بشجاعة بذلك الواجب العظيم واجب إحاطة بياتريس المجردة من الجسد بالجمال الروحانى ، وبفضلها يدخل دانتى الجنة مرة أخرى ، كما دخلها أيام شبابه .

٤ — السموات

لقد كان تفقه دانتى فى علوم الدين مما زاد عمله مشقة ، فلو أنه أجاز لنفسه أن يصور الجنة فى صورة حديقة مليئة بالمباهج الجسمية كما هى مليئة بالمباهج الروحية ، لوجدت فطرته مجالا واسعاً لهذا التصوير . ولكن كيف يستطيع العقل البشرى وهو « المركب المادى » ، أن يتصور جنة ذات نعيم روحى خالص ؟ يضاف إلى هذا أن نشأة دانتى الفلسفية كانت تمنعه أن يصور الله أو ملائكة الجنة وقديسيها بصور مجسدة ؛ بل كان يتمثلهم جميعاً كأنهم صور ونقط من النور ، وكان تصويرهم بهذه الصورة تتبعه تجريدات تضيع فى الفراغ النورانى حياة الجسد المذنب وحرارته . غير أن العقيدة الكاثوليكية كانت تعترف ببعث الجسم بعد الموت ، ولهذا فإن دانتى وهو يحاول أن يكون روحانياً يخلع على بعض سكان الجنة ملامح جسدية وينطقهم بكلام بشرى ، ومما يسر له الإنسان أن يقرأ أن لبياتريس ؛ وهى فى الجنة ، قدمين جميلتين .

ولقد نَفَّذ الصورة التى صور بها الجنة فى خياله تنفيذاً متناسقا يدعو إلى الدهشة ، ونفذها بخيال رائع ، وتفاصيل دقيقة واضحة . واسترشد بفلك بطليموس فصور السماء كأنها سلسلة من تسع كرات مجوفة مطردة الاتساع تدور حول الأرض ،

وهذه الكرات هى « المساكن الكثيرة » التى فيها « بيت الأب » . وقد ثبت فى كل كرة كوكب وعدد كبير من النجوم ، كما تثبت الجواهر فى التاج . وكلما تحركت هذه الأجرام السماوية ، وقد وهبت كلها ذكاء ربانيا متفاوت الدرجات ، أخذت تتغنى ببهجة سعادتها وتسبح بحمد خالقها ، وتغمر السماوات بموسيقى تلك الكرات . ويقول دانتى إن النجوم هى أولياء السموات الصالحون ، وأرواح الناجين ، ويختلف ارتفاعها عن الأرض باختلاف ما كسبت من عمل صالح فى حياتها على ظهر الأرض ، وبقدر هذا الارتفاع تكون سعادتها ، ويكون قربها من أعلى السموات التى يقوم عليها عرش الله .

وكأن النور الذى تشعه بياتريس قد جذب دانتى فارتفع من جنة الأرض إلى الدائرة الأولى من دوائر السماوات وهى دائرة القمر ؛ وفيها تستقر أرواح الذين اضطروا لغير ذنب ارتكبوه إلى الحنث بأيمانهم الدينية ، ومن هؤلاء شخص يدعى بكاردا دوناتى Piccarda Donati . ويقول لدانتى إنهم فى أسفل دائرة من دوائر السموات ، وإنهم يستمتعون بقدر من النعيم أقل مما تستمتع به الأرواح التى فوقهم ؛ وقد أنجتهم الحكمة الإلهية من كل حسد ، وشوق ، وتذمر ؛ ذلك بأن جوهر السعادة هو الخضوع لإرادة الله خضوعاً مقروناً بالغبطة والسرور ، لأن « فى إرادته راحتنا »[٥٧] . وهذا هو بيت القصيد فى الملهاة المقدسة .

ويرقى دانتى مع بياتريس إلى السماء الثانية منجذباً إليها بقوة مغنطيسية سماوية تجذب كل شىء إلى الله . وهذه السماء الثانية هى التى يسيطر عليها الكوكب عطارد . وفيها يقيم الذين كانوا يقومون وهم على الأرض بنشاط عملى يبتغون به الخير ، ولكنهم كانوا أكثر إنهماكا فى الشرف الدنيوى منهم فى خدمة الله . ويظهر من بين هؤلاء جستنيان ، يصوغ فى عبارات ملكية الوظائف التاريخية للإمبراطورية الرومانية والشريعة الرومانية . وعن طريقه يوجه دانتى ضربة أخرى يبغى بها قيام عالم واحد ، خاضع لشريعة واحدة ،

وملك واحد . ثم تقود بياتريس الشاعر إلى السماء الثالثة ، وهى دائرة الزهرة حيث يتنبأ فلك Folque الشاعر البروفنسالى بمأساة بنيفاس الثامن . وفى السماء الرابعة وهى دائرة الشمس يشاهد دانتى الفلاسفة المسيحيين بوئيثيوس ، وإزدور الأشبيلى ، وبيد Bede ، وبطرس لمبارد ، وجراتيان ، وألبرتس مجنس ، وتومس أكويناس ، وبونا ڤنتورا ، وسيجرده برابانت . ويتبادل كل من تومس الدمنيكى ، وبونا ڤنتورا الفرنسيسى حديثهما ، فيقص تومس على دانتى حياة القديس فرانسس ، كما يقص عليه بونا ڤنتورا قصة القديس دمنيك . وإذ كان تومس على الدوام رجلا واسع العقل إلى حد ما فإنه يقحم فى قصته أقوالا عن موضوعات دينية دقيقة ؛ وتشتد رغبة دانتى فى أن يكون فيلسوفاً فيمتنع فى عدة أغان عن أن يكون شاعراً .

وتقوده بياتريس إلى السماء الخامسة ، سماء المريخ ، حيث تقيم أرواح المحاربين الذين قتلوا وهم يحاربون لنصرة الدين الحق — يوشع ، ويهوذا مكابيوس ، وشارلمان ، وحتى ربرت جوسكاد Robert Guiscard الذى خرب رومة . وينتظم هؤلاء على شكل صليب متلألئ عليه المسيح المصلوب ؛ ويشترك كل نجم من النجوم فى هذا الرمز المضىء فى إيقاع موسيقى سماوى . ويصعد الشاعر وبياتريس إلى السماء الخامسة سماء المشترى فيجد فيها دانتى من كانوا وهم على ظهر الأرض يوزعون العدالة بالقسطاس المستقيم ؛ فمنها داود ، وحزقيال ، وقسطنطين ، وتراچان — وهاهو ذا وثنى آخر يقتحم السماء . وتنتظم هذه النجوم الحية فى صورة نسر ، وتتكلم بصوت واحد ، وتُحدث دانتى فى علوم الدين ، وتردد الثناء على الملوك العدول . ويصعد الشاعر وقائدته إلى ما تسميه بياتريس تسمية مجازية « سلم العصر الخالد » فيصلان إلى السماء السابعة سماء البهجة ، سماء زحل وحاشيته من النجوم . ويزداد جمال بياتريس بهاء كلما علت فى السموات ، كأن كل دائرة تعلو إليها تزيدها بهجة وجلالا ؛ وهى لا تجرؤ على

الابتسام لحبيبها لئلا يحترق ويستحيل رماداً بقوة إشعاعها . وهذه السماء هى دائرة الرهبان الذين عاشوا معيشة الصالحين ، وأخلصوا لأيمانهم ، ومن بينهم بطرس دميان ؛ ويسأله دانتى كيف يوفق بين حرية الإنسان وعلم الله بالغيب ، وما يؤدى إليه هذا العلم من الإيمان بالقضاء والقدر ؟ فيجيبه بطرس بأن أكثر الأرواح استنارة فى السماء تحت عرش الله لا تستطيع الإجابة عن هذا السؤال . وهنا يظهر القديس بندكت ، ويرثى للفساد الذى انحدر إليه رهبانه .

ويسبح الشاعر وقتئذ من دوائر الكواكب إلى السماء الثامنة ، منطقة النجوم الثوابت . ويطل إلى أسفل من كوكبة الجوزاء فيرى الأرض المتناهية فى الصغر « ذات منظر حقير لم أتمالك معه نفسى من الابتسام » . ولربما كان خليقاً بأن يسرى فيه وقتئذ إلى أمد قصير حنين إلى هذا الكوكب التعس ، ولكن نظرة من بياتريس تنبؤه أن هذه السماء ، سماء الضوء والحب ، لا مكان الذنوب والنزاع . هى موطنه الحق .

وتبدأ الأغنية الثالثة والعشرون بتشبيه من التشبيهات التى يمتاز بها شعر دانتى :

كالطائر الذى جلس طوال الليل فى عشه المظلم بين أوراق الشجر ، ومعه صغاره الجميلة ، يتحرق شوقاً إلى رؤية نظراتها الحلوة . وإلى أن يسعى سعيه الحبيب ليأتى إليها بطعامها غير شاعر بما يلاقيه فى سبيلها من مشقة ، جلست تستبق الزمن على الغصن المعلق فوق عشها ، يقظة تترقب أن تطلع الشمس فتطرد من الشرق ستار الفجر .

وتحدق بياتريس بعينيها فى جهة من الجهات مترقبة ، فتنشق السماء فجاءة عن منظر رائع وضاء ، وتناديه قائلة « انظر ! إلى جيش المسيح المنتصر » — أرواح جديدة كسبتها الجنة . ويلتفت دانتى ولكنه لا يرى إلا ضوءاً ساطعاً قوياً يذهب سناه ببصره ، فلا يعرف ما يمر به . وتأمره بياتريس أن يفتح عينيه ،

وتقول له إنه يستطيع فى ذلك الوقت أن يطيق النظر إلى بهائها كاملا . وتبتسم له ، ويقسم أن هذا حادث لا يمحى من ذاكرته . وتسأله : « لم يأسرك جمال وجهى ؟ » وتأمره أن ينظر بدلا منه إلى المسيح ومريم والرسل . ويحاول هو أن يتبينهم ، ولكنه لا يبصر إلا « كتائب من البهاء ، تسقط عليها من فوقها بروق ترسلها أشعة محرقة » ، وتصل إلى أذنيه فى تلك اللحظة موسيقى الكتائب السماوية .

ويصعد المسيح ومريم ، ولكن الرسل يبقون خلفهما ، وتطلب بياتريس إليهم أن يتحدثوا إلى دانتى ، فيسأله بطرس عن دينه ، وتسره أجوبته ، ويوافقه على أن الكرسى الرسولى سيظل شاغراً أو مدنسا ما دام بنيفاس بابا(٥٨) . إن بنيفاس لا يجد فى قلب دانتى ذرة من الرحمة .

ويختفى الرسل فى الطباق العليا ، ويصعد دانتى أخيراً مع « التى أسكنت روحى الجنة » إلى السماء التاسعة ، أعلى السموات جميعا . وليس فى هذه السماء نجوم ، بل كل ما فيها نور صاف ، وفيها الله الروح الخالص ، المجرد من الجسد ، والذى لا علة له ، والأصل الثابت لجميع الأرواح ، والأجساد ، والأسباب ، والنور ، والحياة . ويحاول الشاعر وقتئذ أن يستمتع بنور النعيم الباهر ، ولكنه لا يرى إلا نقطة من الضوء تدور حولها تسع دوائر من الذكاء الخالص — ملائكة الطبقة الأولى ، وأرواح سماوية ، وعروش ، وأملاك ، وفضائل ، وسلطات ، وإمارات ، وملائكة كبار ، وملائكة غير كبار . وعن طريق هؤلاء — وهم عمال الله ومبعوثوه — يحكم الخالق جل جلاله العالم . ولا يستطيع دانتى أن يرى الجوهر الإلهى ، ولكنه يرى كل كتائب السماء تؤلف من نفسها وردة وضاءة ، هى أعجوبة من النور البراق والألوان المختلفة تتمدد ورقة بعد ورقة حتى تصبح زهرة ضخمة .

وحينئذ تترك بياتريس حبيبها ، وتحتل مكانها فى الوردة . ويراها تجلس

على عرشها ، ويظل يرجوها أن تساعده ، فتبتسم له ، وتحدق من ذلك الوقت بعينيها فى مركز جميع الأضواء ؛ ولكنها ترسل القديس برنار ليساعده ويواسيه . ويوجه برنار دانتى نحو ملكة السماء ؛ ويتجه الشاعر نحوها ولكنه لا يرى إلا بريقاً وهاجاً يحيط به آلاف من الملائكة مسربلين بالنور . ويقول له برنار إذا شاء أن يكون له من القوة ما يستطيع به أن يشهد الرؤى السماوية واضحة ، فإن عليه أن ينضم إليه فى الصلاة لأم الإله ، وتبدأ الأغنية الأخيرة بتضرع برنار بنغمه الحلو :

« أيتها الأم العذراء ، يا ابنة ابنك ، يا من أنت أعظم تواضعاً ورفعة من كل الخلائق » . ويتوسل إليها برنار أن تمن على دانتى بأن يقدر على رؤية ذات الجلال القدسى ، فتنحنى بياتريس وينحنى كثير من القديسين نحو مريم ويرفعون أيديهم مقبوضة يتوسلون إليها بالدعوات . وتلقى مريم نظرة قصيرة رحيمة على دانتى ، ثم تحول عينيها نحو « النور السرمدى » . والآن ، كما يقول الشاعر : « تصفو نظراتى ، فيدخل فيها شيئاً فشيئاً ذلك النور الأعلى وهو الحق » . ويقول إن كل ما رآه بعدئذ تعجز اللغة عن وصفه ، ويعجز الخيال عن تصوره ؛ ولكن « فى هذه الهوة من البهاء المتألق ، الصافية الشامخة ، خيل إلى أنى أرى كرة ذات ثلاثة ألوان مجتمعة فى لون واحد » . وتختتم الملحمة الفخمة ونظرات دانتى لا تزال مثبتة على النور المتألق ، ويجذبها ويدفعها « حب الله الذى يحرك الشمس وجميع النجوم » .

وجملة القول أن **الملهاة المقدسة** أعجب القصائد كلها وأصعبها . فليس ثمة قصيدة غيرها تضن بكنوزها إلا على من يبذلون فى سبيلهاجهوداً جبارة ؛ ولغتها أكثر اللغات إيجازاً وإحكاماً بعد لغة هوراس وتاستس ، فهى تجمع فى كلمة أو بضع كلمات معانى وأفكاراً دقيقة يتطلب فهمها كاملة معلومات سابقة غزيرة ، وعقلاً مستيقظاً ، وذكاء ، وحتى بحوثها المملة فى علوم الدين ، والنفس ، والفلك ،

تاز بدقة فى اللفظ وغزارة فى المادة ، لايستطيع أن يجاريها فيهما أو يستمتع بهما إلا الفيلسوف المدرسى . ذلك أن دانتى كان يحيا فى عصره حياة قوية عميقة تكاد قصيدته بسببها أن تتحطم تحت عبء الإشارات إلى الحوادث والمعانى المعاصرة التى لا يمكن فهمها إلا إذا أضيف إليها كثير من الشروح التى تعطل تتابع القصة .

وكان يحب أن يعلم الناس ، ولهذا أراد أن يفرغ قصيدة واحدة ما تعلمه كله تقريباً ، وكانت النتيجة أن البيت الحى من الشعر يرقد إلى جانب السخافات الميتة ، ويضعف جمال بياتريس وفتنتها بأن ينطقها بما يحبه ويكرهه فى الشئون السياسية . وهو يقطع قصته ليصب جام غضبه على مائة مدينة أو جماعة أو فرد ، ويغرق ملحمته أحياناً فى بحر من السباب ؛ وهو متيم بحب إيطاليا ؛ ولكن بولونيا مليئة بالقوادين[٥٩] ، وفلورنس هى الثمرة المحبوبة من ثمار الشيطان[٦٠] ، وپستونيا حظيرة للوحوش[٦١] ، وجنوى « استشرى فيها الفساد »[٦٢] ؛ وأما پيزا « ألا لعنة الله على پيزا ! ألا ليت نهر الآرنو يسد عند مصبه ، ويغرق پيزا كلها ، بما فيها من حرث ونسل ، تحت مياهه الصاخبة ! »[٦٣] . ويظن دانتى أن « الحكمة العليا ، والحب الأزلى » هما اللذان خلقا الجحيم . وهو يعد بأن يزيل الجليد لحظة من الزمان عن عينى ألبريجو Alberigo إذا ما أخبره هذا باسمه وقص عليه قصته . ويجيبه البريجو إلى ما طلب ويرجوه أن ينجز ما وعد — ويقول « مد إلى يدك ، وافتح عينى ! » — ويواصل دانتى حديثه قائلا : ولكننى « لم أفتحها له ؛ لأن الوقاحة معه هى المجاملة بعينها »[٦٤] . ألا إننا سننجو جميعاً من العذاب إذا كان رجل ملئ قلبه بهذا الغل يستطيع أن يطوف به طائف خلال الجنة .

ومع هذا كله فإن قصيدته أعظم كتب العصور الوسطى ، ومن أعظم كتب التاريخ بأجمعه . ذلك بأن تجمع قوتها وغزارة مادتها تدريجاً خلال أغانيها البالغ عددها مائة أغنية تجربة لايستطيع قارئ أكمل قراءتها أن ينساها ؛ وهى كما قال فيها كارليل Carlyle أعظم القصائد إخلاصاً ؛ فليس فيها شىء من الادعاء ،

أو الملق ، أو التواضع الكاذب ، أو الخنوع ، أو الجبن ؛ بل إن أقوى رجال ذلك العصر ، ومنهم البابا الذى يدعى أنه صاحب السلطان الأعلى ، يهاجَمون بقوة وحرارة ليس لهما فى الشعر كله مثيل . وفيها فضلا عن هذا كله خيال وثاب يسرى فيها كلها ويبعث فيها القوة ، ويغالب شيكسپير لينتزع منه اواء الشعر : فيها صور واضحة حية لأشياء لم يرها الأرباب أو البشر ؛ ووصف للطبيعة لا تستطيعه إلا روح يقظة قوية الملاحظة مرهفة الحس ؛ وقصص قصيرة ، كقصة فرانسسكا وأجلينو ، تجمع المآسى العظيمة فى حيز صغير دون أن تترك منها شيئاً ذا بال . نعم إن هذا الرجل خلو من الفكاهة ، ولكن فيه حُبًّا ظل حتى أحالته المصائب لاهوتا .

ويبلغ دانتى آخر الأمر بقصيدته مرتبة السمو . نعم إننا لا نجد فى ملحمته ما نجده فى الإلياذة من تيار الحياة الجارف أو تتابع الحوادث سراعا ، كما أننا لا نجد فيها ما فى شعر ڤرچيل من انسياب سهل هادئ ، أو ما يمتاز به شيكسپير من إدراك شامل ، وتسامح ، وغفران للذنوب ؛ ولكن فيها عظمة ، وقوة معذبة نصف همجية تستبق ميكل أنچلو وتنبئ بقدومه ؛ وإذ كان دانتى ممن يحبون النظام كما يحبون الحرية ، فقد قيد عواطفه ورؤياه فخلع عليهما صورة محددة ، ولهذا أخرج قصيدة ذات قوة ماثلة أمام أعيننا لم يصل إلى مثلها إنسان آخر من بعده . وقد ظلت إيطاليا طوال القرون التى أعقبت عصره تجله وترى فيه الرجل الذى حرر لغتها الذهبية من القيود ؛ وتلقى پترارك وبوكاشيو ومائة غيرهما من الأدباء الإلهام من وقائعه وفنه ، وردت أوربا كلها أصداء قصة المنفِىّ الفخور الذى سار إلى الجحيم ثم عاد منها ولم يبتسم قط بعد عودته .

الخـــاتمة

تراث العصور الوسطى

إن من الخير أن نختم بدانتى قصتنا الطويلة المتشعبة ، فقد ظهر فى القرن الذى توفى فيه أولئك الرجال الذين شرعوا بعدئذ فى تحطيم الصرح العظيم صرح الإيمان والأمل الذى عاش فيه : فمن هؤلاء ويكلف Wyclif ، وهوس Huss اللذان مهدا السبيل للإصلاح الدينى ؛ وچيتو Giotto وكريسلاراس Chrysolaras ، وپترارك ، وبوكاشيو الذين بشروا بالنهضة ، وقد يبقى إلى زمن طويل خلال تاريخ الإنسان — ذى العدد الكبير والطبائع المختلفة — مزاج من نوع ما فى نفوس وأماكن أخرى . ففى أوربا مثلا وصل عصر الإيمان إلى عنفوان مجده ، فى دانتى ، ثم أصابته طعنة نجلاء من يد أكام Occam فى القرن الرابع عشر ؛ ولكنه ظل يغالب المرض والضعف حتى أقبل برونو Bruno ، وجليو وديكارت ، واسپنوزا ، وبيكن ، وهُبز Hobbs ؛ وقد يعود عصر الإيمان إذا ما حلت بعصر العقل كارثة(*) ؛ ولقد بقيت مساحات واسعة تحت شعار الإيمان وسلطانه بينما كانت أوربا الغربية تسير بسفينة العقل فى البحار الغير المطروقة . إن العصور الوسطى حال من أحوال الزمان كما هى فترة من فتراته : ومن واجبنا أن نختتمها فى أوربا الغربية بكولمبس ؛ ولكنها دامت فى الروسيا إلى زمن بطرس الأكبر (المتوفى عام ١٧٢٥) ؛ أما فى الهند فلا تزال باقية إلى اليوم .

ولقد نساق إلى التفكير فى العصور الوسطى على أنها فترة مجدبة محصورة بين سقوط الإمبراطورية الرومانية فى الغرب (٤٧٦) وكشف أمريكا ؛ بيد

(*) يقصد بعصر العقل عصرنا الحاضر ، ولهذا يقول إنه سيسمى المجلد السابع من هذه سلسلة وهو المجلد الذى يروى حضارة هذا العصر « عصر العقل » . (المترجم)

أننا يجب ألا ننسى أن أتباع أبلار كانوا يسمون أنفسهم محدثين moderni . وأن أسقف إكستر Exeter قد وصف فى عام ١٢٨٧ القرن الذى يعيش فيه بأنه « الزمن الحديث moderni tempores »[1]. أضف إلى هذا أن الحد الفاصل بين العصور « الوسطى » والعصور « الحديثة » يتقدم على الدوام : وأن عصر الفحم والزيت والأحياء القذرة المليئة بالدخان والكتّان ، إذا ما حل محله عصر أكثر منه نظاماً وأرحم منه حياة ، قد يعد من العصور الوسطى . كذلك لم تكن العصور الوسطى مجرد فترة بين حضارة وحضارة . ذلك أننا إذا أرخنا بداية هذه العصور بقبول رومة للمسيحية وبمؤتمر نيقية عام ٣٢٥ ، رأيناها تشمل القرون الأخيرة من حياة الثقافة اليونانية — الرومانية القديمة ، ونضوج المسيحية الكاثوليكية حتى أضحت حضارة كاملة غنية فى القرن الثالث عشر ، وانقسام تلك الحضارة إلى الثقافتين المتعارضتين وهما النهضة والإصلاح الدينى . وشىء آخر خليق بالذكر ، وهو أن رجال العصور الوسطى كانوا ضحايا الهمجية ، ثم صاروا هم أنفسهم الغالبين للهمجية ، وأمسوا بعدئذ المنشئين لمدنية جديدة . وليس من الحكمة أن ننظر بعين الكبرياء إلى عصر أنجب هذا العدد الجم من عظماء الرجال وعظيمات النساء ، ورفع منار البابوية فوق أنقاض العصور الوسطى ، وأقام الدول الأوربية ، وجمع بالكدح الدائب تلك الثروة التى خلفتها لنا تلك العصور(*) .

وقد جمع هذا التراث بين الشر والخير . فأما عن الشر فنقول إننا لم نفق بعد كل الإفاقة من العصور المظلمة : من اضطراب الأمن الذى يثير المطامع والشهوات ، والخوف الذى يولد القساوة ، والفقر الذى يوجد القذارة والجهل ، والقذارة التى تتفشى بسببها الأمراض ، والجهل الذى يؤدى إلى سرعة التصديق وإلى الإيمان بالخرافات ، والسحر — كل هذا لا يزال باقيا بيننا ؛ وإن العقائد التحكمية القائمة

(*) قصرنا الجزء الأكبر من هذه الإعادة على الحديث عن المسيحية فى العصور الوسطى ، ولن نعيد هنا الخلاصة التى كتبناها عن الحضارة الإسلامية فى ختام الكتاب الثانى من هذا المجلد .

على غير أساس من العقل ، والتى أدت إلى التعصب وإلى محاكم التفتيش لا تزال تنتهز الفرص أو الإذن لكى تظلم ، وتقتل ، وتدمر ، وتخرب . وليست « العصرية » بهذا المعنى إلا ستاراً يغشى مبادئ العصور الوسطى وعاداتها . ولا تزال هذه المبادئ والعادات باقية فى الخفاء ؛ وليست الحضارة فى أى جيل من الأجيال إلا ثمرة من ثمار الكدح الذى تقوم به قلة مزعزعة مغمورة ومبزة اضطرارية لهذه القلة . ولقد خلفت محاكم التفتيش آثارها السيئة فى المجتمع الأوربى : فقد جعلت التعذيب جزءاً مقرراً معترفاً به فى الإجراءات القضائية ، وردت الناس من مغامرات العقل إلى الاتفاق الراكد المنبعث من الخوف .

والدين أهم ما أورثنا إياه عصر الإيمان : أورثنا يهودية ظلت حتى القرن الثامن عشر يستوعبها التلمود ؛ وأورثنا الإسلام الذى هدأت عقول أصحابه بعد انتصار السُنَّة على الفلسفة فى القرن الثانى عشر ، ومسيحية انقسمت بين الشرق والغرب ، والشمال والجنوب ، ولكنها لا تزال رغم هذا الانقسام أقوى الأديان وأعظمها أثراً فى تاريخ الرجل الأبيض . فعقيدة كنيسة العصور الوسطى يدين بها الآن ٣٣٠٫٠٠٠٫٠٠٠ من الرومان ، و ١٢٨٫٠٠٠٫٠٠٠ من الأرثوذكس والكاثوليك ؛ ولا تزال شعائرها تحرك النفوس بعد أن أخفقت كل الحجج المنطقية . ولقد خلفت جهود الكنيسة فى ميادين التعليم ، والصدقات ، وبث الأخلاق الفاضلة فى نفوس الهمج من الناس ، خلفت هذه الجهود إلى العالم الحديث تراثاً ثميناً من النظام الاجتماعى ، والتأديب الخلقى . ولسنا ننكر أن ما كانت تحلم به البابوية من قيام دولة أوربا الموحدة قد قضى عليه النزاع الذى قام بين الإمبراطورية والبابوية ؛ ولكن ما من جيل من الأجيال لا تستثيره رؤى نظام أخلاقى دولى يسمو على النظم الأخلاقية المتضاربة السائدة فى الدول المستقلة ذات السيادة .

ولما أن قضى على ذلك الحلم البابوى اتخذت الأمم الأوربية الشكل الذى

لا تزال تحتفظ به فى جوهر حتى هذا القرن ، وتأهب مبدأ القومية لكتابة التاريخ السياسى للأزمنة الحديثة . وابتدع عقل العصور الوسطى فى هذه الأثناء أنظمة من القانون المدنى والكنسى ، ودساتير بحرية وتجارية ، وعهوداً لحرية المدن ، ونظام المحلفين ، وحق القضاء فى إطلاق سراح المسجون بلا محاكمة . وفى العصور الوسطى وضع نبلاء الإنجلير العهد الأعظم ، وأعدّت المحاكم والمجالس القضائية للدول والكنيسة أساليب الحكم ودواليب الإدارة الباقية إلى هذه الأيام . وظهر نظام الحكم النيابى فى الكورتيز Cortes مجلس أسبانيا النيابى ، والألثنج Althign مجلس أيسلندة : وجمعية الطبقات الفرنسية ، والبرلمان الإنجليزى .

وكان أعظم من هذا كله تراث العصور الوسطى الاقتصادى : فقد استغلت هذه العصور البرارى المقفرة ، وكان لها النصر فى مغالبة الغابات ، والحراج ، والمستنقعات ، والبحار ، وأخضعت تربة الأرض لإرادة الإنسان . وقضت العصور الوسطى على الاسترقاق فى معظم أجزاء أوربا الغربية ، وكادت تقضى أيضاً على نظام رقيق الأرض . ونظمت العمال المنتجين فى نقابات الحرف ، وهى النقابات التى لا تزال من المثل العليا عند رجال الاقتصاد الذين يسعون لإيجاد طريق وسط بين الأفراد غير المسئولين والدولة الأتوقراطية . ولقد ظل الخياطون ، والأساكفة ، وصناع الملابس إلى وقتنا هذا يقومون بأعمالهم اليدوية فى حوانيت خاصة كما كانوا يقومون بها فى العصور الوسطى ؛ وكان خضوعهم لنظام الإنتاج الكبير وللتنظيم الرأسمالى على مرأى ومسمع منا . وإن المواسم الكبرى التى تعقد فى المدن الحديثة ويجتمع فيها الناس والسلع لمن مخلفات تجارة العصور الوسطى ؛ كما أن من هذا التراث أيضاً ما نبذله من جهد لمنع الاحتكار ، وتحديد الأثمان والأجور ؛ ولقد ورثنا عمليات المصارف الحديثة كلها تقريبا من نظم العصور الوسطى المالية ؛ وحتى منظماتنا الأخوية ، وجمعياتنا السرية تمتد جذورها وشعائرها إلى العصور الوسطى نفسها .

وكانت مبادئ العصور الوسطى الخلقية وليدة الهمجية ومنشأ نظام الفروسية . وإن فكرتنا عن السيد الكامل (السميذع) لمن خلق تلك العصور ؛ ولا تزال مثل الفروسية العليا ؛ وإن بعدت عن أساليب الفرسان القدامى ، من أنبل الأفكار التى طافت بالعقل البشرى ؛ وربما كانت عبادة مريم العذراء قد جاءت بعناصر جديدة من الرقة والحنان إلى أخلاق الرجل الأوربى . وإذا كانت القرون المتأخرة قد ارتقت بأخلاق الناس عما كانت عليه فى العصور الوسطى ، فقد كان ذلك الرقى على أسس من وحدة الأسرة ، والتربية الخلقية ، والانتشار البطىء لعادات الشرف ، والأمانة ، والمجاملة ، وهى الأسس التى أرست دعائمها العصور الوسطى ، شأنها فى هذا شأن الحياة الأخلاقية للمتشككين المحدثين التى لا يبعد أن تكون صدى للمبادئ الأخلاقية المسيحية التى اعتنقها الناس فى شباب هذا الدين .

أما تراث العصور الوسطى الذهنى فهو أضعف مما ورثناه عن اليونان الأقدمين ، كما أنه يختلط به كثير من المعارف الخفية الفاسدة التى ترجع أصولها إلى الأزمنة القديمة . ولكنه على الرغم من هذا يشمل اللغات الحديثة ، والجامعات ، ومصطلحات الفلسفة والعلوم . وكانت الطريقة الجدلية المدرسية تدريبا فى المنطق لا فتحا فلسفيا دائما ، وإن كانت هذه الطريقة تسيطر على ألف كلية . ولسنا ننكر أن بعض العقائد الدينية فى العصور الوسطى قد عاقت كتابة التاريخ الصحيح ؛ فقد كان الناس فى تلك العصور يحسبون أنهم يعرفون منشأ العالم والإنسان ومصيرهما ، وحاكوا نسيجاً من الأساطير كاد يقصر التاريخ على مؤرخى الأديرة الإخباريين . ولكن ليس صحيحا أن مؤرخى العصور الوسطى لم يكونوا يعرفون شيئاً عن التطور والتقدم ؛ وكان القرن الثالث عشر ، كما كان القرن التاسع عشر ، متأثراً أشد التأثر بما تم فيه من جليل الأعمال . كذلك لم تكن العصور الوسطى زمن ركود وجمود كما كنا نظن ذلك مزهوين ؛ ذلك أن بعد ما بيننا وبين تلك

العصور يجعلنا نظن الحركة سكونا ، والفروق معدومة من الوجود ، ونحسب التغير جموداً ؛ ولكن الرغبة فى التغير كانت تلح وقتئذ ، كما تلح الآن ، فى تبديل العادات والثياب ، واللغة والأفكار ، والشرائع ونظم الحكم ، وأساليب التجارة والمال ، والأدب والفن . غير أن مفكرى العصور الوسطى لم يكونوا يعلقون أهمية كبرى على ارتقاء الوسائل غير المصحوبة بإصلاح الغايات كما يفعل المحدثون غير المفكرين أهل هذه الأيام .

وفى الحق أن تراث العصور الوسطى العلمى تراث متواضع ، ولكنه يشمل فيما يشمل الأرقام الهندية ، والطريقة العشرية ، وفكرة العلوم التجريبية ، وقسطاً كبيراً من العلوم الرياضية ، والجغرافيا ، والفلك ، والبصريات . وفى العصور الوسطى كشف البارود ، واخترعت النظارات ، والبوصلة البحرية ، والساعة ذات الرقاص(*) ، وتقطير الكحول — الذى يبدو أشد المخترعات لزوما للإنسان ! وفيها ارتقى أطباء العرب واليهود بالطب اليونانى ، وحرر الرواد المسيحيون الجراحة من فنون الحلاقين ؛ ونصف المستشفيات التى تقوم الآن فى أوربا إما أنها من منشئات العصور الوسطى وإما أنها مؤسسات باقية من ذلك العهد جددت فى العصور الحديثة ، ولقد ورث العلم الحديث من طريقة التفكير فى العصور الوسطى نزعته الدوّلية ، وقسطا غير قليل من لغته الدوّلية .

وأجل ما ورثه العالم من العصور الوسطى بعد التأديب الأخلاقى هو الفن . نعم إن بناء إمبيراستيت Empire State Building لا يقل روعة وجلالا عن كتدرائية شارتر ، وإنه يدين بعظمته لهندسته وحدها — لثباته رغم ارتفاعه وعتوه ودقة تخطيطه . ولكن اجتماع فنون النحت ، والتصوير ، والشعر ، والموسيقى مع فن العمارة فى حياة الكندرائية القوطية يكسب كتدرائيات أميان ،

(*) من حق العرب علينا أن نقول إن هذه المخترعات يكاد يرجع الفضل كله فيها إلى الحضارة الإسلامية . (المترجم) .

وريمس ، ونتردام سعة وعمقاً فى التوافق الروحى ، وثروة وتنوعاً فى الزخرف ، يملآن النفس غبطة أكثر مما تملؤها عظمة البناء الحديث ، ولا تفتر معهما متعة الإنسان على مر السنين . وإن من واجب الإنسان أن يغفر الشىء الكثير لذلك العصر الذى أحب بملء قلبه رموز دينه ، وأعمال يديه — من أبواب ، وأبراج ومنارات مستدقة ، وقباب من حجارة تناطح السماء ، وتماثيل ومذابح للقربان ، وواجهات ، ومقابر عنى بنحتها أعظم عناية ، وشبابيك تنافس بألوانها قوس قزح ، وتتقى أشعة الشمس قبل أن تنفذ فيها . ومن أجل الكتدرائيات نشأت الموسيقى المتعددة النغمات ، ووضعت العلامات الموسيقية والسلم الموسيقى ؛ ومن الكنيسة نشأ فن التمثيل الحديث .

ولا يقل تراث العصور الوسطى فى الأدب عن تراث الرومان وإن لم يبلغ فى علو قدره ما بلغه الأدب اليونانى . فنى وسعنا أن نضع دانتى فى مرتبة ڤرچيل ، وپترارك إلى جانب هوراس ، وشعراء العرب والفروسية الغزلين إلى جانب أوڤد ، وتيبلس ، وپروپرتيوس ؛ وإن روايات آرثر الغرامية لأشد عمقاً وأكثر نبلاً من كل ما حواه كتابا التناسخ والهرويدات ، ولا يقل عنهما ظرفاً وجمالا ؛ وإن الترانيم الكبرى التى كانت تنشد فى العصور الوسطى لأرقى من أجمل الأغانى الشعرية الرومانية . ولا يقل القرن الثالث عشر رقيا عن عصر أغسطس أو ليو العاشر ؛ وقلما شهد قرن من القرون ما شهده ذلك القرن من ازدهار فنى أو ذهنى كامل متعدد الألوان ؛ وقد اتسع فيه نطاق التجارة اتساعا لا يقل عما وصل إليه فى أواخر القرن الخامس عشر ؛ وكانت هذه التجارة سبباً فى اتساع رقعة العالم المعروف وازدياد ثروته ويقظته . وكان فى القرن الثالث عشر بابوات أقوياء من طراز إنوسنت الثالث وبنيفاس الثامن ، رفعوا مقام الكنيسة ملوى قرن كامل إلى أعلى درجات النظام والقانون فى جميع البلاد الأوربية . ولم يكن

القديس فرانسس يخشى أن يكون مسيحياً ؛ وأعاد الرهبان المتسولون المثل العليا للأديرة ، ورفع الحكام العظام أمثال فليب أغسطس ، والقديس لويس ، وفليب الرابع ، وإدورد الأول ، وفردريك الثانى ، وألفنسو العاشر ، رفع هؤلاء دولهم من بلاد تجرى على العادات والتقاليد إلى دول تتبع القوانين ، كما رفعوا شعوبهم إلى مستويات جديدة من الحضارة فى العصور الوسطى . وانبعثت فى القرن الثالث عشر فلسفة وعلوم جديدة تغلبت على النزعات الصوفية التى كانت سائدة فى القرن الثانى عشر ، وكان انبعاثها بحماسة وشجاعة لا يفوقهما ما كان منهما فى عصر النهضة . وفى الأدب خطا « القرن العجيب » من بارزيفال تأليف ولفرام ڤن إسشنباخ إلى فكرة الملهاة المقدسة ، ولاح أن عناصر حضارة العصور الوسطى وصلت فى خلال ذلك القرن إلى الوحدة والنضوج وإلى صورتها النهائية .

وبعد فإنا لن نستطيع تقدير العصور الوسطى حق قدرها إلا إذا نظرنا إلى النهضة الأوربية على أنها إتمام لما بدأته لا نقض له . فقد واصل كولمبس ومجلان Magellan مثلا رحلات الارتياد التى قام بها التجار والملاحون من أهل البندقية ، وجنوى ، ومرسيليا ، وبرشلونة ، ولشبونة ، وقادس ، والتى تقدمت على أيديهم تقدما عظيما ؛ وإن الروح التى كانت متأججة فى أثناء القرن الثانى عشر هى نفسها التى أثارت روح الكبرياء والكفاح فى المدن الإيطالية خلال عصر النهضة ؛ كذلك كان النشاط والخلق القوى اللذان امتاز بهما إنريكو دندولو Enrico Dandolo ، وفردريك الثانى ، وجريجورى التاسع هما اللذين تلتهب بهما صدور رجال النهضة ؛ وكان منشأ زعماء عصابات المغامرين العسكريين الذين يبيعون خدماتهم لأى حزب فى كل نزاع من الخطة التى اتبعها ربرت جسكارد Robert Guiscard ؛ ومنشأ الحكام « الطغاة » مثل إزلينو Ezzelino وپلافشينو Pallavicino ؛ وسار المصورون فى الدرب الذى شقه لهم سيمابيو Cimabue ودوتشيو Duccio ؛ وكانت پلسترينا Palestrine همزة الوصل بين الترنيم

الجريجورى وباخ Bach . كذلك كان بترارك وارثا لدانتى وشعراء الفروسية الغزلين ، كما كان بوكاشيو قصاصا إيطاليا جوابا . وقد ظلت الروايات الغرامية مزدهرة فى أوربا أثناء النهضة على الرغم من كتاب دون كيشوت ، وبلغت أساليب كريتيان ده تروى Chrétien de Troyes حد الكمال على يد مالورى Malory . وكانت بداية « إحياء الآداب » فى مدارس العصور الوسطى ؛ وكل ما امتازت به النهضة فى هذه الناحية أنها وسعت دائرة هذا الإحياء حتى شملت الآداب اليونانية بعد أن كان مقصوراً على اللاتينية ، وأنها نبذت الفن القوطى لتنهض بالفن اليونانى . لكننا يجب ألا ننسى أن نقولو بيزانو Niccolo Pisano اتخذ فن النحت اليونانى فى القرن الثالث عشر نموذجا له ينسج على منواله ، ولما أن جاء كريسلوراس Chrysoloras باللغة اليونانية وآدابها إلى إيطاليا (١٣٩٣) ، كان لا يزال باقيا من عمر العصور الوسطى مائة عام كاملة .

وكان الدين الذى شاد الكنائس الكبرى وألف الترانيم الجميلة هو الدين السائد فى إيطاليا ، وأسبانيا ، وفرنسا فى عصر النهضة مع فارق واحد ، وهو أن الكنيسة الإيطالية ، التى كان لها نصيب كبير فى ثقافة ذلك الوقت ، وهبت العقل الإيطالى حرية فى التفكير ولدت فى جامعات العصور الوسطى ، وظلت باقية ، بشرط أن يكون مفهوما فهماً ضمنياً أن يسير الفلاسفة والعلماء فى بحوثهم دون أن يحاولوا القضاء على دين الجماهير .

ومن أجل هذا لم تشترك إيطاليا ولا فرنسا فى حركة الإصلاح الدينى ، بل انتقلنا من ثقافة القرن الثالث عشر الكاثوليكية إلى ثقافة القرنين الخامس عشر والسادس عشر « الإنسانية » ، ثم انتقلنا من هذه الثقافة الأخيرة إلى عصر الاستنارة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر . وكان هذا الاطراد المستمر مضافا إلى تجارة البحر المتوسط قبل كشوف كولمبس هى التى أكسبت الشعوب اللاتينية ميزة ثقافية موقتة على الأمم الشمالية التى اجتاحتها الحروب الدينية ، والتى كان لها فيها

من الآثار المدمرة أكثر مما كان فى البلاد اللاتينية . وتمتد أصول هذا الاطراد مجتازة العصور الوسطى إلى رومة القديمة ومجتازة جنوبى إيطاليا إلى بلاد اليونان القديمة . وكان تيار واحد عظيم من الثقافة يجرى خلال المستعمرات اليونانية فى صقلية ، وإيطاليا ، وفرنسا ، وخلال الفتح الرومانى لفرنسا وأسپانيا واصطباغهما بالصبغة اللاتينية مبتدئاً من سافو وأنكريون إلى ڤرچيل وهوراس ، وإلى دانتى وپترارك ، وإلى ربليه ومنتانى ، وإلى ڤلتير وأناتول فرانس . ونحن فى انتقالنا من عصر الإيمان إلى عصر النهضة إنما نتقدم من الطفولة المزعزعة غير الواثقة بنفسها إلى الشباب البهيج للثقافة التى قرنت ما كان عند الرومان واليونان الأقدمين من ظرف ورقة إلى ما كان عند البرابرة من قوة ؛ وهى ثقافة نقلت إلينا تراثاً متجدد الشباب موفور الغنى لحضارة من حقها علينا أن نعمل على الدوام لزيادتها وألا نتركها تموت .

شكراً لك مرة أخرى أيها القارئ الصديق

(انتهى المجلد الرابع ويليه المجلد الخامس فى حضارة عصر النهضة)

المراجع مفصلة

أسماء الكتب كاملة توجد فى المراجع المجملة فى الجزء الأول ، والأرقام الرومانية الصغيرة إلا إذا كانت فى بداية المراجع تدل على رقم المجلد ويتلوها رقم الصفحة ، أما الأرقام الرومانية الكبيرة فتدل على رقم « الكتاب » أو الجزء من النص ويتلوها رقم الفصل أو الآية فى القرآن أو الكتاب المقدس .

CHAP XXXIV

1. In Ogg, 145.
2. Vossler, K., *Medieval Culture*, I, 5.
3. Dante, *La Vita Nouva*, xxv.
4. Munro and Sellery, 330.
5. Cf. Pollock and Maitland, I, 57.
6. Mumford, L., *Technics and Civilization*, 438 ; Encyclopaedia Britannica, XXI 1009a.
7. *Lyra Graeca*. III, 676, app. by J. M. Edmonds.
8. Munro and Sellery, 232 ; Haskins. *Renaissanee*, 16 ; id., *Normans*, 236.
9. Haskins, *Renaissance*, 72.
10. Thorndike in *Sppeculum*, Apr. 1937, 268.
11. Haskins, *Renaissance*, 72.
12. Coulton, *Panorama*, 683.
13. Lea, *Inquisition in Middle Ages*, I, 654.
14. Lacroix, *Arts*, 472.
15. Walsh, *Thirteenth Century*, 156.
16. Coulton. *Medieval Scence*, 124 ; *Panorama*, 576 ; Haskins, *Renaissance*, 71.
17. Encyclopaedia Britannica, XIV,3.
18. Haskins, *Renaissance*, 43.
19. Calvert, *Moorish Remains in Spain*, 426.
20. Haskins, *Studies in Medieval Culture*, 100.
21. Bevna, *Legacy, of Israel*, 230.
22. Ibid., 211.
23. Sarton, II (I), 126.
24. Arnold, *Legacy of Islam*, 347.
25. Ibid., 244.
26. Wright, *Domestis Manners*, 271.
27. De Wulf. *Medieval Philosophy*, I, 61 ; West, *Alcuin*, 57.
28. John of Salisbury, *Metalogicus*, I, 24, in Poole, *Illustrations* 98.
29. Thorndike in *Speculum*, *Oct.* 1940, 401.
30. Walsh, *Thirteenth Century*, 28.
31. Thorndike, I.C. ; Rashdall, *Universities of Earope in the Middle Ages*, III, 350 ; Crump, *Legacy of the Middle Ages*, 262-3.
32. Abélard, *Historia. Calamitatum*, Introd. by R. A. Cram. p v.
33. Coulton, *Medival Village*, 254.
34. Jusserand, 279.
35. Coulton, *Panorama*, 388.
36. Thorndike, *Speculum*, Oct. 1940, 408.
37. Rashdall. *Universities*, III, 370.
38. Aristotle, *Politics*, viii, 1.
39. Crump, 266.
40. Rashpall, 1, 93.
41. Ibid., 113.
42. Lea, *Insquisition in the Middle Ages*, I, 69.

43. Walsh, *Thirteenth Century*, 38 ; Baedeker, K , *Northern Italy*, 471,
44. Rashdall, I. 149-67.
45. Ibid., 196.
46. 196-7.
47. Paetow, L.J., *Guide to the Study of Medieval History*, 448.
48 Haskins, *Renaissance*, 396,
49. Rashdall, I, 445.
50. Thorndike. *Magic*, II, 53.
51. *Cambridge Medieval History*, VI, 746.
52. Encyclopaedia Britannica, XI, 995
53. Rashdall, III, 29n.
54. Ibid., 33.
55. 199.
56. 246n ; Saiton, II (2), 584.
57. Davis, *Medieval England*, 398.
58. Encyclopadia Britannica, X, 9006b.
59. Ashley I, 203.
60. Munro and SellerX, 350; Walsh, *Thirteenth Century*, 65.
61. Waddell, *Wandening Scholars*, 171.
62. Walsh, 65.
63. Rashdall, IV, 325-36.
64. Ibid.
65. Coulton, *Social Life*, 95.
66. Rashdall, III, 386.
67. Ibid., 439.
68. 441.
69. 440.
70. 96n.
71, 431.
72. 432; Coulton, *Life*, III, 73.
73. Rashdall, III, 439.
74. Castiglione, 328.
75. Munro and Sellery, 350.
76. Rashdall, I, 466-70.

CHAPTER XXXV

1. V. Cousin in Abéiard. *Ouvrages inédits*, xcix.
2. Gilson, É , *La philosophie au moyen âge*, ed. 1947, 238.
3. De Wulf, *Medieval Philosophy*, I, 103.
4. Ibid., 46.
5. Thomas Aquinas. *Summaa Theologica*, I, i, 1.
6. Ueberweg. *History of Philosophy*, I, 386.
7. Abélard, *Historia Calamitatum*, ch. 6.
8. Rémusat, C. de, *Abélard*, I, 39.
9. Abélard, *Calamitatum*, ch. 5.
10. Gilson, *La Philosophia au moyen âge*, ed. 1922, I, 89.
11. Abélard, *Calamitatum* ch. 5.
12. Rémusat, I, 30n.
13. Abélard, ch. 16.
14. Rémusat, 1, 54.
15. Abélard, ch. 6. He does not say that he accompanied her.
16. Ibid., ch. 7 ; Lea, *Celibacy*, 269.
17. Abélard, ch. 7.
18. Ibid.
19. Poole, *Illustrations*, 125.
20 Abélard. *Dialectiea*, Introd. to Part IV. in *Ouvrag,s inèdits*.
21. Ibid.
22. In Rémueat. II, 534-5.
23. Ouvrages *inédits*, *p.* clxxxvii.
24. Abélard, *Sic et non*, in *Ouvrages*, p. 16,
25. De Wuls *Medieval Philosophy*, I, 201,
26. Abélard *Calamitatum*, ch. 9.
27. Rémusat, I, 77.
28. Abélard, *Calamitatum*, Ch. 9.
29. Ch. 11.

30. Rémusat, II, 197.
31. Ibid., 196; Gilson, *La Philosophie au moyen âge*, ed. 1947, p. 291.
32. Ueberweg, I, 387.
33. Rémusat, II, 203.
34. Ibid., 205.
35, Abérland, *Calamitatum*, ch. 12.
36. Ch. 13.
37. Ch. 15.
38. Ch. 14.
39. In Scott-Moncrieff, *Letters of Abélard* and *Bploïse*, 53-6.
40. Ibid., p. 82.
41. P. 103.
42. Butler, *Women* 68.
43. Prof. Paetow considered the "letters of Hélcïse . . . the vain imaginings of a very vain man"- *Speculum*, Apr. 1927, 227. Prof. Gilson concludes in favor of their general authenticity; cf. his *Héloïse et Abélard*, Paris, 1938, and *Speculum*. July 1939, 394.
44. Abélard, *Scito te ipsum*, xiii-xiv, in Rémusat, II, 466.
45. Abélard, Ep, xiii, *Cambridge Medieval History*, V, 798.
46. St. Bernard, Eps. 191 and 338, in Talor, *Medieval Mind*, I, 417, and II, 385; Adams, H., 313; Ueberweg, 396.
47. Raby, *Christian Latin Poetry*, 321.
48. Rèémusat, I, 260.

CHAPTER XXXVI

1. Duhem *Système du monde*, III 88.
2, De Wulf, *History of medieval philosophy*, I. 154.
3. Foole, *Illustrations*. 151.
4. Ibid., 185.
5. 108.
6. Thorndike, *Magic*, II, 58.
7. Ibid., 50.
8. Ibid., 58.
9. Poole, 158.
10. Taylor, *Medieval Mind*. II, 402.
11. In Poole, *Illustrations*, 164.
12. In Adnms. H , 292.
13. John of Salisbery, *Polycraticus*, v, 16; vi, 24; vii, 17.
14. V, 16.
15. IV, 8.
16. V, 6; vi, 6, 12, 25; iii, 15.
17. VIII, 20.
18. VII, 11.
19. Munro and Sellery, 460; Sarton, II (2) 860; De Wulf, *History of Medieval philosophy*, I, 248.
20. Ibid.
21. Robertson, J M., *History of Free Thought*, I, 325.
22. Lea, *Inquisition in Middle Ages* I, 99.
23. Coulton. *Five Centuries* I, 345.
24. Id.. *Medieval Scene*, 111.
25. De wulf, I, 189.
26. Lea, ed, II, 319.
27. Gilson. *La Philosophie au moyen âge*, ed. 1947, 384.
28. Rashdall, I, 354.
29. Lea, II, 320-3.
30. Renan. *Averroés*, 288.
31. Coultoh, *Panorama*, 449.
32. Rashdall, I, 264.
33. De Wulf, II, 97.
34. Hernshaw, *Medieval Contributions to Modern Civilization*, 145.
35. Lea. III, 440.
36, Castiglione, 330.

37. Coulton, *Panorama*, 461.
38. Gilson, *La Philosophie*, ed. 1947, 564.
39. De Wulf, II, 103.
40. In Gilson, ed. 1947, 564.
41. Ibid., 565.
42. 562.
43. 558; Renan, *Averroès*, 268.
44. Ibid., 273-5; Gilson, ed. 1947, 559.
45. *Cambridge Medieval History*, V, 822.
46. De Wulf, I, 144.
47. Id., *Philosophy and Civilization in the Middle Ages*, 51.
48. Gilson, *Philosophy of St. Bonaventure*, 8.
49. Sabatier, 41.
50. Sarton, II (2), 938; Taylor, *Medieval Mind*, II, 451.
51. Sarton, II (2), 938; Taylor, *Medieval, Mind*, II. 451.
52. Maritan, J., *The Angelic Doctor*, 32.
53. Ibid., 29.
54. 31; D'Arcy, *Thomas Aquinas*, 35.
55. Ibid., 51.
56. 46.
57. Grabmann, M., *Thomas Aquinas*, 32.
58. Wicksteed. P. H., *Dante and Aquinas*, 93; D'Arcy, 47.
59. Maritain, 45.
60. D'Arcy, 52.
61. De Wulf, *Philosophy and Civilization*, 186.
62. Maritain, 40.
63. Bevan, *Legacy of Israel*, 267.
64. Diesendruck, Z., *Maimonides and Thomas Aquinas*, 5.
65. Gilson, *La Philosophie*, ed. 1922, I, 114.
66. In Sarton, II (2), 915.
67. Thomas Aquinas, *De caelo et mundo*, lect.22, in Grabmann, 44.
68. Id., *Summa contra Gentiles*, i, 2.
69. Ibid.
70. Id., *Comm. on Aristotle's Metaphysics*, 833.
71. Id., *Summa Theologica*, I, xvi, 8.
72. I., *Summa Contra Gentiles*, i, 12.
73. Ibid., i, 3.
74. Id., *Summa Thiologica*, II IIae i, 5.
75. Ibid., II IIae, x, 7.
76. Id., *Quodlibeta*, II, *a*, 7, in Grabmann, 50.
77. Id., *Summa Theologica*, II IIae, i, 10.
78. Ibid., xxvi, 10.
79. Id., *De veritate*, ii, 10.
80. Id., *Summa contra Gentiles*, i, 11.
81. Id., *Summa Theologica*, I, ii, 3; *Summa Contra Gentiles*, i, 16.
82. Ibid., i, 3; i, 30.
83. Id., *Summa contra Gentiles*, ii, 38.
85. Ibid., 35.
86. Ibid., iii, 23.
87. Id., *Quodibeta*, xi 4.
88. Id., *Comm on II Sent.*, VIII, vi, 4, in Hopkins. C. E., *Share of Thomas Aquinas in ... the Witchcraft Delusion*, 78.
89. Thomas Aquinas, *Summa Theologica*, I, cxvit, 3.
90. Ibid., lcxv, 3; xcv, 5.
91. Ibid., 4.
62. Id., *Comm. on Aristotle's Metaphysics*, 146, 157.
93. Id., *Summa Theologica*, I, lxxvi, I.
94. In Walsh, *Thirteenth Century*, 444.
95. Thomas Aquinas, *Summa Theologica*, I, lxxv, 4.

96. Id., *Summe cantra Gentiles*, ii, 72.
97. D'Arcy, 147.
98. Thsmas Aquines, *Comm. on Aristotle's Metaphysics* 179.
99. Id., *Summa contra Gentiles*. ii, 49.
100. Id., *De auima*, iii, 7.
101. Id. *Summa Theolagica*, I, lxxviii, 1-4.
102. Ibid., I, v 6.
103. De Wulf, *History of Medieval Philosophy*, II, 25.
104. Thomas Aquinas, *De veritate*, xxiv, 1.
105. Id, *Summa coatra Gentiles*, i,
106. Id., *Summa Theologica*, I, lxxvi, 1.
107. Idid , IIae, iv, 6.
108. Id., *De veritate*, ii, 2.
109. Id., *Summa contra Gentiles*, iii, 27-31.
110. Id., *Summa Theologica*, II IIae, xiv, 3 ; xxvii, 1 ; xxxi, 4.
111. Id., *Comm. on Aristotle's Meto physics* 207 ; *Summa Theologica*, I, xcii, 1; xcix, 2; cxv, 2,
112. Ibid.
113. Ibid., I, xcii, 3.
114. Ibid., I, v, 3.
115. Ibid., II IIae, x, 11.
116. Ibid., II IIae, civ. 1 ; I IIae. xix, 5 ; *De veritate*, xvii, 5 ; *on IV Sent*, 38.
117. Id., *Summa Theologica*, II IIae x, 11.
118. Ibid. 10.
119. Ibid., 11,
120. Ibid., 8.
121. Ibid,
122. Ibid., II IIae, xi, 4.
123, Ibid., I IIae, xcvii, 3.
124. Ibid., I, clii 3.
125. Ibid., I IIae, cv, 1; cvii, 1.
126. Id., *De regimine principum*, i, 6.
127. Id., *Suma Theologica*, II IIae, lxvi, 2.
128. Ibid.
129. Ibid., II IIae, cxviii, 1.
130. Ibid., II IIae, lxvi, 7.
131. Ibid., II IIae, lxxvii, 4.
132. Ibid., II IIae, lxxviii, 1-4.
133. Ibid., I IIae, xcii, 1 ; cv, 1 ; II IIae, lvii, 3 ; lxx, 3.
134. Ibid. I IIae, vii, If ; *Comm on II Sent.*, xliv ; *Snmma coptra Gentiles*. iv. 76 ; Hearnshaw, *Social and Political Ideas* 103.
135. Thomas Aquinas, *Summa Theologica*, I, vxiii, 5.
136. Ibid., I. xviii, 1, 3 ; *Summa contra Gentiles*, iii, 163, quoting Paul, Ephesians, I, 4.
137. Wicksteed, 266.
138. Gilson, *Bonaventure*. 7.
139. Thomas Aquinas, *Summa Theologica*, I, xii, 1, 7-8.
140. Ibid., II IIae., clxxix-clxxvii.
141. Sarton. II (2), 916.
142. Tnomas Aquinas, *Summa contra Gentiles*, i, 1.
143. Sarten. II (2). 906.
144. Gilson, *Reason and Revelation* 30.
145. Id. *La philosophie*, ed. 1947. 606.
146. De Wulf, *Medieval Philosophy* II, 85,
147. Ibid., 84 ; Gilson, 603.
148. Quoted in Mill, J. S., *System of Logic*, pret.
149. Waddell, *Wanaering Scholars*, 113.
150. Gilson, *La philosophie*, ed 1922, I, 154.

CHAPTER XXXVII

1. James, *Women*, 120.
2. Thorndike, *Magic*, II, 8.
3, Ibid., 814.
4. Coulton. *Panorama*, 105,

5. Coulton *Five Centuries*. I, 251:
6. Himes, 1 J1.
7. Coulton, *Panorama*, 106.
8. Kantorowicz., 354.
9. Thorndike, *Magic*, II, 169.
10. Coulton, *Life*, I, 88.
11. Id., *Panoroma*, 115.
12. Milman, I, 542.
13. Lea, *inquisition in Middle Ages*, III, 424.
14. Hastinge, *Encyclopedia of Religion and Ethres*, III, 42 la.
15. Pauphilet, A., *Jeux et sapience du moyen âge*, 317 n.
16. Coulton, *Social Life*, 526.
17. Singer, Chas., *Studies in the History and Method af Science*, I, 165.
18. Castiglione, 385.
19. Thorndike, *Mogic*, 'II, 167.
20. Lacroix, *Science and Litterature*, 208.
21. Thorndike, II' 319.
22. Ibid., 328.
23. 689. 949.
24. Sarton II (2), 1082.
25. Walsh, *The Popes and Science*, 52.
26. Sarton, II (2), 1082.
27. Cf. text in Walsh, *Popes*, app.
28. Ibid, 31, 43.
29. Pliny, *Natural History*, xxxvi, 26, 67.
30. Thorndike, II, 237.
31. Sarton. II (2), 611.
32. Thorndike, II' 449.
33. Sarton, II (2), 617.
34. Singer, *Studies*, II' 105.
35. Ibid., I, 18.
36. Thorndike, I, 775.
37. Addison, *Arts*. 78.
38. Giraldus Cambrensis, *Itinerary*, 6
39. Augustine, *City of God*, xvi, 9.
40. Sarton, I, 516.
41. Joinville, 258.
42. Raby, *Chiristian Latih Portey*, 356.
43. Sarton II (2), 575.
44. Kantorowicz. 360.
45. Mumford, 22.
46. Sarton. II (1), 21.
47. *Speculum*, Apr. 1941, 242.
48. Sarton. II (2), 1024.
49. Ibid.; Singer, II, 398.
50. Arnold, *Legacy* of *Islam*, 97.
51. Kantorowicz 354.
52. Sarton. II (2), 1030.
53. Willoughby, W., *Social Jusice.*, 14.
54. Sarton, II (2), 1041.
55. Ibid., 1098.
56. 1037.
57. 1038.9.
58. Thorndike, 1, 740.
59. Garrison, 148.
60. Sarton. ii (1), 81. 242.
61. Garrison, 175.
62. Ibid., 181.
63. Castiglione, 381:
64. Bartholomaeus Anglibus, xiv, 4. in Coulton, *Social Life*, 502.
65. Castiglione, 384.
66. Kantorowicz, 356,
67. Lacroix, *Science*, 149.
68. Thorndike in *Speculum*, Apr. 1928, 194; Neuman, *Jews in Spain*, II, 110.
69. Garrison, 170.
70. Lea, *Inquisition in Middle Ages*, III, 52.
71. Ibid., 52-7.
72. Carrison, 144, 172.
73. Lacroix, *Science*, 154'

74. Garrison, 144.
75. Coulton, *Panorama*, 448.
76. Sarton, II (I), 72.
77. In Castiglione, 337.
78. Carrison, 153.
79. Castiglione. 388.
80. Walsh *Thirteenth Century*, 345.
81. Sarton, II (I), 84.
82. Joyce, *Ireland*, 151.
83. Garrison, 186.
84. *Speculum*, Jan. 1937, 19.
85. Munro and Sellery, 266.
86. In Coulton, *Panorama*, 304.
87. Jackson, *Byzantine and Romanesque Architecture* I, 142; Barne, *Economic History*, 165.
88. Thorndike, II, 28f.
89. Ibid., 25.
90. 538.
91. Ibid.
92. 526, 566, 568, 583.
93. Walsh, *Thirteenth Century*, 48.
94. Albertus Magnus, *De animalibus*, iv, 3, in Sarton, II (2), 938.
95. Sarton, II (I), 72.
96. Bacon *Opus tertium*, ch. 17.
97. Id , *Opus Maius*, I. xi
98. Bridges, J. H., *Life and work of Roger Bacon*, 125.
99. Bacon, *Opus tertium* Brewer ed., p. 28.
100. Id., *Opus matus*, i, 10.
101. In Little. A. G., *Rogee Bacon Essays*. 10.
102. *Opus Mais*, i, 1.
103. *Compendium studii philosophiae*, ed. Brewer, p. 469.
104. *Opus maius*, ii, 12.
105. Ibid.
106. VII, 1.
107. Little, 117; Sarton, II (2), 805, 961.
108. *Opus tertium*, ch. 29.
109. *Opus maius*, iv, 16.
110. Ibid., iv, 4; *De Coelestibus*, in Little 16.
111. *Opus maius*, vi, 1.
112. Throndike, II, 650.
113. *Opus manus*, iv, 4.
114. Brioges, 36; Little, 180.
115. Sloane MS., folio 83b, 1-2, in
116. *De secreits operibus artis et naturae*, ch. iv, in Little, 178.
117. Little 321; En. Br., XI, 3.
118. In bridges, 93.
119. *Opus maius*. v. 4.
120. *De secreits operibus*, in Singer, II, 397.
121. Singer, II, 132.
122. *Opus maius*, vii, *at in'tium*.
123. Bridges, 387.
124. Ibid., 127.
125. 52.
126. De Wulf, *Med. Philosophy*, II, 139.
127. *Opus maius*. ii, 5.
128. *Combendium Philosophiae*, in Coulton, *Life*, II, 55f.
129. *Opus tertium*, in Taylor' *Medieval Mind*, II, 523.
130. Ibid in Coulton, *Five Centuries*, I, 135.
131. Taylor, II, 530.
132. Little, 26.
133. Ibid.
134. 28.
135. Taylor , II, 347.
136. Thorndike, II, 196.
137. Ibid., 203.

CHAPTER XXXVIII

1. Cf. Saxo Grammaticus, 89.
2. Joinville, 140.
3. Iacopo de Voragine *Golden Legend*. pp. 48-56.
4. Mâle, 320.

5. Raby, *Secular Latin Poetry*, II, 289.
6. Haskins, *Renaissance*, 177.
7. Waddell, *Wandering Scholars*, 188.
9. Tr. by Helen Waddell in *Medieval Latin Lyrics*, 171.
10. In Van Doren, M., *Anthology of World Poetry*, 454.
11. In Waddell, op. cit., 278.
12. Bieber, M., *History of the Greek and Roman Theater*, 423.
13. Chambers, *Medieval Stage, II*, 44; Mathews, B., *Development of the Drama*, 115.
14. Mantzius, *History of Theatrical Art*, II, 5.
15. Matthews, 114.
16. Symonds, J. A., *Studies of the Greek Poets*, 310.
17. Raby, *Christian Latin Poetry*, 219.
18. Mantzius, II, 1 of.
19. Thomas Aquinas, *Summa Theologica*, II IIae, clxviii, 3.
20. *Chanson de Roland*, II. 1989-2009.
21. Sturluson, *Prose Edda*, # 72, in Sigfusson.
22. Dasent, G. *Story of Burnt Njal*, 237-58.
23. In Butler, *Women*, 101.
24. *Cambridge Medieval History*, III, 128.
25. Cf. an excellent fictionalized biography of Piere Vidal in Cronyon, G., *The Fool of Venus*.
26. Arnold, *Legacy of Islam*, 17.
27. Lecky, *Morals*, II, 232.
28. *Speculum*, Oct. 1938, 380-7.
29. Tr. by Ezra Pound in Van Doren, 660.
30. Rerse, *Medieval Music*, 232.
31. Fiedler, *Das Oxforder Buch Deutscher Dichtung*, 5.
32. Walther von der Vogelweide, *I saw the World*, 41.
33. In Taylor, *Medievol Mind*, II, 56.
34. *Songs and Sayings*, 33.
35. Walther von der Vogelweide, *I saw the World*, 16.
36. Taylor, II, 62.
37. Walther von der Vogelweide, *I saw the World*, 69.
38. Walther von der Vogelweide, *Songs and Sayings*, 22.
39. Taylor, II, 58.
40. Prestage, *Chivalry*, 100: Coulton, *Life*, III. 77: Francke, *German Literature*, 111.
41. Kroeger, A E., *The Minnesigger of Germany*, 4.
42. Schoenfeld. *Women of the Teutonic Nations*, 162.
43. Tr. by Arthur O'Shaughnessy in Van Doren, 663.
44. Chrétien de Troyes, *Arthurian Romances*, I.
45. Ibid., 318, 309.
46. 287.
47. Wolfram von Eschenbach, *Parzival*, I, 67.
48. In Taylor, II, 8.
49. Wolfram, I 188 ; vi, 937.
50. *Aucassin et Nicolette*, 6.
51. Ibid., 12. French text in Pauphilet, 444.
52. *Aucassin*, 13.
53. William of Lorris and Jean Clopinel deMeung, *Romance of the Rose*, II. 8767f. 8858.
54, Lines 8511f.
55. 7849.
56. 1685.
57. 9267,70 9725-47.

CHAPTER XXXIX

1. Tr. by D. G. Rossetti.

2. Asin y Palacios, *Islam and the Divine Comedy*. 271 f,
3. Dante, *Porgatorio*, xxxi, 91f.
4. Sedwick, *Italy* II, 277.
5. *Tr*, by D G. Rossctti.
6. Vossler, II, 152.
7. In Ledgwick. II. 291.
8. Cf. *Purgatorio*. xxx, 55.
9. Sedgwick II, 283.
10. Vossler, 1, 323.
11. Dante. *Inferno*, xv, 85.
12. Vossler, I, 164.
13. Dante, *La Vita Nuova*, ii, tr. Rossetti.
14. Ibid., iii.
15. xix.
16. xxvi.
17. xxxii.
18. *Paradiso*, xxx, 28.
19. Id., *Purgntorio*, xxxi, 60.
20. Symonds *Dante*, 55.
21. Dante, *De Monarchia*, iii, 11.
22. Ibid., 16.
23. *De Monarchia*, pref., xxxiii.
24. Dante, *Elveu Letters*, vi.
25. Ep. vii.
26. Symonds, *Dante*, 79.
27. Ep. x.
28. Symonds, *Daute*, 92.
29. Litter to the Italian Cardenals, (1314).
30. Dante, *Il Convito*, x, 5.
31. Ibid., vii, 4.
32. The authenticity of this letter has been unconvincingly questioned by Vossler, I, 76.
33. Dante, *Eleveu Letters*, p. 197.
34. In Coulton, *Panorama*, 208.
35. Dante, *Poradiso*, eud.
36. Ibid., x. 1371.
37. Cf. Blachet. *Sources orientales de la Divine Comédie* Paris, 1901. and Asin y Palacios *La escatologia musulmana en la Divina Comedia*, Madrid, 1919, translated as *Islam and the Divina Comedy*.
38. Asin y Palacios. 55-61.
39. Ibid., 171-3, 276-7.
40. Ibid., 232.
41. Rowbotham, 130.
42. Dante, *Interno*, i, 1-3.
43. Ibid., i, 86.
44. Ibid., iii. 1-9.
45. Ibid., iii, 50.
46. Idid., iv, 131-43.
47. Ibid, v, 121-42 ; tr. Cary.
48. Ibid., xix, 53.
49. Ibid., xxviii, 22-42 ; tr. Cary.
50. Id., *Pargatorio*, v, 13.
51. Ibid., vi, 76-93.
52. Ibid., xxvi. 112.
53. Ibid., xxvii, end.
54. Ibid., xxx, 37-9.
55. Ibid, xxxi, 49-51.
56. Ibid., end.
57. Id., *Paradiso*, iit, 85.
58. Ibid., xxvii, 22-8.
59. Id , *Inferno*, xviii, 57-63.
60. Id., *Paradiso*, ix, 127.
61. Id., *Inferno*, xxiv, 125.
62. Ibid., xxxiii, 152.
63. Ibid., xxxiii, 80-4.
64. Ibid., xxxiii, 148.

EPILOGUE

1. Coulton, *Medieval Village*, 290.

قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

عصر الإيمان

ترجمة
محمد بدران

الجزء السادس من المجلد الرابع

١٧



تونس



بيروت

دار الجيل : ص.ب ٨٧٣٧ ـ ت: ٢٦٦١٥٨ ـ ٢٦٠٤٦٥ ـ تلكس: ٢٣٤٣٠
العنوان البرقي: دارجيلاب ـ بيروت ـ لبنان

فهرس الصور

الفهـــرس

الموضوع | الصفحة

الباب السابع والثلاثون : العلوم المسيحية

الباب الثامن والثلاثون : عصر الخيال

الباب التاسع والثلاثون : دانتى